دراسات في فقه اللغة

تأليف

محمد الأنطاكي

دار الشرق العربي

بيروت - شارع سورية - بناية درويش

دراسات في فقه اللغة

تأليف
محمد الانطاكي

الطبعة الرابعة
مزيدة و منقحة

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد، فلعل بيان الغاية من تأليف كل كتاب، يكون فيه الجواب عن كثير مما قد يثار من الأسئلة حول منهجه وموضوعاته، لهذا أسارع إلى القول:

كانت الغاية من تأليف هذا الكتاب أن يكون نافذة ضيقة يطل منها طلبة الدراسات العربية في الجامعات على أهم الجوانب لنشاط جديد في الدراسات اللغوية يدعى **فقه اللغة**.

ولما كان هذا العلم جديداً عليهم، وكانت أكثر مباحثه تختلط بما عرفوه من المباحث النحوية والصرفية ـــ وهو أمر كثيراً ما أوقعهم في الحيرة والتساؤل عن كنه هذا العلم وحدوده وموضوعه ـــ ولما كانت الغاية من دراستهم له أن يفهموا، عن طريقه، عربيتهم غير الفهم النحوي الصرفي القديم، حرصنا على الأمور الآتية:

١ـــ أن نعرف الطلبة بهذا العلم وتاريخه وفروعه.
٢ـــ أن نحدد ميادينه ونبين مناهجه حتى لا يختلط، في أذهانهم، بغيره من أنواع الدراسات اللغوية الأخرى.
٣ـــ أن نتوسع في كل ما له صلة وثيقة بالعربية، أو ما يعالج خصيصة من خصائصها.

وأعتقد، بعد هذا، أنه سيكون واضحاً للقارىء سبب إيجازنا في بعض

الأبواب والفصول، وإسهابنا في بعضها الآخر، وإثباتنا لبعض موضوعات هذا العلم، وإغفالنا ما سواها.

فإن كنا قد بلغنا الغاية التي رجونا، فهذا بفضل الله ومنّه، وإن كانت الأخرى، فعذرنا أننا حاولنا ونحن مخلصون.

والحمد لله أولاً وآخراً.

حلب أول رجب ١٣٨٩

١٢ أيلول ١٩٦٩

محمد الانطاكي

الباب الأول

فقه اللغة

أفِقْهٌ أمْ عِلْمٌ؟

تسلك المباحث اللغوية عند الغربيين تحت أسماء متعددة، فنجدها مرة تحت اسم «Philologie» وأخرى تحت اسم «Linguistique»، وثالثة تحت اسم «Grammaire». فما حكاية هذه الأسماء، وما مضامينها؟.

أما «الغرامير» فهي كلمة أخذها الغربيون عن الاغريق الذين كانوا يسمون النحو بالغراماطيقا «Grammatiké»، أي فن أو علم استخدام الحروف «Grammata» [1]. ويطلقها الغربيون اليوم على كثير من المباحث اللغوية، لاسيما الوصفية والتاريخية والمقارنة والعامة.

وأما «اللانغويستيك» فهي كلمة تؤرخ أغلب الكتب ظهورها لأول مرة بعام ١٨٣٣، وإن كان بعضهم يؤكد أنها استعملت قبل ذلك بمدة، وأنها ذكرت في بعض الكتب عام ١٨٢٦ [2]. ومهما يكن فإن الكلمة تطلق اليوم على العلم الذي يجعل من اللغة موضوعاً للدراسة، من حيث الأصوات والمفردات والتراكيب وما يعتري اللغة من انحطاط ورقي، وأسباب ذلك وعلله، وما إلى ذلك مما سيأتي تفصيله بعد قليل.

وأما «الفيلولوجيا» فهي كلمة مركبة من لفظين أغريقيين: أحدهما Philos بمعنى الصديق، والثاني Logos بمعنى الخطبة أو الكلام، ومدلول هذه الكلمة قد اختلف كثيراً باختلاف العصور وباختلاف الأمم، ولا يزال العلماء يختلفون في فهمها وإطلاقها:

فأحياناً تطلق ويراد بها ما يشمل معظم بحوث اللنغويستيك، ويكاد يتعين

---

(١) Perrot: La linguistique, pp. 13-14.

(٢) Ibid. p. 14.

هذا المعنى إذا وصفت بما يدل على عموم بحوثها فقيل مثلاً: «فيلولوجيا مقارنة Philologie compareé» .

«وأحياناً تطلق و يراد بها دراسة لغة أو لغات من حيث قواعدها وتاريخ أدبها ونقد نصوصها. وكانت إذا اطلقت في عصر إحياء العلوم لا تنصرف إلا إلى دراسة اللغتين الاغريقية واللاتينية دراسة قواعد وأدب، ولكنها الآن لا تفيد هذا المعنى إلا إذا قيدت فقيل «فيلولوجيا كلاسيكية» «Philologie classique» .

«وأحياناً تطلق و يراد بها دراسة الحياة العقلية ومنتجاتها على العموم في أمة ما أو في طائفة من الأمم» .

«وهي بمعنييها الأخيرين ترادف ما نسميه أدب اللغة وتاريخ أدبها» [١]

و بعد. فهل تعني هذه الأسماء شيئاً واحداً، أم تعني أشياء متعددة؟ وإذا كانت بينها فروق فما هي؟ .

الواقع أن لا خلاف بين الغرامير واللانغو يستيك سوى أن الأول أخص والثاني أعم. بل أن بعض العلماء يحرص على الاسمين و يستخدمها معاً [٢]. أما الفيلولوجيا فبينها و بين اللانغو يستيك فروق دقيقة يعسر في كثير من الأحيان تبينها، «وجل مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء» [٣]. وهذا التداخل سمح باطلاق كل من الاسمين على مباحث الاسم الآخر «ولا سيما في التعليم، وإن كان العلماء يميلون ــ بحق ــ إلى تخصيص تسمية الفيلولوجيا بدراسة النصوص، وتسمية اللانغو يستيك بدراسة اللغة والالسن» [٤].

ولعل خير من حدد معنى الفيلولوجيا وميزها عن اللانغو يستيك ماروزو في كتابه «عمل اللغة» حيث يقول [٥]:

---

(١) الوافي: علم اللغة، ص ١٢ مع شيء يسير من التصرف.

(٢) انظر على سبيل المثال عناو ين كتاب ماروزو La linguistique.

(٣) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة ص ١٩.

(٤) Perrot: La linguistique, pp. 13-15.

(٥) pp. 104-105.

«إن الصعوبة الأساسية التي يلقاها اللغوي في أبحاثه هي أن اللغة، وهي موضوع دراسته، تند في أكثر الأحيان عن الملاحظة المباشرة: فاللسان الحاضر، في اللحظة الحاضرة، شيء زهيد بالنسبة إليه، فإذا رغب في معرفة شيء عن الماضي لم يجد أمامه غير وثائق قد شوهتها الكتابة والأدب [١]. وقبل أن يستخدم هذه الوثائق عليه أن يستوثق من قيمتها، عليه أن ينقدها ويحدد قيمة شهادتها. وهكذا، فإن دراسة النصوص هي على وجه التدقيق موضوع الفيلولوجيا. ولما كانت دراسة النصوص غير ممكنة بغير دراسة الرجال، ودراسة الأفكار، والعادات، والتاريخ، والفن، والحضارة، فقد يحدث أن يسمى عالم ما فيلولوجياً بالمعنى الواسع للكلمة، إذا باشر في جانب من الجوانب علم الآثريات».

هذا هو الشأن عند أهل الغرب، أما عندنا فالفوضى لا تزال تضرب أطنابها، والعلماء لا يزالون يختلفون في أمر التسمية الصالحة للمباحث اللغوية التي يسميها الغربيون باللانغويستيك: فجرجي زيدان أطلق عليها اسم «الفلسفة اللغوية» [٢] وعيب هذه التسمية أنها تلصق بالفلسفة مباحث قد تخلصت نهائياً من أوهام الفلسفة، واتخذت مناهج العلم الحديث وأساليبه. أما الأب مرمرجي الدومينيكي فيطلق عليها اسم «الألسنية» [٣]. ويسميها عبد الرحمن الحاج صالح باللسانيات [٤]. لكن أشهر التسميات وأكثرها شيوعاً اثنتان: علم اللغة، وفقه اللغة. ولكل منهما متعصبون لا يرضون عن تسميتهم بديلاً:

فأما أصحاب «علم اللغة» فابرزهم محمود السعران [٥]. وحجة هؤلاء أن اللانغويستيك تحدد في الكتب الغربية بأنها: علم اللغة، بل إن بعضها قد عنون بهذه العبارة: La linguistique ou science du langage [٦]، أي اللانغويستيك أو

---

(١) من رأي ماروزو أن الأدب عامل مهم في إعاقة الكلمات عن أن تأخذ مجراها الطبيعي في التطور. انظر رأيه هذا في الكتاب نفسه ص 67. وانظر أيضاً ص 7 فيما يتعلق بالكتابة وعدم أمانتها في تصوير النطق.

(٢) انظر كتابه: الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية.

(٣) انظر كتابه: المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية.

(٤) وذلك في محاضرة له بعنوان «اللسانيات» ألقاها في جامعة حلب سنة ١٩٦٩.

(٥) انظر كتابه: علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي.

(٦) ذلك هو عنوان كتاب ماروزو.

علم اللغة، و يرفضون اسم فقه اللغة لأنه اطلق في القديم والحديث على مباحث ليست من علم اللغة الحديث في شيء[١].

وأما أصحاب «فقه اللغة» فيرون أن تسميتهم أصلح، لأنها التسمية التي شاعت «عند العرب حين ألّفوا في هذه الموضوعات. ولأن كل علم لشيء فهو فقه، فما أجدر هذه الدراسات جميعاً أن تسمى فقهاً»[٢].

وهناك باحثون آخرون لا يجدون فرقاً بين التسميتين، منهم محمد المبارك[٣]، وعلي عبد الواحد وافي الذي ألف كتابين سمى أولهما (علم اللغة)، والآخر (فقه اللغة)، وخصص الأول بدراسة اللغة عامة، والثاني بدراسة اللسان العربي وحده.

أما نحن فقد آثرنا المصطلح «فقه اللغة» جرياً مع مناهج الجامعات السورية.

وقد نجد بعض الباحثين يفضل أن يقابل المصطلح الأجنبي «Linguistique» بالمصطلح العربي «علم اللغة»، والمصطلح الأجنبي «Philologie» بالمصطلح العربي «فقه اللغة». وإذا كانت هذه المقابلة صحيحة بين المصطلحين الأولين، فإنها ليست كذلك بالنسبة للمصطلحين الآخرين، لأن «الفيلولوجي» قد أطلقها الغربيون ــ كما صرح بذلك ماروزو ــ على نمط من الدراسة عالجت مشكلات لم يعرفها تاريخ البحث اللغوي عند العرب.

وهكذا، يمكننا أن ننتهي إلى النتيجة الآتية:

١ــ فقه اللغة أو علم اللغة، هو: العلم الذي يجعل من اللغة موضوعاً له، فيدرسها في ذاتها، ولذاتها.
٢ــ إن «فقه اللغة» أو «علم اللغة» هو المقابل للمصطلح الغربي «La linguistique».
٣ــ غاية فقه اللغة هي الكشف عن القوانين التي تحكم الظواهر اللغوية.

---

(١) انظر السعران: علم اللغة ص ٢٢.
(٢) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة ص ٢٠.
(٣) انظر كتابه: فقه اللغة وخصائص العربية ص ٣٩.

٤ــ إن «الفيلولوجيا» هي غير «اللانغويستيك» أو «فقه اللغة» لأنها تعالج مشكلات تتصل باللسانين الاغريقي واللاتيني مما لا وجود له في تاريخ الدراسات اللغوية عندنا.

فرُوع فِقه اللغة

لما كانت اللغة تتألف من عناصر عديدة، ولما كانت طرق تناول كل عنصر منها مختلفة، ولما كانت أغراض الدراسة متنوعة، انقسم فقه اللغة أقساماً كثيرة، نما بعضها وازدهر حتى استقل، أو كاد، بنفسه.

وإليك الكلام على كل قسم:

١ ــ الفوناتيك La Phonétique

ويسميه المحدثون من العرب باسم علم الأصوات اللغوية، كما سماه القدماء بأسماء مختلفة أشهرها اسم علم التجويد.

وهو علم لا يتناول من اللغة إلا عنصر الصوت فقط، فيحدد مخارج الأصوات، وصفاتها، والطرق المختلفة في إحداثها، ويصنفها، ويدرس ما يتصل بها من أعضاء النطق، وأثر بعضها في بعض، وما يعرض لها من تبدلات خلال الزمان، وسبب ذلك وعلله، وما إلى هذا من مباحث سيرد تفصيلها في مكان آخر من الكتاب.

ويتفرع هذا العلم إلى فروع عديدة:

أ ــ فإذا أقبل باحث على لسان ما في فترة معينة من الزمان، فوصف ما في هذا اللسان من الحقائق الصوتية على ما بيناه آنفاً، وكان غرضه الوقوف على هذه الحقائق فقط، اندرج عمله تحت ما يسمى «بعلم الأصوات الوصفي» La Phonétique descriptive.

ب ــ وإذا أقبل باحث على لسان ما فتتبع أصواته خلال فترة طويلة من الزمان، وكان غرضه الوقوف على ما أصاب هذه الأصوات من تطور

وتبدل، والكشف عن القوانين التي خضعت لها في تطورها، اندرج عمله تحت ما يسمى «بعلم الأصوات التاريخي» La Phonétique Historique.

جـ ـ وإذا أقبل باحث على لسانين أو أكثر فدرس أصواتهما، وكان غرضه الوقوف على ما بين اللسانين من وجوه الشبه والاتفاق في الأصوات، والكشف عما بينهما من صلات القربى الصوتية، اندرج عمله تحت ما يسمى «بعلم الأصوات المقارن» La Phonétique comparée.

د ـ وإذا أقبل الباحث على الألسنة جميعاً فدرس أصواتها، وكان غرضه من الدراسة الوقوف على حقائق الأصوات اللغوية، والكشف عن القوانين العامة التي تتحكم في تطورها، اندرج عمله تحت ما يسمى «بعلم الأصوات العام» La Phonétique générale.

٢ ـ الفونولوجيا La Phonologie

هذا العلم حديث نسبياً، لم يظهر إلا منذ بضعة عقود، وهو مثل الفوناتيك لا يتناول من عناصر اللغة إلا الصوت وحده. والفرق بينه وبين قسيمه الفوناتيك هو أن الفوناتيك يدرس الأصوات في ذاتها ولذاتها دون الاهتمام بالوظائف التي تقوم بها هذه الأصوات في اللغة، على حين أن الفونولوجيا يصب جل اهتمامه على وظيفة الصوت في اللغة، وكل عنصر صوتي لا وظيفة له في التعبير فهو خارج نطاق اهتمام هذا العلم. ولبيان ذلك لا بأس من ضرب الأمثلة: إذا عرضنا على علم الفوناتيك الكلمات العربية (انفتل ـ انتبذ ـ انجزم ـ انقلب)، وطلبنا منه أن يدرس لنا صوت النون فيها، فإنه يقرر بعد الفحص أن في اللسان العربي أربعة أنواع من النون. أولها مخرجه الشفة مع الأسنان العليا، وثانيها مخرجه باطن الأسنان، وثالثها مخرجه الشجر في الفم، ورابعها مخرجه اللهاة. أما إذا عرضنا الكلمات السالفة على علم الفونولوجيا فإنه يسألنا: هل لاختلاف مخرج النون في اللسان العربي وظيفة تعبيرية؟ وبعبارة أوضح: إن نون (انفتل) شفوية، ولو قسرنا أفواهنا على نطقها لهوية، فهل يتغير معنى كلمة (انفتل)؟ فإذا قلنا له: لا، قرر أن اللسان العربي لا يشتمل إلا على نون واحدة.

وهكذا يمضي علم الفونولوجيا متتبعاً وظائف الأصوات في اللغة، كاشفاً عن التقابلات التي يقيمها كل انسان بين أصواته. كالتقابل الذي تقيمه العربية بين الحركة القصيرة والحركة الطويلة كما في (عَم ــ عام، عُد ــ عود، عِد ــ عيد). وكالتقابل الذي تقيمه العربية بين الترقيق والتفخيم كما في (سال ــ صال، ثلم ــ ظلم، ترب ــ طرب، درب ــ ضرب). وكالتقابل الذي تقيمه بعض الألسن بين الإمالة الحادة والإمالة المنفرجة.. الخ.

هذا، ومباحث الفوناتيك الفونولوجيا شديدة التداخل بحيث يعسر في بعض الأحيان فصلها وتمييز بعضها من بعض، ولا يزال بعض العلماء يرفض هذا التفريع الجديد ويدرج مباحث الفونولوجيا تحت اسم الفوناتيك.

ويتفرع علم الفونولوجيا إلى الفروع الأربعة التي تفرع إليها علم الفوناتيك، فمنه الفونولوجيا الوصفية، والفونولوجيا التاريخية، والفونولوجيا المقارنة، والفونولوجيا العامة.

٣ ــ اللكسيكوغرافيا Lexicographie

ويسميه العلماء عندنا بأسماء متعددة، فهو مرة متن اللغة، وهو أخرى المعجمية، وهو ثالثةً علم المفردات.. الخ.

وينصب اهتمام هذا العلم على الكلمات فقط، فيحدد معنى «الكلمة»، ويسعى إلى تصنيف الكلمات في فصائل (الفعل ــ الاسم ــ الظرف ــ الصفة.. الخ)، ويبحث عن العلاقة بين الفكرة والكلمة، وما إلى ذلك مما سيأتي تفصيله في حينه.

ومن الباحثين من يفضل تخصيص «اللكسيكوغرافيا» بفن تأليف المعاجم، أما العلم الذي يتناول المفردات بالدراسة فيسميه «اللكسيكولوجيا» Lexicologie.

ويتفرع عن هذا العلم فرعان: أحدهما لا يهتم إلا بشكل الكلمة وصيغتها، ويسمى علم المورفولوجيا، والآخر لا يهتم إلا بمعناها، ويسمى علم السيمانتيك.

٤ ــ المورفولوجيا Morphologie

ويسميه بعضهم بالصرف، وذلك لأن أغلب المباحث الصرفية عندنا تدخل في نطاق هذا العلم، كما يسميه آخرون بعلم الصيغة أو البنية، وذلك لأن اهتمام هذا العلم لا ينصب إلا على صيغة الكلمة وبنيتها.

ويعالج هذا العلم شكل الكلمة في حالتي السكون والتصرف: ففي الحالة السكونية ينظر أهي مجردة أم مزيدة؟ وإذا كانت مزيدة فما هي حروف الزيادة؟ وهل هذه الكلمة جامدة أم مشتقة؟ وإذا كانت مشتقة فممَّ؟.. الخ. وأما في حالة التصرف فيدرس ما يطرأ عليها من تغيرات. فإن كانت من نوع (الاسم) درس ما يطرأ عليها من تغيرات عند تثنيتها وجمعها وتذكيرها وتأنيثها... الخ (معلم ــ معلمات ــ معلمون ــ معلمة ــ معلمتان ــ معلمات)، وإن كانت من نوع (الفعل) درس ما يطرأ عليها من تغيرات في حالة تصريفها مع الضمائر والأزمنة (وعد ــ يعد ــ عد ــ وعدت ــ وعدتما... الخ).

فإذا درس هذا العلم شكل الكلمة في حالة سكونها وبحث عناصر بنائها سمي بعلم الصيغة البنائي «Morphologie structurale»، وإذا درس شكلها في حالة تصرفها في الكلام سمي بعلم الصيغة التصريفي «Morphologie flexionnelle»

ومن ابرز مباحث المورفولوجيا مبحث الطرق التي تخلق بها اللغة صيغاً جديدة فيها «Procédès de formation»، فعندما يجمع أحدنا كلمة (مدير) على (مدراء) قائساً إياها على (علم ــ علماء) يكون قد أوجد في العربية صيغة جمع لـ(مدير) لم تكن فيها. وتسمى هذه الطريقة في خلق الصيغ الجديدة بالقياس «Analogie»: وعندما يقول أحدنا: (لم يعد البرد شديداً) فإنه يفرغ فعل (عاد) من معناه المعروف له في العربية ويحوله إلى فعل ناقص، أي إلى أداة نحوية، ويكون بذلك قد خلق أداة نحوية جديدة. وهذه طريقة أخرى تسمى بطريقة التقعيد «Grammaticalisation».

هذا وتقسم المورفولوجيا إلى الأقسام الأربعة التي انقسم إليها الفوناتيك، فهناك مورفولوجيا وصفية، وأخرى تاريخية، وثالثة مقارنة، ورابعة عامة.

٥ ــ السيمانتيك Sémantique

ويسمى عندنا بعلم الدلالة. وأبرز المشكلات التي يعنى بها هذا العلم مشكلة تحديد معنى الكلمة، وتعدد المعاني للكلمة الواحدة، والترادف على المعنى الواحد، والعلاقة بين الكلمة والمعنى، وتبدل المعنى وطرقه وقوانينه وأسبابه، وحياة الكلمات والمراحل التي تمر بها من ولادة ونشأة وشباب وشيخوخة وموت... الخ.

٦ ــ السنتكس Syntaxe

ويسمى بعلم النظم، وجل مباحثه يشبه مباحث علم النحو عندنا. فهو يهتم ببناء الجملة، والأنماط التي تتخذها العبارة في اللغة، كما يبحث في حروف المعاني التي تربط أجزاء الكلام بعضها ببعض، وفي أشكال الجمل (الجملة الابتدائية، الجملة المعمولة، الجملة الإخبارية، الجملة الشرطية، الجملة الاستفهامية، الجملة الموجبة، الجملة المنفية، الجملة التعجبية.. الخ الخ).

ويقسم هذا العلم أيضاً إلى أربعة أقسام: وصفي، وتاريخي، ومقارن، وعام.

٧ ــ الستيليستيك Stylistique

أو علم الأساليب، وهو علم يبحث في أساليب اللغة، واختلافها باختلاف فنونها (الشعر، النثر، الخطابة، المحادثة، الكتابة، المسرح.. الخ) وباختلاف العصور والأمم الناطقة بها، والطرق التي تسلكها الأساليب في تطورها، والقوانين الخاضعة لها، وما يتصل بذلك.

ويقسم هذا العلم أيضاً إلى أربعة أقسام: وصفي، وتاريخي، ومقارن، وعام.

٨ ــ فقه اللغة الوصفي Linguistique descriptive

هو مجموع ما مر معنا من فروع فقه اللغة الوصفية: فإذا أقبل باحث على لسان ما فدرس أصواته ومفرداته وتراكيبه دراسة وصفية هدفها مجرد الكشف عن الحقائق اللغوية في هذا اللسان، وبيان خصائصه في فترة محددة من الزمان، سمي عمله هذا بفقه اللغة الوصفي.

٩ ـ فقه اللغة التاريخي Linguistique historique

هو مجموع ما مر معنا من فروع فقه اللغة التاريخية: فإذا أقبل باحث على لسان ما فدرس عناصره الثلاثة (الأصوات، والمفردات، والتراكيب) متتبعاً إياها خلال فترة طويلة من الزمان للكشف عما طرأ على هذه العناصر من التبدل والتغير، فعمله هذا يسمى بفقه اللغة التاريخي.

وقد نال عنصر المفردات من علماء هذا العلم حظوة لم ينلها العنصران الآخران، حتى غدت بعض مباحث هذا العنصر علماً قائماً بذاته، ونعني بذلك علم (الايتيمولوجيا)، وهو العلم الذي يبحث في تاريخ الكلمات والأصول التي انحدرت منها، وإن كان البحث في تاريخ الكلمة يقتضي بالضرورة البحث في تاريخ أصواتها[١].

ومن أبرز مباحث المفردات في هذا العلم مبحث الطرق التي بها تولد الكلمات الجديدة، وهي: الابداع «Création»، والاستعارة، أو ما نسميه في العربية بالتعريب «Emprunt»، ومحاكاة الأصوات «Onomatopées»، والاشتقاق «Dérivation».

١٠ ـ فقه اللغة المقارن Linguistique comparée

هو مجموع ما مر معنا من فروع فقه اللغة المقارنة: فإذا أقبل باحث على لسانين أو أكثر فقارن بين عناصر هذا اللسان وعناصر ذاك، وكأن غرضه الكشف عما بين اللسانين من أوجه الشبه وصلات القربى، فإن عمله هذا يسمى بفقه اللغة المقارن.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها هذا العلم الكشف عن وحدة الأصل للألسن السامية (العربي، والآرامي، والأكّدي.. الخ) وللألسن الهندية الأوروبية (السنسكريتي، والفارسي، والأرمني، والسلافي، والإغريقي.. الخ).

---

(١) انظر: Marouzeau: La linguistique, p. 59.

١١ ـ فقه اللغة العام Linguistique générale

هو مجموع ما مر معنا من فروع فقه اللغة العامة: فإذا أقبل باحث على مجموعة كبيرة من الألسن فقارن بين عناصرها، وكان غرضه الكشف عن وجوه الاتفاق بينها، والوصول إلى القوانين العامة التي تحكم اللغة، كان عمله يدخل فيما يسمى بفقه اللغة العام. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا العلم يتناول مشكلات عامة لم ترد في سائر فروع اللغة السابقة: كصراع الألسن، وانشعابها إلى لهجات، وعوامل انحطاط اللغة وترقيها.. وما إلى ذلك من المباحث العامة التي تنطبق على كل لسان.

أما مشكلة أصل اللغة ونشأتها فقد اختلف العلماء المحدثون في أمر بحثها: فمنهم من أخرجها نهائياً من دائرة اختصاص علم اللغة لعدم توفر الوثائق التي تساعد على حلها[١]، ومنهم من أرجأ البحث فيها إلى أن يتم جلاء ما يكتنفها من غموض بمساعدة علم الأجناس البشرية[٢].

وهناك علوم تاريخية وفَيلولوجية تعد في فقه اللغة علوماً مساعدة وأهمها: الفيلولوجيا، وقواعد الرسم (الإملاء)، والأبجدية وتاريخها، وتاريخ الكتاب، وتاريخ الإملاء «Paléographie»، ونقد النصوص، تاريخ الأدب والعروض.. الخ.

---

(١) Ibid, p. 10.
وانظر كذلك فندريس: اللغة، ص ٢٩-٣١ مع الحاشية.

(٢) انظر محمود السعران: علم اللغة، ص ٥٥-٥٧.
وكذلك الفصل المتعلق بنشأة اللغة الذي سيرد بعد قليل في هذا الكتاب.

فقهُ اللغة والعلوم الأخرى

إن فقه اللغة كسائر العلوم الإنسانية: لا يملك الاستقلال التام عن بقية العلوم كما هو الشأن في الرياضيات مثلاً، بل هو في حاجة إلى نتائج طائفة كبيرة من العلوم يستخدمها حسب مناهجه الخاصة للوصول إلى أغراضه:

١ ــ فاللغة ظاهرة اجتماعية، لا ترى إلا حيث ترى المجتمعات الإنسانية، لهذا اهتم بها علم الاجتماع اهتماماً بالغاً، بل لقد أفرد لها فرعاً خاصاً من فروعه لدراستها هو علم الاجتماع اللغوي. وفقه اللغة لا غنى له عن الاستعانة بالنتائج التي وصل إليها علم الاجتماع اللغوي هذا، بل أن كثيراً من منجزاته هو مدين بها لهذا الفرع من علم الاجتماع.

٢ ــ ثم إن كثيراً من المعلومات المتعلقة بنشأة اللغة الإنسانية، وبتطورها، وبصلة ذلك بالمخ الانساني لا يمكن أن يكون حكم الفقيه اللغوي فيها صحيحاً إذا لم يستعن بعلم الأجناس البشرية (الانثروبولوجيا)، وبعلم الوراثة، وبعلم الحياة العام.

٣ ــ كذلك فإن اللغة المنطوقة تتألف من أصوات، ولما كانت دراسة الصوت فرعاً من فروع علم الطبيعة (الفيزياء) كان على اللغوي أن يستعين بمعطيات هذا العلم في مجال الصوت.

٤ ــ كذلك فإن هذه الأصوات اللغوية لا تصدر إلا بمساعدة طائفة من أعضاء الجسم، كالرئتين، والحنجرة، واللسان، والفم، والأنف، والشفتين، والأسنان. وعلى هذا فإن اللغوي مضطر إلى النظر في علمي التشريح ووظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ليرى رأي العلمين في هذا الموضوع.

٥ ــ ومن موضوعات فقه اللغة التوزع الجغرافي لكل لغة في العالم ولا شك أن

هذا يقتضي اللغوي أن يلم بشيء كثير من الجغرافية البشرية.

٦ ــ ثم إن فقه اللغة يدرس الصراع بين الألسن، ذلك الصراع الذي ينشأ عن الهجرات أو الغزوات، وعلى هذا فإن فقه اللغة محتاج إلى علم التاريخ في هذا الشأن.

٧ ــ وأخيراً، فإن العملية اللغوية تقتضي جهوداً عقلية من المتكلم والسامع على حد سواء، ومعنى هذا أن اللغة في بعض جوانبها حادثة نفسية، وعلى اللغوي أن يستعين بعلم النفس لفهم هذا الجانب من جوانبها[1].

---

(١) قارن: محمود السعران: علم اللغة، ص ٧٣-٧٨.
وكذلك: Perrot: Linguistique, pp. 11-21.
والوافي: علم اللغة، ص ٢٧-٣٠.

قوانين فقه اللغة

أشرنا منذ قليل إلى أن فقه اللغة العام يسعى إلى الكشف عن القوانين العامة التي تحكم اللغة. فهل معنى ذلك أن فقه اللغة يملك من القوانين مثل الذي تملكه العلوم الطبيعية؟

الواقع أن فقه اللغة كشف ــ ولا سيما في مجال الصوتيات ــ بعض العلاقات اللغوية التي لها صفة الحتمية والضرورة، فأمكن إطلاق اسم القانون على العبارة عن هذه العلاقات. من ذلك مثلاً أنه وجد أن الحروف الثلاثة .P.T.K تؤلف منظومة صوتية، بحيث إذا أصاب تغير ما أحد أفرادها فلا بد أن يصيب هذا التغير نفسه بقية الأفراد. فإذا حدث أن لساناً ما جهر الحرف P فصيره B فلا بد أن يجهر الـ T.K ليصبحا D.G.

وإن ما نراه من الشذوذ في بعض تطبيقات القانون الصوتي يرجع إلى أنّ قانوناً صوتياً آخر عمل عمله. ولتوضيح ذلك إليك المثال الآتي:

هناك قانون صوتي في العربية يقرر أن كل ث في الفصحى تحولت إلى ت في اللهجة السورية: ثوب ــ توب، ثعلب ــ تعلب، ثوم ــ توم. فإذا مضينا في التطبيق فسنعثر على كلمات لا تخضع لهذا القانون، سنجد أن الثاء تحولت في بعض الكلمات إلى سين: ثقافة ــ سقافة، ولا يعلل هذا بأنه شذوذ، بل بأن قانوناً آخرَ أصاب هذه الكلمة فمنع القانون الأول من اخضاعها لحكمه، هذا القانون الآخر يقول: كل الكلمات الحديثة التي استعارتها العامية السورية من الفصحى واشتملت على حرف الثاء تحولت ثاؤها إلى سين. فإذا مضينا في التطبيق فسنجد كلمات قديمة تحولت ثاؤها إلى سين وليس إلى تاء: ثواب ــ سواب. وهذا يفسره قانون ثالث يقول: كل الكلمات القديمة المشتملة على ثاء

والتي يكثر ورودها في نصوص دينية كآيات القرآن الكريم، أو مما يستعمل كثيراً في الخطب على منابر الجمعة تحولت فيه الثاء إلى سين.

وهكذا ترى أنه لا شذوذ في اللغة، وأن القانون اللغوي له من الحتمية والضرورة مثل ما لقانون الجاذبية في الفيزياء، ولقانون العرض والطلب في الاقتصاد. لكن وجود قانون ما لا يمنع وجود قانون آخر يعارضه في العمل: فقانون الجاذبية يقضي بأن الأجسام كلها تسقط نحو مركز الأرض في خط شاقولي «لكن هذا لا يمنع أن نرى صفحة من الورق تنزلق في خط متعرج، وأن نرى البالون يرتفع نحو الأعلى. إن القانون في اللغة، كالقانون في الطبيعة، لا يمضي دون أن يصطدم بقوانين أخرى، والشذوذ في قانون صوتي ليس شذوذاً إلا عندما لا نكون قد اكتشفنا القانون الجديد الذي يفسره[1]».

---

(١) Marouzeau: Linguistique, p. 93.
وانظر: الوافي: علم اللغة، ص ١٨-٢١.
والسعران: علم اللغة: ص ٨-١٠.
وفندريس: اللغة، ص ٧١، ٧٠.

مناهج البحث في فقه اللغة

يراد بمناهج البحث الطرق التي يسير عليها العلماء في علاج المسائل، والتي يصلون بفضلها إلى ما يرمون إليه من أغراض. ولفقه اللغة مناهج يشترك فيها مع سائر العلوم، ومناهج خاصة به اقتضتها طبيعة مسائله. وأهم هذه المناهج ما يلي:

١ ـ منهج الملاحظة:

وذلك بأن يقبل الباحث على ظاهرة لغوية ما، فيراقبها في الظروف الطبيعية للغة اثناء قيامها على وظيفتها، لا يملك في مراقبته غير حواسه وقواه العقلية.

وفي هذا المنهج يشترك فقه اللغة مع عدد كبير من العلوم الأخرى، ولا سيما العلوم الطبيعية، وإليه يرجع الفضل في معظم ما وصل العلماء إليه.

ولكي تكون الملاحظة صحيحة النتائج يجب أن تكون شديدة التنوع، كثيرة التعقيد، بالغة الدقة ما أمكن، فنحاة العرب الأوائل لم يقرروا أن العربية ترفع الفاعل وتنصب المفعول لمجرد سماعهم جملة واحدة من عربي واحد، بل إنهم استقرؤوا معظم الكلام العربي، فلما رأوا اطراد هذه الظاهرة وضعوا قاعدتهم.

و يتسع مجال الاستقراء اتساعاً بالغاً عندما ننتقل من مستوى فقه اللغة الوصفي للسان من الألسن إلى مستوى فقه اللغة العام لاستنباط القوانين العامة للغة، فعند ذلك لا تكفي ملاحظة لسان واحد ـ وهو الخطأ الذي وقع فيه علماء العرب والإغريق من قبل ـ بل لا بد من ملاحظة كل الألسن في العالم، ما كان منها حياً لا يزال في أفواه البشر، وما اندثر منها فلم نعرفه إلا في النصوص والآثار.

ومن أبرز ما يؤخذ على منهج الملاحظة أن آلته الوحيدة التي يستعين بها هي الأذن، وهذا العضو لا يملك من الدقة ما تملكه أجهزة القياس الحديثة. هذا إلى أنه

من السهل خداع الأذن في كثير من الأحيان، كما أنها شديدة التأثر بالحالة النفسية للملاحظ، ويكثر أن تخدعه فتسمعه ما يريد أن يسمع، لا ما هو حادث في واقع الأمر.

٢ ـ المنهج الآلي:

وهو أن يستعين الباحث بالآلة على تسجيل الظواهر اللغوية وقياسها. ومن الواضح أن هذا المنهج لا يُستخدم إلا في مجال الصوتيات، لأن الصوت هو العنصر الفيزيائي الوحيد في اللغة الذي يمكن للآلة أن تتدخل فيه تسجيلاً وقياساً. والذي حمل علماء اللغة على استخدام هذا المنهج في الصوتيات هو عدم وثوقهم من دقة الأذن الإنسانية في تمييز أنواع الصوت وخصائصه، وإدراك نبراته، وقياس شدته ومدته، والعوامل الكثيرة المحيطة بها والتي تجعل مدركاتها عرضة للزلل، ثم التقدم التقني الهائل الذي وضع بين أيدي علماء اللغة آلات شديدة الحساسية، مأمونة النتائج، صحيحة الأحكام.

وتنقسم الآلات التي تستخدم في هذا المنهج إلى نوعين: نوع يراد منه أن يقفنا على الأعضاء التي تشترك في إحداث صوت لغوي ما، وعلى هيئة هذه الأعضاء أثناء النطق، ثم على مخرج الصوت الملفوظ، ونوع يراد منه أن يقفنا على صفات الصوت من حيث المدة والشدة والحدة.

فمن النوع الأول آلة التصوير الشعاعي بأشعة رونتجن. والصور التي تعطيها هذه الآلة تقفنا على هيئة الفكين واللسان أثناء نطق أحد الأصوات. ولكن عيب هذه الصور أنها غير واضحة بما فيه الكفاية.

ومن هذا النوع أيضاً الحنك الاصطناعي، وهو آلة شديدة البساطة يستطيع كل طبيب أسنان أن يصنعها محلياً من مادة بلاستيكية، وبعد صبها في الشكل المناسب لحنك الإنسان الأعلى تخطط خطوطاً طولانية وأخرى عرضانية. وحين استخدامها ينثر فوقها قليل من الحكك المطحون الناعم، ثم تجعل في فم الإنسان ملتصقة بحنكه الأعلى، فإذا لفظ الإنسان صوتاً ما كالجيم مثلاً التصق لسانه في نقطة معينة بهذا الحنك الاصطناعي، فأزال من هذه النقطة ما كان علق به من

الحكك المنثور. فإذا أخرجنا الحنك من فم الإنسان، ونظرنا إلى الأثر الذي تركه اللسان فيه أثناء النطق بالجيم، وقفنا بدقة على مخرج هذا الصوت اللغوي.

ولا شك أن هذا الحنك الاصطناعي قاصر عن تحديد مخارج الحروف كلها، إذ ليست كل الأصوات اللغوية مما يخرج من الحنك، فبعضها يخرج من الشفتين، وبعضها يخرج من الحلق، وبعضها مخرجه الحنجرة نفسها، وبعضها ليس له مخرج أبداً كالواو والياء والألف.

وأما النوع الثاني فآلاته كثيرة متنوعة، ولكنها جميعاً تتألف من ثلاثة أجزاء أساسية: بوق يتلقى الهواء المنبعث من فم المتكلم ويوصله إلى طبلة تتأثر بضغط الهواء وذبذبته. ثم قلم متصل بهذه الطبلة يتحرك بحركتها، ثم اسطوانة مغلفة بورق تدور أثناء العمل ليرسم عليها القلم الذبذبات المنتقلة إليه من الطبلة.

وعلى الرغم من دقة النتائج التي أمكن الوصول إليها بفضل هذا المنهج الآلي، فإن للعلماء عليه مأخذاً مهماً هو أنه عاجز عن فحص الظواهر اللغوية في حالتها الطبيعية، فالناس لا يتكلمون وفي أفواههم أحناك اصطناعية، ولا يتفاهمون وهم يضعون أفواههم في أبواق أو تحت آلات تصوير. وهذا الوضع غير الطبيعي في المنهج الآلي حمل كثيراً من العلماء على الشك في قيمة النتائج التي أدى إليها.

٣ ـ المنهج التجريبي:

يقوم هذا المنهج على تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية ما، أو على خلق هذه الظاهرة خلقاً بدل انتظارها حتى تحدث تلقائياً، وهذا هو شأن العالم الطبيعي الذي يجمع الأوكسجين إلى الهيدروجين ويعطيهما شرارة كهربائية ليصنع منهما ماءً. يفعل ذلك في معمله متى شاء ولا ينتظر الطبيعة لتصنع له الماء على هذه الطريقة ليدرس هذه الظاهرة الطبيعية.

هذا المنهج الذي أدى للعلوم الطبيعية أجل الخدمات لم يتهيأ له أن ينتشر في العلوم الإنسانية انتشاراً كبيراً، إما لصعوبة تطبيقه في بعض الأحيان، وأما لتعذر هذا التطبيق في أحيان أخرى، إذ يتعذر على عالم التاريخ مثلاً أن يصنع في شعب ما ثورة من أجل أن يدرسها ويعرف نتائجها.

ولما كان فقه اللغة من العلوم الإنسانية كانت دائرة المنهج التجريبي فيه شديدة الضيق، والنتائج التي أمكن الوصول إليها عن طريقه قليلة جداً. فمن ذلك ما قام به الأستاذ فيرث من تجربة رمى من ورائها إلى معرفة ما إذا كان هناك صلة بين الصوت والشكل، إذ رسم هذا العالم رسمين، أحدهما يتألف من خط مغلق يجري في تحدبات كثيرة، والثاني يتألف من خط مغلق منكسر في شكل نجمي، ووضع إلى جانب هذين الرسمين كلمتي (أومبوبو وكيكيريكي)، وهما كلمتان لا تدلان على معنى معين في أية لغة، ثم طلب من طلبة مختلفي القوميات والألسن أن ينسبوا إلى كل رسم واحدة من الكلمتين، فلاحظ أن الطلبة من جميع الأمم ينسبون كلمة (أومبوبو) إلى الرسم المحدب، وكلمة (كيكيريكي) إلى الرسم النجمي[1].

هذا، ولم يتح للطريقة التجريبية من ظروف النجاح والانتشار في علم اللغة ما أتيح لغيرها. فهي لا تزال تسير فيه بخطى بطيئة، بل لا يزال بعض علمائه ينظرون إليها بعين الريبة، ولا يثقون كل الثقة بما تصل إليه من نتائج. وذلك أنهم يرون أن تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية قد يخرج بها عن طبيعتها، ويصورها في غير صورتها الحقيقية، فيتعرض الباحث للخطأ في الحكم إذ يلتبس عليه الطبيعي بالمتصنع[2].

٤ ـ المنهج المقارن:

ويقوم هذا المنهج على الموازنة بين الظواهر اللغوية في طائفة من الألسن، إما للكشف عما بين هذه الألسن من أواصر القربى والرحم، وهو ما يجري في فقه اللغة المقارن، وأما للكشف عما بين الألسن جميعاً من خصائص مشتركة تؤدي إلى الكشف عن القوانين العامة للغة، وهذا ما يجري في فقه اللغة العام.

---

(١) محاضرات الأستاذ فيرث في العام الدراسي ١٩٤٨-٤٩، عن كتاب مناهج البحث في اللغة للدكتور تمام حسان، ص ٢١٧. انظر فيه الرسمين المذكورين.
هذا ويمكن عد المسألة الزنبورية في النحو العربي وما دار فيها بين سيبويه والكسائي في مجلس البرامكة بحثاً لغوياً يجري على النهج التجريبي.

(٢) الوافي: علم اللغة، ص ٤٣-٤٤.

ومع أهمية هذا المنهج لعالم اللغة، ومع لزومه له في كل الميادين اللغوية التي يخوضها، فإنه كثيراً ما أدى إلى نتائج غير صحيحة. ولم يكن ذلك عن عيب فيه، بل كان عن سوء تطبيق له، ولا سيما عن نقص الاستقراء والتسرع في صوغ القوانين العامة.

تاريخ الدراسات اللغوية

منذ متى ظهرت المشكلة اللغوية؟

تبدو الإجابة عن هذا السؤال عسيرة بعض الشيء، لأن هذه المشكلة «قديمة قدم العالم، فمنذ أن وجد بشر يتكلمون و يكتبون اهتم الناس بأمر التعبير عن الفكر بكل شكل من الأشكال...

«وكما جرت العادة دائماً، بدئ بالمشكلات اللغوية الأصعب، تلك التي تتعلق بأصل اللغة وانشعاب الألسن، فأما التوراة فتقول لنا إن آدم هو الذي وضع للحيوانات أسماءها، وأما قصة برج بابل فتدعي أنها تفسر سبب تبلبل الألسن واختلافها، وأما الإغريق فقد تخيلوا مبدعاً أبدع اللغة والكتابة[1].

لكن الإنسان لم يكتف بالأسطورة في معالجة مشكلة اللغة، بل لقد سبق ذلك بمعالجتها عملياً في الكتابة. ذلك أن عملية الكتابة في حد ذاتها هي بوجه من الوجوه بحث لغوي حقيقي، لأنها في جميع أشكالها وأطوارها (التصويرية، والمقطعية، والهجائية) تقتضي الكاتب أن يقوم بتحليل من نوع ما للسان الذي يكتبه، فالكتابة التصويرية، وهي التي ترمز لكل كلمة من كلمات اللغة برمز خاص، تقتضي الكاتب أن يقوم بعملية عزل لكلمات اللسان الذي يكتبه، وهذا في الواقع نوع من التحليل اللغوي، أما الكتابة المقطعية فتقتضي الكاتب تحليلاً لغوياً أبعد إذ تتطلب منه أن يحل كلمات اللسان الذي يكتبه إلى مجموعات من الأصوات (مقاطع صوتية) ليرمز إلى كل مجموعة برمزها الخاص. وأما الكتابة الهجائية فيذهب فيها التحليل إلى أبعد من ذلك، إلى الأصوات المفردة الأساسية.

---

(١) Marouzeau: La linguistique, p. 115.

ومع ذلك. ظل البحث اللغوي بمعناه المعروف أمراً مجهولاً لدى الإنسان حتى جد في حياته ما حمله على القيام به، وقد حدث ذلك في جنوبي العراق، فهناك، وحول ٣٥٠٠ قبل الميلاد كان يسكن شعب مجهول الأصل يسمى الشعب الشومري، وكان لهذا الشعب لسان عرفناه عن طريق النصوص المسمارية. ثم جاء شعب من الشعوب السامية يسمى بالأكّديين فغلب الشومريين على ما بأيديهم من الأرض، واتخذ من لسان المغلوبين لسان أدب ودين له. ولما كان هذا اللسان غريباً عن الأكّديين اضطروا لوضع قواعد له تسهل تحصيله على طالبه، فكانت الشذرات التي وصلتنا من هذه النصوص النحوية أقدم ما نعرف من البحوث والدراسات اللغوية في العالم(١).

نرى مما سبق أن الحاجة التعليمية كانت أحد البواعث المهمة للدراسات اللغوية. وهناك باعث آخر لا يقل عنه شأناً إن لم يكن أعظم منه خطراً. ونعني به الكتابة: فبالكتابة قيد الناس من قديم الزمان صلواتهم ونصوص قوانينهم، فاكتسبت الأشكال الأولى لهذه الكتابة قداسة استمدتها من مضمون ما كتب بها، وهذه القداسة حملت الكتبة الذين أتوا بعد ذلك على الاحتفاظ بتلك الأشكال على الرغم من أنها أصبحت غير دقيقة في تمثيل النطق بعد أن تطور اللسان في أفواه أبنائه، وبعد فترة من الزمان شعر الناس بالفرق الواضح بين لسانهم الحاضر الذي يتكلمونه ولسانهم الماضي المثبت في الكتابة، فكان ذلك دافعاً لبعض علمائهم إلى شرح هذه النصوص المقدسة شرحاً نحوياً، وإلى وضع القواعد التي تسهل على الناس فهم تلك النصوص. هكذا، وفي زمن مبكر جداً، حلل الهندوس بدقة الأشكال والأصوات للسانهم السنسكريتي المقدس، وكان بانيني الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد أبرز نحاتهم على الإطلاق، وذلك للدقة المدهشة التي صاغ بها القواعد النحوية والصوتية للسنسكريتية.

أما في اليونان فقد كان لفلاسفة الإغريق مشاغل أخرى لا تتعلق بالنصوص الدينية، كانوا يختصمون على نوع من ميتافيزيكية اللغة: ما اللغة؟ أين يجب التفتيش عن أصلها؟ ما الكلمة؟ هل بين الكلمة والشيء علاقة طبيعية ولازمة؟

---

(١) انظر Perrot: La linguistique, p. 12.

هل العلاقة بين الكلمة ومعناها علاقة طبيعية أم هي علاقة اصطلاح وتواطؤ؟ بروديكوس وسفسطائيو القرن الخامس قبل الميلاد قالوا بالنظرية الأولى، فقادهم ذلك إلى الاهتمام بالترادف، لأن الكلمة إذا كانت تساوي الشيء بالضبط فلا وجود للمترادفات في مذهبهم، كما قادهم ذلك إلى الاشتغال بالايتيمولوجيا (أصول الكلمات)، إذ لما كان هناك تلازم بين الشيء والكلمة، كانت طبيعة الشيء قادرة على تفسير أصل الكلمة. والرواقيون أيضاً اشتغلوا في فقه اللغة الفلسفي. ولما كان هؤلاء يرجعون كل شيء إلى منطقهم، ارجعوا النحو نفسه أيضاً. فالمقولات النحوية يجب عندهم أن توافق المقولات العقلية، كانوا مثلاً يقولون: هناك تطابق بين علامة الجمع وفكرة الجمع. لكن أصحاب مذهب الشذوذ في اللغة كانوا يردون على أصحاب مذهب القياس هؤلاء بأن في اللسان كلمات هي في صيغة الجمع ولا تعني إلا الفرد، وبأن الجنس النحوي (التذكير والتأنيث) لا يتطابق مع الجنس الطبيعي، فما أكثر الكلمات المؤنثة الدالة على ذكور، وما أكثر الكلمات المذكرة الدالة على إناث. وإذن، فليس هناك تطابق لازم بين اللسان والواقع.

هذا هو نوع المجادلات التي ضل في متاهاتها فلاسفة الإغريق واللاتين الذين جاءوا بعدهم.

وحدث في الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد ما كان حدث من قبل في الهند. فأشعار هوميروس والشعراء الغنائيين الأول أضحت غير مفهومة بسبب التطور الذي أصاب اللسان من زمن هوميروس الذي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد إلى زمن الفترة التي نتحدث عنها. فنشأ من ذلك تخصص لدى نحاة الاسكندرية في الشرح، بل لقد ترجموا إلى اللسان الإغريقي المشترك اللسانَ الأيوني القديم الذي كتبت به القصائد الملحمية، أو اللسانَ الدوري الذي كتب به الشعر الكورالي. وكان من كل ذلك حركة فيلولوجية نشيطة جداً، فكثر الشراح الذين شرحوا النصوص، والمعجميون الذين درسوا المفردات، والمفسرون الذين اهتموا بشرح الكلمات الغريبة.

غير أن هذه الفيلولوجيا النشيطة لم تؤد إلى دراسة منظمة للغة، وكل الذي

فعلته أنها أثارت في مدارس آسيا الصغرى (في برغام، وطرطوس، ثم في بيزنطة) حركة ثقافية حفظت المؤلفات القديمة من الضياع.

وقد أسهمت روما في هذا المجال منذ القرن الثاني قبل الميلاد، لكن نحاتها انشغلوا بحشر لسانهم في الأطر التي تصورها النحاة الأغريق، لقد وصفوا لسانهم الخاص بشيء كثير من النقص وعدم الضبط جعلنا لا نعرف شيئاً عن نطقهم ونبرهم وعروضهم إلا في صعوبة كبيرة.

وفي العصور الوسطى خمدت الدراسات اللغوية في الغرب خموداً كبيراً، واقتصرت على تعلم اللسان اللاتيني. وكان أهم مؤلف له بعض القيمة العلمية عبارة عن قواعد لاتينية نظمت شعراً في القرن الثالث عشر الميلادي على طريقة ابن مالك في قواعد العربية.

أما في الشرق حيث ظهر الإسلام فقد قامت حركة لغوية نشيطة تقدمت بالدراسة اللغوية أشواطاً بعيدة إلى الأمام.

بدأ ذلك في أواخر القرن الهجري الأول حين ظهر اللحن على ألسنة الناس في تلاوة القرآن، وكما كانت النصوص الدينية الهندوسية والحرص على ضبطها وفهمها سبباً في ولادة النحو السنسكريتي، كان القرآن الكريم والحرص على ضبط تلاوته وفهم نصوصه سبباً في ولادة النحو العربي.

لكن علماء العربية لم يقفوا جهودهم على النحو فقط، بل وسعوا نطاق بحوثهم حتى شملت أكثر جوانب اللغة. وسنوجز فيما يلي تاريخ كل فرع من فروع دراساتهم.

١ ـ النحو والصرف

أما النحو فكان الغرض الأساسي منه في مبدأ الأمر وضع القواعد التي يجري عليها الكلام العربي ليسهل تعلمه وتعليمه، وليعصم الناس من اللحن الذي أخذ يتفشى منذ صدر الإسلام من جراء اختلاط العرب بالعجم. ثم أخذ نطاق هذا العلم يتسع قليلاً قليلاً، وأخذ علماؤه يعرضون لكثير من الموضوعات المتصلة بأجزاء الجملة وترتيبها وأثر كل جزء منها في الآخر حتى شملت بحوثهم جميع البحوث

التي يطلق عليها الفرنجة اسم (السنتكس). وأما الصرف فموضوعه الكلمة المفردة من حيث الزيادة والتجرد، والجمود والاشتقاق، والإفراد والتثنية والجمع، وما إلى ذلك مما يسمى عند الغربيين بعلم (المورفولوجيا).

كان الاهتمام أول الأمر منصباً على البحوث النحوية، وظل الأمر كذلك حتى أواخر القرن الهجري الأول، ثم أخذ العلماء يعالجون بعض مسائل الصرف استطراداً وفي خلال دراستهم لمسائل النحو. ثم أخذت مسائل الصرف تنفصل شيئاً فشيئاً عن مسائل النحو، وتدرس على حدة، حتى تكون منها علم متميز. غير أن هذا العلم لم يستقل تمام الاستقلال عن النحو، فلا تزال طائفة كبيرة من مسائله ممتزجة بمسائل النحو، ولم ينفك الباحثون إلى عهد قريب ينظرون إلى الشعبتين نظرتهم إلى علم واحد، و يعالجون مسائلهما في مؤلفات واحدة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن علماء العربية كانوا أول من هجروا صوامع الدراسة ورحلوا إلى أبناء اللسان من الأعراب يشافهونهم و يأخذون عنهم لسانهم. بهذه الطريقة الاستقرائية الشاملة قدموا للسان العربي وصفاً شديد الدقة لم يقدمه قوم للسانهم من قبل.

وممن اشتهر بالنحو والصرف أبو الاسود الدؤلي الذي تكاد الروايات تجمع على أنه أول من وضع النحو بارشاد الإمام علي بن أبي طالب. ثم عنبسة الفيل، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وميمون الأقرن، وعبد الله بن أبي اسحق الحضرمي، والأخفش الأكبر، وأبو عمرو بن العلاء، وعيسى ابن عمر الثقفي، وأبو جعفر الرؤاسي، وأبو مسلم معاذ الهراء، والخليل بن أحمد الفراهيدي الذي يرجع إلى عبقريته النادرة أكبر قسط من الفضل في النهوض بعلوم العربية كلها، ثم تلميذه سيبويه إمام النحو العربي وصاحب (الكتاب) الذي ظل حتى اليوم أهم مرجع للنحاة العرب، ثم الأخفش الأوسط شارح كتاب سيبويه، ثم أبو علي الفارسي، وأبو القاسم الزجاج، والمازني، والسجستاني، والمبرد والكسائي، والفراء، وابن السكيت، وابن سلام، وثعلب، وابن خالويه، وابن جني، والزمخشري، وابن الحاجب، وابن معطي، وابن مالك، وأبو حيان، والزنجاني، والسكاكي، وابن هشام، وغيرهم وغيرهم.

وقد انقسم هؤلاء إلى مدارس كان أشهرها مدرستا البصرة والكوفة، وقد عني المتأخرون منهم بالخلاف بين المدرستين فألفوا في مسائله كتباً كثيرة من أهمها كتاب الإنصاف لابن الأنباري.

٢ ــ علوم البلاغة:

وتشمل ثلاثة بحوث: المعاني، وموضوعه بيان ما ينبغي أن يكون عليه الأسلوب العربي ليطابق مقتضى الحال، وليعبر عن المراد أبلغ تعبير، ثم البيان، وموضوعه شرح المناهج التي يسلكها الأسلوب العربي في استخدام التشبيه والمجاز والكناية، ثم البديع، وموضوعه دراسة المحسنات المعنوية واللفظية التي يحتملها الأسلوب العربي. فموضوعات البحوث الثلاثة ترجع إلى ما يسميه المحدثون من علماء الفرنجة (الستيليستيك) أي علم الأساليب.

ومن أشهر من ألف في هذه الشعبة أبو عبيدة، والجاحظ، وابن المعتز، وقدامة بن جعفر، وأبو هلال العسكري، والسكاكي، والخطيب القزويني.

٣ ــ علوم القراءات:

وموضوعها بيان الوجوه التي قرئت بها آي الذكر الحكيم. وقد شملت هذه الشعبة نوعين من الدراسات اللغوية: ففيها مسائل كثيرة تتعلق باللهجات العربية، كما أن أغلب مسائلها عالجت عنصر الصوت في اللسان العربي. وتعتبر الدراسات الصوتية في علم التجويد العربي، وتلك التي وردت في كتاب سيبويه والمفصل للزمخشري، وسر الصناعة لابن جني أكمل وأدق دراسات عرفها تاريخ الدراسات اللغوية حتى ذلك العهد.

٤ ــ الأدب وتاريخه والنقد الأدبي:

نهضت هذه الفروع نهضة كبيرة في العصر العباسي، ولم تنفك، منذ ذلك العهد إلى الآن، موضع عناية بالباحثين من العرب وغيرهم، حتى أصبحت المكتبة العربية من أغنى مكتبات العالم في هذه الناحية.

٥ ــ متن اللغة:

وتنقسم مؤلفاته إلى ثلاثة أقسام: معاجم للألفاظ، وأشهرها كتاب (العين) ثم (الجمهرة) لابن دريد، و(التهذيب) لأبي منصور، و(المحيط) للصاحب ابن عباد، و(المجمل) و(مقاييس اللغة) لابن فارس، و(الصحاح) للجوهري، و(القاموس المحيط) للفيروز آبادي، و(أساس البلاغة) للزمخشري، و(لسان العرب) لابن منظور المصري. ثم معاجم للمعاني منها كتاب (الألفاظ) لابن السكيت و(الألفاظ الكتابية) للهَمذاني، و(مبادىء اللغة) للإسكافي، و(فقه اللغة) للثعالبي، و(المخصص) لابن سيده. والأخير منها يقع في سبعة عشر جزءاً، وهو أدقها دراسة، وأحسنها تنسيقاً، وأكثرها استيعاباً لمسائل البحث. وأخيراً رسائل في طوائف خاصة من الألفاظ أو المعاني منها كتاب أبي حنيفة في الأنواء والنبات، وكتب يعقوب في النبات والأصوات والفرق، وكتب أبي حاتم في الأزمنة والحشرات والطير، وكتب الأصمعي في السلاح والإبل والخيل، وكتب أبي زيد في المطر واللبأ واللبن والغرائز(١)، وشرح غريب الحديث للجزري، وكتاب الأضداد في اللغة للأنباري. ومن هذا النوع المعجمات الفلسفية والعلمية وما إليها، ككشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، والتعريفات للجرجاني، والكليات لأبي البقاء.. وهلم جرا.

٦ ــ فقه اللغة:

لم يحظ فقه اللغة بالعناية التي حظيت بها بقية العلوم، ومع ذلك، كان لعلماء العربية نظرات مبكرة فيه، فكثيراً ما يذكر ابن جني في كتابه (الخصائص) آراء عميقة في هذا العلم يعزوها إلى أصحابها المتقدمين، مثل الخليل وسيبويه وغيرهما.

هذا، وبحوث فقه اللغة موزعة في الكتب الكثيرة، نجد بعضها في دراسة الأصمعي للاشتقاق في العربية، كما نجد بعضاً منها في كتاب (الصاحبي: في

---

(١) ذكر هذه الكتب المخصص من بين الكتب التي رجع اليها في مؤلفه انظر الجزء الأول من المخصص ص ١١-١٢.

فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) لابن فارس، وفي معجم (مقاييس اللغة) آراء في فقه اللغة، بل إن صاحبه ابن فارس بناه على أساس نظرية ثنائية في الألفاظ العربية.

ومن أبرز كتب هذا الباب كتاب (الخصائص) لابن جني، و(المعرب من الكلام الأعجمي) لابي منصور الجواليقي، و(المزهر في علوم اللغة) للسيوطي، و(شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل) لشهاب الدين الخفاجي.

وقد نشطت الدراسات الفقهية اللغوية في العصر الحديث نشاطاً ملحوظاً بسبب من تأثرنا بالغرب، وامتاز أكثر المؤلفات الحديثة بالمنهجية والروح العلمي. ومن أشهر رجال فقه اللغة في العصر الحاضر محمد المبارك، وعلي عبد الواحد وافي، ومحمود السعران، وتمام حسان، وابراهيم مصطفى، وابراهيم أنيس، وصبحي الصالح، وابراهيم السامرائي.. وغيرهم وغيرهم.

* * *

وإذا عدنا إلى الغرب لنتبين تطور الدراسات اللغوية هناك وجدنا أن القرن الثامن عشر الميلادي كان مبدأ لحركة لغوية نشيطة كان من أبرز نتائجها ظهور المنهجين التاريخي والمقارن في الدراسات اللغوية في القرن التاسع عشر.

والواقع أن فرصة المقارنة بين اللغات كانت مهيأة للقدماء منذ زمن مبكر: فقد استطاع الاغريق أن يلاحظوا وجوه التوافق في لهجاتهم المختلفة، كما أن القرابة بين اللسان اللاتيني واللسان الاغريقي كانت أمراً معروفاً؛ لكن القوم كانوا يعتقدون أنه من الطبيعي وجود تشابه بين ألسن الأقوام المتحضرة. أما ألسنة الأقوام المتبربرة فلم يهتم بها أحد.

بعد ذلك أدت الدعوة المسيحية إلى أن يتعلم الدعاة ألسن الأقوام التي دخلها المبشرة: فقد ترجم الكتاب المقدس إلى اللسان القوطي في القرن الرابع، وإلى الأرمنية في القرن الخامس، ثم كان علماء اللاهوت في عصر النهضة الأوروبية يتعلمون العبرية، وكان كتابهم المقدس يعلمهم أن لسان البشر كان واحداً. ومع

كل هذا لم يفطن أحد إلى وجود القرابة بين كل هذه الألسن، ولم يظهر المنهج المقارن إلا بعد العثور على اللسان السنسكريتي.

ففي القرن السادس عشر ادعى الإيطالي (ساسيتي) أنه وجد في الهند لساناً يشبه اللسان الإيطالي. وفي القرن الثامن عشر درست بعض الارساليات، وبعض ممثلي الشركة الانجليزية، وبعض الهنود الشرقيين ـــ درسوا هذا اللسان فاطلعتهم دراستهم له على حضارة قديمة مجهولة، وقد وجد الحاكم الانجليزي للبنغال (وليام جونز) شبهاً عجيباً بين هذا اللسان السنسكريتي وبين كل من اللسانين الإغريقي واللاتيني، وتساءل عما إذا كان لهذه الألسن الثلاثة أصل واحد مشترك.

كان لهذا الكشف خطر كبير في الدراسات اللغوية، فقد كشف الستار عما بين الألسن الهندية والإيرانية من جهة، والألسن الإغريقية واللاتينية والجرمانية من جهة أخرى من تشابه وصلات قرابة وروابط وثيقة، ومهد السبيل لانشاء علوم القواعد التاريخية والمقارنة، ووسع بذلك نطاق الدراسات اللغوية.

وكان من أشهر من افتتح هذه السبيل العلامة الإلماني شليغل Schlegel، فقد نبه أذهان العلماء إلى صلات التشابه الكثيرة التي تربط الألسن الأوروبية والهندية والآرية بعضها ببعض، تلك الألسن التي رجعها العلماء من بعده إلى فصيلة واحدة سموها الفصيلة الهندية ـــ الأوروبية كما سيأتي بيان ذلك.

ومن ذلك الحين أخذ العلماء يدرسون هذه الفصيلة دراسة علمية عميقة، فبلغوا (بفقه اللغة المقارن) شأواً راقياً، وكان من أنبه علماء هذا الفرع من الدراسة الألمانيان بوب Bopp، وغريم Grimm.

وقد مهدت بحوث (فقه اللغة المقارن) السبيل إلى بحوث (فقه اللغة التاريخي) فانتقل العلماء من الموازنة بين الألسن الهندية الأوروبية إلى الموازنة بين مظاهر كل لسان منها في مراحله المختلفة. وكان من أشهر من افتتح هذه السبيل (غريم) السابق ذكره و(دييز) (وبراشيه).

ثم انتقل البحث من هذه الدائرة الخاصة المقصورة على الألسن الهندية الأوروبية إلى دائرة عامة ترمي إلى كشف القوانين التي يخضع لها كل لسان في

تطوره وارتقائه، فولد بذلك فقه اللغة العام، وكان من أبرز رجاله العلامة الألماني (ماكس مولر)، والعلامة الإنجليزي (سيس).

ثم كثرت الدراسات وتشعبت فروع العلم وظهرت مدارس واتجاهات كثيرة منها المدرسة الألمانية، والمدرسة الإيطالية، والمدرسة الإنجليزية، والمدرسة الأميركية وغيرها[1].

(١) للتوسع في هذا الموضوع انظر المراجع التي ذكرت للوافي وماروزو و بيرو.

أوهام حول فقه اللغة

إن فقه اللغة علم حديث، بل لا يزال حتى الآن في عنفوان تطوره. ولهذا السبب يجهل الناس أمره، حتى المثقفون منهم. والقلة التي تسمع به تدور في رؤوسها أوهام كثيرة عنه. ونحب في هذا الفصل أن نزيل ما علق من تلك الأوهام:

١ ــ فأولها ما يظنه بعضهم من أن فقه اللغة هو اتقان عدد كبير من الألسن في الكتابة والخطاب، وأن فقيه اللغة هو ذلك الرجل الذي يتكلم بعدة ألسن غير لسانه القومي.

إن فقه اللغة ليس معرفة لعدد من الألسن، كما أن كثيراً من فقهاء اللغة الأجلاء لا يتقنون غير لسانهم القومي. ومعرفة الألسن الكثيرة لا تجعل من الإنسان فقيهاً لغوياً، كما أن قيادة عدد كبير من السيارات لا تجعل من الرجل ميكانيكياً بارعاً.

إن فقه اللغة هو النظر في اللغة واستنباط قوانينها العامة، والكشف عن النواميس الخاضعة لها في مختلف أطوارها.

قد يقال: فكيف يتسنى لفقيه اللغة الذي لا يتقن غير لسانه القومي أن ينظر في مختلف الألسن ليصل إلى ما يريد من الكشف عن القوانين والنواميس؟

والجواب: أنه يقرأ بلسانه القومي ما كتب من دراسات وصفية لتلك الألسن.

على أن هذا لا يمنع من أن يحصل الفقيه اللغوي عدداً من الألسن، فإن تحصيله لها يساعده أعظم المساعدة في عمله العلمي.

٢ ــ وثانيها ما يظنه بعضهم من أن فقه اللغة هو التبحر في لسان ما ومعرفة كل ما يتعلق بقواعده وغريبه وشوارده.. الخ.

إن التبحر في الألسن مما يساعد اللغوي في عمله، و يوسع من دائرة استقرائه، ولكن التبحر في اللسان شيء، ومعرفة قوانين هذا اللسان شيء آخر. وفقه اللغة هو الكشف عن القوانين وليس التبحر والاحاطة. إن معرفتك بكل ركن من أركان منزلك، وإحاطتك علماً بكل حجر فيه، لا تجعلان منك مهندساً يعرف قوانين الهندسة والبناء.

٣ ـــ وثالثها اعتقاد بعضهم أن فقه اللغة هو العلم بالأساليب الصحيحة، والطرق الناجحة في تعليم الألسن.

إن فقه اللغة لا يأبى أن يقدم نتائجه إلى القائمين على أمور التعليم ليستفيدوا منها في عملهم، لكن هذه ليست وظيفته الأساسية، إنه علم لا يرمي إلا إلى كشف الحقائق بعيداً عن كل غاية نفعية.

٤ ـــ وأخيراً، فإن بعضهم يعتقد أن فقه اللغة هو العلم بصحيح الكلام وجيده، وتمييزه من فاسده وسقيمه.

إن فقه اللغة ينظر إلى كلا النوعين من الكلام نظرة واحدة، و يعاملها معاملة واحدة، وليس عنده كلام يسمى فصيحاً شريفاً، وآخر يسمى عامياً مرذولاً. ينظر فقه اللغة إلى العامية والفصحى على أنهما مظهران طبيعيان متساو يان لهذه الظاهرة الإنسانية التي تسمى باللغة[1].

---

(١) قارن Perrot: La Linguistique, p. 5.
ومقدمة الطبعة الأولى من Marouzeau: La Linguistique.

الباب الثاني

اللغة والألسن

أنواع التعبير الإنساني

يعبر الإنسان عن خوالجه وانفعالاته بأسلوبين: أحدهما فطري غريزي لا يد له فيه ولا إرادة، مثل الصراخ والضحك والبكاء والاقشعرار وما إلى ذلك من الظواهر الفطرية التي تصحب الحالات النفسانية المختلفة كالفزع والسرور والحزن والألم وما إليها، وهذا الأسلوب من التعبير قد تكفل علم النفس بدراسته؛ وثانيهما إرادي مقصود، مثل الإشارة والكلام وما إليها من الوسائل التي يستخدمها الناس في التفاهم فيما بينهم، وهذا الأسلوب الأخير قد تكفل بدراسته علم حديث النشأة اسمه علم (السيميولوجيا) أي علم العلامات.. أما فقه اللغة فقد حصر اختصاصه في نوع واحد من أنواع التعبير الإرادي، هو التعبير بالكلام.

إن كل نظام من أنظمة التعبير الإرادي يسمى لغة، ولهذا عرف بعضهم اللغة تعريفاً عاماً بقوله: إنها نظام من العلامات(١).

ولما كانت العلامات تختلف من حيث الحاسة التي ندركها، ومن حيث رمزها للفكرة مباشرة أو بالواسطة، فقد انقسمت اللغة إلى ما يأتي:

١ ــ لغات بصرية:

وهي التي تدرك علاماتها بالعين. ولها عدة أنواع. فمنها الحركات التي تصاحب كلامنا ونستعين بها على إيضاح ما لا نقدر على إيضاحه بالكلام، ومنها إشارات المرور، ومنها إشارات الصم البكم، ومنها ما نأتيه من حركات وإشارات عندما نتخاطب مع من لا يفهم لساننا.. الخ.

هذا النوع من اللغة له مزاياه الخاصة، إذ يمكن استعماله على بعد بين مكانين

---

(١) فندريس: اللغة، ص ٣١.

لا يقدر الصوت على أن يصل بينهما، كما أنه وسيلة سهلة للتفاهم بين أفراد بنتسبون إلى ألسن مختلفة، فهو من هذه الناحية لسان عالمي. بل أن قبائل الهنود الحمر في أميركا، وكذلك بعض القبائل في أستراليا وأواسط أفريقيا، قد اخترعت لها لغة من الإشارات تتفاهم لها عند اختلاف القبائل في الألسن.

«وقرر تيلور، بصدد هذه اللغة، أن لها قواعد إشارية لربط أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها، وأنها في مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التي تستخدمها، فهي من هذه الناحية أشبه بلغة دولية، وأنه يمكن أحياناً التعبير بها عن حقائق دقيقة كعظات وضرب أمثال وقص حكايات.. فقد جمع الكولونيل مولري بين رجل أصم ــ أبكم وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الإشارات، فأخذ الأصم ــ الأبكم يقص عليهم بالإشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة، وعقَّب على هذه القصة بتعليقات من عنده، فلم يفتهم فهم أي حركة من حركاته، لاتحادها مع حركاتهم اللغوية[1]».

ويذهب بعض العلماء إلى أن هذه اللغة قابلة للإصلاح والتهذيب، وأنه لو طال استخدام الشعوب الإنسانية لها لسارت في سبيل الارتقاء والكمال. والواقع يشهد بغير هذا، إذ إن ترك الشعوب المتحضرة لها، واستغناءهم عنها بلغة الكلام دليل عجزها عن التطور ومسايرة التقدم البشري، فهي باستئثارها بالأيدي وسائر الأعضاء تمنع الجسم من الإتيان بأي نشاط حين التعبير ثم أنها غير قادرة على التعبير إلا عن الأشياء المحسوسة فقط، أما المعاني المجردة، والأحاسيس الدقيقة، ففيها عجز طبيعي عن التعبير عنها. هذا إلى ما تقتضيه من إسراف كبير في الوقت والمجهود.

٢ ــ لغات سمعية:

وهي التي تدرك علاماتها بالأذن ولها أشكال كثيرة، فمنها قرعات النواقيس والأجراس، ومنها صفرات القطر والبواخر، ومنها لغة الكلام الملفوظ. وهذه الأخيرة هي أجل اللغات شأناً، وأعظمها خطراً، لما امتازت به من السهولة والدقة

---

(١) عن الوافي: علم اللغة، ص ٧٨.

والثراء في التعبير عن مختلف المعاني والمشاعر والأعراض. وهي وحدها التي اتخذ منها فقه اللغة موضوعاً للدراسة والبحث، وإليها وحدها تنصرف كلمة (اللغة) عند اطلاقها.

٣ ـ لغات مشتقة:

وهي التي لا ترمز علاماتها للفكرة مباشرة، بل ترمز للأصوات اللغوية المنطوقة التي هي بدورها رموز للفكرة. فبين هذا النوع من اللغات وبين الفكر تتوسط لغة الكلام. ولهذا النوع أشكال، فمنها لغة الكتابة، ولغة الإشارات البرقية، ولغة إشارات الأعلام عند الكشافة.

ولإيضاح الفرق بين اللغات المشتقة وبعض اللغات السمعية أو البصرية نورد المثال الآتي:

تنشر المجلات أحياناً قصصاً فكاهية قصيرة على شكل صور متتابعة ليس تحتها كتابة أو تعليق. فإذا نظرنا إلى هذه الصور بالتتابع فهمنا المراد مباشرة، فهذه إذن لغة بصرية، أما إذا نظرنا إلى أحد مقالات المجلة في بقية الصفحات فإننا نرى حروفاً مطبوعة، هذه الحروف ليست رموزاً للأفكار، فهي غير قادرة على إثارتها بصورة مباشرة، بل هي رموز لأصوات لغوية تثيرها فينا فينطقها لساننا سراً أو علانية، ثم تقوم هذه الأصوات بالرمز للأفكار المقصودة. وبهذا تكون الكتابة لغة مشتقة من لغة الكلام لأنها رموز لهذه اللغة.

واللغات المشتقة لغات اصطناعية لا طبيعية، اخترعها الإنسان ليتغلب بها على عوائق زمانية (كما في حالة الكتابة) أو مكانية (كحالتي الإشارات البرقية والكتابة).

لغة الحيوان

هل عند الحيوان لغة كما عند الإنسان؟

إذا أردنا من اللغة مجرد الوسيلة للاتصال بالآخرين كان الجواب بالإيجاب. فقد كشف العلماء عن وسائل كثيرة يتوسل بها الحيوان للاتصال بأفراد جنسه لتلبية حاجات غريزية متنوعة، ولا سيما الحيوانات التي تعيش جماعات كالنحل والنمل والقردة والوعول وغيرها. فمن ذلك مثلاً ما تفعله النحلة العاملة إذا رأت مادة سكرية في مكان ما، إذ تعود إلى الخلية مسرعة حيث تقوم برقصة تشبه رقصة البطن، فيفهم عنها سائر النحل الرسالة التي تحملها، وقد لاحظ العلماء أن هزة البطن الواحدة تعني أن مكان المادة السكرية على بعد ستين متراً من الخلية، وأن الهزتين تعنيان بعداً مقداره مائة وعشرون متراً.. وهكذا، كما أن رأس النحلة عند هز بطنها يشير إلى الجهة التي بها المادة (١).

أما إذا أردنا من اللغة معناها الصحيح وهو التعبير الإرادي عن الفكر فليس عند الحيوانات لغة من أي شكل من الأشكال، فهذا النوع من التعبير شيء اختص به الإنسان من بين كل المخلوقات، أما ما نراه من الحركات والصرخات التي تصدر عن الحيوان مما نعتقد أنه لغة فليس إلا نوعاً من الاستجابات الغريزية لمؤثرات خارجية، يأتيها الحيوان عن عدم وعي لمعناها، وهي هي منذ أقدم الأزمنة لم تتغير ولم تتطور، خلقت معه كما خلقت غرائزه المختلفة. وليس إلا وهما ما ذهب إليه بعضهم من أن الفصائل العليا من القردة تملك لغة حقيقية، وكذلك ما أدعوه من أن هذه اللغة تتألف من اثنتين وثلاثين كلمة (٢).

---

(١) عن برنامج تلفزيوني علمي بثته محطة دمشق في ١٩٦٩/٧/٦.
وانظر أيضاً: الوافي: علم اللغة ص ٧٩-٨٨، فقد جمع طائفة كبيرة من ملاحظات العلماء في هذه المسألة.

(٢) انظر: الوافي: علم اللغة، ص ٨٥.

أصل اللغة

يصر أكثر علماء اللغة اليوم على إخراج مسألة اصل اللغة من مجال البحث اللغوي. ومع ذلك تجدهم، وهم مشغولون ببيان عقم البحث في هذه المسألة، تجدهم ينساقون بغير شعور منهم إلى البحث فيها، وإلى طرح نظرياتهم الخاصة [1].

والظاهر أنها مسألة لا تقبل أبعاداً، كما لا تقبل إرجاء، إنها إحدى المعضلات (النقاقة) — كما يقول يوسف الحاج [2] — التي تريد منا جواباً سريعاً.

وفيما يلي سنعرض لتاريخ هذه المشكلة ولأهم ما قيل فيها:

١ ــ عند الإغريق:

بدأت مشكلة أصل اللغة عند فلاسفة الإغريق من هذا السؤال:

«هل يعبر الاسم عن حقيقة الشيء المسمى به بالطبيعة أم بالتواطؤ؟» وبعبارة أخرى: إذا لفظنا كلمة (شمس) فهل يستطيع كل سامع لها، مهما يكن اللسان الذي يتكلمه، أن يفهم منها ما يفهمه العربي؟

أجاب هرقليطس عن هذا السؤال بالإيجاب مقرراً أن الأسماء تدل على مسمياتها بالطبيعة لا بالتواطؤ والاصطلاح، وإن هذه الأسماء قد أعطيت من لدن قوة إلهية لتكون أسماء لمسمياتها.

وسميت هذه النظرية بالنظرية التوقيفية في اللغة.

---

(١) انظر على سبيل المثال فندريس: اللغة، ص ٢٩-٤٢.

(٢) فلسفة اللغة ص ٣٥.

أما ديمقريطس فقد أجاب بالنفي، واعتبر منشأ اللغة عملية تواطؤية لأن الاسم الواحد ذاته كثيراً ما يقبل عدة مسميات، ولأن الشيء الواحد كثيراً ما يقبل عدة أسماء، أو قد يتبدل اسمه ولا يتبدل هو. وتوسعاً بهذا المبدأ انتهى ديمقريطس إلى القول بأن الأسماء تعطى للأشياء من لدن الإنسان، لا من لدن قوة إلهية.

وسميت هذه النظرية بالنظرية التواطؤية في اللغة.

ظلت هاتان النظريتان تتجاذبان الفلسفة اللغوية عند الإغريق طوال تاريخهم. وأفلاطون نفسه لم يأت بشيء جديد حول المشكلة في كتابه «قراطيلس» سوى أنه حاول التوفيق بينهما[1].

٢ ـ عند الغرب المسيحي في العصور الوسطى:

سيطرت النظرية التوقيفية في اللغة على التفكير المسيحي في القرون الوسطى سيطرة تامة. لكن برهانها لم يعد مستمداً من العقل، بل من النقل. وكانت حجة القائلين بها ما جاء في الاصحاح الثاني من سفر التكوين:

«وقال الرب الاله لا يحسن أن يكون الإنسان وحده فاصنع له عوناً بإزائه. وجبل الرب الاله من الأرض جميع حيوانات البرية، وجميع طير السماء، وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها، فكل ما سماه به آدم من نفس حية فهو اسمه. فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء وجميع وحش الصحراء بأسماء»[1].

غير أن هذه الآيات لا تنهض دليلاً قاطعاً على التوقيفية، بل قد يكون فيها ما يدل على ضدها، فظاهر الآية العشرين أن آدم هو الذي أعطى الحيوانات أسماءها، ولم يوح الله بها له.

ومع سيطرة التوقيفية لم نعدم أن نجد في هذه الفترة من حاول التوفيق بينها وبين التواطُئيّة كما فعل أفلاطون من قبل. نعني بذلك القديس غريغوريوس حيث يقول:

---

(١) انظر المرجع السابق، ص ٢٠-٢١.

(٢) الآيات ١٨-٢٠.

«أن يكون الله قد وضع في الطبيعة البشرية كل ملكاتها المألوفة، فهذا لا يعني أنه علة كل الأفعال المباشرة التي تقوم بها. أجل، لقد وضع فينا ملكة بناء البيت، كما وضع فينا الملكات المحققة للأفعال الأخرى. لكننا نحن البانون لا هو. وهكذا قل عن اللغة. فهي، قوةً،عمل الذي جبل طبيعتنا. إلا أن خلق الأسماء للأشياء يعود إلى الإنسان وحده[1]».

٣ ـ عند العرب:

تراوحت آراء العرب في هذه المشكلة بين التوقيفية والتواطؤية، والتوفيق بينهما.

فابن فارس يعقد أول باب من أبواب كتابه (الصاحبي) على القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح، فيقول[2]: «إن لغة العرب توقيف. ودليل عل ذلك قوله جل ثناؤه: «وعلم آدم الأسماء كلها».

إلا أنه لا يكتفي بالدليل النقلي، بل يحاول، أن يجد لدعواه دليلاً عقلياً يستمده من طريقة قياس الغابر على الحاضر، فيقول في معرض رده على من قال بالتواطؤ[3]: «وخلة أخرى أنه لم يبلغنا أن قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم».

«وقد كان في الصحابة، رضي الله عنهم، وهم البلغاء الفصحاء، من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به، وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو أحداث لفظة لم تتقدمهم».

«ومعلوم أن حوادث العالم لا تنقضي إلا بانقضائه، ولا تزول إلا بزواله، وفي ذلك دليل على صحة ما ذهبنا إليه من هذا الباب».

---

(١) عن كتاب فلسفة اللغة لكمال يوسف الحاج. ص ٢١.

(٢) ص ٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦-٧.

وقد ذهبت طائفة كبيرة من علماء العربية إلى أن اللغة اصطلاح لا إلهام. نعلم ذلك مما جاء في (الخصائص) بهذا الشأن حيث يقول[1]: «وأكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمةً ولفظاً إذا ذكر عرف به ما مسماه ليمتاز من غيره وليُغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره لبلوغ الغرض في إبانة حاله».

وحاول آخرون ــ منهم القاضي أبو بكر ــ التوفيق بين المذهبين ذاهبين إلى أن كليهما ممكن وقوعه. فقوله تعالى «وعلم آدم الأسماء كلها» يعني أن التعليم قد حصل بالإلهام، أي بالقوة. لقد وضع الله في الإنسان ملكة الخلق، ثم تركه يخلق على هواه. وإذا سلمنا أن الأسماء قد أعطيت لآدم بالتوقيف، فإن الذين جاءوا بعده لم يوقفوا عليها. لقد اصطلح أولاده من بعده على لغاتهم. والدليل على ذلك قوله تعالى «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه[2]».

وإلى جانب هؤلاءِ وأولئك نجد طائفة تقول بنظرية جديدة لم نسمع بها من قبل، لكن كلام ابن جني يشعر بقدمها وبكثرة القائلين بها.

ملخص هذه النظرية أن اللغة نشأت عن محاكاة الإنسان للأصوات الطبيعية التي حوله. يقول ابن جني[3]: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو الأصوات المسموعة، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل».

---

(١) ج ١ ص ٤٠-٤٤.

(٢) راجع كتاب (الإحكام في أصول الأحكام) لسيف الدين الآمدي، الجزء الأول، القسم الثاني، مصر ١٩١٤.

(٣) الخصائص ج ١، ص ٤٦-٤٧.

٤ ــ عند الغرب في العصر الحديث:

تناول المشكلة في العصر الحديث طائفتان من الرجال: فلاسفة راحوا يبحثون عن أصل اللغة في علاقة الكلمة بالوجدان والفكر، لا في علاقتها بالشيء المسمى كما فعل فلاسفة الإغريق من قبل، ولغويون راحوا يبحثون عن أصل اللغة في مجالات لغوية صرفة.

فأما الفلاسفة فقد انقسموا إلى ثلاث فئات:

١ ــ فئة انتهت إلى التواطؤية، ويمثلها الفيلسوف الإنكليزي **(لوك)**. وملخص نظريته ما يأتي:

الكلمات لا تعني (أشياء) بقدر ما تعني (أفكاراً). علاقتها بالباطن لا بالخارج. ولكن من أقام هذه العلاقة بين الكلمات والأفكار؟ أهو الله؟ أم هي طبيعة قضت أن يكون لكل فكرة كلمة تدل بجرس حروفها عليها؟ لا هذا ولا ذاك، ولو كان شيء منها صحيحاً لتكلم الناس جميعاً لساناً واحداً.. ولأثارت الكلمات عينها، في أذهان الجميع، المعاني ذاتها. إذن من أقام هذه العلاقة؟ إنه الإنسان. ولماذا؟ لأنه أراد أن يروّح عن نفسه. إنه أعطى أفكاره وعواطفه أسماءها لكي ينقلها إلى الآخرين فيخفف بذلك من لواعج نفسه.

وهكذا انتهى (لوك) إلى أمرين: إلى أن اللغة تواطؤ، ثم إلى أنها وسيلة لنقل الأفكار لا غاية.

٢ ــ وفئة انتهت إلى التوقيفية. وهذه يمثلها المفكر الفرنسي **(دي بونالد)**. وملخص نظريته ما يأتي:

اللغة هي الفكر نفسه وليست شيئاً آخر غيره. اللغة ليست مجموعة كلمات ترمز إلى أفكار، بل الكلمات هي الأفكار نفسها. إذا قلنا: نحن نفكر، فكأننا قلنا: نحن نلغو. ولو أن كائناً سُلب اللغة لسلب القدرة على التفكير أيضاً. وبناء على هذا يستحيل أن يكون الإنسان خالقاً للغة. لماذا؟ لسبب بسيط، هو أنه لكي يخلق الإنسان اللغة يجب أن يكون لديه فكرة واضحة عنها، فلا يعقل أن يخلق خالق شيئاً لا يملك عنه أية فكرة، ولكي توجد هذه الفكرة عن اللغة عند الإنسان

يجب أن يكون مفكراً، أي أن يكون لاغياً، ومغنى هذا أنه لكي يخلق الإنسان اللغة يجب أن يكون مالكاً للغة، وبعبارة أخرى: إن وجود اللغة شرط لخلق اللغة، أو: إن اللغة واجب وجود لمنشأ اللغة ذاتها. ولما كان هذا مستحيلاً على الإنسان فقد وجب أن تكون اللغة هبة من لدن الله.

وهكذا انتهى دي بونالد إلى أمرين: إلى أن اللغة توقيفية، ثم إلى أنها غاية لا واسطة.

٣ ــ وفئة ثالثة أرجأت عن هذه المسألة إلى المستقبل. وزعيمها الفيلسوف **(ليبنتز)** الذي رفض التواطؤية والتوقيفية على حد سواء، ودعا إلى القيام باستقراء شامل للألسن قبل الإجابة عن أي سؤال. فهو يقول:

إن الألسن بمثابة كتاب، علينا أن نحسن القراءة فيه، ولكي نحسن هذه القراءة ينبغي لنا أن نقرأ أولاً. إن الألسن أقدم تركة خلفها لنا التاريخ الإنساني. هي أقدم شاهد على حقيقة البشر. لهذا يحسن بنا أن نجيد الاستماع إلى هذا الشاهد الناطق. وكيف ذلك؟ إنه يكون بأن نحصي، قبل كل شيء، عدد الألسن في العالم، وبأن نقابل، بعد ذلك، بعضها ببعض، بالنسبة إلى الماضي، وإلى الحاضر، لكي نعرف المستقبل. إن الألسن كائنات حية تتطور وفق نواميس مخصوصة. هذه النواميس لا يمكن معرفتها قبلياً. معرفتنا بها يجب أن تكون بعدية، على غرار معرفتنا للأمور الطبيعية. متى أحصينا الألسن في العالم، ودرسنا كل لسان على حدة، ثم درسناه بالنسبة إلى غيره من الألسن، استطعنا أن نصل إلى نتيجة حاسمة في معرفة نشأة اللغة وعلاقتها بالفكر. فهذه الأسئلة لا يجاب عنها في أول الطريق، أجوبتها بعدية. عملنا اليوم يجب أن ينحصر في الاستقراء.. استقراء الوقائع واحدة واحدة قبل التسرع في إعطاء جواب تعسفي (١).

وأما اللغويون فقد انقسموا هم أيضاً إلى طوائف:

---

(١) راجع فيما يتعلق بآراء الفلاسفة في اللغة كتاب فلسفة اللغة لكمال يوسف الحاج ص ٢٤-٢٩.

١ ــ طائفة ذهبت تبحث عن أصل اللغة في ألسن الأقوام البدائية، وحجة هؤلاء، ومنهم العلامة **وتني**، إن هذه الألسن التي لم يصبها التطور بتغييرات كبيرة تمثل شكلاً قريباً من لغة الإنسان الأول، وتستطيع أن تعطينا فكرة عن أصل اللغة ونشأتها. وإذا لاحظ هؤلاء العلماء أن ألسن الأمم البدائية تشتمل على مفردات كثيرة تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه، قرروا أن اللغة نشأت عن طريق محاكاة الإنسان للأصوات الطبيعية التي كان يسمعها حوله.

وهذه النظرية قديمة، وقد ذكرها ابن جني قبل ألف عام، لكن القائلين بها اليوم يحاولون إقامة الدليل عليها من بحثهم في ألسن الأمم البدائية. ومع ذلك فقد تعرضت لنقد شديد من فندريس الذي يقول [1]: «المتوحشون ليسوا بدائيين، رغم الإسراف في تسميتهم بهذا الاسم في غالب الأحيان. فهم يتكلمون أحياناً ألسناً على درجة من التعقيد لا تقل عما في أكبر ألسننا تعقيداً، ولكن منهم من يتكلم لغات على درجة من البساطة تحسدهم عليها أكثر ألسننا بساطة. فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغيرات تغيب عنا نقطة البدء التي صدرت عنها. وإذا كان هناك من فرق بين ألسن الشعوب التي تسمى متحضرة وألسن المتوحشين، فهو في الأفكار التي تعبر عنها أكثر مما هو العبارة نفسها. فألسن المتوحشين في وسعها أن تفيدنا في معرفة ما بين الكلام والفكر من روابط، وليس في معرفة ما كانت عليه الصورة البدائية للكلام».

٢ ــ وطائفة راحت تبحث عن أصل اللغة بالنظر في الألسن القديمة، أو بمقارنة الألسن المعاصرة، للوصول عن طريق المقارنة إلى الكشف عن الألفاظ المشتركة بينها، ذاهبين إلى أن هذه الألفاظ المشتركة تمثل الرطانة الأولى التي نطق بها الإنسان القديم.

و يأتي على رأس هذه الطائفة العلامة الإلماني **(مكس مولر)** الذي بحث في أصول الكلمات في الألسن الهندية ــ الاوروبية. وظهر له بعد البحث أن مفردات هذه الألسن جميعها ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك، وأن هذه الأصول

---

(١) اللغة، ص ٣٠.

تمثل الرطانة الأولى التي انشعبت منها ألسن هذه الفصيلة، فهي لذلك تمثل اللغة الإنسانية في أقدم عهودها. وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معانٍ كلية، وأن لا تشابه مطلقاً بين أصواتها وأصوات ما تدل عليه من فعل أو حالة.

كان لما وصل إليه مولر من تحليله عدة نتائج: أولها أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن تقليداً لأصوات الطبيعة، خلافاً لما ذهب إليه أصحاب نظرية المحاكاة. إذ لو كان الأمر كما يقول هؤلاء، لوجب أن يكون بين هذه الأصول الهندية — الأوروبية وبين ما تدل عليه تشابه في الأصوات. فلما لم يكن هذا التشابه حاصلاً بطلت دعوى نظرية المحاكاة. ثانيها أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق، خلافاً لما ذهب إليه أصحاب النظرية التواطؤية، إذ لو كان الأمر كذلك، وهو ما تأباه طبيعة النظم الإجتماعية، لوجب أن يكون في أيدي المتواضعين وسيلة للتفاهم فيما بينهم، ولا يمكن أن تكون هذه الوسيلة اللغة الصوتية، لأن المفروض أن اللغة الصوتية هي موضوع التواضع وأول ما نطق به الإنسان، كما لا يمكن أن تكون لغة الإشارة، لأن هذه الأصول الهندية — الأوروبية، التي يدعى أن التواضع حاصل عليها، تدل على معانٍ كلية، أي على أمور معنوية يتعذر استخدام الإشارة الحسية للدلالة عليها. ثالثها، وهو الأهم، أنه إذا بطل أن اللغة الإنسانية كانت نتيجة تواضع واتفاق، وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية وأصوات الحيوانات والأشياء، لم يبق إذن إلا تفسير واحد معقول لهذه الظاهرة، وهو أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زود بها الإنسان في الأصل للتعبير عن مدركاته، وأن هذه الغريزة كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى، فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم، وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة، فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً حتى تلاشت، كما انقرض لهذا السبب كثير من الغرائز الإنسانية القديمة.

وعلى الرغم مما في نظرية الغريزة هذه من دقة وطرافة وعمق في البحث، فقد تعرضت لهجوم عنيف يمكن تلخيصه فيما يأتي:

أ ــ إن هذه النظرية لا تحل شيئاً من المشكلة التي نحن بصددها، بل تكتفي بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضاً، وهي مشكلة (الغريزة الكلامية).

ب ــ إن ما تقوله يعتبر من قبيل تفسير الشيء بنفسه، فكل ما تقوله يمكن تلخيصه في العبارة الآتية: «إن الإنسان الأول نطق اللغة لأنه كانت عنده غريزة النطق باللغة»، وهذا مجرد تقرير للمشكلة في صيغة أخرى وليس حلاً لها.

جـ ــ إن اللغويين مهما أوغلوا في تاريخ الألسن، فإنهم لا يصلون إلا إلى ألسن قد تطورت وتركت خلفها تاريخاً ضخماً لا نعرف عنه شيئاً. وإن فكرة الوصول إلى إعادة بناء رطانة بدائية بمقارنة ألسن موجودة بالفعل سراب خادع. إن أقدم الألسن المعروفة، حتى تلك التي تسمى (بالأمهات) لا شيء فيها من البدائية. ومهما اختلفت عن ألسننا الحديثة، فإنها لا تفيدنا علماً إلا بالتغيرات التي طرأت على اللغة، ولا تدلنا على شيء من كيفية نشأتها[1].

٣ ــ وطائفة راحت تبحث عن أصل اللغة بدراسة اللغة عند الأطفال وطرق اكتسابهم لألسن والديهم، أو بدراسة حالة الأفراد الذين خلقوا صماً بكماً عماً، وظلوا صدراً من حيواتهم منقطعين عن العالم الخارجي إلى أن تعلموا لغة اللمس[2].

غير أن جهود هذه الطائفة لم تسفر عن نتيجة حاسمة، لأن الأطفال لا يمثلون الإنسان الأول في شيء، فالإنسان الأول (خلق) اللغة مدفوعاً بضرورات اجتماعية، أما الأطفال فلا يخلقون اللغة في أدوار حيواتهم الأولى، إنهم يكتسبون لسان الوالدين فقط، وهو لسان تام متكامل قد مضت عليه قرون من التطور والترقي. وحالة الأطفال ترينا كيف يُكتسَب اللسان، ولا تعطينا أي فكرة عن

(١) انظر فندرس: اللغة، ص ٢٩-٣٠. والوافي: علم اللغة، ص ٩١-٩٤.

(٢) من أشهر هؤلاء الفتاة الأميركية هيلين كيلر. فقد ولدت وليس معها غير حاسة اللمس للاتصال بالعالم الخارجي، ومع ذلك فقد تعلمت عدة ألسن وكتبت بها.

كيفية نشأة اللغة الأولى. أما الصم البكم العمي فهم يشكلون حالة شاذة. ولا يمكن للحالة الشاذة أن تكون مقياساً لميلاد اللغة الأولى ميلاداً طبيعياً.

وأخيراً، كيف السبيل إلى معرفة أصل اللغة وكيفية نشأتها الأولى؟

هناك تجربة مضمونة النتائج حاسمة الجواب في هذه المشكلة. يقترح علينا فندريس إجراءها وإن كان يحكم بسخف التفكير فيها، يقول[1]: «في أحضان المجتمع تكونت اللغة. ولدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم، وتنشأ من احتكاك بعض الأشخاص الذين يملكون أعضاء الحواس و يستعملون في علاقاتهم الوسائل التي وضعتها الطبيعة تحت تصرفهم: الإشارة إذا أعوزتهم الكلمة، والنظرة إذا لم تكف الإشارة. فالاختبار الذي يمكن إجراؤه... هو أن يوضع طفلان، أو عدة أطفال بعضهم مع بعض يجهلون جهلاً تاماً كل شيء عن اللغة بعد إقصائهم إقصاء تاماً عن كل مؤثر تعليمي. عندئذٍ، إذا غضضنا النظر عما قد يكون عندهم من استعدادات موروثة، فليس من شك، مهما كانت جنسيتهم، في أن يخلقوا بفطرتهم لغة لحسابهم الخاص. وهذه اللغة لن تكون (الفرنسية أو الإنكليزية أو غيرهما). ذلك بأن الحاجة توجه العضو حتماً إلى الفعل. ولا بد أن الأشياء عند البدء وقعت على هذا النحو».

---

(١) اللغة، ص ٣٥.

الألسن في العالم

كم يبلغ عدد الألسن في العالم؟

الإجابة الدقيقة عن هذا السؤال عسيرة جداً إذا لم تكن متعذرة. وسبب ذلك عدة أمور أهمها:

١ ــ إن مفهوم (اللسان) مفهوم غير محدد، فما يعده بعض العلماء لساناً واحداً يعده آخرون مجموعة ألسن، وهذا هو حال العربية ولهجاتها العاميات. إن رسم حدود لسان ما مشكلة لن يقدر لها أن تحل حلاً مرضياً. وقد صور ماروزو هذه المشكلة وحاول حلها بما يلي[1]: «إن مشكلة حدود اللسان هي كمشكلة كتلة الرمل تقريباً: فحبتان من الرمل لا تصنعان كتلة، وكذا الثلاث من الحبات والعشر والمائة، غير أن عشرة آلاف حبة تصنع كتلة، فعند أي عدد من الحبات تبدأ الكتلة؟ ليس هناك من جواب غير القول: في لحظة ما من لحظات تزايد عدد الحبات نحس أن ما أمامنا هو كتلة. وكذلك، هناك أوجه مختلفة من التعبير تجعل الأشخاص المتكلمين يقولون: نحن لا نتكلم (الفرنسية ذاتها) وهناك حد عنده يقول بعض الأشخاص المتكلمين عن بعضهم الآخر: إنهم لا يتكلمون (الفرنسية). إنها النقطة التي ينقطع عندها التفاهم تقريباً بين المتخاطبين».

لكن المشكلة لم تحل، لأن التفاهم لا ينقطع فجأة عند نقطة قابلة للتحديد، فشأن التفاهم كشأن كتلة الرمال تماماً. إذا تخاطبت مع أحد أصدقائي كان التفاهم بيننا تاماً، أما إذا تخاطبت مع رجل من الاسكيمو فسيكون التفاهم بيننا معدوماً. وبين حالتي التفاهم هاتين درجات غير متناهية. فعند أي هذه الدرجات يمكننا القول: ههنا حد بين لسانين؟

(١) .op. ciy., p. 54

٢ ــ يضاف إلى ذلك أن كثيراً من ألسن شعوب أفريقيا والسكان الأصليين للأمريكتين لم يدرس بعد. وهاتان القارتان، مع بعض الجزر في أوقيانوسيا، من أكثر المناطق تعقيداً من الناحية اللغوية.

لهذا وذاك لم يبق أمامنا إلا أن نقبل الإحصاء التخميني الذي يقدمه العلماء في هذا الصدد، والذي يحصر عدد الألسن المتكلمة في العالم بين رقمي ٢٥٠٠ - ٣٥٠٠ لسانٍ.

و يدخل في هذا الرقم ألسن شديدة التفاوت من حيث الأهمية وعدد الناطقين، فعلى حين يتكلم الصينية ثمانمائة مليون نسمة، لا نجد للكمشدالية، وهي لسان بعض سكان جزيرة كمشاتكا، غير ألفين فقط من الناطقين. وقد ظهر من الإحصاء الذي نشره تستبنيرعام ١٩٢٨ أن تسعة وعشرين لساناً فقط كان لكل منها ما يزيد على عشرة ملايين ناطق، أما عدد الألسن التي لها ثقافة من نوع ما فهو لا يزيد عن سابقه إلا قليلاً، إذ ليس في العالم إلا خمسون لساناً فقط لها أدب مكتوب. و ينخفض هذا العدد إلى نصفه إذا كنا بصدد الألسن ذات الأهمية من حيث اتساع رقعة الأرض التي تنتشر فيها، أو من حيث الانتاج الأدبي والعلمي الذي يكتب بها (١).

(١) انظر Perrot, op. cit. pp. 26-27.

تصنيف الألسن

في تصنيف ألسن العالم نظريات كثيرة، لكن أشهرها على الإطلاق اثنتان: نظرية شليغل، ونظرية مكس مولر.

١ ــ نظرية شليغل:

نظر هذا العالم إلى الألسن من حيث الطرق المختلفة التي تسلكها للتعبير عن الأفكار فوجدها على ثلاثة أنواع:

أ ــ ألسن متصرفة أو تحليلية: Flexionnelles, ou Analytiques

وتمتاز هذه الطائفة بأن الكلمات فيها متصرفة، أي تتغير ابنيتها فتتغير معانيها، وبوجود أدوات نحوية تقوم بوظيفة الربط بين أجزاء الجملة، وتحدد عمل كل جزء فيها، ونسبته إلى الأجزاء الأخرى. فأما التصرف فمثاله من العربية (كتب ــ يكتب ــ أكتب ــ كتاب ــ مكتوب ــ كتابة ــ كُتيب ــ كُتُب ــ كاتب)، وأما أدوات الربط فمثالها الواو والباء في قولنا (كتب زيد وخالد كتاباً بالقلم).

ب ــ ألسن لصقية أو وصلية أو تركيبية:

Agglutinantes, ou Agglomerrantes, ou Synthétiques

وتمتاز هذه الطائفة بأن تغير معاني الكلمات فيها لا يتأتى عن طريق تغيير الصيغة، بل عن طريق لصق أحرف بأول الكلمة أو بنهايتها، فما ألصق بالأول سمي صدراً Prefixe، وما لصق بالآخر سمي عجزاً Suffixe وبهذه الصدور والأعجاز تتوصل هذه الطائفة من الألسن إلى ربط أجزاء الجملة وبيان علاقة كل جزء منها بالآخر.

جـ ــ ألسن عازلة: Isolantes

وتمتاز هذه الطائفة بأن كلماتها غير قابلة للتصرف لا عن طريق تغيير البنية والصيغة ولا عن طريق لصق حروف زائدة. فكل كلمة من كلماتها تلزم صورة واحدة لا تتغير، وتدل على معنى ثابت لا يتبدل. كما أن هذه الألسن محرومة من الأدوات النحوية التي تربط أجزاء الجملة وتدل على علاقة كل جزء منها بما عداه، وهي تضع كلماتها في الجملة بعضها إلى جانب بعض، أما وظائف الكلمات وعلاقاتها فتفهم من ترتيبها أو من السياق.

فمن الطائفة الأولى العربيةُ وجميع الساميات والهنديات ـــ الأوروبيات، ومن الثانية اليابانيةُ والتركية، ومن الثالثة الصينيةُ وكثير من ألسن الشعوب البدائية.

وتدعي هذه النظرية أن اللغة الإنسانية كانت في أول نشأتها من النوع العازل، ثم ارتقت فاصبحت من النع اللاصق، ثم أوغلت في الرقي حتى صارت من النوع المتصرف، وإن الألسن التي لا تزال حتى اليوم عازلة أو لاصقة هي ألسن وقفت في نموها عند مرحلة من مراحل التطور فلم تتجاوزها.

هذه النظرية لم تلق التأييد الكامل من علماء اللغة، بل أن أكثرهم يرفضها لكثرة الشواهد الدالة على فسادها، إذ ظهر لهؤلاء أن التصريف واللصق والعزل طرق ترى في كل لسان، ولا يختص بإحداها لسان دون آخر، فالعربية، وهي أكثر الألسن اعتماداً على التصريف، تلجأ في بعض الأحيان إلى اللصق للتعبير عن المعاني الجديدة، ونظرة واحدة إلى الفعلين (جاوز ـــ تجاوز) ترينا أنه لا فرق بينهما في التاء التي ألصقت بالفعل الثاني لتعدل بعض التعديل في معناه. كذلك تلجأ في بعض الأحيان إلى طريقة العزل مستغنية عن الأدوات النحوية بالترتيب لإفادة المعنى وبيان العلاقات بين أجزاء الجملة، فقولنا: (ضرب موسى عيسى) ليس فيه ما يفيد فاعلية موسى ومفعولية عيسى سوى الترتيب الذي جاءت عليه الكلمتان.

وما قيل عن العربية يقال مثله عن سائر الألسن. فكلها تستعمل التصريف واللصق والعزل ولكن بنسب مختلفة.

لهذا السبب لا يمكن قبول هذا التصنيف، كما لا يمكن التسليم بأن اللغة الإنسانية سلكت في تطورها هذا الطريق الذي ذكر.

٢ ــ نظرية مكس مولر:

نظر هذا العالم إلى الألسن من حيث وجوه الاتفاق والاختلاف في نواحي المفردات وقواعد الصرف والنحو، فتبين له أن بعض هذه الألسن يشبه بعضها الآخر شبهاً قوياً كالشبه الذي يكون بين الإخوة في الأسرة الواحدة، فقرر تصنيفها إلى أسر يجمع بين أفراد كل أسرة منها وجوه من الشبه توحي بوحدة الأصل لأفراد هذه الأسرة.

وكان أن قسم ألسن العالم إلى أسر ثلاث:

١ ــ أسرة الألسن الهندية ــ الأوروبية:

وهي أكثر الأسر اللغوية عدد ألسن وناطقين، كما أنها حظيت باهتمام خاص من علماء اللغة الغربيين لانتماء ألسنتهم القومية إليها.

وأشهر ألسنتها: الإغريقي، واللاتيني، والإيطالي، والفرنسي، والإسباني، والبرتغالي، والروماني، والإرلندي، والألماني، والهولندي، والروسي، والفارسي، والسنسكريتي، والأرمني، والألباني، والحثي، والطوخاري.. الخ [١].

وبعض الشعوب الناطقة بهذه الأسرة هي أرقى الشعوب مدنية في العصر الحاضر، وأعظمها نشاطاً، وأكبرها شأناً، وأكثرها إنتاجاً في مختلف فروع الحياة، وأجلها أثراً في الحضارة الإنسانية الحديثة.

وهذه الأسرة اللغوية هي أكثر الأسر انتشاراً، إذ يتكلم بها الآن جميع سكان أوروبا وأمريكا وأستراليا وجنوب أفريقيا ما عدا بعض جماعات قليلة من سكان هذه المناطق، كما يتكلم بها قسم كبير من سكان آسيا كالهنود والفرس والأفغانيين والأكراد والأرمن.. الخ.

---

(١) انظر جدول الألسن الهندية ــ الاوروبية.

ويرجع الفضل في انتشار هذه الأسرة إلى عوامل كثيرة أهمها الغزو والاستعمار، فعلى أثر غزو الآريين للهند انتشرت ألسنهم في هذه البلاد وقضت على ألسن السكان الأصليين فيها، وعلى أثر استعمار الأوروبيين لأمريكا وأوستراليا وجنوب أفريقيا انتقلت إلى هذه المناطق الألسن الإنكليزية والإسبانية والفرنسية.

أما الموطن الأول لهذه الأسرة فلا يعرف شيء يقيني عنه، وقد ذهب العلماء بصدده مذاهب كثيرة تعتمد في معظم نواحيها على الحدس والتخمين، وفي نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمي: فمن قائل إنها نشأت بأوروبا الشرقية بالمناطق الروسية، ومن قائل إنها نشأت بمناطق بحر البلطيق.

وتمتاز هذه الأسرة بكثرة شعبها، واتساع هوة الخلاف بين أفرادها، وقد سلك كل لسان من ألسنها سبيلاً يختلف عن سبيل غيره فكثرت وجوه الخلاف بينها، وتضاءلت وجوه الشبه، حتى إن بعضها ليبدو غريباً عن بعض، ولا تظهر صلة قرابته به إلا بعد تأمل عميق، ويرجع السبب في ذلك إلى عوامل كثيرة أهمها اختلاف البيئات التي انتشرت فيها هذه الأسرة، واختلاف الشئون الاجتماعية التي اكتنفت الناطقين بكل شعبة منها. وقد ترتب على هذه العوامل أن اختلف كل لسان منها عما عداه في درجة رقيه ومبلغ بعده عن أصوله الأولى. فمنها ما لا يزال جامداً على خصائصه القديمة كاللسان الليتواني، ومنها ما قطع في طريق الارتقاء أشواطاً بعيدة كالألسن الأوروبية الحديثة (الألماني، والفرنسي، والإنكليزي) (١).

٢ ـ الأسرة الحامية ـ السامية:

وتتألف هذه الأسرة من مجموعتين من الألسن: المجموعة السامية، والمجموعة الحامية.

---

(١) انظر الوافي: علم اللغة: ص ٨٣-٨٤.

أما المجموعة الأولى فأشهر ألسنها العربي، والآرامي، والعبري، والكنعاني، والأكّدي، واليمني، والحبشي. وسنتكلم على هذه المجموعة بشيء من التفصيل فيما بعد، لأنها المجموعة التي ينتمي لساننا العربي إليها.

وأما المجموعة الثانية فأشهر ألسنها المصري القديم، والقبطي، والبربري، والكوشيتي، وغيرها.

ومن هذا يظهر أن المنطقة التي تشغلها الأسرة الحامية ــ السامية أصغر كثيراً من المنطقة التي تشغلها الأسرة الهندية ــ الأوروبية. كما أن الناطقين بهذه الأسرة لا يتجاوز عددهم اليوم أكثر من مائة وثلاثين مليوناً من البشر. ولكنها تمتاز بأن منطقتها متماسكة الأجزاء لا يتخللها أي عنصر أجنبي، ويتألف من الناطقين بها مجموعة شديدة التجانس تتلاقى شعوبها في أصول واحدة قريبة، وتتفق في أساليب الحياة، ونوع الحضارة والنظم الاجتماعية (١).

٣ ــ الأسرة الطورانية:

وتضم ما بقي من ألسن آسيا وأوروبا مما لا يدخل في الأسرة الهندية ــ الأوروبية أو في الأسرة الحامية ــ السامية.

وأشهر أفرادها اللسان الصيني، والياباني، والتركي، والمغولي، وهلم جراً.

وليس بين أفراد هذه الأسرة وجوه شبه في المفردات ولا في القواعد. وإنما جعلت أسرة من قبيل الاصطلاح وتسهيل الدراسة فقط.

هذا التصنيف الثلاثي لم يلق الرضى التام من علماء اللغة، لأنه ضم في الأسرة الحامية ــ السامية مجموعتين من الألسن دلت الدراسات الحديثة على أنه لا نسب يربط بينهما أبداً، ولأنه ضم في الأسرة الطورانية ألسناً شديدة التباعد ليس بينها وجه واحد من وجوه الشبه، ولأنه أهمل كثيراً من ألسن العالم فلم تدخل فيه، مثل ألسن كثير من الشعوب الإفريقية، والأسترالية، والأمريكية.

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ١٨٦.

لهذه الأسباب أدخل المحدثون من علماء اللغة تعديلاً طفيفاً على هذا التصنيف، ثم أتموه بإضافة ما بقي من ألسن العالم فأصبح على الشكل التالي:

١ ــ الأسرة الهندية ــ الأوروبية.
٢ ــ الأسرة السامية.
٣ ــ الأسرة الحامية.
٤ ــ الأسرة اليابانية.
٥ ــ الأسرة الكورية.
٦ ــ لسان الأينو.
٧ ــ الأسرة الصينية ــ التيبتية.
٨ ــ الأسرة الأسترالية ــ الآسيوية.
٩ ــ الأسرة الدرافيدية.
١٠ ــ الأسرة القوقازية الشمالية.
١١ ــ الأسرة القوقازية الوسطى.
١٢ ــ الأسرة الآسيوية القديمة (منها اللسان السومري).
١٣ ــ الأسرة التركية والمغولية والمنشورية.
١٤ ــ الأسرة الفينية.
١٥ ــ لسان الباسك.
١٦ ــ الأسرة الهيبيربورية.
١٧ ــ الأسرة الملايوية ــ البولينيزية.
١٨ ــ ألسن سكان أستراليا الأصليين.
١٩ ــ ألسن سكان أمريكا الأصليين.
٢٠ ــ ألسن السودان وغانة.
٢١ ــ الأسرة البنطوية.
٢٢ ــ ألسن البوشيمان والهوتنتوت والنيجريين [١].

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب علم اللغة للوافي، ص ١٨٠-١٩٧.

الساميون والألسن السامية

قبل الدخول في البحث عن الساميين وألسنتهم يجب أن ننبه إلى ما يأتي: في نظرية تصنيف الألسن إلى أسر افتراضان أو دعو يان: أولاهما أن الألسن التي من أسرة واحدة قد انحدرت عن لسان واحد هو أب لها جميعاً، أو هو سلف أعلى لها، والثانية أن الشعوب الناطقة بألسن أسرة واحدة شعوب يجمع بينها وحدة عنصرية دمو ية.

وإذا كانت الدعوى الأولى مما لا يمكن إقامة الحجة له أو عليه، لبعد العهد بأصول هذه الألسن وإيغالها في الزمن إلى ما قبل التاريخ، فإن الدعوى الثانية قد ظهر فسادها بشواهد من التاريخ كثيرة. فما أكثر الشعوب التي تنطق اليوم بالاسبانية في أميركا اللاتينية وليس بين هذه الشعوب و بين الإسبان صلة من دم أو عرق. وما يقال عن الناطقين بالإسبانية في أمريكا يقال مثله عن الناطقين بالفرنسية في إفريقية، وعن الناطقين بالانكليزية في اقطار متفرقة من العالم. بل إن الشعب الفرنسي نفسه أوضح مثال على فساد هذه الدعوى: فهذا الشعب، كما هو ثابت تاريخياً، ينحدر عن مجموعتين من القبائل، هما قبائل الفرنك، وقبائل الكلت، و يسكن أرضاً لم تكن لأسلافه، وهي بلاد الغال، ثم يتكلم بلسان مشتق من اللسان اللاتيني الذي لا علاقة له ببلاد الغال ولا بقبائل الفرنك.

إن إقامة علاقة ضرورية بين الأصل العنصري لشعب ما و بين اللسان الذي يتكلم به لم تعد من الأمور المسلمة لدى علماء اللغة اليوم، فقد ثبت لهم بشواهد كثيرة لا ترد أنه يحدث أن يترك شعب لسانه القومي و يتخذ لنفسه لساناً آخر لأسباب سياسية أو اجتماعية أو غير ذلك.

كانت هذه المقدمة ضرورية لكي لا يفهم القارىء من كلمة الساميين أننا نتحدث عن أقوام تجمع بينهم وحدة النسب. بل نزيد على ذلك، فنقول: إن

بعض المؤرخين اليوم يشكك في سامية العبريين، و يعتقد أنهم طرأوا على المنطقة من مكان مجهول، ثم اختلطوا بأهلها وهجروا لسانهم الذي كان لهم من قبل، وتكلموا بلسان جيرانهم من الكنعانيين، ثم تطور هذا اللسان الكنعاني في أفواههم فكان منه ما سمي باللسان العبري.

ونحن ــ وإن كنا لا نميل إلى الأخذ بهذا الرأي قبل قيام الحجج الكافية والبراهين القاطعة على صحته ــ فإننا نعرضه ههنا لتأكيد أنه لا صلة لازمة بين الأصل العنصري لشعب من الشعوب وبين اللسان الذي يتكلم به هذا الشعب.

* * *

وبعد، فمن الساميون؟ وما ألسنتهم؟

تطلق كلمة الساميين على مجموعة من الأمم سكنت منذ غابر الأزمان أجزاء من غرب آسيا وشرق إفريقيا، هي، على سبيل الحصر، الجزيرة العربية، والشام، والعراق، وسيناء، وبلاد الحبشة.

وأول من أطلق هذه التسمية هو العلامة شلوتسر في أبحاثه وتحقيقاته في تاريخ الأمم الغابرة سنة ١٨٧١. وقد أخذها من الجدول الخاص بأنساب نوح عليه السلام الواردة في التوراة(١)، هذا الجدول الذي ينص على أن سام بن نوح هو أب لكل من الآشوريين والآراميين والعرب... الخ. ثم تابعه في ذلك من جاء بعده من علماء اللغة والتاريخ. وعلى الرغم من مآخذ بعضهم على هذه التسمية، فإنها «أصلح وأوفق ما اهتدى إليه العلماء لتسمية كتلة الأمم التي كانت تقطن في بلاد آسيا الدنيا، والتي كونت وحدة... لغوية مستقلة(٢).

أما الألسن السامية فهي جملة الألسن التي تكلمت بها الأمم السامية، سواء منها ما غبر واندثر كالأكّدية والسبئية وغيرهما، وما لا يزال باقياً حتى اليوم كالعربية والعبرية والسريانية. وهي ألسن تجمع بينها وجوه كثيرة من الشبه توحي بوحدة الأصل لها جميعاً، وبأنها كانت في غابر الأزمان لساناً واحداً، أو لهجات

---

(١) سفر التكوين، الاصحاح العاشر.

(٢) ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، ص ٣.

متعددة للسان واحد. هذا اللسان السامي الأول المفروض لا نعلم عنه شيئاً، وكل الجهود التي بذلها العلماء لمعرفة شيء يقيني عنه ذهبت أدراج الرياح، واقتنعوا أخيراً «أن من العبث إطالة البحث في أمر غامض مجهول نشأ ونما في عصور سبقت العصور التاريخية[1]».

ولما كانت نظرية الأسر اللغوية تفترض وحدة الأصل العرقي للأمم الناطقة بألسن من أسرة واحدة تساءل العلماء عن الموطن الأصلي لهذا الشعب السامي الأول الذي تفرعت عنه الشعوب السامية. وقد ذهب العلماء في الجواب عن هذا السؤال مذاهب شتى:

فبعضهم يزعم أن المهد الأصلي للساميين إنما هو أرض أرمينية بالقرب من حدود كردستان. بل يذهب **(نولدكه)** إلى القول أن هذه المنطقة هي المهد الأصلي بلأمم السامية والأمم الهندية الأوروبية جميعاً.

أما العلامة **(غويدي)** فيذهب إلى أن جنوب العراق على نهر الفرات كان المهد الأول للساميين، ويبرهن على صحة دعواه بسرد طائفة من الكلمات وجدت في كل الألسن السامية وهي ذات علاقة قوية بطبيعة تلك المنطقة. إلا أن نولدكه يعارضه في هذه النظرية معارضة شديدة ويقول إن من العبث أن نعتمد في اثبات حقيقة كهذه على جملة كلمات ليس ما يثبت لنا أن جميع الساميين أخذوها عن أهل العراق، ثم يذهب في تأييد معارضته إلى سرد بعض كلمات عن الحيوان والعمران كانت ولا شك عند جميع الأمم السامية من أقدم الأزمنة مثل (جبل وصبي وخيمة وشيخ وأسود وضرب) ويقول: فهذه المعاني تختلف تسميتها، فكل لسان سامي منها يسميها باسم يغاير الاسم الذي يطلقه عليه اللسان الآخر، مع أنها أجدر المعاني بأن يكون لها لفظ مشترك في كل الألسن السامية، لأنها كانت موجودة عند الجميع حين كانوا أمة واحدة وحين تفرقوا أمماً شتى[2].

ويزعم بعضهم أن بلاد الحبشة هي الموطن الأول للساميين، كما يزعم

---

(١) المرجع نفسه ص ٤.

(٢) المرجع نفسه ص ٥.

غيرهم أن هذا الموطن كان بلاد اليمن أو القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب.

غير أن أرجح الأقوال، والذي يكاد الاجماع ينعقد عليه من أكثر المحققين هو أن جزيرة العرب ـ من غير تحديد لمنطقة من مناطقها ـ كانت الموطن الأصلي لكل الشعوب السامية و يستدلون على ذلك بأمور منها أن التاريخ القديم قد صرح بخروج كثير من الأمم السامية من هذه الجزيرة مثل الأكديين والآراميين والكنعانيين وغيرهم، ومنها أن جميع الأمم السامية تغلب عليها صفات البداوة، والأخلاق والطبائع الصحراوية، ولا تفسير لذلك إلا أن تكون هذه الأمم قد عاشت أدوار حياتها الأولى في منطقة صحراوية، وهذه المنطقة هي جزيرة العرب لا غيرها. و يذهب بعض أصحاب هذا الرأي إلى أن جميع الأمم السامية هم من العرب، وأنهم خرجوا من جزيرتهم إلى ما يجاورهم من البلاد في شكل موجات بشرية بين كل واحدة وواحدة ما يقرب من ألف سنة، وأن أول هذه الموجات كانت موجة العرب المسلمين.

وإليك موجزاً لتاريخ الأمم السامية وألسنتها:

١ ـ الأكديون ولسانهم:

هكذا يسميهم علماء اللغة ناسبين إياهم إلى المنطقة التي سكنوها في جنوب العراق والتي عرفت باسم (أكَّد)، أو إلى لسانهم السامي الذي كانوا يتكلمونه والذي سموه هم باللسان الأكَّدي كما تُظهر ذلك بعض النقوش المسمارية. و يسميهم آخرون بالبابليين نسبة إلى بابل التي بنوها وجعلوها عاصمة لهم. كما يسميهم آخرون بالكلدانيين نسبة إلى إحدى الأسر التي حكمت بابل خلال تاريخها الطويل. وهناك من يطلق عليهم إسم البابليين ـ الأشوريين جامعين تحت هذا الاسم كل القبائل السامية التي سكنت العراق إثر الموجة السامية الأولى. فأما البابليون فهم سكان بابل والجنوب، وأما الأشوريون فهم سكان آشور في الشمال.

هؤلاء القوم، على اختلاف الأسماء التي ذكرناها لهم، هم قبائل سامية خرجت من الجزيرة العربية، أو من ناحية سورية ــ على خلاف في ذلك ــ إلى العراق فأقامت فيه. وكان ذلك حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد.

فأما الجنوبيون منهم فقد أسسوا مملكتهم في جنوبي العراق، وبنى أشهر ملوكهم، وهو سركون الأول (حوالي ٢٨٠٠ قبل الميلاد) عاصمته باب إل (بابل) أي باب الله التي غدت أشهر مدينة في العالم القديم. وامتد نفوذ هذه الدولة حتى شمل كل العراق وسورية وفلسطين، ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط، وانتقل إلى جزيرة قبرص.

ولم تكن منطقة جنوب العراق خالية من السكان قبل مجيء الساميين إليها، بل كان فيها شعب يسمى الشعب الشومري نسبة إلى شومر، وهي المنطقة الجنوبية من العراق المسايفة للخليج العربي. وهذا الشعب الشومري المقهور لا يعرف عنه العلماء شيئاً: فهو ليس سامياً ولا هندياً ــ أوروبياً. وتاريخ هجرته إلى هذه المنطقة مجهول، كما أن لسانه لا يدخل في إحدى الأسر اللغوية المعروفة، لذلك ضمه علماء اللغة إلى أسرة الألسن الأسيوية القديمة، كما ذكرنا سابقاً.

غير أن العلماء عرفوا جوانب أخرى من حياة هذا الشعب الغامض، فقد ظهر لهم من النقوش المسمارية التي بقيت لنا منه أنه كان ذا حضارة راقية في الحساب والفلك والتشريع لا تقل عن حضارة قدماء المصريين المعاصرين له، وإن هذه الحضارة كانت الأساس الذي بنى عليه الساميون الوافدون حضارتهم الخاصة.

لم ينقرض الشومريون بمجيء الساميين إلى العراق، بل ترك لهم البابليون الفاتحون منطقة شومر سكناً لهم، وهي منطقة تمتد من جنوب مدينة بابل إلى الخليج العربي. وفي فترات ضعف البابليين كان نفوذ هؤلاء الشومريين يقوى، بل إنهم استولوا على بابل نفسها في بعض الأحيان ومدوا نفوذهم حتى الشمال.

هذا ما جرى للساميين في الجنوب، أما في الشمال فقد أسست قبائلهم مملكة كانت عاصمتها آشور، وهي بلدة صغيرة تقع في المنطقة المسماة باسمها، والمحصورة بين نهري الزاب الصغير والزاب الكبير، ثم انتقلت العاصمة إلى مدينة

كالاح حوالي سنة ١٢٩٠ قبل الميلاد إلى أن جاء الملك سركون الآشوري فجعل العاصمة مدينة نينوى التي صارت ذات مكانة عظيمة وشهرة كبيرة.

كانت أشور أول عهدها خاضعة لحكم بابل أو لنفوذها الديني والفكري على الأقل. وفي عهد ملكها شلمنأسر الأول (حوالي ١٣٠٠ ق. م) استقلت ثم اصبحت المنافس الخطير لبابل، بل لقد نشبت حروب طاحنة بين المملكتين الأختين دامت مدة ألف سنة، لكنها انتهت بنصر بابل وخراب مدينة نينوى العظيمة.

* * *

معلوماتنا عن اللسان الأكَّدي قليلة جداً إذا ما قورنت بما نعرفه عن ألسن سامية أخرى كالعربي مثلاً، وذلك لأن المادة اللغوية التي وصلتنا لهذا اللسان عن طريق النقوش المسمارية قليلة جداً. فهذه النقوش على كثرة ما اكتشف منها حتى الآن، ضئيلة المادة بسبب تشابه الموضوعات التي طرقتها. يضاف إلى ذلك أن الخط المسماري الذي استعير من اللسان الشومري لكتابة اللسان الأكَّدي قد أخفى كثيراً من المعالم الصوتية لهذا للسان الأخير. ومع ذلك يمكننا أن نوجز ما نعرفه عن اللسان الأكَّدي فيما يأتي:

أ ــ ظل اللسان الأكَّدي بعيداً عن ميادين الثقافة زمناً طويلاً بعد توغل الأكَّديين في العراق، وفي أثناء ذلك كان اللسان الشومري هو لسان الثقافة والدين والعلم للشومريين والأكَّديين على السواء.

ب ــ بعد أن رسخت أقدام الأكَّديين في العراق، وشعروا بالعزة في كل ما يتعلق بأمورهم، بدأوا يكتبون لسانهم السامي البابلي بالخط الشومري المسماري. وقد مر هذا الخط في مرحلتين: مرحلة تصويرية كانت فيها العلامة تعني فكرة، ومرحلة صوتية كانت فيها العلامة تعني مقطعاً صوتياً من مقاطع الكلمة. وعلى الرغم من صعوبة هذا الخط وشدة تعقيده كتب له من الذيوع والانتشار في العصور القديمة ما لم يكتب مثله إلا للخطين اللاتيني والعربي في العصور الحديثة، فقد ظل مستعملاً آلاف السنين عند أمم مختلفة، منها قبائل عيلم والفرس وأرمينيا

وفلسطين، حتى إن فرعون مصر آمون حوطف الرابع كان يراسل أمراء فلسطين بهذا الخط، كما أن اللسان الأكَّدي ظل يكتب به نحو ثلاثة آلاف سنة على أقل تقدير، أي إلى نحو قرن واحد قبل الميلاد حين أخذ هذا الخط يتوارى عن العيون[(١)].

جـ ــ تبين من فحص الخط المسماري أن أبجديته لا تحتوي إلا على ثمانية عشر حرفاً فقط وهي: أ ــ ب ــ ج ــ د ــ ز ــ ح ــ ط ــ ك ــ ل ــ م ــ ن ــ س ــ ب ــ ص ــ ق ــ ر ــ ش ــ ت.

أما حروف التضخيم كالطاء والظاء والضاد، وحروف الحلق كالحاء والعين والغين والهاء، وهي الحروف التي تعتبر من أبرز خصائص الألسن السامية، فلا أثر لها في الأبجدية المسمارية[(٢)].

وهنا يبرز سؤال خطير: هل فقد الأكديون هذه الأصوات السامية بسبب اختلاطهم بالشومريين والتواء ألسنتهم برطانتهم؟ أم أن الخط المسماري الذي صنع أول أمره ليعبر عن أصوات اللسان الشومري كان أضيق من أن يتسع لأصوات اللسان الأكَّدي، فظل الأكَّديون محافظين على أصوات لسانهم وإن كان الخط يضيق عن تمثيل هذه الأصوات؟

أكثر العلماء يميلون إلى ترجيح الأمر الثاني[(٣)].

د ــ ظل اللسان الأكَّدي في صراع عنيف مع اللسان الشومري مدة طويلة من الزمن. وكان لذلك أثر واضح في انحرافه بصورة محسوسة عن أصله السامي، ومع ذلك ظل محتفظاً بألفاظ سامية قديمة كثيرة لم يحتفظ بها اللسان العربي. مثل alpo (= بقرة) وpamati (= مكان مرتفع) وquaqudu (= جمجمة).. وغير ذلك.

هـ ــ ظل اللسان الأكَّدي محتفظاً ببعض مظاهر الإعراب الذي يعتقد أنه كان

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٤.

(٢) كذا يقول ولفنسون. وهو قول يتضارب مع الأبجدية الأكدية التي سردها، والتي نقلناها عنه، ففي الأبجدية نجد أصوات الحاء والطاء والصاد والقاف. فتأمل.

(٣) انظر المرجع نفسه ص ٣٩.

من خصائص اللسان السامي الأول، والذي تخلصت منه الألسن السامية ما عدا العربية الفصحى والأوغاريتية. وحركات الإعراب في الأكّدي اثنتان فقط هما الضمة والكسرة. ثم استغني عن الاثنتين بواحدة فقط هي الامالة نحو الكسر.

و ــ يكتب الخط المسماري باتجاه مخالف لبقية الخطوط السامية، أي من الشمال إلى اليمين.

ز ــ أبرز آثار اللسان الأكّدي في الألسن السامية الأخرى هو أسماء أشهر السنة الاثني عشر:

Nissanu	نيسّانو	نيسان
Iyaru	أيّرو	أيار
Simanu	سيمانو	حزيران
Duzu	دوزو	تموز
Abu	آبو	آب
Ululu	أولولو	أيلول
Tisritu	تشريتو	تشرين الأول
Arah samna	أرح سمنا	تشرين الثاني
Kislimu	كيسليمو	كانون الأول
Tebtu	طبتو	كانون الثاني
Sabatu	شباطو	شباط
Addaru	أدّارو	آذار(١)

٢ ــ الكنعانيون ولسانهم:

هم قبائل سامية يغلب الاعتقاد أنها خرجت من الجزيرة العربية نحو سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد واستوطنت بلاد الشام التي لا يشير التاريخ إلى أنها كانت مسكونة بأحد قبل وصول الكنعانيين إليها. ومع ذلك فإن المؤرخين يميلون إلى الظن

---

(١) راجع الباب الثاني من كتاب تاريخ اللغات السامية لولفنسون حيث ترى تفاصيل أخرى عن اللسان الأكدي، ونماذج من النقوش المسمارية.

بأن أقواماً مجهولين كانوا يسكنون هذه المنطقة، لأنه لا يعقل أن تكون الشام خالية من السكان قبل الكنعانيين وهي الطريق التجارية الوحيدة بين العراق شرقاً ومصر غرباً والأناضول شمالاً. ومهما يكن فليس هناك ما يؤكد أن البلاد الشامية المشهورة مثل صيدا وصور وحيفا والقدس كانت موجودة قبل الغزو الكنعاني.

أسس الكنعانيون مجموعتين من الممالك في الشام: مجموعة داخلية انقرضت سريعاً بوصول العنصر الآرامي والإسرائيلي، ومجموعة ساحلية ظلت تقاوم حتى القرن الأول الميلادي، كما أسسوا مستعمرات لهم في الخارج كان من أشهرها: مملكة قرطاجنة (قَرْت حَدشَ) أي (القرية الحديثة) في شمال أفريقيا.

تميز الكنعانيون عن سائر إخوتهم من الساميين بروحهم العملي، وبُعدهم عن التفكير الطويل بغير المحسوس. وانصب جل اهتمامهم على الزراعة والتجارة، بل إن (أرواد، وجبال، وصيدا، وصور) كانت في واقعها ممالك تجارية بالدرجة الأولى، شديدة الشبه بالجمهوريات التجارية الإيطالية التي تأسست بعد ذلك بمدة طويلة في مدن جنوى والبندقية وغيرهما.

* * *

معلوماتنا عن اللسان الكنعاني قليلة جداً، وذلك بسبب قلة النصوص التي خلفها الكنعانيون، إذ كان هذا الشعب قليل الاهتمام بتدوين حضارته على عكس أشقائه من الساميين. وعلى الرغم من أن قرت حدش (بالقرب من تونس الحالية) تعد أغنى المناطق بالآثار الكنعانية، فإن أقدم نقش عثر عليه فيها لا يعود إلى ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد. أما أقدم نقش كنعاني كشف في شمال سورية فيعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

على أن كل آثار اللسان الكنعاني، سواء ما وجد منها في وطنهم، وما وجد في مستعمراتهم، تدل على عظم قرب هذا اللسان من اللسان العبري، وهذا ما ساق بعض العلماء إلى الاعتقاد بأن العبري ليس إلا لهجة من لهجات الكنعاني، أو أن العبري والكنعاني لسان واحد لا اثنان.

وعلى كل حال، فإن أعظم ما قدمه الكنعانيون إلى العالم هي أبجديتهم الصوتية الهجائية التي مثلت كل صوت من أصوات اللغة بعلامة خاصة، والتي غدت أساساً لجميع ابجديات العالم المتمدن في الشرق والغرب. وأقدم شكل لهذه الأبجدية عثر عليه حتى الآن، هو ما كشف في سنة ١٩٢٦ في رأس شمرة على بعد بضعة كيلومترات شمال مدينة اللاذقية على الساحل السوري.

ويرتد تاريخ هذه الأبجدية الأوغاريتية (نسبة إلى المدينة الكنعانية القديمة التي جرى التنقيب في خرائبها) إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد [١].

٣ ــ العبريون ولسانهم:

يراد بالعبريين جملة الشعوب التي ترقى بأنسابها إلى ابراهيم الخليل عليه السلام، وهي: بنو يعقوب، وبنو اسماعيل، وبنو مدين، والعمالقة، وآل آدوم، واهل موآب وعمون. أما إذا أطلقت كلمة العبريين فلا تنصرف إلا إلى أبناء يعقوب وحدهم، أي بني اسرائيل.

وقد اختلف العلماء في معنى كلمة عبري: فمن ذاهب إلى أنها لقب كان لابراهيم الخليل بعد أن عبر النهر، ومن قائل إنها نسبة ابراهيم إلى أحد أجداده الذي عرف باسم عبر[٢]. لكن الأقرب إلى المعقول ما ذهب إليه اسرائيل ولفنسون[٣] من أن الكلمة كما يدل عليها اشتقاقها في اللسانين العبري والعربي تدل على الرحلة والتنقل، وأنها أطلقت على العبريين لأنهم كانوا بدواً لا يستقرون في مكان، وأنهم لما استوطنوا أرض كنعان (فلسطين)، وعرفوا المدينة والحضارة صاروا ينفرون من كلمة عبري التي تذكرهم بحياتهم الأولى، حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا باسم بني اسرائيل فقط.

كانت القبائل العبرية تتجول في صحراء سيناء وشمال الحجاز، ومن هذه

---

(١) للتوسع انظر الباب الثالث من المرجع السابق.

(٢) سفر التكوين، الاصحاح العاشر، الآية ١٥.

(٣) تاريخ اللغات السامية ص ٧٧-٧٨.

القبائل نجم بنو اسرائيل، ثم استولوا على فلسطين حوالي نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

و يقسم تاريخ بني اسرائيل إلى طورين: طور ما قبل السبي، وطور ما بعده. و يتألف الطور الأول من عصرين: عصر البداة، وعصر الملوك. فأما الأول فكان فيه بنو اسرائيل بداة، وكانت السلطة في أيدي زعماء القبائل، وقد انتهى هذا العصر في سنة ١٠٤٠ ق.م. وأما الثاني ففيه وحد بنو اسرائيل قبائلهم في دولة واحدة كان أول ملوكها شاؤل. كما اشتهر منهم داود وابنه سليمان. و ينتهي هذا العصر بسنة ٥٨٦ ق.م، وهي السنة التي هاجم فيها بختنصر البابلي فلسطين وخربها وسبى من بقي من بني اسرائيل حياً واجلاهم إلى بابل. وفي هذا العصر دونت أغلب أسفار الكتاب المقدس.

وفي طور ما بعد السبي حاول بنو اسرائيل استعادة ملكهم في فلسطين فاخفقوا أول الأمر، ثم نجحوا بتأسيس دولة المكابيين التي حكمت من سنة ١٤٠ — ٣٦ ق.م حين جاء الفتح الروماني. وفي هذا الطور كملت أسفار العهد القديم، واعتبر ما ألف بعده تأليفاً عادياً لا علاقة له بالالهام الديني.

و بعد هذا التاريخ لم يعد يسمع عن بني اسرائيل شيء باعتبارهم شعباً ذا قومية وسمات خاصة. والظاهر أنهم انقرضوا كما انقرض ابناء عمومتهم من العمالقة والموآبيين والمدينين وغيرهم، إما بسبب الحروب الطاحنة التي كانت تجري في أراضيهم بين دول الشرق والغرب، وإما بسبب امتزاجهم وذوبانهم في الشعوب المجاوة، ولاسيما الآراميين. وهذا هو الأرجح.

أما اليهود في العالم اليوم فليسوا بني اسرائيل الذين تفرقوا في البلاد بعد الفتح الروماني كما تدعي الصهيونية، وإنما هم امشاج من أمم شتى تهودت في أزمان مختلفة من التاريخ.

* * *

اللسان العبري ــ كما تقدم القول ــ شديد الشبه باللسان الكنعاني، بل إنه في الأزمنة القديمة لم يكن يعرف بهذا الاسم، فصحف العهد القديم تسميه مرة

باللسان اليهودي[١]، ومرة أخرى باللسان الكنعاني[٢]، ولم يعرف باللسان العبري أو اللسان المقدس إلا بعد السبي البابلي في كتاب حكم بن سيرا، وفي مصنفات المؤرخ اليهودي يوسف، وفي المشنا والتلمود[٣].

هذا، ووجوه الشبه بين العبري والعربي أكثر منها بين هذا الأخير وبين أي لسان سامي آخر. فكثير من قواعد النحو والصرف ومن المفردات هي هي في كلا اللسانين.

مر اللسان العبري في أطوار كثيرة بدلت كثيراً من سماته وخصائصه: ففي الفترة التي سبقت السبي البابلي تميز بالنقاء التام تقريباً من كل المؤثرات الآرامية، أما بعد السبي واحتكاك العبريين بالفرس والبابليين والآراميين واليونان والرومان فقد خضع لتطورات عنيفة، واحتشد بطائفة كبيرة من الألفاظ التي دخلته من ألسن تلك الأمم، وزاد الطين بلة أن العبريين بعد سراحهم من السبي اختلطوا بالآراميين واتخذوا من اللسان الآرامي لسان مخاطبة لهم بدلاً من لسانهم الخاص، فكان لهذا الواقع اللغوي أثر بارز في اللسان العبري.

وفي العصور الإسلامية تمتع اليهود في مصر والأندلس بحرية لم تكن لهم تحت الحكم المسيحي، فنما الأدب العبري وازدهر متأثراً بالأدب العربي شعراً ونثراً، وكان لهذا أثر بالغ في اللسان العبري.

أما عبرية اليهود الآن في أوروبا فتختلف اختلافاً بيناً عن العبرية القديمة، سواء في ذلك القواعد والمفردات والأصوات. وذلك بسبب من تأثيرات لغوية محلية. واليهود الذين يعيشون في الأرض المحتلة اليوم يقلدون اليهود الآخرين القادمين من أوروبا في كل عاداتهم اللغوية.

* * *

---

(١) ملوك ٢ إصحاح ٨ آية ٢٦. وأشعيا، إصحاح ٣٦ آية ١١.

(٢) أشعيا إصحاح ١٩ آية ٢٠.

(٣) ولفنسون: المرجع السابق، ص ٧٨.

كتبت العبرية بخطين: خط قديم مشتق من الخط الكنعاني، كان يسمى بالخط العبري، وظل مستعملاً حتى السبي البابلي، ثم خط حديث يشبه الخط الآرامي اتخذه العبريون بعد السبي. وعرف عندهم بعد أن ارتقى بالخط المربع، أو الخط الآشوري. وهو المستعمل حتى اليوم.

«وكان اليهود قديماً ــ كجميع الأمم السابقة ــ لا يكتبون الحركات المعروفة الآن، بل كانت لديهم حروف مجردة من الحركات، ثم أخذوا يستعملون بعض الحروف كعلامات للحركات تساعدهم على ضبط النطق وحفظ الكلمات من التحريف. وكانت الألف والهاء والواو والياء هي التي تقوم بهذه الوظيفة. فجرَّ ذلك إلى حدوث تغيير في هجاء الكلمات وزيادة في حروفها باعدت بينها وبين أصل اشتقاقها.

«... ثم أصبحت هذه الحروف لا تكفي لضبط النطق في كل الكلمات، وخشي اليهود أن تنقرض لغتهم بسبب ذلك فاخترعوا نظام الحركات.

«وقد كان في القرن الخامس والسادس بعد الميلاد جملة نظم كاملة لهذه الحركات، ولكن الذي اشتهر منها نظامان اثنان، عرف الأول منهما بالنظام العراقي، وعرف الثاني بالنظام الطبري، نسبة إلى مدينة طبرية بفلسطين. وهو المألوف إلى الآن(١)»

٤ ــ الآراميون ولسانهم:

هم قبائل سامية هاجرت من الجزيرة العربية إلى نواحي بلاد الشام حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد. أي بعد ألف سنة من هجرة الكنعانين الذين سبقوهم.

«وكما أن أسباب هجرة الأرهاط الآشورية والبابلية والكنعانية من بلاد الجزيرة العربية لا تزال مجهولة إلى الآن، كذلك لا نعلم شيئاً من تلك الأسباب التي حملت القبائل الآرامية المتوحشة على الخروج من بلادهم المقفرة(٢).

---

(١) ولفنسون، المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٥.

ولم يكن الفتح الآرامي اجتياحاً بقدر ما كان تسللاً بطيئاً جداً استمر في مدى قرون طويلة. ولكنه استطاع آخر الأمر، ورغم المقاومة العنيفة التي لقيها من الآشوريين والكنعانيين وبني اسرائيل ــ استطاع أن يسيطر سيطرة تامة على كل المنطقة، وأن يطبعها بطابعه الخاص، سواء من الناحية اللغوية، أم من الناحية العنصرية، وغدا اللسان الآرامي لسان الأدب والفكر لكل سكان العراق والشام وجزء من الأناضول لعدة قرون.

* * *

كان لانتشار الآراميين في بقعة شاسعة من الأرض أثر في انقسام اللسان الآرامي إلى عدد من اللهجات قسمها المستشرقون إلى كتلتين: تشتمل أولاهما على لهجات بلاد العراق الجنوبية والشمالية، وتعرف بالآرامية الشرقية، وتشتمل ثانيتهما على اللهجات الآرامية في الشام وسيناء، وتعرف بالآرامية الغربية.

وإليك الكلام على كل من لهجات الكتلتين:

أ ــ التدمرية:

التدمريون بطون من القبائل الآرامية تميزت بقوة الشكيمة واستطاعت أن تؤسس لنفسها في تدمر دولة قوية ذات نظام جمهوري شبيه بنظام الجمهوريات الاغريقية. وقد بلغت هذه الدولة أوج مجدها بين سنتي ١٣٠ ــ ٢٧٣ بعد الميلاد. حتى صارت بعد ذلك في أيام أذينة وزوجته زنوبيا ذات شهرة وقوة كبيرة أشاعت القلق في نفس روما.

كان التدمريون يلهجون بلهجة آرامية فيها تأثيرات عربية كثيرة تتمثل في الاعلام خاصة، إذ كثيراً ما نجد في نقوشهم أعلاماً عربية مثل: زبيدة، ومقيم، وأذينة، ووهب اللات... الخ.

ب ــ النبطية:

اختلف العلماء في نسب النبط، أعربي هو أم آرامي؟

قال بعضهم: هم آراميون، بدليل اتخاذهم الآرامية لغة لهم في نقوشهم.

وقال آخرون: هم عرب بدليل أعلام رجالهم وأصنامهم، مثل: العزى، وشيع القوم، واللات، وأمة اللات، وأذينة، وأسد، وأوس، وعبدة، وأوس الله، و يرغوث، و بكر، وحنظل، ورجب، وعمرو، وعمر، وعميرة، وعدي، ولطم، وكعب، ومعن، وجذيمة، و وهب.. وهلم جراً. أما آرامية نقوشهم فتفسيرها أنهم اتخذوا الآرامية لسان كتابة وأدب على حين كانت العربية لسانهم القومي المستعمل في التخاطب.

و يؤيد هؤلاء رأيهم بدليل آخر، وهو أن النبط (و يسميهم العرب بالأنباط أيضاً) انتشروا في بلاد عربية حتى عرفت مملكتهم في سيناء باسم بترا العربية (Arabea petraea).

ويحاول ولفنسون التوفيق بين الرأين فيقول: (١)

«نحن لا نطمئن إلى هذين الرأيين، لأننا لا نستطيع أن نعتقد أو نرجح أن جميع النبط كانوا عرباً خلصاً أو آراميين صرفاً».

«فلا شك أن هناك عناصر نبطية آرامية أصلية، كما أن هناك عناصر نبطية عربية. و يظهر أن ارهاط النبط الفاتحين كانوا من الآراميين، ثم بعد استقرارهم في طور سيناء اختلطوا بالعرب، فظهرت هناك طبقتان: واحدة آرامية أصلية، وأخرى عربية كثرت عناصرها إلى أن تغلبت بالتدرج على العناصر الآرامية ومحتها محواً تاماً، وبقيت لغة الحضارة هي اللغة الآرامية التي كانت في تلك العصور لغة العمران عند جميع أمم الشرق الأدنى».

وإذا رجعنا إلى العرب لنعلم رأيهم في الموضوع لم نظفر بشيء حاسم قاطع. فكل الأخبار تشعر بأن العرب كانوا ينظرون إلى النبط على أنهم أعاجم لا عرب. و بيت أبي العلاء واضح الدلالة على ذلك:

أيـن امـرؤ الـقـيـس والـعـذارى ... إذ مـال مـن تـحـتـه الـغـبـيـط
إسـتـنـبـط الـعُـرب في الموامي (٢) ... بـعـدك واسـتـعـرب الـنـبـيـط

(١) المرجع نفسه، ص ٣٥.
(٢) الموامي: جمع موماة، وهي الفلاة.

غير أن هذه الأخبار نفسها توضح أن اختلاف لهجة النبط على العربية الفصحى لم يكن أكثر من اختلاف أي لهجة عربية أخرى عنها، فالجاحظ يحدثنا أن النبطي «يجعل الزاي سيناً، فإذا أراد أن يقول: زورق، قال: سورق، ويجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول: مشمعلّ، قال مشمئل.. وقيل للنبطي: لِمَ ابتعتَ هذه الاتان؟ قال: أركبها وتلَد لي. فقد جاء بالمعنى بعينه، ولم يبدل الحروف بغيرها، ولا زاد فيها ولا نقص، ولكنه فتح المكسور حين قال: تلَد لي، ولم يقل: تلِد لي[1]..»

مهما يكن من أمر جنس النبط فالذي لا شك فيه أن النقوش النبطية التي كشفت في ناحية العلى بالحجاز، وفي بترا بسيناء، وفي منطقة بصرى بالشام والتي يرتد أقدمها إلى سنة ٣٣ ق.م، وأحدثها إلى ما بعد زوال الدولة النبطية في سنة ١٠٦ ب.م ــ نقول إن كل هذه النقوش قد كتبت بلسان آرامي لا يمت إلى العربية بصلة.

* * *

كانت التدمرية والنبطية من اللهجات الآرامية الغربية. أما اللهجات الآرامية الشرقية فهي ثلاث:

أ ــ اللهجة الآرامية اليهودية:

وكان يستعملها اليهود في جنوب العراق، في بابل ونواحيها:

ب ــ اللهجة الآرامية في شمال العراق:

ومركزها مدينة حران. وقد أخذت هذه اللهجة تتدهور وتنهزم أمام العربية إلى أن انقرضت في القرن التاسع بعد الميلاد.

جـ ــ اللهجة السريانية:

وكان مركزها في مدينة أودسا (واسمها بالسريانية أورهي، وعرفت عند

---

(١) البيان والتبين ج ١، ص ٦٧، ط مصر.

العرب باسم الرهاء، واسمها اليوم أورفا). والسريانية اسم أطلقه الإغريق على الآراميين، وقد رحّب الآراميون المسيحيون بهذا الاسم، وفضلوا أن يعرفوا به بدلاً من اسمهم الأول الذي كان يذكرهم بأيام وثنيتهم.

هذا ولا تزال السريانية حية حتى اليوم على شفاه عدد قليل من سكان سوريا ولا سيما في قرية معلولا القريبة من دمشق.

٥ ــ الجعزيون ولسانهم:

منذ أزمان بعيدة لا يمكن تحديدها نزحت قبائل سامية من بلاد اليمن إلى الحبشة واسست لها ملكاً عاصمته مدينة أقسوم التاريخية دام حتى سنة ١٢٧٠ بعد الميلاد.

كانت هذه القبائل تسمى بالجعزية ــ ومعنى اسمهم الأحرار ــ وكانت تتكلم بلسان سامي شديد الشبه باللسان السبئي، حتى إن بعض المستشرقين عد اللسانين لساناً واحداً.

* * *

اللسان الجعزي إذن لسان سامي. وقد لاحظ المستشرقون أنه حافظ على عناصر سامية قديمة لم يبق لها أثر في جميع الألسن السامية الأخرى، ولا سيما في الأساليب، فإنها في اللسان الجعزي قديمة في تراكيبها ونظامها. كذلك هناك أشياء أخرى تدل على أن الجعزية حافظت على أقدم الصور السامية في حين قد أضاعها غيرها فمن ذلك عدم وجود تمييز بين المذكر والمؤنث في الأسماء.. كما تنقص الجعزية أداة التعريف[١].

٦ ــ الأمحاريون ولسانهم:

في حوالي القرن الحادي عشر للميلاد ظهر في الحبشة عنصر جديد أمكنه أن يتغلب على دولة أقسوم الجعزية في سنة ١٢٧٠، وكون لنفسه مملكة جديدة على أنقاض الحكم الغابر تحت أسرة تدّعي نسباً يرقى إلى الملك سليمان وملكة سبأ.

---

(١) ولفنسون: المرجع السابق، ص ٢٦٢.

كانت هذه الأمة الجديدة تسمى بالأمحارية، وعرفت أسرتها الحاكمة بالسليمانية، وهي الأسرة التي لا تزال تحكم الحبشة حتى اليوم.

* * *

اللسان الأمحاري من الألسن السامية، لكن الصبغة الحامية فيه قوية جداً. وقد بقي هذا اللسان بعيداً عن ميدان الثقافة والفكر الذي ظل اللسان الجعزي يحتله مدة طويلة بعد حكم الأمحاريين، ثم استطاع أن يتغلب على هذا الأخير ويحتل مكانه حتى بات هو اللسان الغالب اليوم في الحبشة، وبه تحرر اليوم صحفها، وهو اللسان الرسمي للدولة. أما الجعزية فقد توارت وانهزمت وغدت مجهولة حتى بين رجال الدين وعلماء الحبشان.

* * *

وفي الحبشة اليوم، إلى جانب الأمحارية لهجات بعضها مشتق من الجعزية القديمة، وبعضها لهجات من الأمحارية نفسها.

فمن لهجات الجعزية اثنتان تسمى أولاهما باللسان التيجري، وتسمى الثانية باللسان التجرائي. وأهالي هذين اللسانين من المسلمين وكان انتشار الإسلام بين أهالي هذين اللسانين سبباً في مقاومتها للسان الأمحاري المسيحي مقاومة شديدة. وقد سادت الأمحارية، أو كادت، جميع مناطق الحبشة إلا منطقة أقسوم، موطن التيجري والتجرائي، فلا تزال فيه عاجزة كل العجز.

ومن لهجات الأمحارية لهجة أهل مدينة هرر التي يبدو فيها التأثير العربي واضحاً بسبب إسلام أهلها، ثم لهجة أهل جافات، وقبائل أرجوبا.

٧ ـ العرب ولسانهم:

العرب هم سكان شبه الجزيرة المعروف باسمهم. ولا نعلم الزمن الذي سكن فيه العرب شبه الجزيرة هذا، والظاهر أنهم كانوا سكانه الأصليين منذ عصور ما قبل التاريخ.

وتطلق كلمة (عرب) على جميع سكان الجزيرة، سواء الحاضر منهم والبادي،

خلافاً لولفنسون الذي يرى أن الكلمة لم تكن تطلق إلا على البادين وحدهم، وأن أهل الحضر كانوا ينسبون إلى قبائلهم أو أمصارهم، أو مناطقهم (١). والذي حمل هذا الباحث اليهودي على هذا الظن وجود شبه بين كلمة (عرب) وكلمة (عبر) التي تدل على التنقل في العربية والعبرية معاً. ودليلنا على ما ذهبنا إليه أن العرب كلهم لم يكونوا يخصون كلمة (عرب) بقوم منهم دون قوم، فإذا أرادوا التفريق بين ساكن البادية وساكن الحاضرة قالوا: أعرابي ومهاجر، وفوق هذا، نجد أقدم المؤرخين من الأجانب لا يعرفون سكان أمصار الجزيرة العربية إلا بأنهم عرب، فشيخ المؤرخين هيرودوت الذي عاش فيما بين ٤٩٠-٤٢٤ ق.م يسمي اليمن ببلاد العرب، فيقول، وبلاد العرب في نهاية المعمورة الجنوبية. وفيها وحدها يوجد اللبان والمر والدارصيني واللاذن. و يكابد العرب الشدائد في جني هذه النباتات.. ويقول سترابو الروماني: وفي الجنوب تبتدئ بلاد العرب السعيدة.. (٢)

فلو كان الأمر على ما ذهب إليه ولفنسون لما سمى هذان المؤرخان أهل اليمن بالعرب، وهم كما نعرف، سكان مدن وأمصار، وأهل زراعة وصناعة، لا بدو رعاة متنقلون.

* * *

ينقسم اللسان العربي إلى عدد من اللهجات، بعضها عاش في الجنوب وبعضها الآخر عاش في الشمال، وبعضها باد واندثر، وبعضها لا يزال حياً حتى اليوم.

وقد اختلف المستشرقون في أمر قسمة هذه اللهجات، فأكثرهم يعتمد القسمة الجغرافية إلى شمالية وجنوبية، وبعضهم يفضل القسمة التاريخية إلى بائدة وباقية. والذي نراه أن كلتا القسمتين صالحة، فكل هذه لهجات عربية للسان عربي واحد، ولا داعي للخلاف حول ترتيبها لا طائل تحته.

---

(١) تاريخ اللغات السامية ص ١٦٤-١٦٦.

(٢) المرجع نفسه ص، ٢٣٣، ٢٣٦.

وإليك عرضاً لأهم هذه اللهجات مع تاريخ موجز للناطقين بها:

أ ــ اللهجة الثمودية:

ثمود قوم من العرب ذكرهم القرآن الكريم، وذكر مساكنهم التي حل بها الدمار بسبب كفرهم وعنادهم.

والمعلومات التاريخية عن هؤلاء القوم قليلة جداً، وهي على قلتها شديدة الغموض كثيرة التضارب، فروايات المؤرخين من العرب تشعر أن ثمود بادت قبل ظهور الإسلام باحقاب طويلة، بينما يقرر آخرون أن جموعاً من الثموديين وجدوا في نواحي العلى إلى عهد غير بعيد من ظهور الإسلام [١]. و بينما يقرر بطليموس أن مساكن ثمود هي مدينة (أمن) والأراضي الواقعة في جنوب العقبة إلى نواحي شمال ينبع بالقرب من المويلح، نرى الجغرافي بلينوس الذي سبق بطليموس بنحو (٢٥٠) سنة يقرر أن مساكن ثمود هي في جنوب مكة إلى تهامة العسير.

ولا مخرج من هذا التضارب إلا بالقول: إن ثمود كانت في عهد بلينوس تسكن في جنوب الحجاز، ثم هاجرت إلى شمال الحجاز في عهد بطليموس.

وعلى كل حال فإن الأخبار تجمع على أن الثموديين كانوا أولي بأس شديد. فقد ذكرت مصادر موثوق بها حروباً طاحنة كانت بينهم وبين سركون ملك آشور، كما تنص كتابات مسمارية على أن هذا الطاغية الأشوري أجلى البطون الثمودية الثائرة من بلاد العرب إلى مدينة غزة بفلسطين [٢]، و يذكر بعضهم أن الثموديين كانوا يمتازون بالقوة والعظمة، حتى كان الرومان يستأجرون منهم الجنود والعساكر في حروبهم [٣].

واللهجة الثمودية، كما تظهر من خلال النقوش الثمودية المكتشفة في مواطن ثمود (شمال الحجاز) وفي نجد وشبه جزيرة سينا، لهجة عربية صميمة لا تختلف

---

(١) المرجع نفسه ص ١٧٥.

(٢) Homel: Die Babylonische Assyrische Geschichte, p. 702
عن تاريخ اللغات السامية ص ١٧٤.

(٣) Geographie Arabiens, Sprenger p. 8 عن تاريخ اللغات السامية، ص ١٧٥.

عن لهجة قريش الفصحى إلا في أمور يسيرة جداً. وإليك كلمات نقش ثمودي وجد على قبر، و يعود تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي:

ذن ــ لقض ــ بنت ــ عبد ــ منت.

أي هذا (القبر) لقيض بنت عبد مناة.

ب ــ اللهجة اللحيانية:

بنو لحيان بطون من العزب كانت تسكن في عهد بلينوس ــ أي في القرن الأول بعد الميلاد ــ في شمال الحجاز بين ينبع وإيلة إلى نواحي العلى وهضبات خيبر. و يقول هذا الجغرافي: إن مدينة العلى كانت عاصمة لهم. وقد عثر جلازر ودوتي على نقوش لحيانية كثيرة في هذه المنطقة (١).

و يرى بعضهم أن بطون لحيان كانت منقسمة إلى جملة دو يلات صغيرة: بعضها في شمال الحجاز، وكان مستقلاً، و بعضها في مشارف الشام والعراق، وكان تحت النفوذين الفارسي والرومي. «ويحتمل أن هذه الدو يلات كانت النواة الصالحة التي نبتت منها هاتان الدو يلتان العربيتان في القرن الخامس والسادس بعد الميلاد في الحيرة على شاطىء الفرات، وفي نواحي دمشق في سلطان المناذرة والغساسنة (٢).

وقد باد اللحيانيون قبل الثموديين بزمن طو يل.

ومعلوماتنا عن اللهجة اللحيانية قليلة جداً. لأن النقوش التي كتبت بها لا تزال عصية على التفسير، فعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها المستشرقون لحل رموز النقوش اللحيانية وتفسيرها، ظلت هذه النقوش غامضة في كثير من كلماتها ومصطلحاتها، لأنها أجزاء من نقوش لا نقوش كاملة، وأكثرها لا تتجاوز كلماته الثلاث أو الأ ربع.

على أنه مما لا ريب فيه أن اللهجة اللحيانية عربية بحتة، ففيها حروف الذال والثاء والغين والضاد، مما لا يرى إلا في اللسان العربي من بين كل الألسن

(١) ولفنسون: المرجع السابق. ص ١٧٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٣.

السامية، كما عثر فيها على أفعل التفضيل وعلامة التنبيه التي هي من الخصائص البارزة للسان العربي[1].

ج ـ اللهجة الصفوية:

لا نعلم أن هناك قوماً من العرب يسمون بالصفويين، ولكنها تسمية اصطلاحية من المستشرقين أطلقوها على جملة النقوش العربية التي لا يعرف شيء عن القوم الذين كتبوها، والتي كشفت في الحرة الواقعة بين جبل الدروز وتلول أرض الصفاة.

ويعتقد الأستاذ ليتمان أن الكتابات الصفوية ترجع إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد، ويستدل على ذلك باستعمال الصفويين اسم (أذينة) زوج الزباء الذي عاش في القرن الثالث بعد الميلاد، ولم يكن العرب يستعملون هذا الاسم من قبل.

واللهجة الصفوية لهجة عربية خالصة، بدليل استعمالها كلمات عربية مثل أسد، ولث (ليث)، ولبأة (لبؤة)، وغزالي (غزال)، وابل، وجمل، وبكر، ومهر، ومهرة، وحمار، وضأن، وماعز، وبقر، ووعل، وضبع، وضب، وقنفذ، وورل، واللات، وشيع القوم. الخ. لكن نعثر فيها على شوائب نبطية وآرامية بسبب اختلاط أهلها بالأنباط والآرام، ويظهر ذلك من النقش الصفوي التالي:

لبرد ــ بن ــ أصلح ــ بن ــ أبجر ــ وشتى ــ هدر ــ وذبح ــ فهلت ــ سلم.

أي: لبرد بن أصلح بن أبجر، وشتى (في) هدار (= هذه الدار، أي هذا المكان) وذبح (ذبيحة) فهلات (ــ فيا أيتها اللات) سلام.

د ــ اللهجة الجاهلية:

وهذه تسمية اصطلاحية أيضاً نطلقها على لهجة أربعة نقوش عربية كشفها المستشرقون في منطقة غير بعيدة عن منطقة الصفاة، ويرتد تاريخ أقدمها إلى سنة

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٧.

٣٢٨ ب.م و يرتد أحدثها إلى سنة ٥٦٨ ب.م أي إلى قرن واحد فقط قبل ظهور الإسلام.

وأهم هذه النقوش وأقدمها هو نقش النمارة الذي كشف في مدفن امرئ القيس بن عمرو ملك العرب. وقد دون هذا النقش في سنة ٣٢٨ بعد الميلاد كما ذكرنا آنفاً. فـأما النمارة فكانت قصـراً للروم في الحرة الشرقية من جبل الدروز، وأما امرؤ القيس فكان واحداً من ملوك الحيرة انتشر نفوذه على بادية الشام.

وفيما يلي كلمات النقش مع ترجمتها إلى الفصحى.

(١) تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب ذو اسر التج.

(٢) وملك الاسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذ حجو عكدي وجا.

(٣) بزجي في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه.

(٤) الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه.

(٥) عكدي. هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده.

أي:

(١) هذه نفس (قبر) امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلها ذو (ذو الطائية بمعنى الذي) أسر (= حاز) التاج.

(٢) وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم وهرب (= هزم) مذحجاً عكدي (هذه الكلمة غامضة. و يقول العلامة ليتسبرسكي أنها تدل على القوة. فيكون المعنى: أنه هزم: مذحجاً بقوته. أقول: وفي لهجة حلب العامية كلمة تشبهها هي كلمة عكّيد. بالكاف المشددة المجهورة، ومعناها البطل الشجاع) وجاء.

(٣) (إلى) بزجي في حبج نجران مدينة شمَّر وملك معداً ونزَّل (أنزل) بنيه.

(٤) الشعوب (نزل بنيه الشعوب أي أنزل كل ولد من بنيه ملكاً في شعب). ووكله الفرس والروم. فلم يبلغ ملك مبلغه.

(٥) عكدي (أي في الحول والقوة). هلك سنة ٢٢٣ [1] يوم ٧ من كسلول (= كانون الأول) ليسعد الذي ولده. (أي ولده أو الذين ولدوه).

ولغة النقش كما ترى عربية خالصة سوى أنها تحتوي على بعض الكلمات الآرامية مثل (نفس) بمعنى قبر، وأنها تسير على الطريقة الآرامية باضافة الواو إلى نهايات الإعلام مثل نزرو ومذحجو ومعدو (نزار، مذحج، معد). وهذا وذاك كان من تقاليد الكتابة لذلك العهد بسبب سيطرة الثقافة الآرامية على المنطقة كلها يومذاك. ولا يزال أثر من هذه التقاليد باقياً في قواعد الرسم عندنا، وذلك في كتابة كلمة (عمرو) التي نضيف إليها واواً تكتب ولا تلفظ.

هـ ــ اللهجات العربية الجنوبية:

وهي المعينية والسبئية والقتبانية والاوسانية والحضرمية وغيرها.. واشتهر منها اثنتان: أولاهما المعينية، وهي أقدم من سائرها، وهي لسان مملكة معين التي من مدنها المشهورة قرناو وَ يِثِل، والثانية السبئية، وهي لسان مملكة سبأ التي عاصمتها مدينة مأرب الشهيرة [2].

وتاريخ هذه الأقوام القحطانية شديد الغموض، و يعين في أكثر الأحيان تعييناً تقريبياً، كما يختلف المستشرقون حول أمور كثيرة منه.

ومع ذلك، اتفق جملة من فحول هؤلاء المستشرقين على أن معين هي أقدم دولة في اليمن، و يعتقد هومل أن سقوط هذه الدولة كان في الفترة التي بين القرنين الثامن والتاسع قبل الميلاد. وكان يعاصر هذه الدولة كل من سبأ وحضرموت وقتبان، إلا أن سبأ استطاعت أن تقضي على كل الدول الأخرى، وظلت السيادة لها في اليمن زمناً طو يلاً استغرق عهود بابل وآشور والفرس واليونان والرومان إلى أن قوضها الأحباش سنة ٣٧٥ ب.م. لكن سبأ ما عتمت أن اتحدت مع جميع

---

(١) مبدأ هذا التاريخ هو دمار مملكة النبط سنة ١٠٦ ميلادية. فيكون هلاك امرىء القيس سنة ٣٢٩ب.م.

(٢) انظر مقدمة كتاب المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة. تأليف العلامة اغناطيوس غو يدي.

العناصر القومية في اليمن وطردت الأحباش من ديارها تحت قيادة الملك (كرب). وكان قد تهودت ذريته حوالي سنة ٤٠٠ بعد الميلاد وسميت بالحميرية، ثم استمر حكم هذه الأسرة الحميرية المتهودة إلى عهد ذي نواس الذي انهزم أمام الأحباش سنة ٥٢٥ ب.م.

وحكم الأحباش بلاد اليمن من سنة ٥٢٥ إلى سنة ٥٧٠ ب.م. حين دخلتها الجيوش الفارسية التي بقيت فيها إلى أن حررها الإسلام من الحكم الأجنبي.

واللهجات العربية الجنوبية شديدة التشابه، حتى ليمكن القول إنها جميعاً لهجة واحدة، والفروق بين أكبر اثنتين منهما وهما المعينية والسبئية لا تتعدى بعض الألفاظ والضمائر والحاق النون بالفعل. فعلى حين تجعل السبئية ضمير المفرد الغائب هاء كما في الفصحى، تجعله المعينية سيناً: (كتابهُ ــ كتابسُ). وتعدي السبئية فعلها الثلاثي بزيادة الهاء: (هراق ــ أراق) بينما تجعل المعينية، ومثلها القتبانية والحضرمية، تجعل التعدية بزيادة السين، فبدلاً من (هراق) تقول (سراق).. وهكذا[1].

وعلى كل فاللهجات العربية اليمنية جميعها لهجات عربية صحيحة لا تختلف عن اللهجة الفصحى بأكثر مما تختلف فيه لهجتا تميم وقريش أو أسد وهذيل. وسنرى جانباً من مفردات هذه اللهجات وقواعدها في الفصل القادم.

و ــ اللهجة الفصحى:

وتسمى أحياناً بالقرشية لغلبة خصائص لهجة قريش عليها، كما تسمى أحياناً أخرى بالحجازية، وذلك لأن عامة القبائل الحجازية لم تكن تختلف لهجاتها عن لهجة قريش في شيء.

ومهما يكن من أمر التسمية فإن ما نعنيه بالفصحى هو هذه اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم، والتي بها جاء الحديث الشريف، والشعر الجاهلي، والتي لا نزال حتى اليوم نتخذ منها لسان أدب وعلم ودين.

---

(١) انظر غويدي: المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة.

وهذه الفصحى ليست لهجة قبيلة عربية معينة وإن سميت في بعض الأحيان بالقرشية، بل هي مزيج لطيف من اختيار أنيق لخصائص لهجات عربية كثيرة أهمها القرشية والتميمية.

وفيما يلي جدول لأهم الاختلافات بين هاتين اللهجتين الكبيرتين وما اختارته الفصحى منهما:

الحجازية القرشية	التميمية	الفصحى
تَعلم (بفتح حرف المضارعة)	تِعلم (بكسر حرف المضارعة) (١)	ح (٢)
ما هذا بشراً (بإعمال ما)	ما هذا بشرٌ (باهمال ما)	ح
ليس الطيب إلا المسكَ (بالإعمال)	ليس الطيب إلا المسكُ (بالإبطال)	ح
كم بلدٍ زرتُ!!	كم بلداً زرتُ!!	ح
كاس، بوس، بير (بالتسهيل)	كأس، بؤس، بئر (بالنبر)	ت
أغضض من صوتك (بفك الإدغام)	غض من صوتك (بالإدغام)	ح
ولا تمنن تستكثر (بفك الإدغام)	ولا تمنَّ تستكثر (بالإدغام)	ح
زهَد، حقَد... (بفتح العين)	زهِد، حقِد... (بكسر العين)	ح ت
إتّقى، إتصل. (بهمزة الوصل)	تقى، تصل. (بطرحها (٣))	ح
يفرُغ فروغاً... (بضم العين)	يفرَغُ فراغاً.. (بفتحها)	ح ــ ت
برأتُ فأنا براء	برئت فأنا بريء	ح ــ ت
قلوت البُرَّ أقلوه قلواً (بالواو)	قليت البُرَّ أقليه قلياً (بالياء)	ت
لات الشيءَ يَليته (بالتجريد)	ألات الشيء يُليته (٤) (بالزيادة)	ح ــ ت
تخذتُ ووخذتُ	إتخذت	ت
أوصدت الباب (بالتصحيح)	آصدت الباب (بالاعلال)	ح
وكَّد توكيداً	أكدَ تأكيداً	ح ــ ت
حِصاد قِطاف... (بالكسر)	حَصاد قَطاف... (بالفتح)	ح ــ ت
حِج البيت (بالكسر)	حَج البيت (بالفتح)	ح ــ ت
مِرية (بالكسر)	مُرية (بالضم)	ح

(١) وهي لغة عامة العرب ما عدا الحجاز.

(٢) حرف الحاء رمز لموافقة الفصحى للهجة الحجاز، كما أن التاء رمز لموافقتها للهجة تميم.

(٣) وفي هذا توافق التميمية اللهجات السبئية والمعينية وغيرها كما سنرى في الفصل القادم.

(٤) معنى لات الشيء وألاته نقصه حقه. قال تعالى: لا يلتكم من أعمالكم شيئاً (الحجرات ١٤) وقال أيضاً: وما ألتناهم من عملهم من شيء (الطور ٢١).

الحجازية القرشية	التميمية	الفصحى
كراهة	كراهية	ح ــ ت
المذْيُ (بالتخفيف)	المذيُّ (بالتشديد)	ح
الشفع والوِتْر (بكسر الواو)	الشفع والوَتْر (بالفتح)	ح
إسوة وقِدوة... (بالكسر)	أسوة وقُدوة (بالضم)	ت
مبيع، مدين...	مبيوع، مديون...	ح
ذلك، تلك	ذاك، تاك	ح ــ ت
أولاء (بالمد)	أولى (بالقصر)	ح ــ ت
منذ	مذ	ح ــ ت
لفام، فوم (بالفاء)	لثام، ثوم (بالثاء)	ح ــ ت
إنّ، أن... (بالهمزة)	عِنّ عنّ (بالعين)	ح
فاظت نفسه... (بالظاء)	فاضت نفسه (بالضاد)(١)	ت
فحصتُ برجلي (بالتاء)	فحصط برجلي (بالطاء)	ح
ساق (بالسين)	صاق (بالصاد)(٢)	ح
كُشطت السماء	قُشطت السماء	ح
الذين	اللذون	ح
حيث	حوث(٣)	ح

يتبين لنا من الجدول السابق أن الفصحى أخذت من لهجة تميم كما أخذت من لهجة قريش، إلا أن ما أخذته من لهجة قريش كان أكثر. وهي في كل الأحوال كانت تؤثر من كلتا اللهجتين ما هو أكثر رقياً وصقلاً وقرباً من الرقة واللطافة.

---

(١) يستنتج الدكتور صبحي الصالح أن الظاء هي لغة الحجاز مطلقاً، وأن الضاد هي لغة تميم مطلقاً، إلا أن الفصحى اختارت الظاء في بعض الألفاظ واختارت الضاد في بعضها الآخر.

(٢) يلاحظ أن تميماً تميل الى تفخيم الأصوات وتضخيمها على حين تميل قريش الى ترقيقها، وهذا الاختلاف أثر من اختلاف البيئتين البدوية والحضرية.

(٣) للتوسع في هذا الموضوع راجع المخصص لابن سيده، والمزهر للسيوطي، والخصائص لابن جني، واللهجات العربية لابراهيم أنيس، ودراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح، والصاحبي لابن فارس، كما تجد أطرافاً منه في كتب النحو والقراءات، ولا سيما كتاب سيبويه.

ز ــ لهجات عربية أخرى:

وهناك لهجات عربية أخرى، بعضها قديم مثل لهجات قبائل أسد وطيء وذهل وهذيل وغيرها، وبعضها حديث كلهجات الشام والعراق ومصر والمغرب وغيرها. ولن نتحدث عن هذه اللهجات بشيء، لأن ذلك يخرج بنا عن موضوع كتابنا أولاً، ولأن أغلب هذه اللهجات لم يدرس حتى اليوم دراسة علمية صحيحة.

شبهات حول العربية

حين يتحدث المستشرقون عن اللهجات الجنوبية (المعينية والسبئية وغيرهما، وعن بعض اللهجات الشمالية (الثمودية واللحيانية والصفوية) يوهمون القارىء — عن قصد أو عن غير قصد — أن هذه اللهجات ليست من اللسان العربي في شيء، وأنها ألسن سامية مستقلة ليس بينها وبين اللسان العربي المعروف من وجوه الشبه أكثر مما يوجد مثله بين الألسن انسامية كلها[1]. بل إن بعضهم يصرح بهذه الدعوى الباطلة التي لا سند لها من الوقائع اللغوية المعروفة، والتي تتضارب مع أبسط مبادىء علم اللغة ومسلماته.

و يقيم هؤلاء المستشرقون دعواهم على أسس: منها أن لغة النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية فيها تأثيرات آرامية كثيرة، فهي إلى الآرامية أقرب منها إلى العربية، ومنها أن لغة النقوش المعينية السبئية تختلف عن اللسان العربي في أمور كثيرة تتعلق بالألفاظ والتراكيب، وقواعد التصريف.

أما نحن فنقول عكس ما يقولون، ونزعم أن لغات كل هذه النقوش هي لهجات للسان واحد، وليست ألسناً مستقلاً بعضها عن بعض.

وسنحاول فيما يلي إيراد الأدلة الكافية على فساد رأي المستشرقين ثم نعقبها بايراد البراهين القاطعة بصحة ما نذهب إليه.

---

(١) وقع في هذا الوهم كثير من الأدباء أبرزهم طه حسين، انظر كتابه (في الشعر الجاهلي) في معرض نفيه لشعر امرىء القيس وكل الشعراء المنتسبين الى قبائل جنوبية الأصل. بل لقد وقع فيه بعض علماء اللغة، ومنهم الدكتور صبحي الصالح. انظر كتابه (دراسات في فقه اللغة، ص ٥٤) حيث يصف الفرق بين لهجات الجنوب واللسان الشمالي بأنه فرق «عظيم».

أ ــ أدلة نفي:

١ ــ إن النقوش المكتشفة قليلة جداً، إذ لم يتجاوز ما اكتشفه منها ليتمان ١٤٠٠ نقش صفوي. ونقوش الثمودية واللحيانية أقل من ذلك بكثير. أما نقوش العربية الجنوبية فلم تتجاوز ٣٥٠٠ نقش. وإلى جانب ذلك فهي قليلة المادة اللغوية إذ لم يتجاوز عدد كلمات أكثرها الأربع أو الخمس من الكلمات. وكل هذا وذاك يجعل هذه النصوص قليلة الجدوى في معرفة خصائص اللسان الذي كتبت به، ويمنع الباحث المحقق من إطلاق حكم نهائي في موضوعه.

٢ ــ موضوع كل هذه النقوش واحد، أو قل إن موضوعاتها شديدة التقارب، فهي إما إعلان بوفاء نذر، وإما تمجيد لصاحب ضريح، وإما تخليد لعمل عمراني كبير. وهذا مما يضيق دائرة المادة اللغوية في هذه النقوش ويجعل كل حكم يطلق على اللسان الذي كتبت به ناقصاً إن لم يجعله فاسداً.

٣ ــ إن كثيراً من هذه النقوش لم تحل رموزه حتى الآن، ويصرح ولفنسون بذلك فيقول[1]: أما الكتابات اللحيانية فقد جهد في تفسيرها علماء أوروبا، ولكنهم لم يفلحوا في حل كثير منها، لأنها أجزاء من نقوش لا نقوش كاملة. وجل كلماتها ومصطلحاتها في غاية الإبهام. ويقول عن النقوش الثمودية:[2]. «والنقوش الثمودية بصفة عامة موجزة جداً حتى ليكاد المعنى يخفى على القارىء خفاء تاماً أو يصبح عرضة لتفاسير وتأويلات شتى». وكل هذا يزيد من فقر هذه النقوش بالمادة اللغوية، ويفرض على الباحث ألا يرى فيها صورة كاملة للسان المكتوبة به، وبالتالي، ألا يطلق الأحكام الجازمة النهائية على لسانها.

٤ ــ إن وحدة موضوع النقوش فرضت على لغتها وحدة في الأسلوب. وهذا بالتالي جعلها محدودة التعابير. فمن ذلك مثلاً أن العلماء لم يجدوا في النقوش المعينية والسبئية غير صيغة الغائب من الفعل في أحواله المختلفة، فهل يجوز لنا أن

---

(١) تاريخ اللغات السامية ص ١٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٨١.

نستنتج من ذلك أن اللهجتين المذكورتين كانتا خاليتين من صيغ المتكلم والمخاطب؟!(١)

٥ ـــ لم تكن الكتابة في يوم من الأيام تمثيلاً دقيقاً للفظ، يصدق هذا على السبئية والمعينية، كما يصدق على العربية والفرنسية والانكليزية. وليس هناك قوم يكتبون ما يلفظون، أو يلفظون ما يكتبون، ألا ترى أننا نكتب ألفاً بعد واو الجماعة لا نلفظها، ونلفظ ألفاً بعد هاء التنبيه من غير أن نكتبها؟ ولا بد أن شيئاً من هذا موجود في الكتابات السبئية والمعينية كما هو موجود في كل كتابات العالم قديماً وحديثاً. وما دمنا لا نعرف الصورة اليقينية للفظ السبئية والمعينية لعدم المشافهة وانقطاع الرواية، فإن قراءتنا لكتاباتهما يوقعنا في أخطاء جسيمة تشبه أخطاء من يقرأ عبارة فرنسية أو انكليزية محققاً باللفظ كل الأحرف المكتوبة.

هذا الذي نقوله ليس نوعاً من الرجم بالغيب، أو الظن الذي لا يقوم على أساس، فقواعد الرسم في كل لسان مبنية على قواعد الصرف والاشتقاق لهذا اللسان. وإذا كان الشماليون في جاهليتهم، وهم أهل البداوة، قد أحسوا بالفارق الاشتقاقي بين (علا) و(رمى) فكتبوا الأولى وكل ذوات الواو بالألف، وكتبوا الثانية وكل ذوات الياء بالياء، فلأن يحس الجنوبيون، وهم أهل الحضارة والتقدم، بذلك أولى. بل إنا لنميل إلى القول إن هذا التحليل اللغوي الذي هدى الشماليين إلى التفريق بين الألفات التي أصلها الواو وتلك التي أصلها الياء ليس من عندهم، بل هو مما أخذه الشماليون عن الجنوبيين في جملة ما أخذوه من مظاهر الحضارة والثقافة. وكلنا يعلم مقدار أثر الحضارة اليمنية في أهل الشمال. وإذا كانت الخطوط الثمودية والصفوية واللحيانية، وكلها شمالي، مشتقة من الخط المسند السبئي، فليس ببعيد أن تكون قواعد الرسم لكل الشماليين مشتقة أيضاً من قواعد رسم السبئي الجنوبي.

---

(١) بل إن بعض المستشرقين قال بذلك فعلاً. وقد كفانا ولفنسون مؤونة الرد على أصحاب الرأي المتهافت حين قال: أما الاعتقاد بعدم وجود هذه الصيغ فهو أمر لا يقبله العقل السليم. فإن أقل ما يدل عليه أن هاتين اللهجتين كانتا في غاية الانحطاط، وإن أهلهما كانوا همجيين. وقد علمنا أن أهل جنوب الجزيرة العربية كانوا من أرقى الشعوب السامية وأعرقهم في الحضارة القديمة (المرجع نفسه، ص٢٤٨).

٦ ــ إن عدم وجود رموز للحركات الطويلة (الألف، والواو، والياء) والحركات القصيرة (الفتحة، والضمة، والكسرة) في هذه النقوش يزيد من قصور كتابتها عن تمثيل النطق الصحيح لها ويجعلنا، ونحن لا نقرأ إلا ما كتب فيها من الحروف فقط، نقوم بعملية مسخ وتشويه، ونلفظ لساناً لا صلة له بلسان هذه النقوش، تماماً كما لو كتبنا بيت أبي العلاء:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل　　　عفاف وإقدام وحزم ونائل

بهذه الصورة:

أل ف سبيل لمجد م أن فعل　　　عفف وإقدم وحزم ونئل

ثم لم نلفظ إلا ما نراه أمامنا من الحروف مثبتاً.

ولو عرضنا هذا البيت بصورته الكتابية المختزلة على ألف من العرب لا علم لهم بقصيدة أبي العلاء لقرروا جميعاً أنهم لا يقرؤن لساناً عربياً أبداً، مع أن ما أمامهم ليس إلا بيتاً لواحد من فحول شعراء العربية لكنه كتب بطريقة مختزلة هي نفسها طريقة كتابة النقوش المعينية والسبئية والثمودية وغيرها من اللهجات العربية.

٧ ــ ومما يزيد في إيهامنا بوجود فروق كبيرة بين اللهجات الجنوبية والشمالية أن قواعد الرسم في تلك تثبت التنوين (والتنوين في العربية الجنوبية هو ميم ساكنة تلحق آخر الاسم لا نون كما في العربية الشمالية) بينما لا تثبته الكتابة الشمالية، وكذا تفعل مع الضمة في ميم الجماعة وتثبتها واواً. فإذا أردنا أن نكتب عبارة (كتابهم كتاب جميل) بالقواعد السبئية كانت كتابتها على الشكل الآتي: (كتبهمو كتبم جملم) وكل هذا، وأشياء أخرى يطول شرحها، تجعلنا نتوهم أن الجنوبية لسان، وأن الشمالية لسان آخر، مع أنهما لسان واحد هو اللسان العربي.

٨ ــ بعد أن يحل المستشرق رموز نقش ما يقوم بترجمته إلى لسانه القومي (الفرنسي أو الالماني أو الانكليزي) ليفهم قراؤه ما جاء في النقش، ثم يأتي

الباحث العربي أو أي باحث يكتب بالعربية [1] فينقل عن المستشرق ترجمته للنقش مترجماً إياها إلى العربية من غير أن يكلف نفسه مشقة النظر في النص الأصلي للنقش. وطبيعي في مثل هذه الحال أن يحدث فارق بين الترجمة العربية والنص الأصلي، لأنها ترجمة لترجمة. يضاف إلى ذلك أن المترجم العربي يختار من ألفاظ العربية أكثرها ألفة وشيوعاً لاداء المعاني المترجمة في حين يكون الغريب في بعض الأحيان أولى من المأنوس لأنه يطابق ألفاظ النص الأصلي معنى ولفظاً. فمن ذلك كلمة (مقتوي). فهذه الكلمة التي وجدت في النقوش السبئية والمعينية ترجمت إلى ألسن المستشرقين بألفاظ تدل على معناها في تلك الألسن، ثم لما نقلها الباحثون إلى العربية ترجموا ترجمتها باللفظ العربي المأنوس فكانت الترجمة كلمة (مساعد). وهكذا حصل الخلاف في اللفظ بين تلك النقوش اليمنية، وبين ما يساويها من لسان العرب الشماليين، ولو أن المترجم تذكر شطر بيت الشاعر الشمالي عمرو بن كلثوم وهو يتوعد عمرو بن هند بقوله (متى كنا لأمك مقتوينا) ثم ترجم (مقتوي) السبئية بـ (مقتوي) الشمالية لزال قسم كبير من الوهم المسيطر على العقول حول الخلاف (العظيم) بين لسان أهل الجنوب ولسان أهل الشمال.

وما قلناه عن كلمة (مقتوي) يصدق على عشرات ومئات من الكلمات الأخرى.

٩ ـ يحدث كثيراً أن يغمض معنى بعض كلمات النقش على المستشرق، أو أن لا يفهم معنى تركيب شديد الإيجاز ورد في النقش، وفي هذه الحالة يلجأ إلى استلهام السياق معنى ما غمض عليه من المفردات والتراكيب، ثم يزيد في الترجمة أو ينقص ليتم له إداء المعنى الذي ظنه هو المقصود. ومن كل ذلك ينشأ خلاف كبير بين ترجمة النقش وصورة حل رموزه. وسترى مثالاً على ذلك بعد قليل.

١٠ ـ إن كلمة (مستشرق) لا تعني دائماً ذلك العالم المحقق المدقق الذي لا يخفى عليه شيء، فكثيراً ما يخطىء هؤلاء المستشرقون حتى في أبسط القضايا وأكثرها وضوحاً. وكثيراً ما يطلقون الأحكام العامة الخطيرة ولا سند لهم إلا حالة

---

(١) مثل ولفنسون الذي كتب كتابه (تاريخ اللغات السامية) بالعربية واغناطيوس غويدي الذي كتب (المختصر) بالعربية واللاتينية.

شاذة عثروا عليها هنا أو هناك ففرحوا بها وغلبوها على مئات الأدلة التي تناقضها، بل كثيراً ما يحدث أن لا يكون لهم من دليل في أحكامهم غير الوهم والظن والهوى.

وأغرب من ذلك أن يقعوا فيما لا يجوز للمحقق أن يقع فيه من الأخطاء. وهاك مثالاً من عمل المستشرقين يوضح كثيراً من الجوانب التي ذكرناها، مع تعقيب لنا على هذا العمل:

نقل ولفنسون عن ليتسبرسكي النقش السبئي التالي، ثم أرفقه بحل لرموزه، وترجمة له إلى العربية. وها نحن أولاء موردون كل ذلك بالحرف الواحد:

النقش الأول

حـ ٣ مجلد ١ ص ٩٣ Ephemeris

1 [illegible]

2 [illegible]

3 [illegible]

4 [illegible]

5 [illegible]

6 [illegible]

حل رموز النقش

(١) ب :.. وهق ... جنا وصوابت ومحفدت وهجر همو.

(٢) مبرام حسسم وا... م ... م ووسفو وريمو كل جناهو وصوبت.

(٣) .، جناهو وصوبتهو ومحفدتهو بن مريمهو عدى ثرتهو وهدبوهو وهعقبن.

(٤) خدعو وهعقبو لخلفهو مصرعتم مبرا ومقيح كل صدقم بن موثرم عدى ت.

(٥) ... ن بمقم مراهيمو عتتر شرقرن واشمسهو والال تهمو وباخيل ومقيمت خميس.

(٦) حن بورخن ذقيصن ذبخرف دلششت وتسعي وثلث ما تم بن خرف مبحض بن ابحض.

ترجمة النقش

(١) .. (واصلحو مرة أخرى) السور و.. ابراج مدينتهم.

(٢) بأدوات البناء ووسعوا كل سور و..

(٣) وسورها و.. وأبراجها من أعلى إلى أسفل مكان وزينوها ب... وأبراجها للحراسة.

(٤) وعمروا الحلف (؟) على هيئة باب حصن بأحسن أدوات البناء وفن التعمير من أسفل إلى أعلى..

(٥) بمجد سيدهم عثتر المشرق وآلهة الشمس وسائر الآلهة وبحول وقوة الخميس (الجيش).

(٦) في شهر ذي قيصن من سنة ثلاثمائة سنة بعد مبحص بن أبحص.

فههنا أخطاء كثيرة، بعضها في النص بحروفه السبئية، وبعضها في حال الرموز، وبعضها في الترجمة.

فأما في النص السبئي فقد وردت في السطر السادس كلمة (ثجت) وصوابها (ثلث) كما وردت في حل الرموز. ومن المؤسف أن صورة النقش الأصلية ليست أمامنا. ولو كانت كذلك وعارضناها على النص لكان من غير المستبعد أن نعثر

على أخطاء أخرى غير هذا الخطأ الذي هدانا إليه السياق [١].

أما في قسم حل الرموز فالأخطاء كثيرة: ففي السطر الأول سقطت واو بعد الباء المفردة، كما زيدت ألف في كلمة (صوابت) ليست موجودة في النص السبئي. كما زيدت واو قبل كلمة (هجرهمو). وفي السطر الثاني وردت كلمة (حسسم) خطأ، وصوابها (حززم). وفي السطر الخامس كتب (مراهيمو) والصواب (مراهمو) بغير ياء، وكتب (عتتر) بتاءين، وصوابها (عثتر) بثاء وتاء، وكتب (شرقرن) والصواب (شرقن)، وفصل (الال) عن (تهمو) كأنهما كلمتان، والصواب وصلهما هكذا (الالتهمو) لأنها كلمة واحدة، وفي السطر السادس كتب (يورخن) بالياء، والصواب (بورخن) بالباء.

وأما في الترجمة فهناك أخطاء أخرى: ففي السطر الأول قال (السور) وصوابها (سور) بغير تعريف، وأهمل كلمة (صوبت) فلم يترجمها، وقال في السطر الثاني (ووسعوا كل سور) وصوابه (ووسعوا كل سورها)، كما أهمل كلمتي (ريمو) و(صوبت) فلم يترجمهما، وفي السطر الثالث أهمل مرة ثالثة كلمة (صوبت)، وقال (من أعلى إلى أسفل مكان) وصوابه (من أعلاه إلى أسفله)، وزاد كلمتي (وابراجها للحراسة) ولا مقابل لهما في الأصل، وكان عليه أن يضعهما بين قوسين، كما ترك كلمة (همقبن) بغير ترجمة. وفي السطر الرابع عاد فأهمل كلمة (وهعقبو) وتجاوزها، ثم قال (الحلف) وصوابه (الخلفه)، وزاد من عنده كلمتي (على هيئة) مما لا وجود له في الأصل، وكلمات أخرى أيضاً منها (أعلى) الواردة في نهاية السطر. وفي السطر الخامس قال (المشرق) وصوابه (الشارق)[٢] . وقال

(١) من المهم التنبيه إلى أن شكل النص السبئي المنشور ههنا ليس صورة فوتوغرافية للنقش الأصلي كما قد يتوهم القارىء. بل هي حروف مطبعية كسائر الحروف المطبعية الأخرى. ومعنى ذلك أن الخطأ في كلمة (ثجث) إما أن يكون حاصلاً من ليتسبرسكي وهويكتب بالحروف السبئية، وإما أن يكون من المطبعة. والواقع أن حرفي الجيم واللام شديدا التشابه في السبئية مما يسهل معه وقوع مثل هذا الخطأ، فصورة الجيم السبئية قريبة من صورة الرقم العربي (٦) كما أن صورة اللام السبئية شبيهة بصورة الرقم الافرنجي (٤).

(٢) انظر غويدي: المختصر، ص٣٦، ويذكر القاموس أن الشارق اسم صنم في الجاهلية ومعناه الطالع في الأفق.

(وآلهة الشمس وسائر الآلهة) وصوابه (وشموسهم وآلهتهم)، وقال في السطر السادس (ذي قيصن) وصوابه (ذو القيص) أو (ذا القيص[1])، وزاد كلمة (بعد) التي أحدثت اضطراباً في العبارة وقال (مبحص بن أبحص) والصواب (مبحض بن أبحض).

وقد أطلع الأستاذ (إنو ليتمان) على كتاب ولفنسون وأورد عليه جملة ملاحظات وتحقيقات طبعت وألحقت به. ومن العجيب أن هذا المستشرق الكبير لم ينتبه في تحقيقاته هذه إلا إلى بعض الأخطاء التي ذكرناها، وسها عن سائرها. بل إنه صحح بعض الأخطاء بأخطاء أخرى من عنده[2].

فاعجب بعد هذا لدقة المستشرقين وشدة تحريهم!!

قد يقال: إن بعض هذه الأخطاء تقع مسئوليته على منضد الحروف في المطبعة لا على المؤلف، وإن بعضها الآخر ـ حيث الإضافة والنقصان ـ كان بداعي أداء معنى النقش. وهذا صحيح إلى حد ما، ولكنا لسنا في معرض البحث عن المسؤولية وعلى عاتق من تقع، وإنما نحن بصدد البرهنة على أن هذه الأخطاء ـ مهما يكن مصدرها ـ مسؤولة إلى حد كبير عما نراه من الفروق بين لسان النقوش السبئية ولساننا العربي الشمالي.

وقد يقال أيضاً: ولكن كل التصحيحات التي أدخلت على النص وحل رموزه وترجمته لم تساعد على تقريب لسان الجنوب من لسان الشمال، فلا يزال الفرق بينهما (عظيماً) كما يقول الدكتور صبحي الصالح.

وهنا لا بد من التذكير بأن قواعد الرسم السبئية تختلف عن قواعد الرسم الحالية، فهي لا تثبت الألفات والواوات والياءات إذا كانت مدوداً، وعلى عكس ذلك تثبيت الضمة بعد ميم الجماعة وتجعلها واواً، وهي لا تكتب ألف الوصل، كما أنها تثبت هاء التأنيث تاءً عادية، إذ الظاهر أنها لم تكن تقف عليها

---

(١) لأن النون في نهاية الاسم هي أداة التعريف في اللهجات الجنوبية. انظر المرجع نفسه ص٦.

(٢) انظر النقش وحل رموزه في كتاب ولفنسون (تاريخ اللغات السامية) ص٢٤٨-٢٥٠ وانظر ملاحظات الاستاذ ليتمان عليه في نهاية الكتاب ص٢٨٠.

بالهاء. ولو أننا كتبنا نص النقش بحسب قواعد رسمنا الحالية لتغيرت الصورة، ولبدا التقارب بين لهجتي الشمال والجنوب واضحاً.

ولنحاول ذلك في السطر الخامس من النقش:

سبئي: بمقام امرئهمُ (١) عثتر شارقن وأشمسهمُ وألالتهمُ و بأخْيَل وَمقْيَمةِ (٢) خميس.

شمالي: بمقام (بجلال) امرئهم (سيدهم) عثتر الشارق وأشمسهم وإلاهتهم

---

(١) اقترح أن تكون قراءة كلمة (مرا) الورادة في النقوش السبئية (امرأ)، أي بالهمزة لا بالألف اللينة، لأن السبئية لم تكن ترسم الألف إلا إذا أرادت منها صوت الهمزة، إلا أن يكون ذلك في الضمائر أو أسماء الاشارة (راجع كتاب المختصر)، والمستشرقون يصرون على قراءتها بالألف اللينة، ولا أرى لذلك وجهاً إلا أن يكونوا قد استأنسوا بكلمة (مرا) النبطية التي تعني السيد، أو بكلمة (مار) السريانية التي تعني السيد أو القديس. وأرى ان الاستئناس بكلمة (امرىء) العربية الشمالية أولى على الرغم مما بين الكلمتين من اختلاف يسير في المعنى، إذ كثيراً ما يقع للهجات أن تستعمل الكلمة الواحدة بمعان مختلفة.

ومع ذلك لست أصر على هذا الاقتراح، لأنني — من جهة أخرى — أميل إلى الظن بأن الهمزة في كلمة (امرىء) أمر طارىء على اللهجات الشمالية وأن الأصل فيها كان التسهيل، وأنهم كانوا يلفظونها (مرا، مرو، مري) بحسب الحالات الاعرابية المختلفة قياساً لها على (ذا، ذو، ذي) ثم همزوا الألف والواو والياء اللواتي هن علامات الاعراب مبقين الحركات المناسبة لهذه الأحرف على الراء قبلها. فقالوا (مرأ، مرؤ، مرىء) ثم توهموا أن هذه الهمزة هي حرف أصلي في الكلمة فوضعوا عليها الضمة والفتحة والكسرة بحسب الحالات الاعرابية المختلفة فقالوا (مرءاً، مرؤ، مرىء). وهذا يفسر لنا سبب ظهور الحركة الاعرابية على حرفين اثنين بدل حرف واحد كما في سائر كلمات العربية، وما قلناه في كلمة (امرىء) يقال مثله في كلمة (ابنم) أيضاً التي تظهر الحركة الاعرابية فيها على النون والميم معاً.

والظاهر أن هذه الكلمة مما استعارته لهجات الشمال من لهجات الجنوب. فإن الميم الساكنة في نهاية الاسم هي علامة التنكير في السبئية. وكانت السبئية تعرب الكلمة من النون لأن الحرف الأخير فيها. أما الميم فتتركها ساكنة لأنها علامة تنكير وليست من حروف الكلمة الأصلية. لكن الشماليين توهموا الأصالة في هذه الميم فاعربوا الكلمة منها، وهكذا صارت الكلمة على ألسنتهم معربة من مكانين: النون والميم.

وعلى كل حال فالأمر يحتاج إلى تحقيق أكثر لا يتسع له المقام ههنا.

(٢) بتصحيح الياء وعدم إعلالها. وهذا يوافق بعض لهجات الشمال.

وبحول ومقامة الخميس.

* * *

والآن قل لي هل تجد فرقاً (عظيماً) بين اللهجتين[1]؟

١١ ـــ إن وجود ألفاظ في السبئية والمعينية لا وجود لها في الشمالية لا ينهض دليلاً على أن الشمالية والجنوبية لسانان مستقلان. فهذه الألفاظ ليست معدومة تماماً من الشمالية، بل هي موجودة فيها إما على أنها من غريب اللغة، وإما بشكل بقايا لمادة لغوية مهجورة. خذ مثلاً على ذلك كلمة (هجَر) السبئية التي تعني (المدينة). فهذه الكلمة وإن لم توجد في الشمالية بهذا المعنى، إلا أن في مادة (هـ ج ر) كلمات شمالية كثيرة قريبة المعنى منها، فقد قال صاحب القاموس: «والهجرّ كفلزّ المهاجرة إلى القرى... والهاجرّي البنَّاء أو من لزم الحَضَر» انتهى. ومن هذا الباب قول الراجز:

قد لفّها الليل بعصلبيّ
أروع خرَّاج من الدَّوِّيِّ
مهاجر ليس بأعرابي

فالمهاجر هو من سكن الهجر أي البلد. أما ما يقال من أنه أراد بالمهاجر المتمرس بالشدائد فقول لا معنى له ولا يفسر شيئاً من كلام الراجز، فالراجز أراد

---

(١) نقل الدكتور صبحي الصالح حل رموز السطر الخامس مع ترجمته إلى كتابه (دراسات في فقه اللغة ص٥٤) مستشهداً به على وجود فرق عظيم بين لساني الشمال والجنوب. ومن المؤسف أن الاستاذ الصالح احتفظ بكل أخطاء ولفنسون وليتسبرسكي ولتمان دون أن يجشم نفسه مشقة قراءة النص بحروفه السبئية. بل لقد أضاف إلى أخطائهم خطأين آخرين. أما الأول فهو خطأ مطبعي على ما نعتقد، وهو سقوط ميم الجماعة من كلمة (أشمسهمو)، وأما الثاني فواضح أن الأستاذ قد قصد إليه قصداً، وهو أنه ترجم (عثتر) بـ (عشتروت). ولا نرى سبباً لذلك إلا أن يكون الاستاذ قد أراد توسيع الفرق بين النص وترجمته لتقوية شاهده على صحة ما ذهب إليه، أو أنه ظن أن (عشتروت) هي الترجمة الصحيحة لكلمة (عثتر) مع أن الفرق بينهما واضح: فعثتر إله يمني مذكر، وأما عشتروت فهي آلهة صيدا الكنعانية وهي مؤنثة.

وسواء أكان عثتر اليماني هو عشتار أو عشتروت الكنعانية أم لم يكن أحدهما فإنه من الواجب علينا أن نحتفظ للاعلام باللفظ الذي هو لها في ألسنة أصحابها.

المطابقة بين الاعرابي والمهاجر كما هو واضح من عبارته، ولا يطابق الاعرابي، وهو ساكن البادية، إلا ساكن المدينة أي المهاجر.

والذي يبدو لنا أن كلمة (هجر) ـ وهذه الكلمة نتخذها مقالاً لكل الكلمات التي تشبهها في حالتها ـ كانت موجودة في اللسان العربي القديم بمعنى (المدينة)، سواء في ذلك اللهجات الشمالية والجنوبية، ثم حدث لهذه الكلمة أن خصصت ببعض المدن والقرى(١) علماً لها كما حدث لكلمة (مدينة) التي خصصت فأطلقت علماً على مدينة الرسول (ص)، فلما جرى لها هذا التخصيص أهملت بمعناها العام حتى نسيت، وإن بقيت آثار لمعناها في كلمات أخرى من المادة نفسها كما مر آنفاً.

وعلى هذا الأساس لا نكون أمام لسانين متمايزين اختلفا في ألفاظهما، وإنما نكون أمام حالتين للسان واحد في فترتين متباعدتين من الزمان، أي أمام طورين من أطوار لسان واحد.

ومهما يكن فإن اختلاف لهجات اللسان الواحد في بعض المفردات أمر معروف في كل لسان، ولم يقل أحد بأن هذا الاختلاف حد فاصل بين الألسن، وإلا لكان رجز رؤبة والعجاج من لسان غير اللسان العربي المعروف. ولا نظن أن أحداً قال بهذا في يوم من الأيام.

* * *

كان القصد مما ذكرناه حتى الآن إقامة الدليل على بطلان ما زعمه بعضهم من وجود فوارق كبيرة بين لهجات الجنوب والعربية الشمالية، ولكن كل ذلك قد لا يكفي، وقد يطالبنا القارىء بأدلة تثبت صحة ما ندعيه من أن عربية الشمال وعربية الجنوب ليستا غير لهجتين من لسان واحد.

وهذا ما نحن فاعلوه بإذن الله.

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت والقاموس للفيروزي آبادي.

ب ــ أدلة إثبات:

١ ــ تتفق الجنوبية مع الشمالية في عدد الأصوات اللغوية وصفاتها، فكلتاهما تتألف أبجديتها من ثمانية وعشرين صوتاً لا أكثر ولا أقل [١] هي: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ. وهذا الاتفاق التام في الأصوات، عدداً وصفات، لا يتأتى إلا للهجات شديدة التقارب. أما الألسن المتباعدة فيتعذر أن تتفق في أصواتها، بل إن اللهجات نفسها كثيراً ما تختلف في أصواتها. انظر مثلاً إلى لهجات العربية الشمالية قديماً وحديثاً لترى بنفسك مقدار ما بينها من اختلاف في الأصوات. فإذا اتحدت الجنوبية والشمالية في عدد الأصوات وصفاتها فعلام يدل ذلك، إن لم يدل على أن الاثنتين لهجتان من لسان واحد؟

٢ ــ كل ما كشف من قواعد الصرف في الجنوبية يتفق تمام الاتفاق مع مثيله من قواعد صرف الشمالية. وإليك جدولاً يبين ذلك [٢]:

القاعدة	في الجنوبية	في الشمالية
المجرد	فعل ــ فعلل	فعل ــ فعلل
المزيد بحرف	هفعل ــ فعَّل ــ فاعل	أفعل ــ فعَّل ــ فاعل
مصادر المزيدات بحرف على الترتيب	هِفعال ــ هِفالة ــ تفعيل تفعلة ــ فِعَّال ــ فعال	إفعال ــ إفالة ــ تفعيل تَفعِلة ــ فِعَّال ــ فِعال ــ مفاعلة ــ فيعال
المزيد بحرفين	نْفَعَلَ [٣] ــ فْتَعَل ــ تفعَّل ــ تفاعل	إنفَعَل إفتَعَل تفعَّل ــ تَفَاعَلَ ــ إفعَلَّ [٤]

---

(١) رموز الأبجدية الجنوبية ٢٩ لا ٢٨. لأن لصوت السين فيها رمزين اثنين أحدهما يسمى سينا والثاني يسمى سمكت.

(٢) للتوسع راجع كتاب (المختصر) لغويدي.

(٣) العربية الجنوبية لا تثبت همزة الوصل في الكتابة.

(٤) هذا الوزن غير مؤكد وجوده في الجنوبية، وإن كان ذلك محتملاً، وسبب الشك فيه أنه والمجرد الثلاثي يكتبان في الخط المسند على صورة واحدة، لأن هذا الخط يخلو من همزة الوصل والشدة كما علمت.

القاعدة	في الجنوبية	في الشمالية
مصادر المزيدات بحرفين على الترتيب	نِفعال [1]ــ فِتِعال تفعُّل ــ تفاعُل	إنفعال ــ إفتعال ــ تفعُّل ــ تفاعُل ــ إفعلال
المزيد بثلاثة أحرف	سْتفْعَلَ [1]	إستفعل
مصدر المزيد بثلاثة أحرف	سْتِفعال [1]	إستفعال
اسم الفاعل من الثلاثي	فاعِل	فاعِل
اسم المفعول من الثلاثي	مفعول	مفعول
اسم الفاعل من غير الثلاثي	بإبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة مع كسر ما قبل الآخر	بإبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة مع كسر ما قبل الآخر
اسم المفعول من غير الثلاثي	بإبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة مع فتح ما قبل الآخر	بإبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة مع فتح ما قبل الآخر
أداة التعريف	نون في آخر الاسم	(أل) في أول الاسم
أداة التنكير	ميم ساكنة في آخر الاسم	نون ساكنة في آخر الاسم
المضاعف	لا يدغم المتماثلان (هَجْدَد)	يدغم المتماثلان (أجدّ)
المثال	تسقط واوه في المضارع: (يعد) [2]	تسقط واوه في المضارع: (يعد)
المثال	تسقط واوه في المصدر وتعوض بتاء في الآخر: (وعد ــ عدة)	تسقط واوه في المصدر وتعوض بتاء في الآخر: (وعد ــ عدة)
المثال في باب افتعل	تبدل واوه تاء وتدغم في تاء الافتعال (وثق ــ تثق)	تبدل واوه تاء وتدغم في تاء الافتعال (وثق ــ إتّثق)
الأجوف	ترد ألفه إلى أصلها في المضارع (ثاب ــ يثوب، شام ــ يشيم)	ترد ألفه إلى أصلها في المضارع (ثاب ــ يثوب، شام ــ يشيم)
الأجوف في باب أفعل	هثاب ــ يُهَثيب	أثاب ــ يُثيب
الأجوف في باب فعّل	ثوّب ــ شيّم	ثوَّب ــ شيَّم
بعض أوزان الاسم	فَعَل (فرس) فَعِل (ملك)	

(١) انظر الحاشية ٣ ص ١١٤.

(٢) صورة المثال في حالة الأمر غير معروفة، لأنه لم يعثر في النقوش السبئية على صيغة الأمر مطلقاً.

القاعدة	في الجنوبية	في الشمالية
المأنوسة	فَعْل (رجل)فِعَل (عنب) فِعِل (إبل) فَعْل (برق) فِعْل (رجل) فُعْل (ثمن) فَعال (ثواب) فِعال (حمار) فُعال (غلام) فاعل (حادث) فعيل (قتيل) إفعل (إصبع)	كل هذه الأوزان موجودة في الشمالية كما هو معروف .
التصغير	على وزن فُعَيْل (سُلَيم)	على وزن فُعَيْل (سُلَيم)
التفضيل	على وزن أفعل (أصنع)	على وزن أفعل (أصنع)
اسم المكان	على وزن مفعل (مكرب = هيكل)	على وزن مفعل (مطعم)
النسبة	بزيادة ياء مشددة على آخر الاسم (مشرقيّ)	بزيادة ياء مشددة على آخر الاسم (مشرقيّ)
التثنية	بزيادة ألف ونون على صورة المفرد (نمر ــ نمران)	بزيادة ألف ونون على صورة المفرد (نمر ــ نمران)
الجمع المذكر السالم	بزيادة واو ونون في حالة الرفع و ياء ونون في حالتي النصب والجر	بزيادة واو ونون في حالة الرفع و ياء ونون في حالتي النصب والجر
شرط المجموع جمع مذكر سالماً	أن يكون صفة أو اسم فاعل أو مفعول . وندر فيما سوى ذلك	أن يكون علماً أو صفة لمذكر عاقل خالياً من تاء التأنيث وليس على وزن أفعل فعلاء ولا فعلان فعلى ، وشذ في (أرضون ــ سنون . .)
الجمع المؤنث السالم	بزيادة ألف وتاء على صورة المفرد (بعلة ــ بعلات)	بزيادة ألف وتاء على صورة المفرد (شجرة ــ شجرات)
بعض أوزان جمع التكسير	فُعول (أسود = جنود والمفرد: أسد[1] بالسكون) فُعّال (شراك = شركاء) فعايل (خرايف = سنوات) فعايلة (جرايبة) فعاولة	كل هذه الأوزان موجودة في العربية الشمالية كما هو معروف .

(١) الأسد بسكون السين معناه الجندي في لهجة الجنوب ، فهل بين الكلمة و بين كلمة (الازد) علاقة ، والازد قبيلة يمنية كما نعرف ، وتحول السين إلى زاي أمر تقره القوانين الصوتية ، لأنه وهو المهموس ، جهر لمجاورته الدال المجهورة فأصبح زاياً . والزاي هو النظير المجهور للسين . إنه تساؤل فقط على كل حال .

القاعدة	في الجنوبية	في الشمالية
	(أداومة = عيد. والمفرد أدوم = عيد) فُعَلاو[1] (حُوَراو = أعيان أشراف)	
	أفعُل (أحمُر = حمير) أفعال (أثمار) أفعِلة (أخرفة = سنوات) مَفاعِل (مصانع = قصور) مفاعلة (مشابة = ولايات)	
التأنيث	بزيادة تاء على آخر الاسم (بعل ـــ بعلة)	بزيادة تاء على آخر الاسم (زوج ـــ زوجة)
المضاف	لا تلحقه نون التعريف	لا تلحقه (أل) التعريف.
الممنوع من الصرف	يمنع من ميم التنكير كل علم على وزن الفعل وكل علم مركب تركيباً مزجياً، وكل صفة على وزن أفعل، وكل جمع على صيغة منتهى الجموع..	هذه هي قواعد الممنوع من الصرف في العربية الشمالية تماماً.
الإعراب	ضمة في حالة الرفع وفتحة في حالة النصب وكسرة في حالة الجر[2]	وهذا هو حال الشمالية تماماً
النعت	يتبع منعوته في: الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث	يتبع منعوته في: الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث

(١) لا نزال نصر على رأينا في أن العربية الجنوبية كانت تكتب كلماتها مراعية أصولها الاشتقاقية غير عابئة بما يطرأ عليها من اعلال في اللفظ. ونظن أن هذه الواو في فعلا وكانت تلفظ همزة.

(٢) هذا هو رأي غويدي على الأقل. انظر كتابه (المختصر) ص١٤.

هل تشك بعد كل هذه الوجوه من الاتفاق في القواعد مما لا يوجد مثله حتى بين لهجات اللسان الواحد ــ هل تشك في أن العربية الجنوبية والعربية الشمالية لهجتان من لسان واحد؟

٣ ــ تتفق الجنوبية مع الشمالية في أكثر مفرداتها. ولولا خوف الإطالة والإملال لعرضنا على القارىء مئات من المفردات المشتركة بين اللهجتين. وإذا كانت مظاهر الاتفاق في المفردات أقل منها في نظام النحو والصرف فهذا لا ينفي ما ذهبنا إليه بل يؤكده، لأن مظهر الاختلاف بين اللهجات يكون في المفردات قبل كل شيء.

٤ ــ كل الروايات والأخبار تشير إلى أن لهجات الجنوب كانت قبيل ظهور الإسلام شديدة القرب من لهجات الشمال، فرجال قريش في رحلة الشتاء لم يكونوا في حاجة إلى مترجمين للتفاهم مع إخوانهم من عرب الجنوب، وحين قدم وفد اليمن على رسول الله ﷺ كان التفاهم بين الطرفين في غاية السهولة، بل إن الرسول الكريم خاطبهم بلهجتهم(١) فإذا كانت لهجتا الشمال والجنوب شديدتي التباعد فيما مضى فكيف تهيأ لهما هذا التقارب؟ أكان ذلك نتيجة تطور طبيعي؟ لا! لأن أول قانون من القوانين اللغوية يقول: إن اللغة في تفتت دائم، وانقسام لا ينتهي، يتفتت اللسان الواحد إلى لهجات، ثم تتباعد اللهجات وتتباعد حتى يصير كل منها لساناً مستقلاً يصيبه من التفتت ما أصاب الأول، وهكذا..

فإذا كانت اللهجات لا تتقارب تلقائياً فلا بد ــ من أجل أن يحدث التوحيد اللغوي ــ من أن تتغلب إحدى اللهجتين على الأخرى بعامل من العوامل المعروفة في مثل هذه الحالة. فأي اللهجتين ابتعلت الأخرى؟ الشمالية أم الجنوبية؟

يقرر المستشرقون أن الغالب كان لهجة الشمال. يقول ولفنسون(٢) ــ وقوله تكرير لأقوال المستشرقين ــ : «ان لهجات الشمال كانت في العصور القريبة من ظهور الإسلام ذات سلطان قوي ونفوذ واسع، فكانت تبتلع اللهجات الجنوبية

---

(١) حديث (ليس من امبر امصيام في امسفر).

(٢) تاريخ اللغات السامية، ص١٦٧.

ابتلاعاً، الواحدة منها تلو الأخرى. فاللهجات التي أصبحت سائدة في أغلب أقاليم الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام إنما هي الشمالية بعد أن التهمت أكثر اللهجات الجنوبية وتغذت بها».

ولكن المستشرقين لا يقولون لنا شيئاً عن الأسباب التي جعلت لهجات الشمال تبتلع لهجات الجنوب، بل يكتفون بالقول: «إنها كانت ذات سلطان قوي ونفوذ واسع» فمن أين استمدت لهجات الشمال سلطانها هذا؟

إذا عدنا إلى القوانين اللغوية في موضوع الصراع اللغوي وجدنا ما يأتي:

حتى يتغلب لسان على آخر، أو لهجة على أخرى، يجب أن يتسلح بإحدى القوى الآتية أو بها جميعاً، وهي:

١ً ــ القوة الحضارية
٢ً ــ القوة السياسية
٣ً ــ القوة البشرية

فأما في الأولى فكفة لهجة الجنوب راجحة على كفة لهجة الشمال، فالتاريخ يحدثنا أن الحضارة بجميع مظاهرها الزراعية والصناعية والعمرانية كانت لأهل الجنوب دون أهل الشمال الذي غلبت عليهم البداوة إلا في بعض قرى الحجاز التي لم تخل من تأثيرات بدوية كثيرة.

وأما الثانية، فإنه وإن لم نكن لأحد الطرفين رجحان فيها على الطرف الآخر، فإن أهل الشمال كانوا ينظرون إلى دول الجنوب نظرة الاعتزاز المشوب بالحب والاحترام، وكانوا يجدون في تلك الدول التجسيد السياسي للشخصية العربية، فبالإضافة إلى القبائل التي تنتسب إلى اليمن مثل طيء ولخم وجذام والأوس والخزرج وكندة تلك التي كانت ترنو بأبصارها إلى الجنوب، نجد قريشاً ترسل وفداً إلى اليمن للتهنئة بتحريره من سلطة الأحباش، وإذا دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الشماليين كانوا ينظرون إلى دول اليمن على أنها دولهم هم وإن لم يكن لها عليهم سلطان سياسي مباشر.

ومن هذه الزاوية ترجح كفة لهجة الجنوب كفة لهجة الشمال.

وأما الثالثة فهي في مصلحة لهجة الجنوب وفي صفها أيضاً، فقد حدثنا التاريخ عن هجرات كثيرة اتجهت من الجنوب إلى الشمال، ولم يحدثنا عن هجرة واحدة اتخذت الاتجاه المعاكس في سيرها. فمن اليمن لا من غيرها انطلقت القبائل الكثيرة بعد خراب سد مأرب لتملأ فجاج الحجاز وهضاب نجد ومشارف الشام والعراق، حتى باتت هذه القبائل تؤلف نسبة محسوسة في سكان الشمال.

وهكذا ترى أن القول بابتلاع لهجات الشمال لهجات الجنوب يتعارض مع أشد القوانين صرامة وأكثرها اطراداً.

ولكن، إذا انتفى أن تكون لهجات الشمال قد أثرت في لهجات الجنوب (أو ابتلعتها الواحدة تلو الأخرى) فكيف نفسر هذا التقارب بينها قبيل ظهور الإسلام؟

هل هناك معجزة؟

لا. إن العلم لا يؤمن بالمعجزات. إنه لا يرتاح إلا إلى التفسيرات الطبيعية البسيطة للظواهر والأشياء. وأبسط تفسير لظاهرة هذا التقارب بين لهجات الشمال والجنوب قبيل الإسلام هو أن يقال: إنه لم يكن بين هذه اللهجات خلاف كبير في الماضي كما يزعم بعضهم، بل كان بينها من الخلاف اليسير ما يوجد دائماً بين كل اللهجات التي تنتمي إلى لسان واحد، وإن هذا الخلاف اليسير استمر يسيراً حتى ظهور الإسلام، ثم تلاشى نهائياً بغلبة لهجة القرآن التي ملكت أسباب القوة والتغلب الآنفة الذكر.

* * *

ولنعد الآن إلى النقوش الشمالية، وهي: الصفوية والثمودية واللحيانية والجاهلية.

لقد اختلفت آراء المستشرقين في أمر لسان هذه النقوش:

قالت فئة منهم: ليست هذه نقوشاً عربية، بل هي آرامية أو نبطية فيها ألفاظ وعبارات عربية.

وليس لنا مع هؤلاء حديث، فلسنا في مقام التنازع في هذه النقوش، ولا في ملكيتها إلى أي الألسن تعود. وإنما نكتفي بمطالبتهم أن يفسروا لنا سبب وجود ألفاظ وعبارات عربية في نقوش آرامية أو نبطية.

وقالت فئة ثانية: بل هي نقوش عربية فيها تأثيرات آرامية كثيرة، بحيث يعتبر اللسان الذي كتبت به لساناً يختلف عن اللسان العربي الذي نعرفه في نجد والحجاز.

وعلى هؤلاء نرد بما يأتي:

١ ــ إذا كان لسان عرب مشارف الشام والعراق ــ وهم أصحاب هذه النقوش ــ مختلفاً اختلافاً كبيراً عن لسان أهل نجد والحجاز أثناء تدوين هذه النقوش، فيجب أن نجد تفسيراً مقبولاً لتشابه اللسانين المذكورين تشابهاً تاماً قبيل ظهور الإسلام، هذا التشابه الذي أثبتت كل الروايات التاريخية والأخبار الأدبية وجوده. فكلنا يعلم أن شعراء نجد والحجاز كانوا يفدون قبيل الإسلام على ملوك المناذرة في الحيرة وملوك الغساسنة في الشام. وأنهم كانوا ينشدونهم أشعارهم البدوية، وإن هؤلاء الملوك كانوا يتذوقون هذه الأشعار ويجيزون عليها. ولا معنى لكل هذا إلا أن يكون لسان الشاعر المنشد ولسان الملك المستمع شيئاً واحداً.

فإذا علل المستشرقون هذا التقارب بالابتلاع فقد وقعوا فيما وقع فيه غيرهم ممن قالوا بابتلاع لهجات الشمال للهجات الجنوب. وما قلناه في الرد على أولئك يصلح بكل تفاصيله للرد على هؤلاء أيضاً.

٢ ــ إن هذه النقوش تشتمل على عبارات لا شك في فصاحتها وسلامتها من كل لكنة أعجمية، مثل: (ونزّل بنيه الشعوب) و(فلم يبلغ ملك مبلغه) (١). وهذا أكبر دليل على أن لسان كتبة هذه النقوش لم يكن يختلف في شيء عن لسان نجد والحجاز كما نعرفه قبيل ظهور الإسلام. فإن قيل: فما شأن هذه العبارات الأعجمية في النقوش مثل (تي نفس = هذا قبر) و(عكدي = في الحول) وغيرها مما لا يكاد يخلو منه نقش؟ قلنا: إن هذه العبارات وما شابهها

---

(١) انظر نقش النمارة الذي سبق ذكره.

كانت تقليداً كتابياً يتبعه الكتبة في النقوش فقط دون لسان المحادثة العادية. فكلنا يعلم أن الثقافة الآرامية كانت هي المسيطرة على تلك المنطقة لذلك العهد، وكلنا يعلم أيضاً أن العرب الشماليين قد أخذوا خطهم عن الخط الآرامي والنبطي، فكان طبيعياً، والحالة هذه، أن يتأثر الكتبة بتقاليد الكتابة الآرامية وأن يضمنوا كتاباتهم عبارات آرامية شائعة في الكتابة تظاهراً منهم بالعلم أو تظرفاً. أما القول بتأثيرات آرامية في لسان المحادثة لعرب تلك المناطق فهو مما يتعارض مع أبسط القوانين اللغوية، فهذه القوانين تقول لنا: إنه إذا أصاب التشويه لساناً ما لم يضربه في نقطة دون أخرى، ولم يصب عبارة من عباراته لتسلم منه عبارة أخرى، بل هو يصيبه في جميع عباراته وأساليبه. انظر إلى لهجتك العامية الحديثة ــ سواء أكنت شامياً أم مصرياً أم عراقياً ــ وقل لي، هل تجد في لهجتك عبارة واحدة خالصة الفصاحة لم تَشُبها شائبة عامية؟ فإذا كان جوابك بالنفي أيقنت معي أن وجود عبارات فصيحة سليمة في لغة النقوش الجاهلية أكبر دليل على فصاحة اللسان الذي كتبت به، وأنه واللسان العربي الشمالي الذي نعرفه قبيل ظهور الإسلام شيء واحد لا شيئان.

وقالت فئة ثالثة: إن لسان هذه النقوش هو لسان العرب الشماليين الجاهليين، ولكنه بخصائصه التي تظهر له من خلال النقوش يختلف عن لسان القرآن اختلافاً كبيراً.

وليس لهذا القول إلا إحدى نتيجتين اثنتين لا ثالثة لها: فإما أن يقول هؤلاء إن اللسان القرآني بخصائصه المعروفة قد نجم من العدم، أو اخترع اختراعاً، وإما أن يقولوا إن اللسان الجاهلي القديم قد تطور حتى كانت له هذه الخصائص حين ظهور الإسلام.

١ ــ فأما القول بالاختراع[1] فهو مردود لسببين: أولهما أن التاريخ بكل رواياته الموثوقة يدحض هذا الزعم العجيب، ولا يشير ــ في أضعف أخباره، بل في

---

(١) وقد قال به من المستشرقين فولرز و كوهين، ومن الباحثين العرب الدكتور ابراهيم انيس وسيكون لنا رد أوسع على هؤلاء عند الحديث عن ظاهرة الاعراب في العربية.

خرافاته أيضاً — إلى أن أحداً اخترع هذا اللسان العربي. بل لو لم يكن هناك تاريخ موثوق، ولو لم يكن هناك تواتر في الرواية، لكانت المحاكمة العقلية الصحيحة وحدها كافية لرفض فكرة الاختراع، إذ كيف يعقل أن يخترع فرد أو أفراد قلة لساناً على مثل هذا النظام والتعقيد ثم يفرضوه على معاصريهم، ويحملوهم عليه حملاً، وليس لهم سلاح من سلطان أو نفوذ؟ إن فرنسا بكل جيوشها، وحضارتها وعلمها، ومدارسها، وإرادتها المصممة، وحماستها الحارة، لم تستطع أن تفرض لسانها على الجزائريين خلال مائة وثلاثين عاماً. فكيف استطاع حفنة من النحاة البسطاء أن يفرضوا خصائص لغوية للسان لا يعرفها ثم فرضوا ما اخترعوا على ملايين من البشر في فترة محدودة من الزمان دون أن تبدر من هذه الملايين بادرة من مقاومة أو احتجاج؟ والسبب الثاني هو أن فكرة الاختراع مرفوضة بقوانين علم اللغة نفسه، إذ تعلن هذه القوانين أن الاختراع في اللغة مستحيل، وإن كل المحاولات التي بذلت في هذا السبيل — كلسان الاسبرانتو مثلاً — باءت بالاخفاف، وماتت في مهدها، ولم يبق منها غير ذكرى، أو غير شاهد من الشواهد الكثيرة على حماقات الإنسان حين يحاول أن يغير من طبائع الأشياء، وأن يتدخل في أمر النواميس الكبرى التي تحكم الكون وحياة الإنسان.

٢ — وأما القول بالتطور فلا نرفضه، بل نحن ممن يقول به أيضاً، لكن نقطة الخلاف بيننا وبين أصحاب هذا الرأي هي في مدى هذا التطور لا في وجوده. فهذه النقوش كتبت في الفترة بين القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد. فإذا كان ظهور الإسلام في القرن السادس الميلادي، وإذا كان اللسان القرآني قد تمت له خصائصه المعروفة قبل الإسلام بقرن واحد على الأقل — كما تشير إلى ذلك الأشعار الجاهلية — فإن الفترة التي اجتازها اللسان العربي في تطوره حتى انتقل من مرحلة إلى مرحلة أخرى بينهما هذا القدر الكبير من الاختلاف المزعوم لا تزيد على قرن أو قرنين اثنين من الزمان. وهذه فترة قصيرة جداً، وغير كافية لانضاج تطور كبير. و يؤيدنا فيما نذهب إليه أمور:

أ — أولها أنه وإن كانت كل الألسن خاضعة لقانون التطور، إلا أن بعضها يبدي من المقاومة لهذا القانون أكثر مما يبديه الآخر وقد اتسم تاريخ العربية خلال

كل العصور بشدة المحافظة وعدم الاستسلام للتطور العنيف السريع. يعترف بذلك المستشرقون أنفسهم حين يقررون أن العربية أقرب أخواتها الساميات إلى الأم، وإنها احتفظت بأشكال قديمة من أمها لا أثر لها في أخواتها. كما يشهد على ذلك أيضاً تاريخ تطورها منذ ظهور الإسلام إلى اليوم، فبعد أربعة عشر قرناً من التطور لم ينقطع التفاهم بين المتكلم بالفصحى والسامع العامي، هذا الانقطاع الذي يعده علماء اللغة الحد الفاصل بين الألسن. وهذه فترة طويلة تغيرت فيها ألسن كثيرة عدة مرات.

قد يقال: ولكن الفضل في هذه المحافظة يرجع إلى القرآن الكريم وهو عامل لم يكن في الجاهلية. وهذا صحيح، ولكننا نقول: إنه إذا كان قد تهيأ للعربية بعد الإسلام عامل إمساك وكبح جماح يتمثل في القرآن الكريم، فإنها قد تعرضت في الإسلام إلى عوامل تسريع في التطور لم تتعرض إليها في الجاهلية. ونعني بذلك هذا الصراع العنيف الذي خاضته ضد الألسن المحلية في البلاد المفتتحة، ثم هذا الاتساع الهائل في الرقعة بعد أن صارت لغة المحادثة لكل الأقوام الساكنة ما بين حدود الهند شرقاً وجبال البرانس غرباً. فإذا تساقط العاملان: عامل الكبح وعامل التسريع، ظل صحيحاً ما قلناه من أن سمة المحافظة وعدم الخضوع للتطور العنيف السريع من أبرز سمات العربية.

ب ــ الثاني أن طبيعة البلاد التي عاشت فيها العربية الجاهلية تمنع من حدوث تطور عنيف سريع في اللغة. إذ يقرر فقه اللغة أن اللغة يتجاذبها دائماً عاملان: عامل توحيد وثبات، وعامل تفريق وتغيير[1]، وأن طبيعة الأرض تتدخل في كثير من الأحيان فتغلب أحد هذين العاملين على الآخر: ففي المناطق التي تشح فيها الطبيعة على الإنسان فلا تقدم البقعة المحدودة من الأرض ما يكفي سكانها يضطر هؤلاء السكان إلى الرحلة والنقلة لسد حاجاتهم الحيوية، فينشأ عن ذلك تمازج واختلاط مستمر بين سكان المنطقة، وكل ذلك يؤدي إلى ثبات اللغة وعدم انقسامها إلى لهجات كثيرة، لأن أي انحراف يظهر فيها على شفاه قبيلة ما سرعان ما يتصحح عند انتقال هذه القبيلة واحتكاكها بالقبائل

---

(١) انظر: ابراهيم السامرائي: التطور اللغوي التاريخي، ص ٢١ وما بعدها.

الأخرى ومشافهتها لها. وعلى العكس من ذلك، إذا كانت الطبيعة سخية، وكانت كل بقعة من الأرض قادرة على كفاية سكانها وسد حاجاتهم الحيوية الضرورية، انعزل الناس في بقاعهم بعضهم عن بعض لعدم الحاجة إلى التنقل، وسلكت اللغة على شفاههم مسالك متعددة بعدد الوحدات البشرية المنعزلة، وأدى ذلك كله إلى تفتت اللسان الواحد إلى لهجات كثيرة يزيد البعد بينها كلما تقدم الزمان. فللسبب الأول كان لسان الاسكمو واحداً وعصياً على التطور على الرغم من اتساع بقاعه حول القطب الشمالي، وللسبب الثاني كان اللسان الفرنسي متعدد اللهجات شديد الاختلاف بينها، حتى أنك لتحس بالفوارق اللغوية في فرنسا كلما انتقلت من قرية إلى أخرى، بل كلما انتقلت من حي إلى حي في القرية الواحدة.

جـ ــ الثالث هو أن هذا التطور المزعوم للعربية في خلال قرنين من الزمان لم يحدث مثله ــ في شدته وعنفه ــ حتى للفرنسية والانكليزية اللتين ضربتا الرقم القياسي في سرعة التطور.

فإذا انتفى أن تكون عربية القرآن اختراعاً وتلفيقاً، وإذا بطل أن تكون قد استكملت خصائصها نتيجة تطور خلال قرنين فقط من الزمان، لم يبق إلا شيء واحد، وهو: أن هذه العربية القرآنية قديمة بخصائصها وأن لسان النقوش التي دونت في القرنين الثالث والرابع الميلاديين هو نفسه اللسان العربي الشمالي الذي كان لقريش وسكان نجد والحجاز بكل ما نعرف من صفاته وخصائصه.

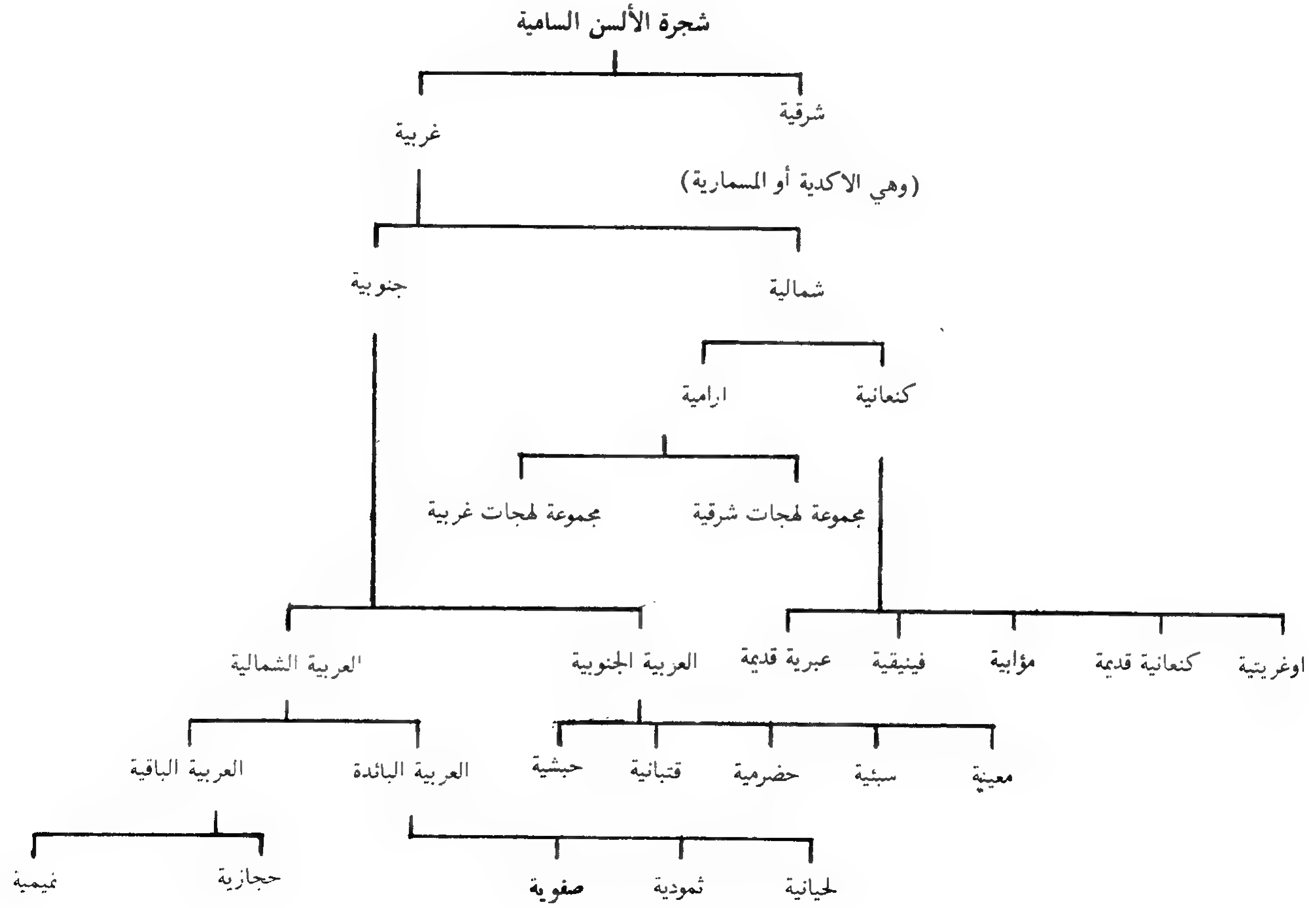
* * *

نريد من كل ما تقدم أن نخلص إلى القول:

١ ــ إنه لم يكن في جزيرة العرب إلا لسان عربي واحد يتكلمه أهل الشمال وأهل الجنوب على حد سواء، وإن الاختلاف بين لهجاته لم يكن أوسع مما تجيزه وتقبله قوانين اللغة بين لهجات اللسان الواحد.

٢ ـ إن اللسان العربي الذي وصلنا عن طريق القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر الجاهلي لسان طبيعي بكل معاني الكلمة، نشأ نشأة طبيعية، وتطور تطوراً طبيعياً، ولا يزال حتى اليوم يسلك خطه الطبيعي في التطور.

٣ ـ إن هذا اللسان العربي بكل خصائصه وصفاته قديم تمتد جذوره في الجاهلية قروناً عديدة أكثر مما يقدره له المستشرقون.


شجرة الألسن السامية
شرقية
(وهي الاكدية أو المسمارية)
غربية
شمالية
جنوبية
كنعانية
ارامية
مجموعة لهجات شرقية
مجموعة لهجات غربية
اوغريتية
كنعانية قديمة
مؤابية
فينيقية
عبرية قديمة
العربية الجنوبية
العربية الشمالية
معينية
سبئية
حضرمية
قتبانية
حبشية
العربية البائدة
العربية الباقية
لحيانية
ثمودية
صفوية
حجازية
تميمية

الباب الثالث

الأصوات

علوم الأصوات اللغوية

عنصر الأصوات هو أحد العناصر الثلاثة التي تتألف منها اللغة المنطوقة، وهي عنصر الأصواتِ، وعنصر المفردات، وعنصر التراكيب.

والعلم الذي يدرس الأصوات اللغوية يدعي بعلم الأصوات اللغوية (La phonéteque). وهو ينقسم إلى أربعة أقسام:

علم الأصوات الوصفي: وهو العلم الذي يتناول بالدراسة عنصر الأصوات للسان ما في فترة ما. فإذا أقبل باحث على لسان من الألسن فدرس عنصر الأصوات فيه، ليقفنا على ما في هذا اللسان من أصوات، وعلى مخارجها وصفاتها وخصائها، وعلى ما يعتري هذه الأصوات من تغير وتبدل لمجاورة بعضها لبعض... الخ. فعمله يدخل فيما يسمى بعلم الأصوات الوصفي: ومن ذلك مباحث علم التجويد في العربية.

علم الأصوات التاريخي: وهو العلم الذي يتتبع اصوات لسان ما خلال فترة طويلة من الزمن ليقف على التغيرات التي أصابت أصوات هذا اللسان، وعلى القوانين التي حكمت هذه التغيرات.

علم الأصوات المقارن: وهو العلم الذي يقيم الموازنة بين أصوات لسانين أو أكثر ليكشف عن وجوه الاتفاق والاختلاف بينها.

علم الأصوات العام: وهو العلم الذي يدرس عنصر الأصوات في اللغة عامة، فيدرس الجهاز الصوتي عند الإنسان، ووظيفة كل عضو في هذا الجهاز، ويبحث في الطرق المختلفة لإنتاج الصوت، ويصنف الأصوات، ويحاول بعد استقراء كل الألسن أن يجد الأسباب التي تتسبب في التبدلات الصوتية... إلى آخر ما هنالك من المباحث التي تصدق على كل لسان ولا تختص بلسان دون آخر.

هذا، و يتفرع على الأصولت اللغوية علم حديث النشأة اسمه علم وظائف الأصوات[1] (La phonologie). والفرق بين العلمين أن الأول يدرس الأصوات اللغوية وكأنها مجرد حوادث فيزيائية لا علاقة لها باللغة التي هي أحد عناصرها، فيهتم بمخارجها وصفاتها ومقادير شدتها وعدد ذبذباتها واطوالها وما إلى ذلك. بينما يهتم الثاني بوظيفة كل صوت في اللغة، فيتساءل عن كثرة ورود هذا الصوت أو قلته في هذا اللسان، وعن إمكان وجوده في هذا المقطع أو ذاك، وعن قبول مجاورته لذاك الصوت أو عدم ذلك... إلى آخر ما هنالك من المباحث التي ترمي إلى وضع القواعد الصوتية التي تجري عليها الأصوات في لسان ما، من غير الحاح على الطبيعة الفيزيائية للأصوات، هذا الإلحاح الذي يميز علم الأصوات من علم وظائف الأصوات.

هذا، وإن قولنا عن علم وظائف الأصوات إنه علم حديث النشأة ليس صحيحاً كل الصحة، فالواقع إن كثيراً من مباحث هذا العلم عرفت عند العرب قديماً، فقولهم عن النون والراء إنهما لا تجتمعان في صدر كلمة عربية[2]، وملاحظاتهم الكثيرة لما يستحسن من تراكيب الحروف وما يستقبح، كل هذا وغيره ليس إلا من لب المباحث الفونولوجية. بل إن الكنعانيين الذين وضعوا أول ابجدية في العالم لم يستطيعوا ذلك إلا بعد أن أجروا تحليلاً فونولوجياً للسان الكنعاني.

فقولنا إن علم وظائف الأصوات حديث النشأة لا يقصد منه أنه خلق حديثاً من العدم، بل المقصود أن جمع هذه المباحث النابعة من وجهة نظر لغوية إلى الأصوات تحت اسم واحد هو الحديث، أما المباحث نفسها فهي قديمة، عند العرب على الأقل.

---

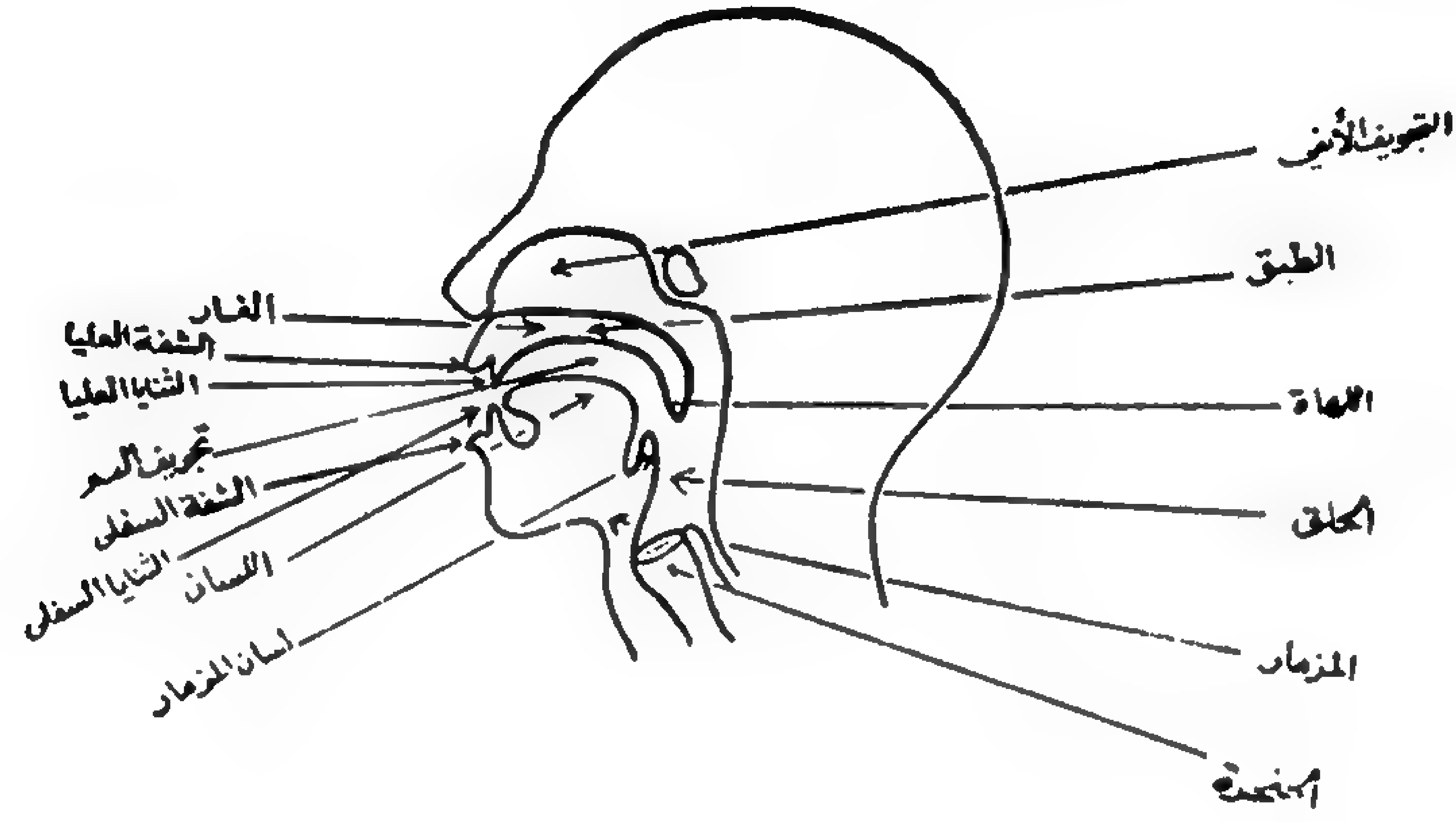
(١) و يسميه الدكتور تمام حسان بعلم التشكيل الصوتي، انظر كتابه (مناهج البحث في اللغة) ص١١١ وما بعدها.

(٢) لذلك حكموا بعجمة كلمة (نرجس) وما شابهها لأنها ألفت بين أصوات لا تؤلف العربية بينها في كلماتها.

واخيراً لا بد من الإشارة إلى أننا لن نفرد لكل من هذه العلوم فصلاً خاصاً، بل سنجمع بينها في باب واحد، وذلك لعدة أسباب، أهمها أن مباحث هذه العلوم شديدة التشابك، ولا سيما علما الأصوات ووظائف الأصوات، وإن حجم الكتاب المقدر له لا يسمح بذلك. والقارىء نفسه، وقد عرف حدود كل علم وميدانه الخاص، يستطيع أن يميز من الفقرات بين ما هو من هذا العلم أو من ذاك.

الجهاز الصوتي

يتألف الجهاز الصوتي في الإنسان من الأعضاء الآتية:



١ ــ الرئتان:

و يقتصر عملهما على امداد الجهاز الصوتي بالهواء اللازم لاحداث الصوت.

٢ ــ القصبة الهوائية:

وتسمى بالرغامى، وهي قناة غضروفية تصل ما بين الرئتين والحنجرة وقد كان يظن قديماً أن أثر لها في الصوت اللغوي، وأنها مجرد طريق للهواء، ولكن البحوث الحديثة برهنت على أنها تستغل في بعض الأحيان فراغاً رناناً ذا أثر بيّن في درجة الصوت، ولا سيما إذا كان الصوت عميقاً.

٣ ــ الحنجرة:

وهي حجيرة غضروفية متسعة بعض الاتساع. و يدعى جزؤها البارز من الامام تفاحة آدم. وأهم أجزائها في عملية التصو يت هما الوتران الصوتيان.

٤ ـ الوتران الصوتيان:

وتسميتهما بهذا الاسم مجازية، فليسا وترين بالمعنى المعروف من كلمة وتر، بل هما رباطان مرنان يشبهان كل الشبه الشفتين، ويمتدان في داخل الحنجرة أفقياً من الخلف إلى الامام، حيث يلتقيان عند ذلك البروز الذي نسميه بتفاحة آدم. أما الفراغ الذي بينهما فيسمى بالمزمار. وفوق المزمار زائدة لحمية تدعى لسان المزمار، وظيفتها الأصلية أن تكون صماماً يحمي طريق التنفس أثناء عملية البلع، إذ تتراجع هذه الزائدة فتسد فتحة المزمار حين مرور الطعام إلى المرىء.

أما الوتران فلا يهتزان إذا كانا متباعدين وكانت فتحة المزمار بينهما واسعة، ولكن إذا تقاربا ولم يتركا للهواء المندفع من الرئتين غير ممر ضيق فإن الهواء يضرب بهما فيهتزان ويحدثان الصوت، ثم تقوم تجاويف الحنجرة والحلق والفم بتضخيم الصوت المنبعث منهما كما يفعل تجويف العود والآلات الموسيقية الأخرى حين تضخم اصوات ما يشد عليها من أوتار.

٥ ـ الحلق:

وهو الجزء الذي بين الحنجرة والفم. وإلى جانب كونه مخرجاً لعدد من الأصوات اللغوية يستخدم، كما قلنا، في تضخيم الصوت المنبعث من الوترين في الحنجرة.

٦ ـ اللسان:

وهو قطعة عضلية شديدة المرونة، ويعد أهم عضو في الجهاز الصوتي كله. فبأوضاعه المختلفة التي يتخذها اثناء التكلم تتباين الأصوات اللغوية وتتمايز. وقد قسمه علماء الأصوات إلى ثلاثة اقسام: أولها أول اللسان بما في ذلك طرفه، والثاني وسطه، والثالث أقصاه.

٧ ـ الحنك الأعلى:

ويسمى بسقف الفم أيضاً. وينقسم إلى قسمين: الأول أمامي صلب يدعى الغار، والثاني خلفي رخو يدعى الطبق.

٧ ــ اللهاة:

هي الزائدة اللحمية التي ينتهي بها الجزء الخلفي الرخو من الحنك الأعلى.

٩ ــ الاسنان:

وهي قسمان علوية وسفلية.

١٠ ــ اصول الاسنان:

وتسمى اللثة ايضاً.

١١ ــ الفراغ الأنفي:

وهو الفراغ الذي يندفع خلاله النفس اثناء انغلاق طريق الفم.

١٢ ــ الشفتان:

وهما عضلتان مستديرتان ينتهي بهما الفم.

كيفَ يحدث الصّوت اللّغوي

(الجَهر والهمس)

حين يندفع الهواء من الرئتين و يدخل الحنجرة يجد نفسه أمام إحدى حالتين: فأما أن يجد الوترين الصوتيين مشدودين وفتحة المزمار شديدة الضيق، وأما أن يجد الوترين متراخيين وفتحة المزمار واسعة، ففي الحالة الأولى يحتك بالوترين بعنف فيهزهما عدداً من الهزات في الثانية يكثر أو يقل بحسب شدة توترهما أو ضعفه، و ينتج من هذا الاهتزاز صوت تقوم الحنجرة والفراغات الأخرى التي سبق ذكرها بتضخيمه. وفي الحالة الثانية يمر الهواء من فتحة المزمار من غير أن يهز الوترين.

وفي كلتا الحالتين يخرج الهواء من الحنجرة ليسلك طريقه في الفم، وهنا يجد نفسه مرة أخرى أمام إحدى حالتين: فإما أن يجد طريقه مفتوحاً لا تعترضه عقبة من الحنجرة حتى خارج الشفتين، وإما أن يجد هذا الطريق قد انسد في نقطة منه انسداداً كلياً أو جزئياً. ففي الحالة الأولى يمر حتى يخرج من الشفتين من غير أن يحدث صوتاً، وفي الحالة الثانية يحتك بأعضاء النطق عند نقطة الانسداد فيحدث صوتاً مرة أخرى.

وهكذا ترى أن كل صوت لغوي لا يخرج عن أن يكون واحداً من ثلاثة: فإما أن يعتمد في التصويت على الوترين فقط، وأما على نقطة الانسداد فقط، وإما على الأمرين جميعاً.

وقد أجمع اللغويون حتى الآن على تصنيف الأصوات اللغوية إلى صنفين: مجهور، ومهموس.

فالمجهور ما تحرك معه الوتران الصوتيان، والمهموس ما لم يتحرك معه الوتران. وفي رأينا أن هذا التصنيف ناقص، لأنه يسقط من اعتباره نقطة الانسداد

الفموي، و يركز نظره على الوترين وحدهما و يؤدي الأمر إلى أن يدخل تحت اسم المجهور صنفان من الأصوات لا صنف واحد، صنف كل تصويته من الوترين فقط، وصنف له إلى جانب التصويت الوتري عنصر صوتي ناتج من احتكاك الهواء باعضاء النطق عند نقطة الانسداد.

لذلك نرى أن تصنف الأصوات اللغوية إلى صنفين: أحادية التصويت وثنائيته، ثم أن تقسم أحادية التصويت إلى قسمين: وترية، صوتها من الوترين فقط، وانسدادية صوتها من نقطة الانسداد فقط.

وهكذا يكون لدينا ثلاثة أنواع للصوت اللغوي:

١ ــ احادية التصويت وترية: منها صوتا النون والميم، وأصوات الفتحة والضمة والكسرة وما كان من فصيلتها (١).

٢ ــ احادية التصويت انسدادية: منها الفاء والسين والحاء والخاء... وغيرها.

٣ ــ ثنائية التصويت: منها الباء والدال والذال والزاي.. وغيرها ومع هذا سنظل جارين على ما انعقد الاجماع عليه إلى أن يعيد اللغويون النظر في تصنيفهم الذي لا يصور كل الحقيقة للأصوات اللغوية.

---

(١) في صوتي الميم والنون يحدث انسداد فموي كامل. ولكن ليست الغاية من هذا الانسداد احداث صوت في نقطته، بل الغاية منه تحويل مجرى الهواء إلى الأنف، فمع هذين الصوتين ينخفض حجاب الحنك ويمر الهواء في التجويف الأنفي لا في الفم. والدليل على ما نقول أن الجهر لو توقف في الميم والنون لم يسمع منهما شيء، وهذا هو شأن أصوات الفتحة والضمة والكسرة.

تصنيف الأصوات اللغويّة

التصنيف الأساسي المتبع للأصوات اللغوية هو قسمتها إلى:

١ ــ أصوات طليقة: voyelles.

٢ ــ أصوات حبيسة [1]: Consonnes.

والصوت الطليق هو الصوت الذي يجري معه النفس طليقاً لا يعترض طريقه عقبة حتى يخرج من الفم.

وأما الصوت الحبيس فهو الصوت الذي يحدث معه انسداد جزئي أو كلي في نقطة من نقاط القناة الصوتية.

* * *

(١) الطليقة والحبيسة تسميتان نقترحهما لهذين الصنفين من الأصوات لما فيهما من إشارة إلى الفرق الجوهري بين نوعي الأصوات هذين. وللغويين المحدثين من العرب تسميات مختلفة. وكلها لا يفي بالمراد لعدم تضمنه الاشارة إلى طبيعة الخلاف بين الصنفين. فالدكتور تمام حسان يسميهما بالصحاح والعلل (انظر كتابه: مناهج البحث)، والدكتور محمود السعران يدعوهما بالصوائت والصوامت (انظر كتابه: علم اللغة) والاستاذان الدواخلي والقصاص مترجما كتاب فندريس يسميانهما بالسواكن والحركات، أما الدكتور ابراهيم انيس فيسميهما بالسواكن وأصوات اللين (انظر كتابه: الأصوات اللغوية).

فأما تسمية الدكتور حسان فتصلح في مقام الصرف لا في مقام الأصوات لما فيها من الاشارة إلى ثبات بعض الأصوات عند التصريف واختلال بعضها الآخر بالحذف والتغيير، وأما تسمية الدكتور السعران ففيها شيء من الغرابة والتناقض إذ كيف يسمى الصوت صامتاً؟! وأما اصطلاح الدواخلي والقصاص ففيه التباس بين الساكن الذي لا تتلوه الحركة والساكن الذي بمعنى (consonne). ومثل هذا يقال في اصطلاح الدكتور ابراهيم انيس.

تصنيف الأصوات الحبيسة

في كل صوت حبيس نقطة انسداد للقناة الصوتية. هذه النقطة قد تكون في أول القناة، أو في نهايتها، أو فيما بين ذلك.

والانسداد على درجات، فقد يكون تاماً. وقد يكون ناقصاً، وقد يكون شبه معدوم.

وفي إحداث كل صوت حبيس يشترك عدد من اعضاء النطق، و يتخذ الفم واللسان أوضاعاً مختلفة تعطي كل صوت حبيس طابعه الخاص.

فعلى هذا يمكن تصنيف الحبيسات ثلاثة تصنيفات: تصنيفاً ينظر فيه إلى مكان الانسداد، وآخر ينظر فيه إلى درجة الانسداد، وثالثاً ينظر فيه إلى الأعضاء المشتركة في عملية النطق؛ والاوضاع المختلفة لهذه الأعضاء. و يسمى ذلك اختصاراً بطريقة النطق (mode d'articulation).

آ ــ التصنيف بحسب نقطة الانسداد:

تسمى النقطة التي يجري عندها الانسداد بالمحبس[1] (point d'articulation). وإليك نقاط الانسداد والأصوات الحادثة فيها:

١ ــ محبس الشفتين: وفيه تلتقي الشفة السفلى بالشفة العليا. فإما أن تلتحما فتمنعا الهواء من المرور، وهذا شأنهما مع الباء والميم. وإما أن تكتفيا

(١) وهذه تسمية أخرى نقترحها بدلاً من كلمة (مخرج) التي اتفق عليها القدماء والمحدثون من اللغو يين. وذلك لأن كلمة (مخرج) تدل، كما يشير إلى ذلك اشتقاقها على المكان الذي يخرج منه النفس والصوت لأعلى مكان الانحباس. وإذا كانت نقطة الانسداد ونقطة الخروج واحدة في كثير من الأصوات، فإنها ليست كذلك مع بعضها ألا ترى أن نقطة الانسداد مع الميم هي الشفتان، وأن مخرج صوت الميم من الأنف؟

بالتقارب الشديد الذي لا يمنع من نفوذ الهواء من بينهما وهذا شأنهما مع الواو.

الأصوات العربية التي تحدث في هذا المحبس هي الباء والميم والواو، وبعض الألسن الأعجمية تضيف إلى ذلك صوت (P).

٢ ـ المحبس الشفوي الأسناني: وفيه يلتقي باطن الشفة السفلى مع أطراف الثنايا العليا التقاءً يترك بينهما فرجة ضيقة جداً ينفذ منها الهواء. ولا تملك العربية من هذا المحبس إلا صوت الفاء. أما بعض الاعجميات فتحدث فيه صوتاً آخر هو صوت (V).

٣ ـ محبس ما بين الاسنان: وفيه تتقارب الثنايا السفلى من الثنايا العليا ثم يأتي طرف اللسان ليكون بينهما. والأصوات الحادثة من هذا المحبس هي الثاء والذال والظاء.

٤ ـ محبس الأسنان واللثة: وفيه يعتمد طرف اللسان على باطن الثنايا العليا، ومقدمه على اللثة. فإن كان هذا الاعتماد قوياً وكان الالتحام تاماً حدثت اصوات الضاد والدال والطاء والتاء، وإن كان الاعتماد ناقصاً وكانت هناك فرجة حدثت أصوات الزاي والسين والصاد.

٥ ـ المحبس اللثوي: وفيه يلتقي طرف اللسان باللثة. فإن كان الالتحام بينهما تاماً وامتنع الهواء من المرور وتحول إلى مجرى الأنف حدث صوت النون، وإن سمح للهواء بالانسياب على حافتي اللسان، أو على إحداهما حدث صوت اللام، وإن تكرر الالتقاء على شكل ضربات من طرف اللسان على اللثة حدث صوت الراء.

٦ ـ المحبس الغاري: وفيه يلتقي مقدم اللسان وجزء من وسطه بمقدم الحنك الأعلى الذي سميناه الغار. فإن كان الالتحام يمنع من مرور الهواء حدث صوت الجيم، وإن كان غير ذلك حدث صوتا الياء والشين.

٧ ـ المحبس الطبقي: وفيه يلتقي أقصى اللسان بأقصى الحنك الذي سميناه الطبق. فإن كان الالتحام تاماً حدث صوت الكاف، وإن كان غير ذلك حدث صوتا الغين والخاء.

٨ ــ **المحبس اللهوي:** وفيه يلتحم اقصى اللسان باللهاة، وهي الزائدة اللحمية التي ينتهي بها الطبق. ومن هذا المحبس يحدث صوت القاف.

٩ ــ **المحبس الحلقي:** وفيه تتقارب جدران الحلق حتى لا تترك بينها إلا فرجة صغيرة يمر منها الهواء. ومن هذا المحبس يحدث صوتا العين والحاء.

١٠ ــ **المحبس الحنجري:** وفيه يلتقي أحد الوترين الصوتيين بالآخر. فإن التحما فلم يسمحا للهواء بالنفوذ حدث صوت الهمزة، وإن اكتفيا بالتقارب حدث صوت الهاء.

ب ــ التصنيف بحسب درجة الانسداد:

ويمكن ان نعكس العبارة فنقول (درجة الانفتاح = degré d'aperture) وإليك هذه الدرجات وما ينتج عنها من أصوات:

١ ــ **الانفتاح المعدوم:** وفيه تنقبض أعضاء النطق، و يلتقي بعضها ببعض في المحبس، في التحام تام لا يسمح للهواء بالنفوذ إلا بعد أن ينفصل بعضها عن بعض انفصالاً مفاجئاً. وهذه الآلية في النطق تسمى بالانفجار. وهي تتألف من ثلاث مراحل: مرحلة الحبس، وفيها يتم التحام اعضاء النطق في المحبس، ومرحلة الامساك، وفيها يستمر الالتحام مدة تطول أو تقصر بحسب الصوت المراد احداثه، بينما يكون الهواء في حالة تراكم وانضغاط خلف المحبس، ومرحلة الانفجار، وفيها تنفصل اعضاء النطق بعضها عن بعض في حركة فجائية، فيندفع الهواء المنضغط المحبوس محدثاً في اندفاعه فرقعة تشبه صوت الانفجار.

والاصوات العربية المحدثة بهذه الطريقة هي: الباء، والتاء، والدال، والضاد، والطاء، والكاف، والقاف، والهمزة. وتسمى بالاصوات الانفجارية، والنحاة القدماء، وبعض اللغويين المحدثين يسمونها بالشديدة.

٢ ــ **الانفتاح الضيق:** وفيه تتقارب اعضاء النطق في المحبس تقارباً شديداً بحيث لا تترك للهواء إلا منفذاً ضيقاً يمر منه محدثاً باحتكاكه بأعضاء النطق صوتاً ضعيفاً يشبه صوت الحفيف. وهذه الآلية في النطق تدعى بالاحتكاك والأصوات

المنبعثة بوساطتها هي: الثاء، والحاء، والخاء، والذال، والزاي، والسين، والشين، والصاد، والظاء، والعين، والغين والفاء. وتسمى أصواتاً احتكاكية، والنحاة القدماء وبعض اللغويين المحدثين يسمونها اصواتاً رخوة.

هذا وللانفتاح الضيق درجات: فمنه الضيق، ومنه الأضيق. وكلما اشتد الضيق زاد الاحتكاك وارتفع الصوت تبعاً لذلك. وفي حالات التضيق الشديد جداً يتحول الصوت المنبعث إلى ما يشبه الصفير الحاد. ولهذا سميت السين والزاي والصاد بالأصوات الصفيرية، لأن الانفتاح معها يكون في أضيق حالاته.

٣ ــ التراخي: وهي آلية نطقية مزيج من آليتي الانفجار والاحتكاك. ففي مرحلتيها الأولى والثانية تشبه آلية الانفجار تماماً. أي حبس ثم امساك. أما مرحلتها الثالثة فلا يحدث فيها ما يحدث في آلية الانفجار من انفصال مفاجىء لاعضاء النطق. بل يحدث هذا الانفصال بصورة تدريجية إلى أن ينتهي إلى أحداث انفتاح ضيق يمر منه الهواء من غير فرقعة محدثاً احتكاكاً كالذي رأيناه في آلية الاحتكاك. فالتراخي يبدأ انفجاراً وينتهي احتكاكاً، أو هو ــ كما قال فندريس(١) ــ مشروع انفجار فاشل.

ولا تملك العربية من الاصوات المحدثة بهذه الطريقة غير صوت واحد هو صوت الجيم.

٤ ــ تحويل مجرى الهواء: وهذه آلية نطقية أخرى يكون فيها الانسداد الفموي تاماً بحيث لا يسمح للهواء بالنفوذ، ولكن الهواء لا يتراكم خلف المحبس لينفجر عند انفصال اعضاء النطق، بل يتخذ طريقه في الأنف بعد أن يكون حجاب الحنك الأعلى قد ارتخى وفتح له طريق الحفر الأنفية. ولا شك أن الفراغ الأنفي مهما كان ضيقاً هو أرحب للهواء من الفجوة الضيقة التي تتركها له آلية الاحتكاك، ولهذا كانت هذه الآلية بعد آلية الاحتكاك في الترتيب.

والصوتان العربيان اللذان يحدثان بهذه الطريقة هما صوتا الميم والنون. ويسميان بالصوتين الأنفيين.

---

(١) اللغة ص ٥٠.

٥ ــ **الانفتاح الواسع:** وفيه لا يحدث حجز كامل للهواء كما في الانفجار، ولا تضييق للمجري شديد كما في الاحتكاك، وإنما يُعترض طريق الهواء في جزء من الفم مع السماح له بالانسراب في حرية كاملة في جزء آخر منه كما هو الشأن مع اللام، أو يحجز الهواء عدة مرات وبين كل مرة وأخرى يسمح له بالمرور السهل كما هو الشأن مع الراء.

والصوتان العربيان المحدثان بهذه الطريقة هما اللام والراء، ويسمى ما ينتج بهذه الطريقة من الأصوات عند الإفرنج بالحبيسات المائعة: consonnes liquides.

٦ ــ **الانفتاح الأوسع:** والفجوة مع هذه الآلية النطقية أوسع منها مع آلية الاحتكاك، بل يكاد الانسداد أن يكون شبه معدوم معها. ويكاد الهواء أن يكون طليقاً لا يعترض طريقه عقبة ما، كما هو الشأن في الأصوات الطليقة. ولهذا سميت الأصوات الناتجة بهذه الطريقة أشباه الطليقات، ومنها في العربية صوتان فقط هما الواو والياء.

٧ ــ **الانفتاح الشديد السعة:** وفيه يكون الجهاز الصوتي في حالة راحة تامة، فلا حبس للهواء، ولا تضييق لمجراه، ولا تحويل لهذا المجرى ولا اعتراض لسبيله، إلى آخر ذلك مما مر بنا سابقاً. وإنما يحدث الصوت من دفقة كبيرة من النفس تحدث نوعاً ضعيفاً من الحفيف في الحنجرة. ولهذا سمى بعضهم الهاء، وهو الصوت الوحيد الذي يحدث بهذه الطريقة، النفخة النفسية، ولم يشأ عده في الحبيسات، إلا أن آخرين يفضلون حسبانه في الحبيسات الاحتكاكية لأن فتحة المزمار معه لا تكون في حالتها الطبيعية تماماً بل تكون أضيق ويكون الوتران الصوتيان متقاربين أكثر.

ج ــ التصنيف بحسب طريقة النطق:

بعد أن حددنا محابس الأصوات الحبيسة ودرجات الانفتاح لكل منها بقي علينا أن نذكر الطرق المختلفة التي تعطي بعض الأصوات صفاتها الخاصة.

١ ــ **النطق والأوتار تتذبذب:** ويسمى تذبذب الأوتار المصاحب لعملية النطق بالجهر، وتسمى الأصوات الحادثة على هذه الكيفية بالأصوات المجهورة،

ومنها في العربية: الباء، والجيم، والدال، والذال، والراء، والزاي، والضاد، والظاء، والعين، والغين، واللام، والميم، والنون، والواو، والياء.

٢ ــ النطق والأوتار ساكنة: وتسمى هذه الكيفية من النطق بالهمس، كما تسمى الأصوات الناتجة بها الأصوات المهموسة، ومنها في العربية أصوات الهمزة، والتاء، والثاء، والحاء، والخاء، والسين، والشين، والصاد، والطاء، والفاء، والقاف، والكاف، والهاء.

٣ ــ النطق بالإطباق: والإطباق هو أن يرتفع مؤخر اللسان نحو أقصى الحنك الأعلى في شكل مقعر على هيئة ملعقة بينما يكون طرفه ملتحماً مع جزء آخر من اجزاء الفم مشكلاً محبساً من المحابس الصوتية المختلفة.

هذه الكيفية الخاصة للسان اثناء عملية النطق تعطي الصوت المنطوق طابعاً خاصاً من الضخامة والفخامة، وتسمى الأصوات المنطوقة بهذه الكيفية الأصوات المطبقة، و يسمى غيرها بالأصوات المنفتحة. والمطبقات في العربية أربعة هي:

الصاد، والضاد، والطاء، والظاء. وما سواها منفتحة.

٤ ــ النطق بحنجرة مفتوحة: وهي كيفية نطقية توجد عند قوم ولا توجد عند آخرين، وتؤدي عند من توجد عندهم إلى اتباع الأصوات الانفجارية بما يشبه صوت الهاء فالـ P و t و K تبدو في أفواه الالمان وكأنها على الشكل K^h T^h P. أما العرب فلم يعتادوا هذه الكيفية، ولذا فليس في أصوات العربية شيء من هذا القبيل، إلا أن بعض العاميات تحتوي على شيء منه، فأهل دير الزور في سورية ينطقون التاء والكاف وكأنهما (تْه ــ كْهْ).

ولتفسير هذه الظاهرة، أو هذه الكيفية لا بد من العودة إلى شرح آلية النطق بشيء من التفصيل:

قلنا: إنه، لانتاج صوت انفجاري، لا بد من اجتياز ثلاث مراحل: مرحلة حبس تلتقي فيها اعضاء النطق، ومرحلة إمساك يتجمع اثناءها الهواء خلف المحبس، ومرحلة انفجار تنفصل فيها الأعضاء انفصالاً مفاجئاً سريعاً. ولكننا لم نقل وقتئذ شيئاً عن وضع الحنجرة خلال كل هذه المراحل، وهذا ما سنتداركه

الآن: فعند بعض الأقوام يحدث أن يتقارب الوتران الصوتيان بمجرد البدء بعملية الحبس، أما عند آخرين فيحدث أن يظل الوتران متباعدين خلال كل المراحل أو بعضها. ففي الحالة الأولى ــ وتسمى النطق بحنجرة مغلقة ــ تكون كمية الهواء المشرب من الحنجرة إلى الفم قليلة بسبب تقارب الوترين وضيق فتحة المزمار. ونتيجة لذلك يكون انضغاط الهواء خلف المحبس قليلاً، فإذا حدث الانفجار سمعت فرقعة نقية لا شائبة فيها. أما في الحالة الثانية ــ وتسمى النطق بحنجرة مفتوحة ــ فإن كمية الهواء المتسرب من الحنجرة إلى الفم تكون أكثر بسبب تباعد الوترين واتساع فتحة المزمار، وينتج عن ذلك أن الهواء المتدفق بكميات كبيرة ينضغط خلف المحبس انضغاطاً قوياً، فإذا حدث الانفجار لم يخرج الهواء كله دفعة واحدة بسبب كثرته بل بقي جزء منه يتدفق حتى بعد حدوث الفرقعة. وهذا الجزء المتدفق بعد الفرقعة يحدث الصوت الصغير الذي يشبه الهاء.

٥ ــ **اليأيأة:** وهي طريقة في النطق تبدو معها بعض الأصوات وكأن جزأها الأخير ياء. فمن ذلك بعض النونات في الفرنسية كما في كلمة (Montagne). وليس من ذلك شيء في العربية.

٦ ــ **اللملمة:** وهي طريقة أخرى تبدو معها بعض الأصوات وكأنها متبوعة بصوت لام، وليس من هذا القبيل شيء في العربية، إلا أن وصف النحاة القدماء لصوت الضاد يشتم منه أن هذا الصوت كان يلفظ بهذه الطريقة.

٧ ــ **الوأوأة:** وهي طريقة أخرى تبدو معها بعض الأصوات وكأنها متبوعة بصوت واو صغير. وليس من هذا القبيل شيء في العربية مطلقاً.

٨ ــ **التشهيق:** وهو طريقة في احداث الأصوات لا يتخذ معها الهواء اتجاهه المعتاد، أي من الداخل إلى الخارج، بل يتخذ اتجاهاً معاكساً، أي من الخارج إلى الداخل.

٩ ــ **المصمصة:** واتجاه الهواء فيها كاتجاهه في التشهيق، إلا أنه لا يصل إلى الرئة كما في التشهيق بل يقف خلف المحبس فقط. وآلية المصمصة يمكن شرحها بما يلي:

فلإحداث صوت ممصمص تلتقي اعضاء النطق في واحد من المحابس المعروفة، وهذه مرحلة الحبس، ثم في مرحلة الإمساك يقوم الناطق بعملية مص نحو الداخل القصد منها تفريغ الهواء من المنطقة التي تقع خلف المحبس لإحداث تفاوت في الضغط بين المنطقة التي خلف المحبس والمنطقة التي امامه، وفي المرحلة الثالثة تتراخى اعضاء النطق ببطء فيندفع الهواء من الخارج حيث الضغط أعلى إلى الداخل حيث الضغط أخف، ومن احتكاك الهواء المندفع بأعضاء النطق يحدث صوت ممصمص متراخ لأن آلية المصمصة لا تسمح إلا بإحداث أصوات من النوع المتراخي.

وكلا التشهيق والمصمصة غير معروف في العربية الفصحى، أو هذا على الأقل ما نعرفه عن طريق النحاة، و يغلب علينا الاعتقاد بأن العرب كانوا يستعملون بعضاً من أصوات التشهيق والمصمصة في تعبيراتهم المختلفة، ولكن النحاة أغفلوا ذكرها لعدم دخولها اصواتاً اساسية في تركيب المفردات. وإنما يحملنا على هذا الظن أن هذا النوع من الأصوات شائع في جميع الألسن المنطوقة في العالم. بل يزعم بعض لغو يي الإفرنج أن اصوات المصمصة اصوات اساسية في السن بعض القبائل الأفريقية. يضاف إلى ذلك أن هذا النوع من الأصوات شائع اليوم في جميع اللهجات العربية الحديثة. وفي لهجة حلب سلسلة منها هي كما يلي:

١ ــ ياء مشهقة تستعملها النسوة للدلالة على التعجب والاستنكار.

٢ ــ لام ممصمصة يستعملها راكبو الدواب لحث دوابهم على السير.

٣ ــ ميم ممصمصة تستعمل للتعبير عن استحسان جمال شخص.

٤ ــ واو وفاء مشهقتان تستعملان للتعبير عن ألم من لذع حر أو برد أو لمس جرح أو ما شابه ذلك.

٥ ــ باء ممصمصة تستعمل لحث طفل على تناول شرابه.

٦ ــ تاء ممصمصة تستعمل للتعبير عن عدم الرضى أو عن النفي.

الاستنكار الشديد تجهر، ولكن جهرها يسمع ضعيفاً جداً، لأن الهواء المجهور معها يتجه بعد خروجه من الحنجرة نحو الرئتين لا نحو الفم، ولذلك يحرم من الفراغات الفموية التي تضخمه في حالة جريانه بالاتجاه الطبيعي[1].

* * *

(١) قارن فيما يختص بتصنيف الأصوات بالمراجع الآتية:

1— Cantineau: Cours de Phonètique Arabe, P.9-15.
2-- Cantineau: Etudes de Linguistique Arabe P. 9-15.
3— Marouzeau: La Linguistique, P. 7-14.

4) فندريس: اللغة، ص٤٣-٦١.

(5) ابراهيم انيس: الأصوات اللغوية.

(6) تمام حسان: مناهج البحث في اللغة ص٥٩ وما بعدها.

الحبيسَات في العربيَّة

يحتاج الباحث حين يتصدى لدراسة الأصوات في لسان ما إلى أحد شيئين: إما أن يشافه ابناء هذا اللسان و يستمع إليهم، وإما أن تكون عنده تسجيلات صوتية على أشرطة أو اسطوانات تحتوي على نصوص كثيرة نطقها ابناء هذا اللسان.

ولما كنا ونحن بصدد دراسة اصوات العربية، فاقدين للشيئين معاً، لم يبق أمامنا، للقيام بهذا العمل، إلا واحد من أمرين: فإما أن نعتمد دراسات قدماء النحويين للاصوات العربية، وإما أن نعتمد قراءة المجيدين من القراء للقرآن الكريم في عصرنا هذا.

فأما دراسات قدماء النحويين للأصوات العربية فهي، وإن كانت أدق ما كتب في الموضوع لذلك العهد، تشكو من غموض كثير، كما تعاني من اضطراب وتناقض في أغلب الأحيان[1]. وأما قراءة المجيدين من القراء فلا يمكن الركون إليها واعتبارها الصورة الصوتية الدقيقة للعربية كما كانت في صدر الإسلام. وذلك لسببين: أولهما إن التبدلات الصوتية أمر مطلق وإنه متى تغير صوت واستبدل به صوت آخر غدا الصوت الأول أشق الأصوات وأعسرها على من يريد النطق به[2]. يؤكد ذلك ما يجده القراء من عسر شديد في نطق الضاد على الصفة المعروفة له في كتب القراءات. وإذا كان الأمر كذلك كان من المشكوك فيه أن تكون أصوات العربية في أفواه القراء اليوم هي كما كانت في أفواه الصحابة رضوان الله عليهم. الثاني ان هؤلاء القراء مهما حاولوا التخلص من عاداتهم النطقية العامية فهم لا يفلحون. يشهد على ذلك اننا حين نسمع أحد القراء يتلو

---

(١) انظر الفصل الذي سنعقده للدراسات الصوتية بعد هذا الكلام.

(٢) انظر فندريس: اللغة، ص٦٥.

القرآن الكريم بالمذياع نستطيع أن نعرف ما إذا كان هذا القارىء شامياً أو عراقياً أو مصرياً أو حجازياً. وهذا دليل على أنهم لا ينطقون العربية كما كان ينطقها الرعيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم. إذ لو كانوا يفعلون ذلك لما أمكن التمييز بينهم.

ومع كل هذا يمكن اعتبار الصورة اللفظية للعربية على شفاه القراء أقرب الصور إلى الصورة اللفظية القديمة للعربية الفصحى. ولهذا ستكون هي معتمدنا في دراستنا للأصوات العربية. فإن وجد بينها وبين الدراسات النحوية القديمة خلاف نبهنا إليه وحاولنا تعليله وتفسيره.

* * *

يتألف النظام الصوتي للحبيسات العربية من ثمانية وعشرين صوتاً هي[1]:

ب. م. و. ف. ظ. ذ. ث. ض. د. ط. ت. ز. ص. س. ل. ر. ن. ش. ج. ي. ك. غ. خ. ق. ع. ح. همزة. هـ.

وقد عد النحاة القدماء هذه الأصوات هي الأصول، وأضافوا إليها ستة هي فروع منها مأخوذ بها في القرآن الكريم وكل كلام فصيح. «وهي النون الساكنة التي هي غنة في الخيشوم نحو «عنك» وتسمى النون الخفية والخفيفة، والفا الامالة والتفخيم نحو «عالم» و«الصلاة»؛ والشين التي كالجيم، نحو «اشدق»، والصاد التي كالزاي نحو «مصدر»، والهمزة بين بين[2]».

كما أضافوا إليها ثمانية اصوات أخرى عدوها فروعاً غير مستحسنة، ولا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر، ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة غير متقبلة.

---

(١) لا يدخل في هذا العدد أصوات الفتحة والضمة والكسرة وما كان من قبيلها من الأصوات الطليقة التي سنفرد لدراستها فصلاً خاصاً. ولاحظ اننا رتبنا الحبيسات بحسب محابسها.

هذا وكتب النحو لم تفرق بين الطليقات والحبيسات فأضافت إلى هذا العدد صوت الألف فصارت عدة الأصوات العربية عندهم تسعة وعشرين.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل للزمخشري، ج١٠ ص١٢٥. وانظر أيضاً سيبويه: الكتاب، ج٢ ص٤٠٤، وابن جني سر صناعة الاعراب، ج١ ص٥١.

وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالميم [1].

بعض هذه الأصوات الفرعية يمكن معرفة صورته اللفظية مما نعرف اليوم من القوانين الصوتية، فالصاد (التي كالزاي في نحو مصدر) ليست في واقعها غير صاد مجهورة أصابها الجهر لوقوعها بين صوتين مجهورين، هما: الفتحة قبلها، والدال بعدها. لكن في المجموعة الفرعية اصواتاً لا يمكن معرفة شيء دقيق عن صورتها اللفظية، فلا الوصف، ولا القوانين الصوتية تستطيع أن تفسر لنا كيف هي (الضاد الضعيفة) و(الباء التي كالميم). والظاهر انها عادات نطقية كانت لبعض العرب، ولا يمكن معرفتها إلا بالمشافهة كما صرح بذلك قدماء النحاة.

إذا صنفنا الحبيسات الأصول في العربية بحسب محابسها كانت على الشكل الآتي:

١ ــ ثلاثة أصوات شفوية، هي: ب، م، و.

٢ ــ صوت واحد شفوي اسناني، هو: ف.

٣ ــ ثلاثة أصوات من بين الأسنان، هي: ظ، ذ، ث.

٤ ــ سبعة أصوات اسنانية لثوية، هي: ض، د، ط، ت، ز، ص، س.

٥ ــ ثلاثة أصوات لثوية، هي: ل، ر، ن.

٦ ــ ثلاثة أصوات غارية، هي: ش، ج، ي.

٧ ــ ثلاثة أصوات طبقية، هي: ك، غ، خ.

٨ ــ صوت لهوي واحد، هو: ق.

٩ ــ صوتان حلقيان، هما: ع، ح.

١٠ ــ صوتان حنجريان، هما، همزة، هـ.

---

(١) المراجع نفسها والصفحات نفسها.

وإذا صنفناها بحسب درجة الانفتاح كانت على الشكل التالي:

١ ـ ثمانية اصوات انفجارية أو شديدة هي: ب، ض، د، ط، ت، ك، ق، همزة.

٢ ـ ثلاثة عشر صوتاً احتكاكياً أو رخواً، هي: ف، ظ، ذ، ث، ز، ص، س، ش، غ، خ، ع، ح، هـ.

٣ ـ صوت متراخ واحد، هو: ج.

٤ ـ ستة اصوات متسعة على اختلاف في درجات الاتساع، هي: اللام الحافية، الراء التكرارية، الميم والنون الانفيتان، الواو والياء الشبيهتان بالطليقات.

وإذا صنفناها بحسب طرق النطق كانت على الشكل الآتي:

١ ـ خمسة عشر صوتاً مجهوراً+ثلاثة عشر صوتاً مهموساً. فأما المجهورات فهي: ب، م، و، ذ، ظ، ز، د، ض، ل، ن، ر، ج، ي، غ، ع.

وأما المهموسات فهي: ف، ث، س، ص، ت، ط، ش، ك، خ، ق، ح، هـ، همزة.

٢ ـ أربعة اصوات مطبقة+أربع وعشرون صوتاً غير مطبق. فأما المطبقات فهي: ص، ض، ط، ظ. وأما غير المطبقات فما سوى ذلك.

* * *

وإليك الكلام مفصلاً على كل واحد من الحبيسات العربية:

الباء (ب)

صوت شفوي شديد مجهور منفتح.

حرص القدماء على جهره في جميع حالاته. وخوفاً من همسه إذا وقع ساكناً أضافوا إليه صوتاً طليقاً قصيراً جداً يشبه الكسرة وسموا تلك الظاهرة بالقلقلة. الوجيز ١٢

وقد مر بنا أن سيبويه والزمخشري وابن جني أشاروا إلى نطق غريب للباء تصبح فيه كأنها فاء، وليس لذلك تفسير إلا أن يكون الناطقون له على هذه الصورة قد اعتادوا النطق بحنجرة مفتوحة.

وقد ابدلت العرب من الباء ميماً لغير سبب ظاهر من اسباب الإبدال المعروفة: فقد حكى الأصمعي قولهم (بنات مخر) بدلاً من (بنات بخر) [١].

وحكي عن أبي عمرو بن العلاء (ما زلت راتماً على هذا الأمر) أي (راتباً). وحكى يعقوب قولهم (رأيته من كثم) أي (من كثب). وانشد ابن الاعرابي في نوادره:

فبادرت شأنها عجلى مثابرة حتى استقت دون محنى جيدها نُغَما

وقال: أراد: نُغَباً [٢].

وأبعد من ذلك ابدالهم من الباء تاء، كقولهم: (الذعاليت) بدلاً من (الذعاليب) [٣].

وقد أجاز القراء ادغام الباء في الميم في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: يعذب من يشاء ـــ يعذّمَّن يشاء (البقرة ٢٨٤- العنكبوت ٢١)، كما ادغمت في الفاء: قال اذهب فمن تبعك ـــ قال اذهفّمن تبعك (الاسراء ٦٣).

احتفظ صوت الباء بمحبسه وكل صفاته في اللهجات الحديثة، إلا أنه في هذه اللهجات «قد يأتي مهموساً في وسط الكلام، إذا تلاه صوت مهموس، وفي آخر الكلام، إذا سبقه صوت مهموس أو صوت طليق طويل. مثال ذلك:

أبْشع ـــ كسبْ ـــ كتاب

«و يتم تفجير صوت الباء احياناً من الأنف بدلاً من الشفتين، وذلك حينما

---

(١) بنات البخر أو بنات البحر سحائب بيض تأتي قبل الصيف.

(٢) ابن يعيش: ج١٠ ص٣٥ والنغب جمع نغبة، وهي الجرعة.

(٣) المرجع نفسه ج١٠ ص٤١. والذعاليب مفردها الذعلبة أو الذعلوب وهي أطراف الثوب أو ما تقطع منه وظل عالقاً.

جدول الحبيسات العربية

المحابس	الصفات												
	انفجاري أو شديد				احتكاكي أو رخو				متراخ	واسع الانفتاح			
	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور	مجهور		منفتح	
	مطبق	منفتح	مطبق	منفتح	مطبق	منفتح	مطبق	منفتح	منفتح	حافي	تك (١)	انفي	ش ط (٢)
شفوي		ب										م	و
شفوي اسناني								ف					
بين الاسنان					ظ	ذ		ث					
اسنان لثوي	ض	د	ط	ت		ز	ص	س					
لثوي										ل	ر	ن	
غاري								ش	ج				ي
طبقي				ك		غ		خ					
لهوي				ق									
حلقي						ع		ح					
حنجري				ء				هـ					

(١) تك = تكراري.

(٢) ش ط = شبه طليق.

تكون الباء في نهاية الكلام، كما في المثالين الأخيرين من الأمثلة السابقة. و يتم هذا التفجير الأنفي بابقاء الشفتين على اتصالهما، ثم فصل الطبق عن الجدار الخلفي للحلق فجأة فيمر الهواء قو ياً في المجرى الأنفي. و يتم التفجير[١].»

الميم (م)

صوت شفوي متوسط [٢] مجهور انفي منفتح.

اختلف القدماء في أمر ادغامه في غيره: فالأكثرون على أنه لا يدغم إلا في مثله. ولكن روي عن أبي عمرو ادغام الميم في الباء إذا تحرك ما قبل الميم، مثل قوله تعالى: وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ــ وقولهم على مريبُّهتاناً عظيماً (النساء ١٥٦)، وقوله: لكي لا يعلم بعد علم شيئاً ــ لكي لا يعلبّعد علم شيئاً (النحل ٧٠).

لكن ابن يعيش يقول: واصحاب ابي عمرو لا يأتون بباء مشددة، ولو كان فيه ادغام لصار في اللفظ باء مشددة، لان الحرف إذا أدغم في مقاربه قلب إلى لفظه ثم أدغم. قال ابن مجاهد: يترجمون عنه بإدغام، وليس بإدغام، إنما هو اخفاء، والاخفاء اختلاس الحركة وتضعيف الصوت [٣].

احتفظ صوت الميم بمحبسه وكل صفاته في اللهجات الحديثة.

الواو (و)

صوت شفوي متوسط مجهور شبه طليق.

يبدل من الواو همزة إذا وقعت متطرفة بعد ألف زائدة، مثل: كساو ــ كساء، وإذا وقعت عيناً في اسم الفاعل من الثلاثي: مثل: قاول ــ قائل.

---

(١) تمام حسان: مناهج البحث، ص٩١-٩٢.

(٢) جرى اللغو يون المحدثون من العرب على تسمية الأصوات التي تزيد درجة انفتاحها على درجة الانفتاح في الاحتكاكي بالمتوسطة، وذلك لأن انفتاحها وسط بين انفتاح الاحتكاكيات وانفتاح الطليقات. وسنستعمل هذا المصطلح من الآن فصاعداً لخفته ووفائه بالغرض.

(٣) ج١٠ ص١٤٧.

وكذا إذا وقعت أولاً مشفوعة بواو أخرى لازمة، مثل: وواصل ــ أواصل[1] . وابدالها في هذه المواقع الثلاثة مطرد واجب.

وإذا وقعت الواو موقع الفاء أو العين وكانت مضمومة أبدل منها همزة أيضاً مثل: وجوه ــ أجُوه، أنوُر ــ أنؤُر. قال عمر ابن أبي ربيعة:

فلما فقدت الصوت منهم واطفئت مصابيح شبت بالعشاء وانؤر

وابدالها في هذين الموقعين مطرد جائز.

ويمكن ابدال الهمزة من الواو إذا وقعت هذه صدراً ولم تكن مضمومة، مثل: وشاح ــ إشاح، ونَاة ــ أناة. وابدالها ههنا سماعي غير قياسي[2].

احتفظ صوت الواو بمحبسه وكل صفاته في اللهجات العربية الحديثة.

الفاء (ف)

صوت شفوي اسناني رخو مهموس منفتح.

أجاز الكسائي ادغامه بالباء في قوله تعالى: إن نشأ نخسف بهم الأرض ــ إن نشأ نخسبّهم الأرض (سبأ ٩).

ليس للفاء العربية نظير مجهور كالذي نراه في معظم الألسن الاوروبية والذي يرمز له بالرمز (V).

احتفظت الفاء في العاميات بمحبسها وكل صفاتها، إلا أن هذه العاميات يجهرنها إذا وقعت ساكنة قبل صوت مجهور مثل: يفزع ــ افعاني ــ أفظع [3].

الظاء (ظ)

صوت من بين الاسنان رخو مجهور مطبق.

تحول هذا الصوت في بعض العاميات إلى ضاد مرة، وإلى زاي مطبقة مرة

(١) أواصل جمع واصلة. والقياس في فاعلة أن تجمع على فواعل، مثل: قائمة قوائم.

(٢) ابن يعيش: ج ١٠ ص ١٤.

(٣) انظر مناهج البحث، ص ٩٨.

أخرى: فأما في الكلمات القديمة في عاميتها فقد انقلب إلى ضاد، مثل: ظهر ــ ضهر، أظافر ــ أضافير. وأما في الكلمات المستعارة من الفصحى وفي الاعلام وفي التي يشيع وجودها في الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة فقد تحولت إلى زاي مطبقة، مثل: ظالم ــ زالم، ظافر ــ زافر، فظاعة ــ فزاعة.

الذال (ذ)

صوت من بين الأسنان رخو مجهور منفتح.

الذال هو النظير المرقق للظاء المفخمة، أي أن الظاء مطبقة والذال منفتحة. وقد تطور هذا الصوت في بعض العاميات إلى صوتين اثنين مثل نظيره المطبق: فأصبح دالاً في الكلمات القديمة في العامية مثل: ذهب ــ دهب، ذئب ــ ديب. وصار زاياً مرققة (منفتحة) في الكلمات القرآنية وفي الاعلام وفي المستعارة من الفصحى، مثل: ذنوب ــ زنوب، نذير ــ نزير، تذكار ــ تزكار.

الثاء (ث)

صوت من بين الاسنان رخو مهموس منفتح.

هو النظير المهموس للذال المجهورة.

وقد تطور هذا الصوت في بعض اللهجات العامية إلى صوتين اثنين مثل نظيره المهجور الذال: فقد انقلب إلى تاء في الكلمات القديمة في العامية مثل: ثعلب ــ تعلب، ثوم ــ توم. أما في الكلمات القرآنية وفي الاعلام وفي المستعارة من الفصحى فقد انقلب إلى سين، مثل: إثم ــ اسم، بثينة ــ بسينة، ثقافة ــ سقافة.

الضاد (ض)

صوت أسناني لثوي شديد مجهور مطبق.

هكذا ننطق الضاد اليوم، وهكذا ينطقها المجيدون للقراءة ايضاً، ولكن كتب القراءات تصفها لنا وصفاً مغايراً، فهي عندهم رخوة لا شديدة، وهي منحرفة مثل

اللام. ونفهم من كلام سيبويه انهم كانوا ينطقونها من حافة اللسان اليمنى، وإن بعضهم كان ينطقها من الحافة اليسرى، وإن آخرين كانوا ينطقونها من الجانبين[1] وهذا حال اللام تماماً. وعلى ذلك فالظاهر ان الضاد القديمة كانت مثل الظاء تماماً ما عدا صفة الانحراف التي تشبه فيها اللام. ولعل هذا هو السبب في اشتباه اللغويين قديماً في طائفة من الكلمات: أهي بالضاد أم بالظاء.

الدال (د)

صوت اسناني لثوي شديد مجهور منفتح.

الدال هو النظير المنفتح للضاد الحديثة المطبقة. فليس بين الدال والضاد إلا صفة الاطباق التي تميز الضاد بالفخامة.

وقد احتفظ هذا الصوت بمحبسه وصفاته كلها في العاميات الحديثة.

الطاء (ط)

صوت اسناني لثوي شديد مهموس مطبق.

هكذا ننطقه اليوم، وهكذا ينطقه المجيدون للقراءة، بل كل القراء، المجيدون منهم وغير المجيدين. لكن كتب القراءات والنحو اجمعت على وصفه بالجهر هو وصوتا القاف والهمزة. وقد أدى ذلك إلى أوهام كثيرة عند بعض اللغويين المحدثين حول هذه الاصوات الثلاثة، وسنفرد لهذا الموضوع فصلاً خاصاً فيما بعد.

احتفظ هذا الصوت بمحبسه وكل صفاته القديمة في اللهجات الحديثة.

التاء (ت)

صوت أسناني لثوي شديد مهموس منفتح.

هو النظير المنفتح للطاء المطبقة، وهو ايضاً النظير المهموس للدال المجهورة.

احتفظ هذا الصوت بمحبسه وكل صفاته القديمة في اللهجات الحديثة.

---

(١) الكتاب ج ٢ ص ٤٠٤-٤٠٥.

الزاي (ز)

صوت أَسناني لثوي رخو مجهور منفتح.

احتفظ هذا الصوت بكل خصائصه في اللهجات العربية الحديثة.

الصاد (ص)

صوت اسناني لثوي رخو مهموس مطبق.

احتفظ هذا الصوت بكل خصائصه في اللهجات العربية الحديثة.

السين (س)

صوت أسناني لثوي رخو مهموس منفتح.

هو النظير المنفتح للصاد المطبقة، وهو ايضاً النظير المهموس للزاي المجهورة.

احتفظ هذا الصوت بكل خصائصه في اللهجات الحديثة.

هذا وتسمى الاصوات الثلاثة الأخيرة (الزاي والصاد والسين) بالأصوات الصفيرية ، وذلك لشدة الضيق في محابسها الذي يؤدي إلى ارتفاع صوت الاحتكاك وصيرورته إلى ما يشبه الصفير.

وقد أجاز النحاة القدماء ادغام الحبيسات الاسنانية اللثوية والتي من بين الاسنان بعضها في بعض ما عدا الضاد لانحرافها. قال الزمخشري[1]: «والطاء والدال والتاء والظاء والذال والثاء ستتها يدغم بعضها في بعض، وفي الصاد والزاي والسين، وهذه لا تدغم في تلك، إلا أن بعضها يدغم في بعض. والأقيس في المطبقة إذا أدغمت تبقية الإطباق».

وإليك أمثلة لتداغم هذه الأصوات بعضها في بعض:

ط د ـــ دَّ: اضبط دلما ـــ اضبدَّ لما (مع الاطباق أو عدمه)

ط ت ـــ تّ: فرطت في جنب الله ـــ فرتُّ في جنب الله (مع الاطباق وهي قراءة أبي عمرو).

---

(١) شرح المفصل ج١٠ ص١٤٥.

د ط ـــ طّ: أبعدْ طالباً ـــ أبعطّالباً.
ت ط ـــ طّ: إنعت طالباً ـــ إنعطّالباً.
ت د ـــ دّ: إنعت دلامة ـــ إنعدّلامة.
ظ ذ ـــ ذّ: احفظ ذلك ـــ احفذّلك. (يحسن إذهاب الاطباق)
ذ ظ ـــ ظّ: خذ ظالماً ـــ خظّالما. (= = =)
ث ظ ـــ ظّ: ابعث ظالماً ـــ إبعظّالما.
ظ ث ـــ ثّ: ايقظ ثابتاً ـــ أيقثّابتاً.
ث ذ ـــ ذّ: ابعث ذلك ـــ إبعذّلك.
ز ص ـــ صّ: أوجز صابراً ـــ أو جصّابراً.
ص ز ـــ زّ: افحص زائداً ـــ إفحزّائداً.
س ز ـــ زّ: إحبس زردة ـــ احبزّردة.
ز س ـــ سّ: رز سلمة ـــ رسّلمة[1].

اللام (ل)

صوت لثوي متوسط مجهور حافي منفتح.

ومعنى قولنا (حافي) أنه يخرج من حافة اللسان، و يسمى بسبب هذه الصفة منحرفاً، كما يسميه بعضهم بالجانبي، و يسميه الإفرنج (latéral).

بعض الناس اعتاد اخراج هذا الصوت من حافة اللسان اليمنى، وبعضهم اعتاد اخراجه من الحافة اليسرى، وآخرون يخرجونه من كلا الجانبين.

الأصل في اللام العربية الترقيق (الانفتاح)، ولا تغلظ (تطبق) إلا بشرطين: الأول أن يسبق اللام أحد أصوات الاستعلاء، ولا سيما الصاد والطاء والظاء، ساكناً أو مفتوحاً، والثاني ان تكون اللام نفسها مفتوحة. مثل: وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً (مريم ٣١)، سيصلى ناراً ذات لهب (المسد ٣)، سلام هي حتى مطلع الفجر (القدره) ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً (النساء ١١٦) ولا يظلمون فتيلاً (النساء ٤٩).

---

(١) ابن يعيش: ج١٠ ص١٤٦.

على أن جمهور القراء قد اجمعوا على تغليظ اللام في اسم الجلالة بعد الفتح والضم، مثل: قالَ الله و يقولُ الله، وعلى ترقيقها بعد الكسر، مثل: بسم ِالله.

واللام من حيث الادغام على نوعين: لام معرفة، ولام عادية كالتي في (هل وبل). فإن كانت الأولى فإدغامها في مثلها وفي الطاء والدال والتاء والظاء والذال والثاء والصاد والسين والزاي والشين والضاد والنون والراء ادغام واجب. وإن كانت غير معرفة فإدغامها في هذه الأصوات المذكورة جائز. إلا انه حسن إذا كان في الراء، مثل: هل رأيت ـ هرّأيت، وقبيح إذا كان في النون، كقولك: هل نخرج ـ هنّخرج، أما فيما سوى هذين فليس بالحسن ولا بالقبيح: وانشد سيبويه:

فذر ذا، ولكن هتُّعين متيماً على ضوء برق آخر الليل ناصب؟

أراد: هل تعين؟

وأنشد ايضاً:

تقول إذا أهلكتُ مالاً للذَّةٍ فكيهةُ: هشَّيءٌ بكفيك لائق؟

أراد: هل شيء[1]؟

احتفظت اللام بكل خصائصها في اللهجات العربية الحديثة.

الراء (ر)

صوت لثوي متوسط مجهور تكراري منفتح.

وسبب تسميته بالتكراري أو المكرر هو ان طرف اللسان فيه يطرق اللثة طرقتين أو ثلاثا.

---

(١) هكذا روى ابن يعيش البيتين نقلاً عن سيبويه، ولكنهما في الكتاب برواية أخرى: (فدع ذا) بدلاً من (فذرذا) في البيت الأول، و(استهلكت) بدلاً من (أهلكت) في البيت الثاني.
انظر شرح المفصل: ج ١٠ ص ١٤١ والكتاب: ج ٢ ص ٤١٧.

قلنا ان الراء منفتحة (مرققة) لكنها تطبق (تفخم) في كثير من الأحوال. وكتب القراءات تختلف في أمر ترقيقها وتفخيمها اختلافاً كبيراً لا يتسع المقام لبسطه.

وأما ادغامها فقد نص سيبويه على عدم جوازه إلا في مثلها. «ولم يخالف سيبويه أحد من البصريين في ذلك إلا ما روي عن يعقوب الحضرمي انه كان يدغم الراء في اللام في قوله عز وجل (يغفر لكم ــ يغفلّكم) وحكى أبو بكر بن مجاهد عن أبي عمرو انه كان يدغم الراء في اللام ساكنة أو متحركة، فالساكنة نحو قوله تعالى: (فاغفر لنا، واستغفر لهم، و يغفر لكم ذنوبكم) وما كان مثله، والمتحركة قوله: (وسخر لكم، وهن أطهر لكم). وأجاز الكسائي والفراء ادغام الراء في اللام.

حافظت الراء على خصائصها في اللهجات العربية الحديثة.

النون (ن)

صوت لثوي متوسط مجهور أنفي منفتح.

وللنون الساكنة في كتب القراءت والنحو أحكام أربعة:

١ ــ الاظهار: وهو الاحتفاظ لها بمحبسها من اللثة. و يكون ذلك إذا وليها أحد الأصوات الستة: الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء.

٢ ــ الادغام: وهو فناؤها فناءً تاماً أو جزئياً مع الصوت الذي يليها. فأما مع الراء والميم واللام فتفنى فناءً تاماً فتصير مع الراء راءً ومع الميم ميماً ومع اللام لاماً. وأما مع الياء والواو فتفنى فناءً جزئياً و يسمع من الياء والواو شيء من غنة أنفية، وشرح ذلك أن الياء والواو المسبوقين بنون ساكنة تلفظان مشددتين و يتخذ الهواء معهما طريقين في جريانه: طريق الأنف وطريق الفم معاً. هذه الظاهرة تسمى عندنا بالإدغام بغنة، وتسمى عند الإفرنج بـ (nazalisation).

٣ ــ القلب: وهو قلبها إلى ميم إذا وليتها باء، مثل: شنباء ــ شمباء.

٤ ــ الإخفاء: و يكون ذلك مع الأصوات الآتية: القاف والكاف والجيم

والشين والسين والصاد والزاي والضاد والدال والتاء والطاء والذال والثاء والظاء والفاء. والإخفاء هو انتقال بمحبس النون من اللثة إلى محبس الصوت الذي اخفيت فيه.

احتفظت النون بخصائصها في اللهجات العامية، إلا أن هذه اللهجات لا تراعي كثيراً أحكامها المختلفة وتميل في أغلب الأحيان إما إلى اظهارها وإما إلى ادغامها بغير غنة.

الشين (ش)

صوت غاري رخو مهموس منفتح.

أكثر النحاة على أن الشين لا تدغم إلا في مثلها، ولكن روي عن أبي عمرو ادغامها في السين من قوله تعالى (إلى ذي العرش سبيلا ـــ إلى ذي العَرِسَّبيلاً)[1].

احتفظت الشين بمحبسها وكل صفاتها في العاميات.

الجيم (ج)

صوت غاري متراخ مجهور منفتح.

أجاز النحاة ادغامها في الشين، مثل: أخرج شيئاً ـــ أخرشَّيْئاً. وزوى اليزيدي عن أبي عمرو ادغامها في التاء في قوله تعالى: ذي المعارج تعرج ـــ ذي المعارّتعرج [2].

احتفظت الجيم بتراخيها في بعض العاميات كعاميات حلب والعراق ونجد والحجاز.. الخ. ولكنها في عاميات أخرى صارت رخوة تماماً (شديدة التعطيش) كما في لبنان ودمشق، وتعطيشها في لبنان أكثر منه في دمشق. وفي لهجات أخرى فقدت كل أثر للرخاوة (التعطيش) وتحولت إلى كاف مجهورة كشأنها في لهجتي القاهرة وعدن.

---

(١) المرجع نفسه: ج ١٠ ص ١٣٩.

(٢) المرجع نفسه ج ١٠ ص ١٣٨.

الياء (ي)

صوت غاري متوسط مجهور شبه طليق منفتح.

ولا تدغم إلا في مثلها.

احتفظت الياء بكل خصائصها في اللهجات الحديثة.

الكاف (ك)

صوت طبقي شديد مهموس منفتح.

يقترب محبسه من منطقة الغار إذا وليه صوت الكسرة أو ما كان قريباً منها. وتدعى هذه الظاهرة بالتغوير.

تدغم الكاف في القاف: نحو قوله تعالى (فإذا خرجوا من عندك قالوا ــ فإذا خرجوا من عندقّالوا) [١].

احتفظت الكاف بكل خصائصها في كثير من العاميات، لكنها في عاميات أخرى تبدو وكأنها منفسة (كْهْ) أي منطوقة بحنجرة مفتوحة وهذا هو حالها في لهجة دير الزور في سورية.

الغين (غ)

صوت طبقي رخو مجهور منفتح.

عده القدماء من أصوات الحلق خطأ، ومن الغريب ان يتابعهم في هذا الخطأ عالم جليل كالدكتور إبراهيم أنيس [٢]. وكل لغوي حديث لا يشتبه في كون محبس الغين من الطبق لا من الحلق.

تدغم الغين في الخاء كقولك (إدمغ خلفاً ــ ادمخّلفاً [٣]).

حافظت الغين على محبسها وكل صفاتها في العاميات.

---

(١) المرجع نفسه: ج ١٠ ص ١٣٨.

(٢) انظر كتابه الأصوات اللغوية، ص ٧٥.

(٣) ابن يعيش ج ١٠ ص ١٣٧.

الخاء (خ)

صوت طبقي رخو مهموس منفتح.

هو مثل الغين في المحبس والرخاوة والانفتاح لكنه يختلف عنه في الجهر، فالغين مجهورة والخاء نظيرتها المهموسة.

أجاز النحاة ادغام الخاء في الغين كقولك (إسلخ غنمك ــ اسلغّنمك)(١) .

حافظت الخاء على مخرجها وكل صفاتها في العاميات.

القاف (ق)

صوت لهوي شديد مهموس منفتح.

هكذا ينطق في كثير من العاميات، وهكذا ايضاً ينطقه القراء في جميع الأقطار العربية، لكن كتب النحو والتجويد تعده في المجهورات كما عدت الطاء والهمزة فيها ايضاً. وسيكون لنا على هذه الأصوات كلام في فصل خاص.

أجاز النحاة والقراء ادغام القاف في الكاف كقوله تعالى (خلق كل دابة ــ خلكُّل دابة) (٢).

تطورت القاف في العاميات إلى أشكال عديدة: فهي تلفظ همزة مرققة في دمشق ولبنان والقاهرة وبلاد أخرى، وتلفظ همزة مفخمة في حلب وبعض المناطق المجاورة لها، وتلفظ كافاً مجهورة في الجزيرة العربية والعراق وعند كل القبائل البدوية الضاربة في مختلف البوادي والصحاري في الوطن العربي. ويذكر الدكتور إبراهيم أنيس ان القبائل العربية في السودان تنطقها من اللهاة مجهورة، وإن نطقهم لها يشبه نطقهم للغين، وإن التلميذ السوداني يكثر من الخلط بين الغين والقاف في نطقه واملائه.

ويظهر ان تطور القاف إلى كاف مجهورة قديم جداً، إذ يحدثنا أبو حيان في

---

(١) المرجع نفسه ج ١٠ ص ١٣٧.

(٢) المرجع نفسه ج ١٠ ص ١٣٨.

كتابه (ارتشاف الضرب من لسان العرب)[1] ان القبائل البدوية في المغرب والجزائر كانت تلفظها على هذه الصورة في عهده يقول: «وأما القاف المعقودة: وقال السيرافي: رأينا من يتكلم بالقاف بينها وبين الكاف. انتهى. وهي الآن غالبة في لسان من يوجد في البوادي والعرب، حتى لا يَكاد عربي ينطق إلا بالقاف المعقودة لا بالقاف الخالصة الموصوفة في كتب النحويين والمنقولة عن وصفها الخالص على ألسنة أهل الاداء من أهل القرآن». انتهى كلام أبي حيان.

العين (ع)

تدغم العين في الحاء كقولك (أرفع حاتماً ــ ارفحّاتماً).

إذا اجتمعت العين والهاء جاز قلبهما إلى حائين وادغامهما، نحو قولك في (معهم، واجبه عتبة ــ محُّم، واجبحُّتبة)[2].

احتفظت العين بمحبسها وكل صفاتها في العاميات.

الحاء (ح)

صوت حلقي رخو مهموس منفتح.

هو النظير المهموس للعين، فلا خلاف بين العين والحاء إلا في صفتي الجهر والهمس فقط.

حافظت الحاء على محبسها وكل صفاتها في العاميات.

الهمزة (ء)

صوت حنجري شديد مهموس منفتح.

يرى بعض اللغويين ألا يعد هذا الصوت في المهموسات ولا في المجهورات لأن محبسه هو فتحة المزمار نفسها، أي انه لتحقيقه يتلاحم الوتران الصوتيان فيسدان فتحة المزمار. ومعنى ذلك ان الوترين مشغولان بآلية احداث اصوات الهمزة،

(١) مخطوط في المكتبة الأحمدية بحلب تحت رقم ٨٩٩ لغة عربية، ورقة ٢.

(٢) ابن يعيش: ج ١٠ ص ١٣٦.

فلاهما مهتزان شأنهما مع الأصوات المجهورة، ولاهما متباعدان شأنهما مع الأصوات المهموسة، وهذه هي حجتهم في عدم حسبانه في المجهورات أو المهموسات، ولكنها حجة ضعيفة كما ترى، لأن المجهور في علم الأصوات هو ما اهتز معه الوتران، والمهموس هو ما لم يهتز معه الوتران دون النظر إلى سبب عدم الاهتزاز. وعلى هذا تكون الهمزة من الأصوات المهموسة دون ريب[١].

على الرغم من شيوع الهمزة صوتاً أساسياً في الألسن السامية والهندية الاوروبية فليس له رمز خاص في ابجديات هذه الألسن كلها، ما عدا العربية التي وضعت له رمزه المعروف (ء) في زمن متأخر. وقد اشتقه واضعوه من رمز صوت العين، فكان يكتب أول الأمر رأس عين صغيرة (ء). وإنما فعلوا ذلك لما وجدوا من الشبه بين الصوتين. والساميات عموماً، ومنها العربية، كانت تستعمل رمز الألف «ا» للفتحة الطويلة مرة، وللهمزة مرة أخرى.

ولعدم وجود رمز خاص به في الأبجدية الافرنجية فإن القوم هناك يسمونه بالحبسة الحنجرية، كما كان النحاة يسمونه لهذا السبب بالألف اليابسة.

حافظت الهمزة على محبسها وكل صفاتها في العاميات.

الهاء (هـ)

صوت حنجري رخو مهموس منفتح.

ولكن الدكتور تمام حسان يعده في المجهورات، و يعلل ذلك بأن شيئاً من الذبذبة الوترية يصحبه بسبب تقارب الوترين عند احداثه[٢]؟

أجاز النحاة ادغام الهاء في الحاء إذا وقعت قبلها أو بعدها كقولك في (أجبه حاتماً، واذبح هذه ـــ اجبحّاتماً، واذبحّاذه)[٣].

حافظت الهاء على محبسها وصفاتها في العاميات.

---

(١) انظر ابراهيم انيس: الأصوات اللغوية، ص٧٦-٧٧.

(٢) انظر مناهج البحث، ص١٠٣.

(٣) ابن يعيش: ج ١٠ ص١٣٦.

حكاية الأصوات الثلاثة

الهمزة والطاء والقاف

مر بنا ان الهمزة والطاء والقاف حبيسات مهموسة، بمعنى ان الأوتار الصوتية لا تهتز معها خلافاً للحبيسات المجهورة التي تهتز معها الأوتار. وإنما صنفناها في المهموسات لأن قراءنا جميعاً ينطقونها اليوم مهموسة. ولكن كتب النحو والقراءات تجمع كلها على أن هذه الحبيسات الثلاثة مجهورة. فماذا نفعل؟

هل نصدق قراءنا المعاصرين الذين أجمعوا عملياً على همس هذه الأصوات الثلاثة في قراءتهم للقرآن ونخطِّىء النحاة والقراء القدماء؟ أم نصدق هؤلاء ونتهم قراءنا اليوم بأنهم يقرؤون القرآن على غير الصورة الصحيحة؟ أم نقول ان النحاة القدماء لم يكونوا يعنون بالجهر والهمس ما نعنيه نحن اليوم؟

حول هذه النقطة دار جدال طويل بين علماء اللغة المعاصرين من عرب ومستشرقين. وقبل ان نعرض لك ملخص هذا الجدال نحب ان ننقل لك عبارة النحاة في تعريفهم للمجهور والمهموس لما لذلك من علاقة بالموضوع.

قال سيبويه في الكتاب[1]:

«فأما المجهورة (فالهمزة) والألف والعين و(القاف) والجيم والياء والضاد واللام والنون والراء و(الطاء) والدال والزاي والظاء والذال والباء والميم والواو. فذلك تسعة عشر حرفاً. وأما المهموسة فالهاء والحاء والخاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والثاء والفاء. فذلك عشرة أحرف. فالمجهورة حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس ان يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه، ويجري

(١) ج٢ ص٤٠٥.

الصوت. فهذه حال المجهورة في الحلق والفم، إلا أن النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غنة. والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلمت بهما لرأيت ذلك قد أخلّ بهما. وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه. وأنت تعرف ذلك إذا أعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس. ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه».

وقال ابن جني في سر الصناعة (١).

«فمعنى المجهور: انه حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس ان يجري معه حتى ينقضي الاعتماد، ويجري الصوت، غير ان الميم والنون من جملة المجهورة قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غنة». فهذه صفة المجهور.

«وأما المهموس: فحرف أضعف الاعتماد في موضعه، حتى جرى معه النفس. وأنت تعتبر ذلك بأنه قد يمكنك تكرير الحرف مع جري الصوت نحو سَسَسَ كككك هههَهَ، ولو تكلفت مثل ذلك في المجهور لما أمكنك».

وقال الزمخشري في المفصل(٢):

«والجهر إشباع الاعتماد في مخرج الحرف ومنع النفس ان يجري معه، والهمس بخلافه. والذي يعترف به تباينهما أنك إذا كررت القاف فقلت: ققق، وجدت النفس محصوراً لا تحس معها بشيء منه، وتردد الكاف فتجد النفس مقاوداً لها، ومساوقاً لصوتها».

من ذلك ترى ان تعريفاتهم للمجهور والمهموس واحدة، بل إنها بالألفاظ نفسها. ويمكن تلخيص ما قالوه فيما يلي:

١ ــ المجهور: حرف أشبع الاعتماد في موضعه فلم يجر النفس معه.

٢ ــ المهموس: حرف ضعف الاعتماد في موضعه فجرى النفس معه.

وإليك الآن آراء علماء اللغة المعاصرين في هذه المشكلة:

---

(١) ج١ ص٦٩.

(٢) شرح المفصل لابن يعيش: ج١٠ ص١٢٨

غاردنر و برافمان [1]:

يرى هذان العالمان ان الهمزة والطاء والقاف كانت مهموسة على شفاه العرب منذ أقدم الأزمنة، وأن النحاة عندما وصفوا هذه الأصوات الثلاثة بالجهر لم يكونوا يعنون منه ما نعنيه اليوم من ذبذبة الأوتار الصوتية، خلافاً لما اعتقده (شاد) [2] في بحثه عن سيبويه عندما ترجم المجهور بـ(sonore) والمهموس بـ(sourde).

والدليل على ذلك من ثلاثة وجوه:

آ ــ ان علماء الأصوات العرب كانوا يجهلون تشريح الحنجرة ولا يعرفون شيئاً عن الوترين الصوتيين وعن دورهما في عملية التصويت. فاعتبار مصطلحهم (مجهور) بأنه مقابل لـ(sonore) و(مهموس) بأنه يساوي (sourde) خطأ.

ب ــ ان قول النحاة في تعريف المجهور بأنه (الحرف الذي أشبع الاعتماد في موضعه)، وفي تعريف المهموس بأنه (الحرف الذي ضعف الاعتماد في موضعه) يمكن ان يفهم منه أنهم كانوا يعنون بالمجهور الحرف المنفجر أو المشرق (éclatante) وبالمهموس الحرف الضعيف أو الخفيف (légére ou faible). ولا شيء أكثر من ذلك.

ج ــ ان الهمزة يستحيل ان تكون مجهورة، لأن الوترين الصوتيين يكونان عند احداثها ملتحمين مما يتعذر معه ذبذبتهما. فإذا عدوا الهمزة في المجهورات فذلك دليل على أنهم لم يكونوا يعنون بالجهر ما نعنيه نحن اليوم.

٢ ــ كانتينو [3]:

أما كانتينو فيعتقد ان النحاة العرب فهموا من كلمتي المجهور والمهموس ما

---

(١) انظر كتاب أولهما: Arab Phonetians. P, 243 - 246 وكتاب الثاني: zu den phonetischen Materialen und Untersuchungen Lehren der Araber P 27 - 25 عن كانتينو.

(٢) انظر كتابه Sibawaihi's Lautlehre, P. 13 عن كانتينو.

(٣) انظر كتابه Cours de Phonétique Arabe P. 21 - 22

نفهمه منهما اليوم بالضبط. و يرد على غاردنر و برافمان بما يأتي:

آ ــ صحيح ان النحاة العرب كانوا يجهلون تشريح الحنجرة ودور الوترين، ولكن التمييز بين الصوت المجهور والصوت المهموس لا يحتاج إلى هذه المعرفة التشريحية، بل تكفي في ذلك الأذن المرهفة الحساسة، وهذا كان متوفراً عند النحاة القدماء.

ب ــ لا شك أن عبارة (أشبع الاعتماد في موضعه) يفهم منها (القوي) وإن عبارة (أضعف الاعتماد في موضعه) يفهم منها (الضعيف)، ولكن ذلك لا يمنع من أن يفهم منهما أيضاً (المجهور والمهموس) بالمعنى المعروف للكلمتين اليوم.

ج ــ صحيح ان الهمزة لا يمكن إلا ان تكون مهموسة. ولكن يُعتذر عن النحاة العرب عندما عدوها خطأ في المجهورات بأن علاقتها بالألف علاقات قوية وكثيرة، ولما كانت الألف مجهورة فقد سهل على النحاة ان يخطئوا و يعدوا الهمزة مجهورة ايضاً. أما الطاء والقاف فليس ما يمنع من انهما كانتا مجهورتين، ولو عند بعض العرب القدماء على الأقل.

٣ ــ إبراهيم أنيس [(١)]:

أما الدكتور إبراهيم أنيس فيرى ان مفهوم القدماء من (المجهور والمهموس) ومفهومنا منهما بشيء واحد. ثم يحل المشكلة على الشكل التالي:

فأما القاف فعنده انها كانت مجهورة، ودليله على ذلك من جهتين: الأولى ان القاف لا تزال مجهورة في لهجات القبائل العربية في السودان، والثانية ان الصوت عندما يتطور ينتقل بمحبسه اما إلى الامام وإما إلى الخلف، وقد انتقلت القاف كلا الانتقالين في اللهجات العربية الحديثة، فلما انتقلت إلى الخلف صارت همزة كما في لهجتي الشام ومصر، لأن محبس الهمزة هو أول ما يصادف القاف إذا انتقلت من محبسها إلى محبس يقع خلفه. صحيح ان محبس العين والحاء يصادف القاف في انتقالها إلى الوراء قبل محبس الهمزة، لكن محبسهما، وهو الحلق، لا يمكن

---

(١) انظر كتابه: الأصوات اللغوية، ص٧٢-٧٣و٥٣-٥٤.

احداث حرف شديد منه، وإذا ارادت القاف الاحتفاظ بصفة الشدة فيها مع انتقالها فليس لها إلا محبس الحنجرة حيث تتحقق على صورة همزة.

ولما انتقلت إلى الامام كان أول محبسٍ صادفها هو محبس الكاف، فنطقت من هنا كافاً مجهورة كما هو الشأن في لهجات البدو المختلفة. وعنده ان نطقها كافاً مجهورة دليل على أنها كانت من قبل مجهورة وهي في محبسها اللهوي المختص بها، وإنها لو كانت مهموسة لنطقت كافاً مهموسة عادية.

وأما الطاء فيعترف بأن وصف القدماء لها بالجهر يخلق مشكلة معقدة، وذلك لأنه لا يجد في اللهجات الحديثة التي أجمعت على همس الطاء ما يمكن اعتماده دليلاً على جهرها السابق. ويحاول الخروج من المشكلة بأن كتب الأقدمين «لا تمكن الباحث المدقق على تحديد كل صفات ذلك الصوت، ولا كيف ينطق به على وجه الدقة» ولكنه مع ذلك يستنتج من وصفهم انها كانت صوتاً يشبه الضاد التي نعرفها الآن.

واما الهمزة فيسكت عنها سكوتاً تاماً متجاهلاً أنها جزء مهم من المشكلة. واعتقادنا ان سكوته ناتج عن انه لم يجد شيئاً يفسر به وصف القدماء لها بالجهر مع ان همسها شيء محقق لتعذر نطقها مجهورة في كل الألسنة وكل الأزمان.

٤ ــ تمام حسان [1]:

اما الدكتور تمام حسان فهو مع كانتينو وأنيس في ان مفهوم النحاة القدماء من (مجهور ومهموس) كمفهومنا اليوم، ولكنه يعلل التناقض الواقع بين وصفهم للهمزة والطاء والقاف بالجهر، وبين التحقيق المهموس لهذه الأصوات الثلاثة على شفاه القراء اليوم تعليلاً آخر إذ يقول:

ان هذه الأصوات الثلاثة كانت مهموسة منذ القدم. لكن النحاة والقراء القدماء اخطأوا عندما عدوها مجهورة لسببين: أولهما انهم وضعوا قاعدة قياسية تقول: ان كل صوت من اصوات القلقلة مجهور شديد. وهذا ما جعلهم يخطئون الصواب في وصف أصوات مهموسة بالجهر كالطاء والهمزة والقاف.

---

(١) انظر مناهج البحث في اللغة، ص٩٤-٩٥.

ونحن لا نعلم بوجود مثل هذه القاعدة عند النحاة والقراء. ولكن الدكتور تمام حسان يستنتجها من عبارة وردت في كتاب ابن الجزري حيث يقول[1]: «وأضاف بعضها اليها [يقصد إلى حروف القلقلة] الهمزة لأنها مجهورة شديدة».

والسبب الثاني، وهذا خاص بصوت الطاء وحده، ان الطاء كانت تلفظ مهموزة. ومعنى اللفظ المهموز ان يجري الانسداد اثناء نطق الصوت اللغوي في محبسين: المحبس الخاص بالصوت المنطوق، ومحبس الحنجرة الذي هو للهمزة، فيخرج الصوت وكأنه صوتان: هو وهمزة معه. ودليله على ذلك ان بعض اللهجات العامية في الصعيد تنطق الطاء على هذه الشاكلة.

ولكننا لا نرى في ذلك ما يسهل على اللغويين القدماء الوقوع في الخطأ بوصف الطاء بالجهر. فسواء ألفظت الطاء القديمة صوتاً مفرداً مهموساً أم لفظت صوتاً مزدوجاً مؤلفاً من صوتين اثنين مهموسين، فليس في الأمر ما يسوغ خلطهم وعدم تمييزهم بين مهموس ومجهور. هذا إذا سلمنا بأن النطق القديم للطاء كان مهموزاً اعتماداً على وجوده كذلك عند قبيلة عربية واحدة قد لا يتجاوز عدد افرادها الألفين أو الثلاثة من بين مائة وعشرين مليون عربي لا يعرفون لها إلا لفظاً بسيطاً ليس فيه همز.

هذا ملخص لما دار من جدل حول هذه الأصوات الثلاثة. وفي رأينا ان كلا من غاردنر وبرافمان وكانتينو وأنيس قد اخطأ عندما أقام تلازماً بين حقيقة هذه الأصوات وبين مفهوم النحاة والقراء عن المجهور والمهموس.

فالأولان وجدا الأصوات الثلاثة مهموسة فاتهما النحاة والقراء بعدم الادراك الصحيح لمعنى الجهر والهمس، والآخران اطمأنا إلى حسن فهم النحاة والقراء لمعنى الجهر والهمس فانتهيا إلى الحكم بأن الطاء والقاف كانتا مجهورتين. ولم ينتبه جميعهم إلى أنه من الممكن ان يكون النحاة قد فهموا معنى الجهر كما نفهمه اليوم ثم اخطأوا فوصفوا بالجهر اصواتاً مهموسة. الوحيد الذي انتبه إلى عدم ضرورة التلازم بين شقي المشكلة هو الدكتور تمام حسان، ولكنه راح يسوغ أو

---

(١) النشر في القراءات العشر، ص٢٠٣.

يفسر سبب خطأ النحاة بطرق تخمينية تلفيقية تعتمد على الظن لا على الواقع. فزعم، كما رأينا، ان النطق المهموز للطاء أوهم النحاة بوجود الجهر فيها. ولا يستقيم هذا الدليل إلا إذا سلمنا بثلاثة أمور: أولها ان النحاة ادركوا دور الوترين في عملية التصويت، وهذا ما لم يقم عليه أي دليل، وليس في كلامهم ما يشير ولو إشارة عابرة إليه، الثاني ان يكون النطق المهموز للطاء هو النطق العام للعرب آنئذ، وليس هذا صحيحاً، ونطق بعض الأفراد اليوم للطاء على هذه الصورة لا يقوم دليلاً على ان كل العرب كانت تفعل ذلك قديماً، الثالث ان يكون الهمسان يوقعان الأذن في توهم وجود الجهر، وهذا ما لم يثبت علمياً ايضاً.

ولتفسير خطئهم في وصف الهمزة والقاف بالجهر راح يزعم أمراً أكثر غرابة مؤداه ان النحاة والقراء كانوا يسيرون على قاعدة ان كل مجهور شديد هو مقلقل، وإن كل مقلقل هو بالتالي مجهور شديد ولا يستقيم هذا الدليل إلا إذا سلمنا ايضاً بأمرين: أولهما ان تكون هذه القاعدة المزعومة موجودة في كتبهم، وهذا خلاف ما نعرفه من هذه الكتب، فلا سيبويه ولا الزمخشري ولا ابن الجزري فبالاضافة إلى تأخره وانفراده في هذا الحكم لم يصرح بوجود مثل هذه القاعدة، ولكن الدكتور تمام حسان هو الذي استنتجها من عبارة لم تسبك سبكاً علمياً صحيحاً، الثاني ان تكون الهمزة معدودة في حروف القلقلة بالإجماع. والذي نعرفه ان الإجماع حاصل على حسبانها في المجهورات وليس حاصلاً على حسبانها في المقلقلات.

والرأي عندنا ان تحلل المشكلة إلى ثلاثة اجزاء، وأن تصور هذه الأجزاء باسئلة ثلاثة على الشكل التالي:

١ ـ هل كانت الهمزة والطاء والقاف مهموسة كما هي اليوم في افواهنا، أم كانت مجهورة؟

٢ ـ هل كان النحاة والقراء يفهمون من الجهر والهمس ما نفهمه نحن اليوم، أم كانوا يفهمون منهما شيئاً آخر؟

٣ ــ إذا كان فهمهم كفهمنا فلماذا وصفوا هذه الأصوات بالجهر؟ الأنها كانت مجهورة حقاً، أم لأنهم اخطئوا؟

والجواب عن السؤال الأول هو ان هذه الأصوات الثلاثة كانت مهموسة كما ننطقها اليوم تماماً. ودليلنا على ذلك من أربع جهات:

١ ــ ان الهمزة بحكم آلية نطقها لا يمكن إلا ان تكون مهموسة، فإذا ثبت بالدليل القطعي ان النحاة اخطأوا عندما وصفوا الهمزة بالجهر فهذا دليل على ان اشراكهم القاف والطاء في هذه الصفة ايضاً كان عن خطأ.

٢ ــ ان تلاوة القرآن انتقلت الينا جيلاً بعد جيل عن طريق المشافهة والتلقين الدقيق المصحوب بالمران الطويل لتصحيح ما قد يقع من المبتدىء من اخطاء نطقية. ومثل هذه الطريقة الدقيقة لا يمكن ان يقع فيها خطأ فادح كجهر مهموس أو همس مجهور. ولو سلمنا بأن الخطأ قد حدث، فكيف نفسر ان يقع كل القراء في كل البلاد العربية والإسلامية في الخطأ نفسه؟ إن هذا شيء لا يعقل. ألا ترى ان الطلاب إذا اخطأوا في حل مسألة حسابية تعددت اجاباتهم وتنوعت، وإذا أصابوا كانت اجابتهم واحدة؟ فإذا ثبت ان الوحدة تعني الإصابة، وأن جميع قراءنا اليوم في كل البلاد العربية والإسلامية ينطقون الهمزة والطاء والقاف مهموسة، فليس لذلك إلا نتيجة واحدة: هي ان هذه الأصوات الثلاثة كانت مهموسة في أفواه الصحابة.

٣ ــ ان اجماع الشعوب العربية اللاشعوري على همس هذه الأصوات الثلاثة، ولا سيما إذا ارادوا تقليد النطق الفصيح دليل على ان هذه الأصوات كانت مهموسة من قديم الزمان، ولو كان هناك تطور كما يدعي أنيس وكانتينو لما كان هذا التطور في جهة واحدة، فالمعروف ان التطور إذا أصاب صوتاً تعددت مذاهبه واختلفت مظاهره، ولا سيما إذا كانت رقعة البلاد واسعة وكان الاحتكاك البشري ضعيفاً بين اجزاء الأمة، كشأن البلاد العربية والأمة العربية. ألا ترى ان الجيم عندما تطورت انتهت إلى أشكال عدة ؟ فهي خالية من التعطيش في لهجتي القاهرة وعدن، وهي شديدة التعطيش في لهجة لبنان، وهي على شيء غير يسير من التعطيش في لهجة دمشق، وهي نصف معطشة في لهجة حلب؟

٤ ــ من المعروف لغوياً ان اللسان إذا أخذ من لسان آخر كلمة حافظ على اصواتها ان كانت الأصوات مما هو موجود في اللسان الآخذ. فإن كان غير ذلك طرح ما فيها من اصوات غير موجودة عنده وعوضها بأقرب اصواته إليها. وفي بعض الأحيان يحافظ اللسان الآخذ على اصوات الكلمة المأخوذة ولكنه يضيف إلى هذه الأصوات شيئاً من التفخيم أو الترقيق على حسب خصائصه الصوتية التي ألفها.

وقد أخذ اللسان العربي من الألسن الأعجمية كثيراً من الكلمات، وفخم اصوات هذه الكلمات جرياً على عادته في إيثار الفخامة في الأصوات، فإذا نظرنا في الكلمات المعربة التي توجد فيها الطاء والقاف ونظرنا إلى اصواتها الأصلية التي كانت لها في السنها التي أخذت منها، كان لنا من ذلك ما يرشدنا إلى حقيقة هذين الصوتين في العربية قديماً.

وإليك قائمة صغيرة ببعض الكلمات المعربة مع الصورة اللفظية لها في ألسنها الأصلية:

اقريطش = كريت	ابقراط = ايبكرات
افلاطون = بلاتون	ميخانيقا = ميخانيكا
سقراط = سكرات	طلوشة = تولوز
قسطنطين = كستنتين	قشتالة = كاستيل
ارسطو =ارستو	طرابلس =تريبوليس
قيصر = كيسر	صراط = ستراتا

وأنت تستطيع ان تطيل هذه القائمة حتى تملأ بها عدة صفحات. وستجد دائماً ان العرب القدماء أحلوا مكان التاء طاء، ومكان الكاف قافاً، لأنه لا فرق بين كل زوج من هذه الأصوات إلا بالتفخيم والترقيق، والصفات والمحابس بعد ذلك واحدة. فإذا كان من الثابت ان التاء والكاف مهموستان في الألسن المأخوذ منها فقد ثبت ان الطاء والقاف كانتا مهموستين في العربية ايضاً. إذ لو كانتا مجهورتين لما قابلتا في التعريب التاء والكاف، بل كانتا تقابلان الدال والـ (g).

وهنا ايضاً، لو استعرضنا الكلمات المعربة التي كانت تشتمل في السنها الأصلية على الدال والـ (g) لوجدنا العربية تبقي الدال على حالها لوجود هذا

الصوت فيها، بينما تقلب الـ (g) إلى غين لأنه أقرب الأصوات إليها، فهو من محبسها اولاً، وهو مجهور مثلها ثانياً، ولا فرق بينها إلا ان الغين رخوة، والـ (g) شديدة (١).

انظر معي:

غراماطيقا = grammatika

جغرافية =gèographie

فراديس = paradis

ولو كانت القاف والطاء مجهورتين لكانتا أصلح وأقرب الأصوات لمقابلة الدال والـ (g) لأنهما الصورتان التفخيميتان حينئذ لهذين الصوتين.

ويمكن أيضاً ان نقلب الآية فننظر في الكلمات العربية المشتملة على قاف أو طاء، ثم ننظر في صورتها بعد ان أخذها الافرنج عنا، فإن ابدلوا منهما مهموسين كان ذلك دليلاً على همسهما. ونحن، خوف الاطالة، نكتفي بكلمة واحدة فيها الصوتان موضوع المشكلة، و يستطيع القارىء ان يكمل من ذاكرته ما اضطررنا إلى اهماله ههنا. وإليك Coton. وأنت ترى أنهم جعلوا مكان القاف والطاء كافاً وتاءً. فإذا عرفنا ان كلا من الكاف والتاء مهموس، تأكد لدينا ان القاف والطاء كانتا مهموستين ايضاً.

أما الجواب عن السؤال الثاني (هل كان النحاة والقراء القدماء يفهمون من الجهر والهمس ما نفهمه اليوم؟) فلا يمكن الادلاء به الآن، لان ذلك يتطلب درساً وبحثاً عميقين لم يقم بهما أحد حتى اليوم. وكل ما لدينا الآن من نصوص حول هذا الموضوع لا تمكن الباحث من الخروج بنتيجة حسمية. فعلى حين نجد نصوصاً تشير بوضوح تام إلى حسن فهمهم للمجهور والمهموس كما نفهمهما اليوم. نجد نصوصاً أخرى فيها من الخلط والخطأ ما لا يجوز وقوعه من المبتدىء في علم الصوتيات.

---

(١) وقد استبدلوا القاف بالـ «g» على قلة، فقالوا في «gourbak» الفارسية «قربق». ونعتقد أن هذا الابدال الذي لا ينسجم مع زعمنا كان بسبب التماثل مع الكاف التي في نهاية الكلمة. انظر ظاهرة التماثل في فصل «التبدلات التركيبية» من الكتاب.

فمن النوع الأول ذلك التحليل الدقيق الذي ذكره ابن جني في سر الصناعة (للصاد التي كالزاي). فهذا التحليل البارع ان دل على شيء فإنما يدل على التقدم الكبير الذي حصله النحاة القدماء في علم الصوتيات. فاستمع معي إليه وهو يقول[1]: وأما الصاد التي كالزاي فهي التي يقل همسها قليلاً، ويحدث فيها ضرب من الجهر، لمضارعتها الزاي، وذلك قولك في (يصْدر): يصْدر، وفي (قصد): قصد. ومن العرب من يخلصها زاياً فيقول: يزدر وقزد. وقالوا في مثَلٍ لهم: لم يحرم من فُزْد له. أي فُصِدَ له.

وإلى جانب هذا تجد ابن جني يقع في اخطاء يستبعد وقوعها حتى من المبتدئين. ففي معرض كلامه عن (ذوق الحروف) يقول[2]: «إلا ان بعض الحروف أشد حصراً للصوت من بعضها. ألا تراك تقول في الدال والطاء واللام: إد، إط، إل. ولا تجد للصوت منفذاً هناك، ثم تقول: إص، إس، إت، إف. فتجد الصوت يتبع الحرف؟».

فهنا أدخل اللام في زمرة الأصوات الشديدة. وهي كما نعرف من الأصوات المتوسطة، أي التي يتسع معها مجرى الهواء اتساعاً كبيراً، وكل انسان منا يستطيع ان يلفظ اللام ليجد ان الصوت ينطلق معها ولا ينحبس كما يدعي ابن جني.

وقد اعتقدت لبرهة ان (إل) الواردة في العبارة تصحيف من النساخ، وأنها في الأصل (اك) بالكاف، إذ لا يعقل ان يخلط ابن جني، وهو الطويل الباع في اللغة، بين حرف شديد وحرف رخو بله متوسطاً. ولكن بعد التأمل تبين لي انه لا تصحيف في الكلمة. وذلك لسببين: أولهما ان كلمة (اللام) وردت في العبارة بتمام حروفها، وإذا كان من الممكن وقوع التصحيف بين (ال) باللام و(اك) بالكاف لتشابه الحرفين في الصورة، فليس من المحتمل وقوع تحريف والثاني ان النسخ التي اعتمدها المحققون للكتاب، وهي تبلغ خمساً، قد اجمعت على (ال) ولم تشذ منها واحدة فتثبت (اك) مكان (ال). هذا وبعض النسخ قد روجعت

---

(١) ج١ ص٥٦.

(٢) المرجع نفسه ج١ ص٧.

على نسخة المؤلف التي هي بخط يده وصححت عليها، كما تضمنت تعليقات بقلم النحوي المصري الكبير العلامة ابن هشام الانصاري.

فإذا ثبت الا تصحيف في (ال) لم يبق إلا ان نقول: ان ابن جني خلط خلطاً شائناً بين الصوت الشديد والصوت الرخو. ومن العجيب حقاً ألا يشير الاساتذة المحققون للكتاب إلى هذا الخطأ من ابن جني، وفيهم من لا يشك في تبحرهم باللغة وطول باعهم في الدراسات اللغوية مثل مصطفى السقا والاستاذ إبراهيم مصطفى.

وإذا رجعنا إلى تعريفات النحاة للمجهور والمهموس لم نظفر بما ينير لنا السبيل، بل وجدنا على العكس ابهاماً وغموضاً لا يمكن معهما القول انهم فهموا الجهر والهمس فهماً صحيحاً. فتعريفهم للمجهور لا يختلف كثيراً عن تعريفهم للشديد. وتعريفهم للمهموس هو نفسه تعريف الرخو:

آ ــ المجهور: ما منع النفس ان يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت.

ب ــ الشديد: ما منع الصوت ان يجري فيه.

آ ــ المهموس: ما جرى النفس معه.

ب ــ الرخو: ما جرى فيه الصوت[1].

أما الجواب عن السؤال الثالث (لماذا اخطأ النحاة والقراء القدماء فوصفوا بالجهر ما هو مهموس) فليس أمراً ضرورياً فيما نعتقد. لأن المهم عندنا ان نعرف حقيقة اصوات لساننا، وليس المهم ان نعرف لماذا اخطأ المخطئون في وصفها. وإذا كان لا بد من قول في هذا الصدد فيجب ألا يكون فيه تكلف أو تمحل، كما يجب أن يعلل خطأ الأقدمين بما يعلل به خطأ المحدثين. وقد تبين لي من خلال تدريسي لمادة فقه اللغة ان الطلبة كثيراً ما يخطئون في تمييز المجهور من المهموس إذا

---

(١) انظر سيبويه: الكتاب، جـ٢ ص٤٠٥-٤٠٦. وعبارة ابن جني والزمخشري في تعريفاتها للمجهور والمهموس والشديد والرخو لا تختلف في شيء عن عبارة سيبويه بل إنهما في كثير من الأحيان يستعملان ألفاظ سيبويه نفسها.

كان الصوت المفحوص من الأصوات الشداد، وذلك بسبب قصر زمن الجهر في المجهور لامتلاء الفم بالهواء المحبوس، بينما يندر ان يخطئوا في التمييز بين المجهور والمهموس إذا كان الصوت المفحوص من الأصوات الرخوة، وذلك بسبب طول زمن الجهر لقدرة الناطق على مد الصوت بقدر ما تسمح به رئتاه من الهواء. فإذا كان هؤلاء الطلبة يخطئون التمييز بين الجهر والهمس في الأصوات الشداد بعد ما عرفوا من أمر الجهر ودور الوترين الصوتيين والطرق المختلفة للاستيثاق من أمر الجهر، فلأن يخطىء القدماء، وهم الذي جهلوا أمر الأوتار الصوتية، في ذلك أولى.

* * *

نسَب الحبيسات العربية

إن الأصوات الحبيسة لا تتساوى في نسب ورودها في الكلام، فبعضها يكثر وروده في هذا اللسان، بينما يندر وروده في لسان آخر. يشعر بذلك الرجل العادي عندما يسمع انساناً يتكلم أمامه بلسان لا يفهمه، فتراه إذا ما طلب منه أن يقلد هذا الإنسان في كلامه ــ تراه ينطق بألفاظ مرتجلة لا معنى لها ولكنها مشتملة على حشد من الأصوات الشائعة في لسان هذا الإنسان. وهناك اسطورة لطيفة تقول: إن ملكاً بعث رجلاً يدرس له ألسن العالم، فلما عاد الرجل العالم من بعثته راح الملك يسأله عن الألسن، فكان كلما سأله عن لسان ذكر له خصائصه ومميزاته وصفاته. فلما سأله عن الجركسية سكت ولم ينطق، ثم أتى بكيس مملوء بالجوز فهزه هزاً عنيفاً، فسمع من داخله قرقعة عالية، فقال العالم للملك: هذا هو اللسان الجركسي.

وقد علمت ذلك أيضاً شركات صنع الآلات الكاتبة، فلا تقوم بصنع آلة كاتبة للسان ما قبل أن تجري إحصاء لأصوات هذا اللسان. تطلع من خلاله على ما يكثر وروده من هذه الأصوات لتجعل ازراره في وسط الآلة، وعلى ما يقل وروده منها لتجعل ازراره في الأطراف.

وقد قام الدكتور ابراهيم انيس بإحصاء من هذا النوع ليكشف عن نسب شيوع كل صوت من أصوات العربية وإليك ما انتهى إليه:

قال في كتابه (الأصوات اللغوية) (١):

«ولقد حصرت عدد كل منها [أي الأصوات الحبيسة] في عشرات من صفحات القرآن الكريم الذي لا شك أنه يمثل أصدق الأساليب العربية، وقد

(١) ص١٧٠-١٧١.

اتخذت هذه الصفحات كنماذج يقاس عليها. ثم استعنت بأهل الرياضة فأجروا لي تلك العملية الرياضية التي تستخدم في علم الاحصاء، وفي كثير من العلوم الحديثة، لتغنينا عن استقراء جميع أفراد الأصوات الساكنة [أي الأصوات الحبيسة] في القرآن الكريم التي تزيد على ثلاثمائة ألف من الأصوات. وقد كانت النتيجة التي وصلت إليها أن نسبة شيوع [الحبيسات في كل ألف صوت حبيس هي كما يلي:]

ل	١٢٧	م	١٢٤
ن	١١٢	همزة	٧٢
هـ	٥٦	و	٥٢
ت	٥٠	ي	٤٥
ب	٤٣	ك	٤١
ر	٣٨	ف	٣٨
ع	٣٧	ق	٢٣
س	٢٠	د	٢٠
ذ	١٨	ج	١٦
ح	١٥	خ	١٠
ص	٨	ش	٧
ض	٦	غ	٥
ث	٥	ط	٤
ز	٤	ظ	٣

أنواع النسج الصوتية في العربيّة

تبلغ عدة الأصوات الحبيسة في العربية ثمانية وعشرين صوتاً كما رأينا، وقد أجرى الخليل قديماً عملية حسابية بسيطة ليعلم مقدار الكلمات التي يمكن أن تتألف من هذه الأصوات، فتبين له أن عدد هذه الكلمات الممكنة يتجاوز اثني عشر مليوناً. ولكن المستعمل منها في الواقع لا يكاد يتجاوز الثمانين ألفاً. فما معنى ذلك؟

معناه أن لكل لسان نظاماً خاصاً في تأليف الفاظه ونسجها، فما يقبله هذا اللسان من نسج صوتية معينة و يكثر منه، قد يرفضه لسان آخر أو يندر وجوده فيه. هذا المزج للأصوات ــ كما يسميه ابن جني [1] ــ يسمى بالنسج الصوتي. ولكل لسان أساليبه الخاصة في نسج كلماته صوتياً.

إن الدراسة المتعمقة للنسج الصوتية العربية لا تزال تنتظر من يقوم بها. ولكن القدماء من النحويين واللغويين لهم بعض الملاحظات في هذا الشأن، وهي على جانب كبير من الأهمية على الرغم من قلتها.

ويمكن تقسيم هذه الملاحظات إلى ثلاثة أقسام:

آ ــ نسج تأباها العربية اباء تاماً، سواء أكانت في كلماتها أم كانت في كلمات معربة. وتلك هي النسج المؤلفة من أصوات من جنس واحد، مثل: ببب، تتت، ججج.. الخ.

ب ــ نسج تأباها العربية في كلماتها، ولا تأباها في الكلمات الأعجمية المعربة. فإن وجدت هذه النسج دل ذلك عجمة الكلمة الموجودة فيها وهذه النسج هي:

---

(١) انظر سر الصناعة: جـ١ حاشية الصفحة ٧٧.

١ ــ اجتماع الجيم مع الصاد، مثل: صولجان. جمص. صنجة.[١]

٢ ــ اجتماع الجيم مع القاف، مثل: منجنيق. جوق. جرندق.[٢]

٣ ــ تقدم النون على الراء، مثل: نرجس. نرس. نورج. نرجة.[٣]

٤ ــ تقدم الدال على الزاي، مثل: مهندز.

٥ ــ تقدم اللام على الشين، مثل: بلَّش.[٤]

٦ ــ اجتماع السين مع الذال. مثل: ساذج.

٧ ــ اجتماع السين مع الزاي، مثل: سوزان.[٥]

٨ ــ اجتماع الصاد والطاء، مثل: مصطول.[٦]

٩ ــ اجتماع الراء مع اللام إلا في النادر، مثل: رلى.[٧]

١٠ ــ خلو كلمة رباعية أو خماسية من أحد حروف الذلاقة (الميم والنون والراء واللام والباء والفاء)، مثل: عفجش[٨].

ج ــ نسج تقبلها العربية، لكنها متفاوتة في الفصاحة والخفة. وقد أحصى

---

(١) الصنجة: كفة الميزان.

(٢) الجوق: جماعة من الناس، وجرندق علم لرجل.

(٣) النرجس زهر معروف، والنرس علم لقرية في سواد العراق، والنورج، و يقال النيرج أيضاً هو ما يداس به الطعام، حديداً كان أو خشباً، والنرجة الخشبة التي تقلب بها الأرض.

(٤) بلش كلمة عامية بمعنى ابتدأ.

(٥) سوزان: اسم زهر معروف، والعرب تنطقه: سوسان أو سوسن.

(٦) مصطول: عامية معناها: ذاهل.

(٧) رلى: علم لقبيلة عربية.

(٨) عفجش كلمة لا معنى لها مثل الجواليقي بها لنوع من النسج تأباه العربية في كلماتها. قارن فيما يتعلق بهذه النسج الجواليقي: المعرب، ص ١١-١٢، والخفاجي: شفاء الغليل، ص ٧، وابراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ص ٧٢-٧٣. هذا وقد ذكر ابن جني في سر الصناعة (جـ ١ ص/ ٧٧) إنه عقد فصلاً في آخر كتابه لما حسن من تركيب الحروف وما قبح. ومن المؤسف أن الجزء الثاني من الكتاب لم ينشر حتى اليوم لنعرف ما قاله ابن جنى في هذا الفصل. ولكن يظهر مما نقله السيوطي عنه (المزهر جـ ١ ص ١١٧) أنه لم يأت بشيء أكثر مما أتى به المتأخرون عنه.

الشيخ بهاء الدين صاحب عروس الأفراح اثني عشر من هذه النسج للكلمة الثلاثية، ناظراً في ذلك إلى مناطق الجهاز الصوتي لا إلى الأصوات بالتفصيل.

وإليك هذه النسج وما قاله في مراتب فصاحتها وخفتها:

١ ــ الانحدار من المخرج الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى، نحو: ع د ب [١].

٢ ــ الانتقال من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط نحو: ع ر د.

٣ ــ من الأعلى إلى الأدنى إلى الأعلى، نحو: ع م هـ.

٤ ــ من الأعلى إلى الأوسط إلى الأعلى، نحو: ع ل ن. [٢]

٥ ــ من الأدنى إلى الأوسط إلى الأعلى، نحو: ب د ع.

٦ ــ من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط، نحو: ب ع د.

٧ ــ من الأدنى إلى الأعلى إلى الأدنى، نحو: ف ع م.

٨ ــ من الأدنى إلى الأوسط إلى الأدنى، نحو: ف د م.

٩ ــ من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى، نحو: د ع م.

١٠ ــ من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى، نحو: د م ع.

١١ ــ من الأوسط إلى الأعلى إلى الأوسط، نحو: ن ع ل.

١٢ ــ من الأوسط إلى الأدنى إلى الأوسط، نحو: ن م ل.

ويقول الشيخ بهاء الدين إن أحسن هذه التراكيب الأول، فالعاشر،

---

(١) يقصد بالمخرج الأعلى المحبس الذي يقع في المنطقة الخلفية من القناة الصوتية، وبالأوسط المحبس الواقع في وسط الفم، وبالأدنى المحبس الواقع في مقدم الفم.

(٢) لاحظ خلط القدماء في الأصوات. فالمعروف أن اللام والنون من محبس واحد، والشيخ بهاء الدين يجعلهما من منطقتين مختلفتين في الفم، كما خلط في المثال الثاني عندما جعل الدال ادخل في الفم من الراء مع أن الصحيح هو العكس.

فالسادس. وأما الخامس والتاسع فهما سيان في الاستعمال، وإن كان القياس يقضي أن يكون أرجحهما التاسع [1]. وأقل الجميع استعمالاً هو السادس [2].

---

(١) يقصد بالقياس ما نصوا عليه من أنه كلما تباعدت محابس أصوات الكلمة خفت في اللفظ. ولا شك أن التاسع فيه بعد لا يوجد في الخامس، وهو الانتقال من الأعلى إلى الأدنى.

(٢) عن المزهر للسيوطي، جـ١ ص١١٩.

تصنيف الأصوات الطليقة

الطليقات خلاف الحبيسات. وهي أصوات لا يجد الهواء معها عقبة تعترض طريقه في أي نقطة من نقاط القناة الصوتية. ومنها الفتحة والكسرة والضمة وما كان من قبيلهنَّ.

فلاحداث صوت طليق يخرج الهواء من الرئتين فيسلك طريقه في القصبة الهوائية، ثم يدخل الحنجرة فيجد الوترين الصوتيين متقاربين، وفتحة المزمار ضيقة، فيحتك بالوترين الصوتيين فيهزهما، ثم يخرج من الحنجرة فيسلك طريقه في الحلق، فإذا وصل الى الحفر الأنفية فهو أمام أحد أمرين: إما أن يجد حجاب الحنك قد ارتفع فسد هذه الحفر، وإما أن يجده منخفضاً وطريق الحفر مفتوح. ففي الحالة الأولى يسلك طريقه في الفم وحده، وفي الحالة الثانية يتخذ طريقه في المجريين الفم والأنف معاً.

ويجب التنبيه هنا إلى أن الأصوات الطليقات مجهورة كلها. وتعليل ذلك بسيط: فالطليقات، وقد فقدت الانسداد الكامل الذي ينشأ عنه صوت الانفجار، والانسداد الجزئي الذي ينشأ عنه صوت الاحتكاك، لم يبق لها إلا الوتران الصوتيان لتعتمد عليهما في تصويتها. فهي لذلك أصوات أحادية التصويت وترية [(١)].

وقد يرد الآن السؤال التالي: إذا كان الهواء لا يجد أمامه في الأصوات الطليقة عقبة في أي نقطة من القناة الصوتية، فكيف يتأتى لهذه الطليقات أن تتمايز وتتنوع حتى تبلغ الخمسين عداً، كما يقر بذلك علماء اللغة؟

---

(١) انظر ما قلناه آنفاً في صدر هذا الباب حول التصنيف المقترح إلى أصوات أحادية التصويت وأصوات ثنائية التصويت.

والجواب: إن أعضاء النطق ليست على صورة واحدة مع جميع الأصوات الطليقة، فقد يرتفع مقدم اللسان نحو الحنك الأعلى وقد ينخفض، وقد يحدث هذا الارتفاع وذلك الانخفاض من وسطه أو من أقصاه، وقد تكون الشفتان مضمومتين أو منفرجتين، وقد يمر الهواء من الفم وحده أو من الفم والأنف معاً. فهذه الأوضاع المختلفة لأعضاء النطق هي عناصر التمايز والتنويع في الأصوات الطليقة. وعلى ذلك يمكن تصنيف هذه الأصوات على أسس ثلاثة: أساس درجة الانفتاح الحاصل من قرب اللسان في جزء من أجزائه من الحنك الأعلى، ثم أساس الجزء المرتفع من أجزاء اللسان مع وضع الشفتين، وأخيراً طريقة النطق.

آ ــ التصنيف بحسب أجزاء اللسان:

إذا ارتفع مقدم اللسان نحو الحنك الأعلى حتى بلغ أقصى ما يمكن الوصول إليه دون أن يرتطم بالحنك، أو يصل إلى درجة تجعل الهواء المار يحدث احتكاكاً، إذا وصل إلى هذا الارتفاع الأقصى انبعث صوت طليق يسمى الكسرة (ِ) كالكسرة بعد العين في كلمة (عِيد).

وإذا انخفض مقدم اللسان حتى بلغ أقصى ما يستطيعه من الانخفاض حدث صوت طليق يسمى الفتحة المرققة (َ)، كالفتحة الواقعة بعد الباء في قولنا (بَاب).

وبين الارتفاع الأقصى لمقدم اللسان الذي يعطي الكسرة، والانخفاض الأقصى لمقدمه الذي يعطي الفتحة المرققة، توجد عدة نقاط تعطي كل واحدة منها صوتاً طليقاً يختلف عن غيره. ويمكن أن نميز من هذه النقاط الكثيرة اثنتين: واحدة قريبة من نقطة الكسرة تعطي صوتاً نسميه الامالة الحادة نحو الكسر، مثل الامالة المسموعة بعد الباء في كلمة (بيت) منطوقةً نطقاً عامياً، وأخرى قريبة من نقطة الفتحة المرققة تعطي صوتاً طليقاً نسميه بالامالة المنفرجة نحو الكسر، مثل الامالة المسموعة بعد الباء في قول اللبنانيين (شوباك؟ = ماذا بك؟).

فهذه السلسلة من الأصوات الطليقة: الكسرة، الامالة الكسرية الحادة،

الامالة الكسرية المنفرجة، الفتحة المرقفة، تدعى بالأصوات الطليقة الامامية، لأنها تنتج عن تكتل اللسان في مقدم الفم تحت مقدم الحنك الأعلى، أي الغار.

وإذا ارتفع وسط اللسان إلى الأعلى، كما فعل مقدمه، انتج أصواتاً طليقة عديدة ليس في العربية منها غير صوت طليق قصير يسمع بعد حروف القلقلة، وليس له رمز خاص نرمز به له، لكننا نستطيع سماعه في لهجة حلب كثيراً، إذ أحلته هذه اللهجة محل بعض الضمات والكسرات في المقاطع الأولى من الكلمات، مثل: منشار ـــ سماق. وتسمى هذه السلسلة من الأصوات بالأصوات الوسطى. ومنهم من يعد الفتحة بأنواعها المرقفة والمفخمة من الأصوات الوسطى، لأن أجزاء اللسان المتحركة تقترب من نقطة الوسط في انخفاضها لانتاج الفتحة [١].

وإذا ارتفع أقصى اللسان نحو أقصى الحنك (الطبق) فأقصى ما يستطيع أن يبلغه يؤدي إلى احداث صوت طليق هو الضمة (ُ)، كالضمة المسموعة بعد الباء في كلمة (بُوس). وإذا انخفض أقصى اللسان حتى بلغ أقصى ما يستطيعه انتج صوتاً طليقاً يسمى الفتحة المفخمة (َ) كالفتحة الواقعة بعد الصاد في كلمة (صَالح).

وبين نقطتي الضمة والفتحة المفخمة توجد نقاط كثيرة تعطي كل منها صوتاً طليقاً يختلف عن غيره. ويمكن أن نميز من بين هذه النقاط الكثيرة اثنتين: إحداهما قريبة من نقطة الضمة، وتعطي صوتاً طليقاً نسميه الامالة الضمية الحادة، مثل الامالة الضمية المسموعة بعد الكاف في كلمة (الكون) منطوقة نطقاً عامياً، والأخرى قريبة من نطقة الفتحة المفخمة، وتعطي صوتاً طليقاً نسميه الامالة الضمية المنفرجة، ولا وجود لهذا الصوت في الفصحى، ولا في العاميات على ما نعلم.

فهذه السلسلة من الأصوات الطليقة: الضمة، الامالة الضمية الحادة، الامالة

---

(١) انظر: Cantineau: Cours de Phonétique Arabe. P, 89

الضمية المنفرجة، الفتحة المفخمة، تدعى بالطليقات الخلفية، لأنها تحدث عن ارتفاع مؤخر اللسان نحو أقصى الحنك[1]، أي الطبق.

انشغلنا حتى الآن باللسان وحده، ولم نذكر شيئاً عن الشفتين وما يمكن أن يكون لهما من أثر في تنويع الأصوات الطليقة بما تتخذانه من أوضاع مختلفة. والواقع أن للشفتين وضعين مختلفين، ولكل منهما درجات متعددة. فأحدهما هو وضع الضم، وأقصى درجاته أن تصل الشفتان إلى استدارة تامة مع بروز إلى الامام، وذلك هو وضعهما إثناء نطق كلمة (بوم)، والثاني هو وضع الكسر والخفض، وأقصى درجاته أن تصل الشفتان في تراجعهما إلى الخلف على صفحتي الوجه إلى وضع يشبه وضع من غلبه الابتسام العريض. وذلك هو وضعهما اثناء نطق كلمة (كيس).

وإنما سمي الوضع الأول ــ وضع الاستدارة ــ بوضع الضم لأنه يصاحب النطق بالضمة والأصوات الخلفية، كما سمي الوضع الثاني ــ وضع الانفراج والتراجع ــ بوضع الكسرة لأنه يصاحب نطق الكسرة والأصوات الامامية. وهذا هو الشائع في الأصوات الطليقة في أغلب الألسن، لكن هذا لا يمنع أن ألسناً أخرى تتضمن أصواتاً طليقة خلفية يصحبها انفراج الشفتين، وأخرى أمامية يرافقها ضم الشفتين. وبذلك يتضاعف عدد الأصوات الطليقة الممكنة.

بعد هذا الكلام غدا بامكاننا أن نصنف الأصوات الطليقة بحسب أوضاع اللسان والشفتين إلى ما يأتي:

١ ــ طليقات أمامية منكسرة: منها الكسرة، والامالة الكسرية الحادة، والامالة الكسرية المنفرجة، والفتحة المرققة.

٢ ــ طليقات امامية منضمة: منها صوت (u) الفرنسي، والذي يسمى في العربية بالاشمام بالضم[2].

---

(١) يفضل كانتينو عبارة (تكتل اللسان في الخلف أو في الوسط أو في الأمام) على عبارة (ارتفاع أقصى اللسان أو وسطه أو مقدمه) وقد استعملنا العبارتين معاً زيادة في الايضاح، وإن كانت عبارة كانتينو أصدق في التعبير عن واقع آلية اللسان مع الأصوات الطليقة. انظر كانتينو: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) انظر ابن جني: سر الصناعة، جـ١ ص٥٩.

٣ ـ طليقات وسطيات منكسرة (منها الفتحة بكل انواعها[١]. والقلقلة).

٤ ـ طليقات وسطيات منضمة (منها الفتحة بكل انواعها. والقلقلة).

٥ ـ طليقات خلفية منكسرة: منها صوت (i) التركي بغير نقطة، والذي يسمى في العربية بالاشمام بالكسر.

٦ ـ طليقات خلفية منضمة: منها الضمة، والامالة الضمية الحادة، والامالة الضمية المنفرجة، والفتحة المفخمة[٢].

ب ـ التصنيف بحسب درجة الانفتاح:

رأينا فيما سبق أن ارتفاع اللسان أو تكتله في جزء من أجزاء الفم يؤدي إلى تضييق مجرى الهواء، واحداث درجات متعددة في الانفتاح الفموي. فعلى أساس درجات هذا الانفتاح يمكن تصنيف الأصوات الطليقة إلى ما يأتي:

١ ـ طليقات حادة: وافرادها الكسرة والضمة وما قرب منهما.

٢ ـ طليقات منفرجة: وافرادها الفتحة المفخمة والفتحة المرققة وما قرب منهما.

ج ـ التصنيف بحسب طريقة النطق:

ابرز طرق النطق التي تتمايز بها الأصوات الطليقة اثنتان:

١ ـ الاطالة والتقصير: فبعض الأصوات الطليقة طويل يبلغ في طوله ضعفي ما يبلغه القصير. وبعض الألسن يستعمل أربع درجات من الطول. والعربية واحدة من هذه الألسن، وإن كانت لا تعترف بغير درجتين اثنتين فقط: قصيرة منها الفتحة والضمة والكسرة، وطويلة منها الفتحة الطويلة والضمة الطويلة

(١) هذا على رأي من يعد الفتحة بأنواعها من الأصوات الوسطى. انظر كانتينو: المرجع السابق ص ٨٩.

(٢) لعلك لاحظت أننا نعني بالطليقات المنضمة ما تنضم معه الشفتان، وبالمنكسرة ما تنفرج معه الشفتان.

والكسرة الطويلة [1]. غير أن ابن جني ينبهنا في سر الصناعة (ج ١ ص١٩-٢٠) إلى وجود طول مفرط للفتحة والضمة والكسرة إذا وليتها الهمزة أو الادغام. يقول: «ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتي هن حروف توامٌّ كوامل قد تجدهن في بعض الأحوال أطول وأتم منهن في بعض، وذلك قولك يخاف و ينام، و يسير و يطير، و يقوم و يسوم، فتجد فيهن امتداداً واستطالة ما، فإذا أوقعت بعدهن الهمزة أو الحرف المدغم ازددن طولاً وامتداداً، وذلك نحو يشاء و يداء، و يسوء و يهوء، ويجيء و يفيء. وتقول مع الادغام: شابّة ودابّة، و يطيبْ بّكر، و يسيرْ راشد، وتُمودّ الثوب، وقد قوصَّ زيد بما عليه. أفلا ترى إلى زيادة المد فيهن بوقوع الهمزة والمدغم بعدهن؟».

وإلى جانب هذا الطول المفرط نجد قصراً مفرطاً فيما كانوا يسمونه بالرَّوْم. وهو الوقف على أواخر الكلمات بحركاتها الاعرابية مقصرة تقصيراً كبيراً حتى لا يكاد يدركها السمع. ومن هذه الدرجة من درجات الطول صوت القلقلة أيضاً.

٢ ــ الغنة وعدمها: فالغنة أن يفتح مجرى الأنف ومجرى الفم ليسلكهما الهواء اثناء نطق الصوت الطليق، وعدم الغنة أن يسد مجرى الأنف فلا يجد الهواء غير مجرى الفم يسلكه. فمن النوع الثاني طليقات العربية كلها، ومن النوع الأول الطليقات الفرنسية الغناء التي يرمز لها بالرموز (in, un, an, on...).

* * *

(١) لاحظ أننا قلنا (الفتحة الطويلة ولم نقل (الألف) وقلنا (الكسرة الطويلة) ولم نقل (الياء) وقلنا (الضمة الطويلة ولم نقل (الواو) وذلك خشية من أن يفهم من (الواو والياء) الصوتان الشبيهان بالطليقات. هذا، وليس هناك خلاف بين الفتحة والألف إلا في الطول، فالأولى قصيرة والثانية طويلة، وكذا الأمر مع الضمة والواو، والكسرة والياء. وقد انتبه إلى ذلك القدماء، فقال ابن جني في سر الصناعة (جـ١ ص١٩): اعلم أن الحركات ابعاض حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة، والكسرة، والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو. وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة. وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة.

الطليقَات في العربية

١ ـــ الفتحة المرققة القصيرة:

هي صوت طليق أمامي منفرج قصير غير أغن.

تقصر في الروم حتى تصير إلى نصفها.

لا ترى إلا بعد الأصوات الحبيسة المستفلة، وهي: ب، ت، ث، ج، ح، د، ذ، ز، س، ش، ع، ف، ك، ل، م، ن، هـ، و، ي.

٢ ـــ الفتحة المرققة الطويلة:

هي صوت طليق أمامي منفرج طويل غير أغن.

تبلغ في طولها ضعفي طول القصيرة. وقد يزيد طولها حتى يبلغ الضعفين، وذلك إذا وليها الادغام أو الهمز.

ولا ترى إلا بعد الأصوات المستفلة.

٣ ـــ الكسرة القصيرة:

هي صوت طليق أمامي منكسر حاد قصير غير أغن.

تقصر في الروم حتى تصير إلى نصفها.

إذا سبقتها أصوات الاستعلاء (ص، ض، ط، ظ، خ، غ، ق) انفرجت قليلا، ولا سيما إذا كان الصوت السابق من المطبقات (ص، ط، ض، ظ).

وهذا الانفراج ليس مقصوداً لذاته، بل يحتمه انتقال اللسان من وضعه الأمامي

الضيق الى ما تتطلبه أصوات الاطباق من صعوده نحو الحنك الأعلى متخذاً شكلاً مقعراً (١)

٤ ــ الكسرة الطويلة:

هي صوت طليق أمامي منكسر حاد طويل غير أغن.

تبلغ في طولها ضعفي طول القصيرة. وقد يزيد طولها حتى يبلغ الضعفين، وذلك إذا وليها الادغام أو الهمز.

يصيبها من الانفراج ما يصيب الكسرة القصيرة، وللاسباب نفسها.

٥ ــ الامالة الكسرية الحادة القصيرة:

هي صوت طليق أمامي منكسر حاد قصير غير أغن.

تقصر في الروم حتى تبلغ نصفها.

لها أحكام كثيرة معقدة لا يتسع المجال لذكرها. ويمكن الاطلاع عليها بالرجوع إلى كتب النحو والقراءات. والامالة على العموم، لغة نجد، أما الفتح فهو لغة الحجاز.

٦ ــ الامالة الكسرية المنفرجة القصيرة:

أحكامها كأحكام سابقتها، ولا تختلف عنها إلا في درجة انفراجها.

٧ ــ الامالة الكسرية الحادة الطويلة:

أحكامها كأحكام الامالة الكسرية الحادة القصيرة، ولا تختلف عنها إلا في درجة الطول الذي قد يبلغ حد الافراط إذا وقعت بعد ادغام أو همز.

٨ ــ الامالة الكسرية المنفرجة الطويلة:

احكامها كأحكام سابقتها، ولا تختلف عنها إلا في درجة انفراجها.

٩ ــ الفتحة المفخمة القصيرة:

---

(١) ابراهيم انيس: الأصوات اللغوية، ص ٤٢-٤٣.

ويسميها القدماء بالامالة نحو الضم، وهذا صحيح، إلا أننا نفضل وصفها بالمفخمة لنحتفظ بمصطلح (الامالة الضمية) لطليقات أخرى هن أكثر امالة نحو الضم من الفتحة المفخمة. وهؤلاء لا يوجدن في الفصحى، ولكنهن موجودات في العاميات وفي السن اعجمية كما رأينا سابقاً.

والفتحة المفخمة صوت طليق خلفي منضم منفرج قصير غير أغن.

لا ترى هذه الفتحة إلا بعد أصوات الاستعلاء (ص، ض، ط، ظ، غ، خ، ق) ومعها الراء أيضاً.

يصيبها من القصر في الروم ما يصيب كل الطليقات القصار.

١٠ ـ الفتحة المفخمة الطويلة:

أحكامها كأحكام سابقتها، ولا تختلف عنها إلا في درجة الطول الذي يبلغ حد الافراط إذا وليها الادغام أو الهمز.

١١ ـ الضمة القصيرة:

هي صوت طليق خلفي منضم حاد قصير غير أغن.

يصيبها من القصر في الروم ما يصيب كل الطليقات القصار. ولا تنفرج بتأثير أصوات الاستعلاء كما يحدث للكسرة.

١٢ ـ الضمة الطويلة:

أحكامها كأحكام سابقتها، ولا تختلف عنها إلا في درجة الطول الذي يبلغ حد الافراط إذا وليها الادغام أو الهمز.

١٣ ـ الاشمام بالضم القصير:

هو صوت طليق أمامي حاد منضم قصير غير أغن.

وبعبارة أخرى: هو كسر تنضم معها الشفتان بدل أن تنفرجا.

١٤ ـ الاشمام بالضم الطويل:

أحكامه كأحكام سابقه، ولا يختلف عنه إلا في درجة الطول.

١٥ ــ الإشمام بالكسر القصير:

هو صوت طليق خلفي حاد منكسر قصير غير أغن.

وبعبارة أخرى: هو ضمة تنفرج معها الشفتان بدل أن تنضما.

١٦ ــ الاشمام بالكسر الطويل:

أحكامه كأحكام سابقه، ولا يختلف عنه إلا في درجة الطول.

* * *

الطليقات المركبة

إذا التقى في الكلام صوتان طليقان فإن أحدهما لا يلفظ كما يلفظ الطليق، أو بعبارة أخرى، فإن أحدهما لا ينال من الاشباع في اللفظ ما يناله الطليق عادة، انظر إلى كلمة (بيْت) تجد فيها صوتين طليقين هما الفتحة ثم الياء (الكسرة) والآن الفظ هذه الكلمة وانتبه إلى لفظك تجد أنك لا تكاد تبدأ بالفتحة حتى ينزلق لسانك انزلاقاً سريعاً إلى الكسرة. قد تقول: ولكن هذه السرعة في لفظ الفتحة سببها كونها فتحة قصيرة، والياء بعدها كسرة طويلة، وليس الأمر كذلك، لأنك، في كلمات أخرى تقوم بمثل هذا الانزلاق ولو كان الصوت الطليق الأول طويلاً: الفظ معي كلمة (يُسر) تجد أنك تنتقل من الياء في حركة انزلاقية إلى الفتحة، ولو شئت الا تقوم بهذه الحركة الانزلاقية لكان عليك ان تلفظ الكلمة كما لو كانت مكتوبة هكذا (ي سُر) من غير أن تبدأ الطليقات بهمزة قطع.

هذا التركيب ــ ولا بد أنك لاحظت ذلك ــ يخرج أحد الطليقين عن كونه طليقاً، و يدخله في زمرة الحبيسات، فالياء في كلتا الكلمتين (بيت ــ يسر) لم تبق صوتاً طليقاً، بل أصبحت من الحبيسات التي سميناها باشباه الطليقات، وهي تقوم بوظيفة الصوت الحبيس في المقطع الذي هي فيه.

وللطليق المركب (diphtongue) نوعان: صاعد، وهابط. لكن اللغو يين يختلفون في مفهومي الصاعد والهابط. فابراهيم انيس[1] يطلق كلمة الصاعد على الطليق المركب الذي أصبح جزؤه الأول شبه طليق، أو قل على الذي قام جزؤه الأول مقام الحبيس في المقطع، مثل (يسر)، و يطلق كلمة الهابط على ما أصبح

(١) انظر كتابه: الأصوات، ص٨٩.

جزؤه الثاني شبه طليق، أو قل على الذي قام جزؤه الثاني مقام الحبيس في المقطع، مثل (بيت). بينما يقول محمود السعران [(١)]: «يسمى هابطاً أو نازلاً إن كان طرفه الأول ابرز أو أشد جهارة من طرفه الثاني (أي إنه سمي بذلك باعتبار ما يصير إليه)، و يسمى صاعداً أو طالعاً، إن كان طرفه الثاني أبرز وأشد جهارة من طرفه الأول».

والذي يهمنا هنا أن نستعرض الأشكال المختلفة للطليقات المركبة في العربية. وهذه هي:

١ ــ فتحة + كسرة = بيْت (هابط).

٢ ــ فتحة + ضمة = كَون. (هابط).

٣ ــ كسرة + فتحة = يا. (صاعد).

٤ ــ كسرة +ضمة = يوسف. (صاعد).

٥ ــ كسرة + كسرة = كايِن. (صاعد).

٦ ــ ضمة + فتحة = واحد. (صاعد).

٧ ــ ضمة + كسرة = وِصال. (صاعد).

٨ ــ ضمة + ضمة = داوود. (صاعد).

وفي حالة تسهيل الهمزة بنطقها بينَ بين، يمكننا أن نضيف طليقاً مركباً من (فتحة + فتحة)، وذلك نحو قولك «أأنت ــ أ َنت».

وقد تخلصت أكثر العاميات من الشكلين الأول والثاني فحولت الأول (فتحة + كسرة) إلى طليق بسيط يقع بينهما، هو الامالة الكسرية الحادة. وحولت الثاني (فتحة + ضمة) إلى طليق بسيط يقع بينهما، هو الامالة الضمية الحادة.

* * *

---

(١) علم اللغة ص٢٠٤.

يحسن، بنا وقد انتهينا من تصنيف الأصوات العربية وصفتها، أن نلقي عليها جميعاً نظرة عامة، وأن نبدي بعض الملاحظات الضرورية.

فأول ما يلفت النظر أن نظام الحبيسات في العربية يمتاز بالغنى والثراء، وحسن التوزع على طول القناة الصوتية كلها. فالعربية تملك ثمانية وعشرين حبيساً، وهو عدد يحسدها عليه كثير من السن العالم، ولا يكاد يفوقها فيه إلا قلة من الألسن كالأرمنية مثلاً. ثم أنها وزعت هذه الحبيسات الثمانية والعشرين توزيعاً عادلاً على طول القناة الصوتية من الشفتين إلى الحنجرة، فأكسبها ذلك انسجاماً صوتياً جميلاً لا يرى مثله في كثير من الألسن. نعم، قد نرى في السن أخرى غير العربية أصواتاً أكثر عدداً، ولكنها محصورة محابسها في نطاق ضيق، وفي مدرج أقصر، قد تجدها مجتمعة متكاثرة في جانب الشفتين، وما والاهما من الفم والخيشوم في الألسن الكثيرة الغنة، أو تجدها في جهة الحلق، وفي كلا الحالين ضيق في الأفق الصوتي، واختلال في الميزان الصوتي، وفقدان لحسن الانسجام بسبب سوء توزيع الأصوات [1].

وإلى جانب هذا الثراء الذي تتمتع به العربية في نظام حبيساتها. نجد نظام الطليقات فيها يعاني من فقر مدقع شديد. وتتجلى مظاهر هذا الفقر فيما يلي:

١ ــ لا تستعمل العربية غير درجتين اثنتين من درجات الانفتاح: درجة حادة تقع فيها الكسرة والضمة، ودرجة منفرجة تقع فيها الفتحة. بينما نجد في ألبسن أخرى، كالتركية مثلاً، أربع درجات: شديدة الحدة، (وتقابل الحادة عندنا)، وحادة، ومنفرجة، وشديدة الانفراج (تقابل المنفرجة عندنا).

٢ ــ لا تستعمل العربية من مناطق الفم لانتاج الطليقات غير منطقتين: أمامية تقع فيها الكسرة، وخلفية تقع فيها الضمة. بينما نجد ألسناً أخرى تستغل منطقة الوسط استغلالاً جيداً.

---

(١) محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية، ص٢٤٩-٢٥٠ الطبعة الثالثة ١٩٦٨.

٣ ــ لا تستعمل العربية الخلفيات إلا وهي منضمة، ولا تستعمل الأماميات إلا وهي منكسرة، على حين نجد ألسناً أخرى كالفرنسية والتركية، تستعمل الخلفيات منضمة ومنكسرة، كما تستعمل الأماميات منضمة ومنكسرة أيضاً [١].

٤ ــ تخلو العربية خلواً تاماً من الطليقات الغنّاء.

٥ ــ لا تملك العربية غير درجتين من درجات الطول: القصير، والطويل، بينما نجد ألسناً أخرى تملك ثلاث درجات أو أربعاً [٢].

والنتيجة أنه ليس في العربية غير ستة طليقات، ثلاثة منها قصيرة هي الفتحة والضمة والكسرة، وثلاثة منها طويلة هي الفتحة والضمة والكسرة الطوال.

قد يقول قائل: فأين الاشمام بأنواعه، والامالة بأنواعها، والقلقلة، والفتحة المفخمة؟

والجواب: ان هذه الطليقات كلها ليست اساسية، وإنما هي فروع أو أنواع من الفتحة والضمة والكسرة. والفرق بين الأساسي والفرعي من الأصوات، أن الأساسي إذا حل مكان صوت آخر غير معنى الكلمة، والفرعي بخلافه. ألا ترى أنك لو قلت في الفرنسية (par) ثم أملت الفتحة فقلت (pére) لتغير المعنى، إذ معنى الأولى (بوساطة) ومعنى الثانية (أب)؟ وليس الأمر كذلك في العربية فإذا قلت (الضحى) بالفتح أو بالامالة لم يتغير المعنى. وإنما يتغير إذا أبدلت صوتاً طليقاً أساسياً بآخر أساسي أيضاً، وذلك نحو قولك (باع وبيع).

---

(١) يرجى من القارىء أن يتذكر أن الخلفي المنكسر هو ما دعوناه بالاشمام بالكسر، وأن الامامي المنضم هو ما دعوناه بالاشمام بالضم أي (الضمة المشوبة بالكسرة، والكسرة المشوبة بالضمة).

(٢) إذا قيست العربية في هذه الناحية بأكثر الألسن بدت غنية لا فقيرة، فأكثر الألسن لا يملك إلا درجة واحدة من الطول، مثل الفرنسية والانكليزية والايطالية والاسبانية وغيرها.

مُدَّة الصَوت اللغوي

مما عني به المحدثون في تجاربهم معرفة مدة الصوت اللغوي، سواء أكان طليقاً أم حبيساً. ونعني بطول الصوت الزمن الذي يستغرقه النطق بهذا الصوت مقدراً عادة بجزء من الثانية. فقد قدروا أن الدال المتطرفة في الكلمات الانكليزية تستغرق في النطق بها حوالي ٠،٠٥ من الثانية، في حين ان صوت (a) يستغرق مدة أطول هي حوالي ٠،٤٣ من الثانية [١].

وطول الصوت إما أن يكون طبيعياً فيه أو مكتسباً. فالطول الطبيعي هو الطول الناشىء عن طبيعة الصوت وآليته النطقية الخاصة به (طليق ــ حبيس ــ شديد ــ رخو ــ شبه طليق.. الخ)، والطول المكتسب هو الطول الذي يكتسبه الصوت من مجاورته للأصوات الأخرى، أو من موقعه الذي يحتله في الكلام.

وهذه مراتب الطول الطبيعي في الحبيسات مرتبة بالأطول فالأقصر:

١ ــ الانفيات: وهي النون والميم.

٢ ــ الجانبيات: وتسمى الحافيات أيضاً كما مر بنا. ومنها اللام.

٣ ــ المكررة: وهي الراء.

٤ ــ الرخوة: ومنها الفاء والحاء والثاء والهاء. الخ.

٥ ــ الشديدة: ومنها الباء والتاء والدال.. الخ.

وهذه مراتب الطول الطبيعي في الطليقات:

---

(١) ابراهيم انيس: الأصوات اللغوية ص ٨٠.

١ ــ الطليقات الطويلة: مثل: عاد، بيع، يعود.

٢ ــ الفتحة: مثل: ضَرَبَ.

٣ ــ الضمة والكسرة: مثل: ضُرِب.

٤ ــ القلقلة: وهو الطليق القصير جداً الذي يسمع بعد حروف القلقلة (ق ــ ط ــ ب ــ ج ــ د)، مثل: يقتل.

أما العوامل التي تكسب الصوت طولاً لم يكن له من طبيعته فأهمها:

١ ــ النبر: فالطليق في مقطع منبور أطول منه في مقطع غير منبور، كما في كلمة (قاتلات) حيث نجد الألف التي بعد اللام أطول من الألف التي بعد القاف. وإنما اكتسبت طولها هذا من وقوعها في مقطع منبور.

٢ ــ إذا ولي المقطع المنبور مقاطع غير منبورة قللت من طول صوت المنبور. فالألف في كلمة (كتاب) وحدها أطول منها في الكلمة نفسها بعد أن تليها مقاطع غير منبورة كما في (كتاب تلميذ).

٣ ــ إذا ولي الطليقات الطوال همزة زادت في طولها، مثل: صحراء، يسوء، يجيء.

٤ ــ إذا ولي الطليقات الطوال ادغام زاد في طولها زيادة مفرطة، مثل، مدهامّتان، يطيبّكر، قوصَّ زيد.

٥ ــ إذا تطرفت الألف قصرت: مثل: عسى، رحا.

٦ ــ يقصر الحبيس إذا وليه طليق، و يطول إذا وليه حبيس مثله، و بعبارة قديمة: الحرف الساكن أطول من الحرف المتحرك، فالسين في كلمة (اسمع) أطول منها في كلمة (وسِع).

٧ ــ تطول النون إذا اخفيت، أي إذا وقعت ساكنة قبل حروف الاخفاء، وهي (ت ــ ث ــ ج ــ د ــ ذ ــ ز ــ س ــ ش ــ ص ــ ض ــ ط ــ ظ ــ ف ــ ق ــ ك) كما تطول إذا وقعت ساكنة قبل الميم (ظاهرة الاقلاب).

٨ ــ الروم: وهو الوقف على نهاية الكلمة بحركة الاعراب مع تقصيرها، والروم كما رأينا يصل بالطليق القصير إلى نصف طوله الطبيعي.

* * *

كل الذي سبق هو الطول مدروساً من وجهة نظر علم الأصوات (phonètique)، أما من وجهة نظر علم وظائف الأصوات (phonologie) ــ وهو لا يهتم إلا بالظواهر الصوتية التي لها أثر في المعنى ــ فإن العربية لا تعترف إلا بمرتبتين اثنتين من مراتب الطول:

١ ــ قصيرة: ويدخل ضمنها الفتحة والضمة والكسرة القصار، وكل الحبيسات المخففة.

٢ ــ طويلة: ويدخل فيها الفتحة والضمة والكسرة الطوال، وكل الحبيسات المضعفة.

شدّة الصّوت اللّغوي

مما يمكن ملاحظته بالأذن المجردة أن الأصوات اللغوية لا تنطق كلها على درجة واحدة من الشدة والقوة، فبعضها أشد من بعض. ألا ترى أن الساكن أشد من المتحرك، والمضعف أشد من المخفف؟ وإنما يتدخل في شدة الصوت عوامل عدة، منها درجة توتر أعضاء النطق، ومنها كمية الهواء المتدفق اثناء النطق به.

ولا تزال دراسة الشدة في الأصوات العربية تنتظر من يقوم بها.

حِدَّة الصّوت اللغوي

من المعروف في عالم الفيزياء أن الصوت ناتج عن ذبذبة لجسم ما في وسط ما، كذبذبة وتر في وسط هوائي مثلاً. وإنه كلما زاد عدد الذبذبات في الثانية الواحدة ارتفع الصوت واحتد، والعكس بالعكس أيضاً.

فالحدة التي نعنيها هي نسبة ارتفاع الصوت وانخفاضه.

وأصوات اللغة لا تنطق كلها على درجة واحدة من الحدة في أثناء الكلام، بل ترانا نرتفع بأصواتنا طوراً، وننخفض بها طوراً آخر. وإليك مثالاً على ذلك في كلمتي (هذا كتابك) منطوقتين في سياقات مختلفة:

١ ــ هذا كتابك؟ (في معرض الاستفهام)

٢ ــ هذا كتابك (في معرض التقرير)

٣ ــ هذا كتابك (في معرض الاجابة)

٤ ــ أهذا كتابك؟! (في معرض السخرية)

ففي المثال الأول ننطق الكلمة الأولى منخفضة ثم نرفع الحدة في الثانية. أما في المثال الثاني فتنطق الاثنتين منخفضتين، وأما في الثالث فننطق الأولى مرتفعة والثانية منخفضة، وأما في الرابع فننطق الكلمتين مرتفعتين.

إن الطرق المختلفة التي يسلكها لسان ما في درجات الحدة ارتفاعاً وانخفاضاً في كلماته وتعبيراته تسمى بالتنغيم (intonation). ومعرفة تنغيم كل لسان أمر ضروري في تعلمه، لأن من يتكلم لساناً أجنبياً عنه، ولا يتبع في تكلمه إياه قواعد تنغيمه الخاصة به، تبدو غربته عن هذا اللسان واضحة، كما يشعر ابناء اللسان بالنفرة من طريقته في الكلام. هذا إذا كان اللسان مما لا يقيم وزناً فونولوجياً

للتنغيم، كالعربية مثلاً. أما في الألسن التي تجعل للتنغيم وظيفة في تغيير المعنى فالأمر أدهى وأمر. إذ قد يلفظ المتعلم كلمة بتنغيم خاص فيفهم منها ابناء اللسان معنى غير الذي أراده المتكلم. وهذا النوع من الألسن شائع في الجنوب الشرقي لآسيا. والصينية واحدة من هذه الألسن التي تعتمد على التنغيم في تحديد معاني مفرداتها، فكلمة (فان) في هذا اللسان تؤدي ستة معانٍ لا علاقة بينها، هي: (نوم ــ يحرق ــ شجاع ــ واجب ــ يقسم ــ مسحوق)، وليس هناك من فرق سوى النغمة الموسيقية في كل حالة [(١)].

إن قواعد التنغيم في العربية قديماً مجهولة تماماً، لأن النحاة لم يشيروا إلى شيء من ذلك في كتبهم، أما التنغيم في العربية حديثاً فلا يزال ينتظر من يقوم بدراسته دراسة شمول واستقصاء. ومحاولة الدكتور تمام حسان في هذا الموضوع محاولة ابتدائية محدودة. بالاضافة إلى أنها تعتمد على استقراء ناقص، بل ضيق جداً [(٢)].

---

(١) ابراهيم انيس: الأصوات اللغوية، ص١٠٣.

(٢) انظر محاولته لوضع قواعد تنغيم للعربية الحديثة: مناهج البحث في اللغة ص١٦٤-١٧٠.

المقطع

لاحظ اللغويون ــ كما يمكن لكل امرىء أن يلاحظ ــ أن الكلام لا يمكن أن يتألف كله من أصوات طليقة فقط، إذ لا يمكنك أن تتلفظ بالأصوات الآتية: (آيْ وْ يْ آ وْ آيْ)، كما لا يمكن أن يتألف الكلام كله من أصوات حبيسة فقط، إذ من المتعذر علينا جميعاً أن نلفظ هذه الأصوات: (شْفْحْشْدْ كْذْزْقْتْ). الكلام إذن يتألف من حبيسات تتلوها طليقات تتبعها حبيسات... وهكذا. والفم أثناء الكلام ينفتح و ينغلق، ففي انفتاحاته تحدث الطليقات، وفي انغلاقاته تحدث الحبيسات، ولا يمكنه أن يظل منفتحاً، ولا أن يظل منغلقاً.

وقد حلل اللغويون الكلام إلى وحدات صوتية أكبر من وحدات الأصوات المفردة دعوها المقاطع. فالمقطع هو مجموعة من الأصوات المفردة تقع بين كل انفتاح من انفتاحات الفم أثناء الكلام وبين الانفتاح الذي يليه. وبعبارة أخرى: المقطع هو مجموعة من الأصوات المفردة تتألف من صوت طليق واحد معه صوت حبيس واحد أو أكثر. ففي كلمة (قالْ) مقطع واحد يتألف من صوت طليق واحد هو الفتحة الطويلة (الألف)، وعلى جانبيه حبيسان اثنان هما القاف واللام. وفي كلمة (هاتي) مقطعان: أولهما (ها) الذي يتألف من الفتحة الطويلة (الألف) ومعها الهاء، والثاني (تي) الذي يتألف من الكسرة الطويلة (الياء) ومعها التاء. أما الكلمة (ضَرَبَ) فتتألف من ثلاثة مقاطع، كل منها مؤلف من فتحة قصيرة مع حبيس واحد وهي على الترتيب (ضَ ــ رَ ــ بَ).

حتى هنا بدا تقسيم الكلام إلى مقاطع أمراً ميسوراً، لكن الصعوبة تنشأ في مثل كلمة (دَحْرَجْ)، فهذه الكلمة تتألف من الأصوات الآتية: (د) حبيس + (ـَ) طليق + (ح) حبيس + (ر) حبيس + (ـَ) طليق + (ج) حبيس. أي تتألف من طليقين وأربعة حبيسات، أي أنها تتألف من مقطعين اثنين، لأن كل

طليق واحد يعتبر محوراً لمقطع واحد. والصعوبة هي في توزيع الحبيسات الأربعة على هذين المقطعين. نعم إنه لا خلاف في تبعية الحبيس الأول، وهو الدال، للمقطع الأول. كما لا خلاف في تبعية الحبيسين الثالث والرابع، وهما الراء والجيم للمقطع الثاني. ولكن الخلاف يتركز في أمر الحبيس الثاني، وهو الخاء. فهل نضمه إلى المقطع الأول فيكون المقطعان على الشكل الآتي، (دَخْ + رَجْ)، أم نضمه إلى المقطع الثاني فيكون المقطعان على الشكل الآتي: (د + خْرجْ)؟ إن كلا الأمرين جائز، وليس هناك ما يرجح أحدهما على الآخر[1].

إن التمييز بين حدود المقاطع مما اختلف فيه اللغويون كثيراً، ووضعوا من أجله نظريات كثيرة، بعضها يعتمد على أمور صوتية بحتة، وبعضها مستمد من معطيات علم النفس. ولا يتسع المجال لذكر هذه النظريات وشرحها، كما إن حدود المقاطع العربية ــ وهي ما يهمنا من هذا البحث ــ تمتاز بالوضوح خلافاً لمقاطع الألسن الأخرى.

ويحسن بنا، قبل الدخول في بحث أنواع المقاطع، أن نشير إلى أن التحليل الصوتي إلى مقاطع ليس شيئاً اعتباطياً ناشئاً عن ترف لا لزوم له في الأبحاث الصوتية، بل هو أمر موجود فعلاً في أبسط أشكال الحس اللغوي، فانت إذا سمعت كلاماً لا تفهمه، تعذر عليك أن تحلله إلى كلماته، ولكنك تستطيع بسهولة أن تحلله إلى مقاطعه التي يتألف منها. والكتابة بدأت مقطعية قبل أن تكون هجائية، فالاكديون كانوا يرمزون إلى كل أصوات المقطع الواحد برمز واحد في كتابتهم المسمارية، ولم يكونوا قد اهتدوا بعد إلى الصوت المفرد الذي اهتدى إليه الكنعانيون فيما بعد بكتابتهم الهجائية. وقد عثر علماء اللغة على نقوش لألسن قديمة لا تقيم فواصل بين كلماتها، بل تقيم هذه الفواصل بين مقاطعها. كما يحدثنا علماء النفس عن أمراض نفسية إذا أصابت الانسان افقدته القدرة على تذكر الكلمة، ولم تفقده القدرة على تذكر عدد المقاطع التي تتألف منها هذه

---

(١) في العربية خاصة يمكن ترجيح الأمر الأول، لأن العربية ترفض البدء بحبيسين قبل الطليق. وبعبارة نحوية: لا يجوز البدء في العربية بالساكن. ولهذا فليس فيها مقطع من نوع (حبيس + حبيس + طليق)، كما سنرى بعد قليل.

الكلمة. هذا إلى أن موازين الشعر في كل لسان تعتمد التحليل المقطعي قبل أي شيء آخر(١).

تنقسم المقاطع من حيث موضع الطليق فيها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ مفتوح: وهو المقطع الذي ينتهي بالطليق، مثل: بَ ـ بِ ـ بُ ـ با ـ بي ـ بو.

٢ ـ مغلق: وهو ما انتهى بالحبيس، مثل: عَنْ مِن ـ قُلْ ـ باب ـ عبد ـ عود.

٣ ـ مضاعف الاغلاق: وهو ما تلا الطليق فيه حبيسان، مثل: بَحر ـ قِرد ـ ثُكل.

وتنقسم من حيث الطول والقصر إلى ثلاثة أقسام أيضاً:

١ ـ قصير: وهو ما تألف من طليق قصير مع حبيس واحد: بِ ـ وَ ـ فَ.

٢ ـ متوسط: وهو ما تألف من طليق طويل مع حبيس واحد، مثل: يا ـ فو ـ في، أو من طليق قصير مع حبيسين، مثل: عَنْ ـ مِن ـ قُم.

٣ ـ طويل: وهو ما تألف من طليق طويل مع حبيسين أو أكثر، مثل: باب ـ كيس ـ عود، أو من طليق قصير مع ثلاثة حبيسات، مثل: بَدْر ـ قُرْب ـ عِندْ.

---

(١) انظر فندريس: اللغة، ص ٨٤-٨٥.

أشكال المقطع في العربيّة

للمقطع العربي خمسة أشكال، هي:

١ ــ حبيس + طليق قصير = بِ (قصير مفتوح)

٢ ــ حبيس + طليق طويل = يا (متوسط مفتوح)

٣ ــ حبيس + طليق قصير + حبيس = مِن (متوسط مغلق)

٤ ــ حبيس + طليق طويل + حبيس = بابْ (طويل مغلق)

٥ ــ حبيس + طليق قصير + حبيس + حبيس = بحر (طويل مضاعف الاغلاق).

والأشكال الثلاثة الأولى شائعة في العربية كثيراً، أما الشكل الرابع فقليل. ويرى غالباً في نهايات الكلمات، ووجوده في حشوها نادر جداً، مثل: مدهامَّتان (هامـ)، والضالِّين (ضالـ). أما الشكل الخامس فلا يرى إلا في نهايات الكلمات عند الوقف عليها بالسكون.

النسيج المقطعي

نعني بالنسيج المقطعي الأشكال المقطعية التي تنسج منها كل كلمة. والكلمة العربية يمكن أن تنسج من مقطع واحد أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة. وليس بعد ذلك شيء.

فأما بنات الواحد فقد يكون مقطعها قصيراً مفتوحاً، أي من الشكل الأول، مثل: (ب ــ وَ)، وقد يكون متوسطاً مفتوحاً، أي من الشكل الثاني، مثل: (يا ــ ذا ــ ذو)، وأغلب ما يأتي على هذه الصورة هو أدوات نحوية، وما كان من غير الأدوات فهو قليل، مثل: (قِ ــ عِ ــ فِ) أفعال أمر من (وقى ــ وعى ــ وفى). وقد تكون بنات الواحد من مقطع متوسط مغلق، أي من النوع الثالث، مثل: (يد ــ دم)، و يكثر هذا النوع في الأدوات النحوية، مثل: (من ــ عن ــ بل ــ هل ــ كم ــ لو...)، وقد تكون من مقطع طويل مغلق، أي من الشكل الرابع، مثل: (باب ــ عيد ــ فول..) وقد تكون من مقطع طويل مضاعف الاغلاق، أي من النوع الخامس، مثل (درب ــ عمر..).

أما بنات الاثنين والثلاثة والأربعة والخمسة والستة والسبعة، فلا يمكن ههنا حصر أنواع نسجها، فنكتفي بالتمثيل لكل واحدة منها:

من بنات الاثنين: (هاتوا) = (ها ــ تو)

من بنات الثلاثة: (ضَرَبَ) = (ضَ ــ رَ ــ بَ)

من بنات الأربعة: (شجرةٌ) = (شَ ــ جَ ــ رَ ــ تن)

من بنات الخمسة: (شجرتك) = (شَ ــ جَ ــ رَ ــ تُ ــ كَ)

من بنات الستة: (شجرتكما) = (شَ ــ جَ ــ رَ ــ تُ ــ كُ ــ ما)

من بنات السبعة: فسيكفيكهمو = (فَ ـ سَ ـ يَكْ ـ في ـ كَ ـ هُـ ـ مو).

إن دراسة النسج المقطعية للسان ما تقتضي أن نذكر ما يقبله هذا اللسان من النسج وما لا يقبله. ولما كان ما تقبله العربية كثيراً يضيق المقام عن استيفائه، كان الاكتفاء بما لا تقبله ضرورياً.

فمما لا تقبله العربية في نسج كلماتها ما يأتي:

١ ـ كلمة مؤلفة من ثمانية مقاطع أو أكثر.

٢ ـ كلمة في صدرها أو حشوها مقطع من النوع الخامس.

٣ ـ كلمة مجردة من اللواحق مؤلفة من أربعة مقاطع من النوع الأول، أما المؤلفة من ثلاثة مقاطع من هذا النوع فكثيرة، مثل: (ضَرَبَ ـ أكلَ ـ شَربَ... الخ). وإذا لحق الكلمة شيء من الضمائر جاز أن تشتمل على أكثر من ثلاثة من هذا النوع، ولكن ذلك قليل ومكروه، مثل (شجرتك).

٤ ـ كلمة مجردة من اللواحق مؤلفة من ثلاثة مقاطع من النوع الثاني، فإذا وجدت كلمة منسوجة على هذا المنوال فهي لا شك أعجمية، مثل (قاديشا ـ عامودا). أما الكلمات العربية ذات اللواحق فلا تأبى ثلاثة من هذا النوع، مثل (باعوها).

٥ ـ كلمة مؤلفة من مقطعين: أولهما من النوع الثاني، وثانيهما من النوع الخامس. فإن وجدت كلمة على هذا النسج كانت ولا شك أعجمية، مثل: (جُومَرْتْ) [1].

٦ ـ كلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع: أولها من النوع الثالث، والثاني والثالث من النوع الثاني، فإن وجدت كلمة من هذا النسيج فهي أعجمية، مثل (سَرْغايا) [2] إلا أن بعض الكلمات إذا وقف عليها بالألف بدل التنوين

(١) يقال في لهجة حلب: رجل جومرت، أي كيس. والكلمة أعجمية. ولعلها فارسية أو تركية.

(٢) سرغايا: علم لقرية في سورية. وأصل اللفظ سرياني.

المنصوب غدت من هذا النسيج، وذلك مثل (قنطاراً).

٧ ــ كلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع: أولها من النوع الثاني، والثاني والثالث من النوع الثالث. فإن وجدت كلمة من هذا النسيج فهي أعجمية، مثل: (شابَنْدَر) (١).

والواقع أن ما لا تقبله العربية من أنواع النسج كثير أيضاً، فنكتفي بما ذكرناه منها.

* * *

(١) شابندر أو شاهبندر التجار: نقيب التجار. وأصل الكلمة فارسي.

النَبر

النبر هو نشاط فجائي يعتري أعضاء النطق اثناء التلفظ بمقطع من مقاطع الكلمة. و يؤدي هذا النشاط إلى زيادة في واحد أو أكثر من العناصر الآتية: مدة المقطع، أو شدته، أو حدته. فيسمى نبر مدة إن أدى إلى زيادة طول المقطع المنبور بالنسبة لما يجاوره من المقاطع، و يدعى نبر شدة إذا أدى إلى زيادة شدة المقطع المنبور بالنسبة لما يجاوره من المقاطع.

و يتجلى هذا النشاط في أمور عدة: منها أن الحجاب الحاجز ينشط حين النبر نشاطاً كبيراً، كما تقوى حركات الوترين الصوتيين، و يقترب أحدهما من الآخر حتى لا يسمحا إلا بتسرب أقل مقدار من الهواء، فتعظم لتوترهما الذبذبات، و يترتب على ذلك زيادة في حدة الصوت المنطوق. هذا في حالات الأصوات المجهورة، أما مع الأصوات المهموسة فيبتعد الوتران الصوتيان أحدهما عن الآخر أكثر من ابتعادهما في حالة الصوت غير المنبور فيتسرب مقدار أكبر من الهواء يجعل الاحتكاك أو الانفجار أقوى، وأوضح في السمع.

كذلك يلاحظ مع المقطع المنبور نشاط في أعضاء النطق الأخرى، كأقصى الحنك (الطبق)، واللسان، والشفتين. والأمر على العكس من ذلك كله مع المقطع غير المنبور.

وتختلف الألسن من حيث مواقع النبر، فمنها ما يخضع نبره لقواعد صارمة لا يحيد عنها، كالعربية مثلا، وكالفرنسية التي يقع النبر فيها على نهايات كلماتها دائماً، ومنها ما لا يخضع النبر فيها لأية قاعدة، بل يحفظ موقع النبر لكل كلمة على حدة، وهذا هو حال الانكليزية.

ثم إن الألسن تختلف من حيث قيمة النبر المعنوية، فمنها ما لا يقيم للنبر أي وزن أو أثر في المعنى، فسواء أوقع النبر على هذا المقطع من الكلمة أم وقع على ذاك، لم يتغير معنى الكلمة، ومنها ما يجعل لموقع النبر أثراً في تحديد معنى الكلمة، فإذا نبرت في أولها دلت على شيء، وإذا نبرت في مكان آخر دلت على معنى آخر. فمن النوع الأول العربية، ومن النوع الثاني الانكليزية.

* * *

النّبر في العربيّة

لم يذكر لنا النحاة القدماء شيئاً عن النبر في العربية، على الرغم من حرصهم الشديد على دراسة كل جوانبها ما عظم منها وما دق. و يظهر أن اغفالهم لهذا الجانب ناشيء عن عدم شعورهم بأي أثر للنبر في تحديد معاني الكلمات العربية. لذلك نجهل اليوم كل شيء عن النبر كما كان على شفاه العرب الأوائل. وإذا اعتبرنا نطق قراءة القرآن اليوم ممثلاً أميناً للنطق العربي كما كان في صدر الإسلام، جاز لنا القول: ان قواعد النبر في العربية هي على الشكل الآتي:

١ ــ إذا كانت الكلمة مؤلفة من مقطع واحد فالنبر عليه إطلاقاً، أياً كان شكل هذا المقطع. وهذا طبيعي ما دام لا يوجد في الكلمة مقطع غيره.

٢ ــ إذا كانت الكلمة مؤلفة من مقطعين فالنبر على ثانيهما إطلاقاً، (ويجري العد بصورة عكسية أي من الشمال إلى اليمين) لأن الأول لا ينبر في العربية مطلقاً أياً كان شكله.

٣ ــ إذا كانت الكلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع فأكثر، نظر إلى المقطع الثاني، فإن كان من الأنواع المتوسطة أو الطويلة فالنبر عليه، وإلا كان النبر على الثالث إطلاقاً. ولا يتعدى النبر المقطع الثالث في حال من الأحوال.

وإليك أمثلة على ذلك:

١ ــ كلمات أحادية المقطع، النبر فيها على مقطعها الوحيد:
صهْ ــ مهْ ــ قمْ ــ عدْ ــ لا ــ لم... الخ.

٢ ــ كلمات ثنائية المقطع، النبر فيها على المقطع الثاني لأن الأول لا ينبر

إطلاقاً: قامَ (قا)، عودا (عو)، بِها (بِ)، لكُم (لَ)... الخ [1].

٣ ــ كلمات كثيرة المقاطع: النبر فيها على المقطع الثاني لأنه متوسط أو طويل: فداكم (دا)، يستهدي (تَهْ)... الخ.

٤ ــ كلمات كثيرة المقاطع، النبر فيها على المقطع الثالث لأن الثاني قصير: استغفر (تَغْ) يتعلمُ (عَلْ)، مقاتلٌ (قا)، ضَرَبَ (ضَ)، شَرِبَ (شَ)... الخ.

وفي الكلمات كثيرة المقاطع قد يرى نبران أحدهما قوي والآخر ضعيف، فيسمى القوي رئيسياً و يسمى الضعيف ثانو ياً. ومن أمثلته ما يأتي:

٥ ــ كلمات فيها نبران أحدهما رئيسي والآخر ثانوي: فسيكفيكُهمو (يِكْ+كَ) متعَلِّمتان (عَلْ+تا).

هذا، ويجب الانتباه إلى ثلاثة أشياء:

١ ــ لا تحسب (ال) التعريف في مقاطع الكلمة.

٢ ــ كل ما يلحق الكلمة من ضمائر متصلة، أو ما يسبقها من حروف المضارعة داخلة فيها أثناء عد المقاطع.

٣ ــ يحدد موقع النبر على أساس أن الكلمة منطوقة كما في درج الكلام، وبعد التحديد لا يهم أن تنطقها مدروجة أو موقوفاً عليها بالسكون لأن النبر لا يتغير مكانه [2].

---

(١) نبهنا إلى المقطع المنبور بوضعه بين قوسين.

(٢) يذكر كانتينو في كتابه (Cours de phonétique Arabe. p, 119 - 120) قواعد تختلف عما ذكرنا اختلافاً يسيراً. ويمكن تلخيص قواعده التي أتى بها على الشكل التالي:

١ ــ لا ينبر المقطع الأول اطلاقاً أياً كان شكله.

٢ ــ يقع النبر على أول مقطع غير قصير يلي المقطع الأول.

٣ ــ إذا لم يوجد في الكلمة مقطع غير قصير فالنبر على آخر مقاطعها (العد يجري دائماً من الشمال إلى اليمين). مهما يكن شكل هذا المقطع الأخير.

وذكر الدكتور ابراهيم أنيس في كتابه (الأصوات اللغوية ص٩٩-١٠١) قواعد تختلف عما ذكرنا وذكر كانتينو؟! والوحيد الذي اتفقت قواعده مع قواعدنا هو الدكتور تمام حسان. انظر كتابه: (مناهج البحث في اللغة ص١٦١-١٦٣).

أما نبر السياق في العربية فلم يدرس حتى اليوم دراسة كافية. ومع ذلك يمكن القول إن نبر التوكيد أقوى من نبر التقرير، وإن نبر التوكيد يقع في الكلمة التي هي موضع الشك: فإذا كانت هناك عدة كتب يشك السامع في أيها هو كتابه، قلت له: هذا كتابك. فتوقع النبر السياقي على كلمة (هذا) أما إذا كان هناك كتاب واحد، و يشك السامع في نسبة هذا الكتاب له أو لغيره، قلت له: هذا كتابك. فتوقع النبر السياقي على كلمة (كتابك). وما يقال في التوكيد يقال مثله في الاستفهام أيضاً.

الإيقاع

الايقاع هو النظام الذي تتوالى بموجبه المقاطع المنبورة بعضها خلف بعض. فمن الألسن ما لا يسمح بأكثر من أربعة مقاطع غير منبورة بين كل مقطعين منبورين، ومنها ما لا يسمح بأكثر من وجود ثلاثة غير منبورة بين كل نبرين، ومنها ما يسمح بأقل من ذلك أو بأكثر منه.

والايقاع في العربية هو من الجوانب التي لا تزال تنتظر من يقوم بدراستها دراسة جدية معتمدة على استقراء واسع للنصوص العربية.

التبدلات الصّوتيّة

لاحظ العلماء أن أصوات اللغة لا تثبت على حال، بل هي في تطور مستمر، وتبدل لا يهدأ. تغير مرة محابسها فتنتقل من نقطة إلى أخرى من مناطق الفم، أو تغير واحدة أو أكثر من صفاتها التي كانت لها.

وقد قسم اللغويون هذه التبدلات الى قسمين: تبدلات تركيبية تصيب الأصوات نتيجة تماسها واحتكاك بعضها ببعض في الكلام، وتبدلات تاريخية تصيب الأصوات نتيجة التطور الذي تخضع له خلال الزمان.

التبدلات التركيبيّة

يحدث في الكلام أن تجتمع أصوات لا انسجام فيما بينها بحيث يشعر المتكلم بثقلَها على لسانه، أو يجد مشقة في تحقيقها، فيهرب من ذلك بتبديل بعض الأصوات ببعض، أو بتعديل بعض صفات الأصوات لتوفير الانسجام في أصوات الكلام، ولجعلها أسهل في النطق على نفسه.

و يتم ذلك بإحدى طرق ثلاث:

١ ــ **التماثل:** إذا اجتمع في الكلمة صوتان يتصف كل منها بصفة تناقض صفة الآخر، كالجهر والهمس، والاطباق والفتح، وكان في تحقيق الصفتين للصوتين المتجاورين مشقة وعسر، مال المتكلم إلى خلع صفة أحدهما على الآخر توفيراً للجهد وتحقيقاً للانسجام. ونقول عندئذ إنه حصل تماثل بين الصوتين.

فمن ذلك مثلاً أن الطاء والظاء والصاد والضاد تتنافر مع تاء الافتعال، لأن هذه الأصوات مطبقة مفخمة، وتاء الافتعال منفتحة مرققة، فيجد المتكلم عسراً في الانتقال من تفخيم إلى ترقيق، فيفخم المرقق ليحدث التناسب والانسجام، فيبدل تاء الافتعال طاء، فيقول في (أظتلم وإطتلع واضترب واصتدم) اظطلم واطّلع واضطرب واصطدم.

ومن ذلك أيضاً أن الدال والذال والزاي تتنافر مع تاء الافتعال، لأن هذه الأصوات جميعاً مجهورة، وتاء الافتعال مهموسة، ويجد المتكلم مشقة في الخروج من جهر إلى همس، فيجهر المهموس ليحقق التناسب و يزيل المشقة، فيقول في (ازتهر واذ تكر واد تعي) ازدهر واذدكر وادعى، مبدلاً بالتاء دالاً، لأن الدال هي مجهور التاء نفسها.

هذا مثال واحد لهذه الظاهرة الصوتية التي دعوناها بالتماثل. وفيه رأينا أن أحد الأصوات يؤثر في صوت آخر فيخلع عليه صفة واحدة من صفاته. لكن

للتماثل مظاهر أخرى لا تقتصر على تبديل صفة من صفات الأصوات، بل تتناول المحابس بالتقديم إلى الإمام أو التأخير إلى الوراء لتوفير الانسجام والتلاؤم بين أصوات الكلمة المتجاورة.

فمن ذلك مثلاً أن الكاف تتقدم بمحبسها قليلاً في اتجاه الغار إذا وليها صوت الكسرة. وتفسير ذلك أمر هين، فقد عرفنا أن الكاف تحدث من التحام أقصى اللسان بالطبق، وان الكسرة تحدث من ارتفاع مقدم اللسان نحو الغار، ومعنى ذلك أن على اللسان إذا أراد النطق بهذين الصوتين متتابعين أن يقوم بحركتين متتاليتين إحداهما بأقصاه والأخرى بمقدمه. ولا شك أن هذه العملية فيها جهد ومشقة تجعل اللسان ــ على الرغم من مرونته الزائدة ــ يحاول التخلص منها بتقريب محبس الكاف من منطقة الغار ليجعل جزءاً واحداً منه يقوم باحداث الصوتين المتتابعين.

ومن ذلك أيضاً أن الباء إذا تلت نوناً ساكنة جرت محبسها من اللثة، فجعلته من الشفتين حَيث محبس الباء. فتتحول النون بذلك إلى ميم. كما في قولك (انبعث)=(امبعث) وهذا ما سماه علماء التجويد بالاقلاب.

على أن التماثل في بعض الأحيان يتناول المحابس والصفات معاً، فيبدل صوتاً بآخر، وليس بين الصوتين المبدل والمبدل منه أي علاقة على الإطلاق. فالذال إذا اجتمعت مع تاء الافتعال قلبتها إلى ذال مثلها ثم اندغمت فيها، فنقول بدلاً من (اذ تكر) اذّكر، وليس بين تاء الافتعال وما صارت إليه من ذال علاقة ما، فتاء الافتعال اسنانية مهموسة شديدة، والذال من بين الاسنان مجهورة رخوة.

حتى هنا كانت الأمثلة التي عرضناها أمثلة لتماثل جرى بين صوتين متلاصقين. لكن التلاصق ليس ضرورياً لاتمام عملية التماثل، فقد يحدث أن يؤثر صوت في صوت آخر عن بعد. فيقيم بينه وبين ذلك الصوت شكلاً من أشكال التماثل. مثال ذلك أن الكسرة تؤثر في ضمة ضمير الغائب فتحولها إلى كسرة مثلها، فنقول (في كتابِهِ) بدلاً من (في كتابِهُ)، و(في كتابِهِم) بدلاً من (في

كتابِهُم) بل قد يتعدى التأثير الصوت الواحد فيقع على صوتين اثنين، كما لو قلت: (في كتابِهِم) بدلاً من (في كتابِهُمُ).

وفي جميع الأحوال يقسم التماثل إلى قسمين:

١ ــ تقدمي: وفيه يجري تأثير الصوت الأول في الثاني، كتأثير الصاد والضاد والطاء والظاء في تاء الافتعال، وككل ما سقناه من الأمثلة السابقة.

٢ ــ رجعي: وفيه يجري تأثير الصوت الثاني في الأول، ومثاله في العربية تأثير تاء الافتعال في الواو والياء إذا وقعتا في فاء الفعل، فإنها تحولهما إلى تاء مثلها ثم تندغم فيهما، فتقول: (اتّسرواتّصل) بدلاً من (ايتسرواوتصل)[1].

٢ ــ التخالف: هو ضد التماثل. فنحن هنا لسنا أمام صوتين متنافرين في المحابس والصفات يجد المتكلم عسراً ومشقة في تحقيقهما، بل نحن أمام صوتين من جنس واحد، ولكن المتكلم يجد في تحقيقهما العسر والمشقة نفسيهما اللذين وجدهما في تحقيق الصوتين المختلفين محبساً وصفات، فيسعى إلى التخلص من هذا العسر، وتلك المشقة، بأن يبدل من أحدهما صوتاً آخر يختلف عنه في صفاته.

والأمثلة على ظاهرة التخالف قليلة في العربية، فلا نجد منها غير إبدالهم الألف ببعض الأصوات المكررة مثل قولهم: (تظنّى) بدلاً من (تظنّن)و(تمطّى) بدلاً من (تمطّط). كما يمكن أن نجد مثالاً آخر في كلمة (عنوان) التي صارت في بعض العاميات (علوان).

وسبب قلة الأمثلة للتخالف في العربية يعود في رأينا إلى أمرين:

١ ــ أولهما أن العربية من الأصل لم تتورط في تراكيب عسيرة تحتاج إلى التخالف. وقد أشار الى ذلك اللغويون العرب القدماء حين قالوا: واعلم أنه لا يكاد يجيء في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة، لصعوبة ذلك على ألسنتهم[2].

---

(١) يرى بعض اللغويين أن مصطلح (التماثل) لا يصدق إلا على التأثير الواقع بين الأصوات المتباعدة. انظر فندريس: اللغة ص٩٣.

(٢) السيوطي: المزهر جـ١ ص١١٥.

٢ ــ الثاني أن العربية تتخلص من التقاء المتماثلين بطريقتين تفضلهما على طريقة التخالف: فأولاهما الادغام، فتقول: (شدّ ومدّ وفرّ) بدلاً من (شدد ومدد وفرر)، وثانيهما الحذف، فتقول: (تمايلُ الاشجار) بدلاً من (تتمايلُ الاشجار).. وهكذا.

و ينقسم التخالف إلى ما انقسم إليه التماثل، فمنه التقدمي، ومنه الرجعي. فالتقدمي ما ثبت فيه الصوت الأول وتغير الثاني: مثل: (تمطط ــ تمطى)، والرجعي ما ثبت فيه الثاني وتغير الأول، مثل: (عنوان ــ علوان).

٣ ــ الانتقال المكاني: وهو أن يتبادل صوتان من كلمة واحدة مكانيهما من هذه الكلمة. وأمثلة ذلك اندر في العربية من أمثلة التخالف، فمنه: (جذب ــ جبذ) و(اني ــ آن) و(أيس ــ يئس) و(اضمحل ــ امضحل) و(اكفهر ــ اكرهف)[1].

غير أن العاميات تستطيع أن تمدنا بأمثلة كثيرة في هذا الموضوع، فمن ذلك قول العامة في حلب: (إجا) بدلاً من (جاء) و(قعل) بدلاً من (عقل)، ولعل في العاميات الأخرى أمثلة كثيرة من هذا القبيل لم تبلغنا.

إن التماثل والتخالف والانتقال ليست كل الأسباب التي تؤدي إلى تغيير الهيئة الصوتية للكلمة، فهناك أسباب أخرى نذكر منها واحداً اعتبر مبدأ عاماً تجري عليه كل الألسن في العالم. يدعى هذا المبدأ بمبدأ الخور العام. و ينص على أن عجز الكلمة أضعف في النطق من صدرها، وأن الصوت الواقع في نهاية الكلمة يكون عرضة للحذف والإلغاء في كثير من الأحيان إلا أن يعترض هذا المبدأ معترض من أمور أخرى، كقصر الكلمة أو شيء آخر يمنع معه حذف نهايتها. بهذا المبدأ يمكن أن نفسر سبب ضياع الحركات الإعرابية من العاميات، و به أيضاً نفسر سبب سقوط الدال من كلمة (ولد) في بعض اللهجات المصرية التي تقول (يا وَلَ) بدلاً من (يا ولد)، و به أيضاً نفسر قصر الممدود في الفصحى، حيث يقال: (الصحرى) بدلاً من (الصحراء)، بل إن اللغو يين يعزون إلى هذا

(١) الخصائص: جـ١ ص٦٤ و جـ٢ ص٦٩-٨٨. وقارن بسيبويه: جـ٢ ص٣٧٩.

المبدأ وحده سبب تكون كل الأدوات النحوية في الألسن من كلمات كانت اسماء أو أفعالاً فيما مضى. وإذا كان التحقق من ذلك عسيراً فيما يتعلق بأدوات الفصحى، لبعد العهد بأصولها، فإن ذلك ميسور فيما يتعلق بأدوات عامية لا تزال أصولها ماثلة في ذاكرتنا، من ذلك مثلاً كلمة (عم) التي تجعلها عامية حلب صدراً في الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار في الحال. تقول: (عم بكتب) أي (إني مستمر في الكتابة الآن). فهذه الأداة هي ولا شك بقية من كلمة (عمّال)، بل أن بعضهم لا يزال ينطق بالكلمة تامة من غير حذف.

وهكذا ترى أن الكلمة لا تثبت على صورة صوتية واحدة، بل هي في تغير دائم لا يهدأ، تماثل بين أصواتها إن اختلفت. وتخالف بينها إذا تماثلت، وتبدل في مواضع أصواتها، وتخور نهايتها فتسقط.. وهكذا.

التبدلات التاريخية

تختلف التبدلات التاريخية للاصوات عن التبدلات التركيبية في أمرين:

١ ـــ التبدلات التركيبية سريعة تحدث للصوت بمجرد أن يدخل تركيباً بينه وبين أحد أصواته تنافر، فتاء الافتعال تتحول إلى طاء بمجرد أن يكون فاء الفعل صاداً أو ضاداً أو طاء أو ظاء. أما التبدلات التاريخية فلا تحدث إلا ببطء شديد، وخلال قرون وأجيال. بل إنها لشدة بطئها لا يمكن لأبناء الجيل الواحد أن يشعروا بها خلال كل حياتهم.

٢ ـــ التبدلات التركيبية مشروطة بالتركيب ومحدودة به، فما يكاد الصوت يخرج منه حتى يسترد شكله الذي كان له، فتاء الافتعال تعود تاء بمجرد أن ينتزع ما قبلها من أصوات الاطباق. كما أن بقية تاءات اللسان العربي تظل هي هي من غير تغيير. أما التبدلات التاريخية فمطلقة، بمعنى أنها إذا أصابت صوتاً ما فإنها لا تصيبه في تركيب دون تركيب، بل تصيبه في كل تركيب من تراكيب اللغة، فالثاء والذال والظاء اللواتي أصابهن التبدل في اللهجات الحديثة لم يتبدلن في تركيب و يبقين في تركيب آخر، بل اختفين كلياً من جميع تراكيب اللغة، وحلت محلهن أصوات أخر هي الدال والزاي والتاء والسين والزاي المفخمة.

ولكن كيف يتم التبدل التاريخي، وما هي القواعد التي يسير عليها؟

ليس للتبدل التاريخي قواعد يسير عليها، ولا يمكن التنبؤ به، أو بالشكل الذي سيتم عليه. ان التبدلات الصوتية التاريخية نتيجة عوامل عديدة شديدة التشابك، منها الاجتماعية، ومنها النفسية، ومنها الفيسيولوجية، ومنها غير ذلك مما لا يمكن حصره. والعالم اللغوي لا يستطيع أن يفعل شيئاً في هذا المجال. إن عليه أن ينتظر و يلاحظ، فإذا رأى تطوراً صوتياً حدث في لسان ما سجله في شكل قانون

صوتي، كالقانون الصوتي الذي يقول: إن الثاء في الفصحى تحولت في بعض العاميات إلى تاء أو سين. لكن هذا القانون الصوتي لا يفسر كيف تم هذا التطور، ولا لماذا حدث، ولا يشير إلى المراحل التي مر بها هذا الصوت في تطوره، إنه مجرد تسجيل لنتيجة تطور مجهول المراحل والأسباب، أو قل: هو مجرد تقرير عما حدث.

ولكن لماذا لا تسلم أصوات اللغة من شر هذا التطور الحتمي؟

في الإجابة عن هذا السؤال نظريات كثيرة سنحاول إعطاء فكرة موجزة عن كل واحدة منها:

١ ــ النظرية الجغرافية:

من المحدثين من يجعلون للطبيعة الجغرافية لبيئة اللغة أثراً كبيراً في نوع التطور الذي قد يصيب أصواتها. وعلى رأس هؤلاء المحدثين (كوليتس) الذي عزا تطور الأصوات الشداد في الألمانية الى نظائرها الرخوة ــ عزا ذلك إلى الطبيعة الجغرافية في بعض جهات المانيا. وقد أكد في مقالاته أن الجهات الجبلية تميل إلى التخلص من أمثال الأصوات b. d. g فتهمسها أولاً، فتصير P. T. K، ثم تقلب هذه إلى نظائرها الرخوة. وهي الفاء والثاء والخاء على الترتيب. وعلل ذلك بأن البيئة الجبلية تتطلب نشاطاً كبيراً في عملية التنفس، و يتبع هذا ميل بالأصوات من الشدة إلى الرخاوة (١).

وقد تصدى لهذا العالم علماء آخرون فندوا دعواه، و بينوا أن هذا التطور الذي أشار إليه قد حدث مثله في البيئات السهلية، وأن سببه ليس الجبال وما تتطلبه من متسلقها من نشاط تنفسي كبير، وإنما سببه ينحصر في الحنجرة وحدها: «فإذا اعتاد شعب على النطق مع فتح الحنجرة كما يفعل الجرمانيون، تعرضت الانفجاريات المجهورة والمهموسة لسلسلة من التغيرات ناجمة عن التأخير في وضع الذبذبات الحنجرية في حالة الحركة. فمن جهة، لما كان تذبذب الأوتار الصوتية لا يبدأ بعد الحبس مباشرة في مجموعة مثل با ba أو da، صار جزء من الحبيس

(١) ابراهيم انيس: الأصوات ص ١٦٤.

مهموساً، سواء أكان هذا الجزء صغيراً أم كبيراً. وأخيراً ينتهي هذا الميل بتحويل المجهور كله إلى مهموس. ومن جهة أخرى، في مجموعة مثل تا ta با pa، يوجد بين انفجار الانفجاري وانتاج الفتحة التي تليه وقت، طويلاً كان أم قصيراً، ولكن الإنفجار يترك للهواء حرية المرور، ومن هنا يجيء الميل الطبيعي نحو تحول الانفجاري إلى تنفسي أو حتى إلى متراخ إذا كان الإنفجار على درجة شديدة من الحدة ولم تستطع الاعضاء أن ترجع مباشرة إلى وضعها في حالة الاستراحة رغم اندفاع الهواء المفاجىء باحثاً عن سبيل الخروج. وعندئذ يتحول النطق إلى تها Tha بها pha أو إلى تسا tsa، pfa، والمآل الطبيعي للمنفسة والمتراخية أن تصير إلى الاحتكاكية (فا، ثا) إذا كان دفع الهواء يجعل الانفجار غير تام [1].

٢ ــ النظرية النفسية:

بعض العلماء يعزون تطور الأصوات من شدة إلى رخاوة، أو العكس، إلى الحالة النفسية التي يكون عليها الشعب، فإذا مال الشعب إلى الدعة والاستقرار مالت أصوات لسانه إلى الرخاوة، وإذا اعتز بجبروته وقوته مالت أصوات لسانه إلى الشدة. وأصحاب هذا الرأي يتلمسون أدلتهم من التطور التاريخي الذي مر به الشعب الألماني، وما رافق ذلك من تطور في أصوات لسانه. غير أن هذه النظرية متهافتة لا تجد ما يؤيدها من تواريخ الشعوب الأخرى، بل إن في هذه التواريخ ما يناقضها على طول الخط.

٣ ــ النظرية العضوية: [2]

يزعم أصحاب هذه النظرية أن تبدل الأصوات من جيل إلى جيل، ليس إلا نتيجة تطور عضلي في أعضاء النطق. لكن هؤلاء لم يجدوا من علم التشريح تأييداً لهم، بل وجدوا العكس، فقد برهن علماء التشريح أن أعضاء النطق عند الانسان متحدة في جميع تفاصيلها، وأن حنجرة أشهر المغنين لا تمتاز عن حنجرة الرجل العادي في شيء. والفرق بين المغني صاحب الصوت الذهبي أو الفضي وبين

---

(١) فندريس: اللغة ص٦٦-٦٧.

(٢) صاحب هذه النظرية روسلو.

غيره، أن الأول يملك زمام تنفسه، و يسيطر على ما يندفع من الرئتين من هواء سيطرة تامة. ومثله في ذلك مثل صاحب الخط الجميل، لا فرق بين عضلات يديه من الناحية التشريحية وبين عضلات أي رجل عادي، سوى أن صاحب الخط الجميل مسيطر على حركات أصابعه سيطرة تامة هي مصدر جمال خطه.

ومن النتائج غير المعقولة لهذه النظرية أن كل انسان غير قادر إلا على نطق أصوات لسانه القومي، لأنها الأصوات الوحيدة التي تلائم تطور أعضاء نطقه، مع أنه ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن كل إنسان قادر على نطق أي صوت من أصوات اللغة إذا ما مرن عليه وتدرب. ومما هو مشاهد كثيراً أن الطفل إذا دفع إلى مربيات يتكلمن ألسناً مختلفة نشأ وهو يجيد نطق كل الألسن التي كانت مربياته يكلمنه بها.

٤ ــ نظرية السهولة (١)

تنادي هذه النظرية بأن الانسان في نطقه لأصوات لسانه يميل إلى الاقتصاد في المجهود العضلي، وتلمس أسهل السبل، مع الوصول إلى ما يهدف إليه من إبراز المعاني وإيصالها إلى المتحدثين معه. فهو لهذا يميل إلى استبدال السهل من أصوات لسانه بالصعب الشاق الذي يحتاج إلى مجهود عضلي أكبر. ومثل الانسان في هذا مثله في كل الظواهر الاجتماعية، فهو يحاول الوصول إلى غرضه عن أقصر الطرق كلما أمكن ذلك.

ويمكن الرد على هذه النظرية من عدة وجوه: أولها أنه لا يمكن بالضبط معرفة ما هو سهل وما هو صعب، ثانيها أن أمر الصعوبة والسهولة أمر نسبي، فما هو صعب عند هؤلاء القوم سهل عند غيرهم، ألا ترى أن العين والحاء من أصعب الأصوات على الأعاجم، في حين أنهما من أسهل الأصوات عند أبناء العربية؟ ثالثها أن التطور لو كان يجري في اتجاه السهولة لوجب أن تكون أصوات اللغات اليوم كلها من نوع الميم والنون والفاء فقط، لأنها أسهل الأصوات، ولأن مئات من القرون قد مرت على الألسن الإنسانية، وهي مدة كافية للوصول بأصوات هذه الألسن إلى

---

(١) من أبرز القائلين بها مكس موللر و وتني.

الاكتفاء بهذه الأصوات الثلاثة التي ذكرناها، رابعها أن تاريخ الألسن المعروف يسجل في كثير من الأحيان تطوراً صوتياً جرى في الاتجاه المعاكس، أي في اتجاه الصعوبة لا السهولة.

٥ ــ نظرية الشيوع:

تنادي هذه النظرية بأن الأصوات التي يشيع تداولها في الاستعمال، و يكثر ورودها في كلمات اللسان، تكون أكثر تعرضاً للتطور من غيرها.

وفساد هذه النظرية مما لا يحتاج اثباته إلى جدال ونقاش طويلين. وفي العربية وحدها ما يضرب هذه النظرية في الصميم، فقد رأينا في إحصاء مضى أن أكثر الأصوات العربية شيوعاً هي اللام (١٢٦) والميم (١٢٤) والنون (١١٢) والهمزة (٧٢) والهاء (٥٦) والواو (٥٢) والتاء (٥٠).. وكلها مما هو باق على حاله منذ أربعة عشر قرناً أو يزيد، وعلى العكس من ذلك، نجد أن الأصوات التي تعرضت للتطور هي أقل الأصوات شيوعاً، كالقاف التي لا يزيد نسبة شيوعها عن (٢٣) مرة في الألف، والذال، ونسبتها (١٨) والجيم، ونسبتها (١٦) والضاد، ونسبتها (٦) والثاء، ونسبتها (٥) والظاء التي لا تزيد نسبتها عن (٣) فقط!!

٦ ــ نظرية الخطأ في التقليد:

قال بهذه النظرية كل من روسلو و مييه، ويمكن تلخيص ما قالاه فيما يلي:

يكتسب الطفل اللغة عن طريق أبويه، وذلك بتقليده لهما فيما يسمعه منهما. وبعد أن تنتهي مرحلة التقليد و يستقر النظام الصوتي الخاص به، يكون من النادر جداً أن يماثل نظامه نظام أبويه تماماً، بل إن من علماء الصوت من يذهب إلى أن ذلك لا يقع مطلقاً.

ولكن لماذا لا تتطابق أصوات الابن مع أصوات والديه؟

يجيب فندريس[١] عن ذلك بأنه قد يحدث لأحد أعضاء الابن أن يبالغ أو يقصر في أداء عمله، ولو بقدر ضئيل، أو قد يعرض لعضلة شيء من التراخي أو

(١) اللغة ص٦٥.

الإبطاء في انتاج أحد الأصوات، أو قد يعرض لها، على العكس من ذلك، زيادة في القوة أو السرعة. ومن ثم يجيء الاختلاف في النظام الصوتي بين جيلين متتابعين. هذا الاختلاف قد يضؤل، وقد لا يثير لدى السماع أي تغير محسوس، ومع ذلك فهو خطير النتائج، لأنه لا يبشر بشيء أقل من انقطاع التوازن في النظام. هذا إلى أن الاختلاف قد يلحظ بوضوح في بعض الأحيان: الطفل ينطق مختلفاً عن أبويه، فيحلّ سلسلة جديدة من الأصوات محل السلسلة التي كان يملكها أبواه. وهكذا نرى الطفل الذي يضغط بطرف لسانه على قمة أصول الاسنان بدلاً من الضغط على الاسنان نفسها يصدر سلسلة الاسنانيات الانكليزية d, t بدلاً من السلسلة الفرنسية».

وبعبارة مختصرة: إن الجيل الأول يخطىء في تقليد سلفه خطأ طفيفاً لا يشعر به، ثم يأتي الجيل الثاني فيعمق خطأ الجيل الأول، ثم يفعل الثالث ما فعله الثاني والأول، وهكذا إلى أجيال متعددة حتى يغدو الفرق كبيراً بين ما ينطقه السلف الأول وبين ما ينطقه الجيل المتأخر.

وعلى الرغم مما في هذه النظرية من جدة وطرافة، وعلى الرغم من لهجة العلم التي تصطنعها، فإن فيها هنات كثيرة. وأهم ما يمكن أن يعترض به عليها هو أنها تقتضي ــ لكي يتم التطور في اتجاه معين ــ شيئين غير معقولين: أن يقع كل أفراد الجيل الأول في الخطأ ذاته، ثم أن يتابع أفراد الأجيال التالية كلهم هذا الخطأ الأول ويزيدوا فيه. وليس ذلك مما يجوز عقلاً. إذ نلحظ في كل شيء أن الناس إذا أخطأوا تعددت وجوه الخطأ بتعددهم، فهل يعقل أن يقع أفراد جيل برمته قد يعدون الملايين في خطأ واحد؟ ولنفرض جدلاً أن هذا ما يحدث بالفعل، أفلا يكون أمراً غريباً يحتاج إلى تفسير؟

وهكذا ترى أن نظرية الخطأ تخرجنا من مشكلة لتوقعنا في أخرى أدهى من الأولى وأمرّ، وأنها تحل لغزاً آخر أعقد منه وأشد غموضاً.

وبعد، فأي النظريات أجدر بالتصديق؟ وما السر الحقيقي وراء هذا التطور الصوتي الذي لا تسلم منه أصوات أي لسان؟

الواقع أن العوامل التي تتدخل في التبدلات الصوتية كثيرة جداً، ومتشابكة جداً أيضاً، والاكتفاء بعلة واحدة لتفسير أمر في غاية التعقيد، لا يدل إلا على قصر نظر، لذلك أخفقت كل النظريات التي حاولت تفسير التبدلات الصوتية بعامل واحد، اننا ـ لكي نعلل تطور صوت واحد ـ قد نحتاج إلى الاحاطة التامة بتاريخ اللسان الذي فيه هذا الصوت، ثم الاحاطة بتاريخ الشعب الذي ينطق بهذا اللسان، ثم الاحاطة بكل شيء عن البيئات الاجتماعية والجغرافية والنفسية والمناخية لهذا الشعب، وقد نحتاج إلى أشياء أخرى أكثر من ذلك. ولا شك أن هذا أمر في غاية الصعوبة إن لم يكن متعذراً، ولكن ما العمل؟ إن الأمور الإنسانية، واللغة واحدة من اعقدها، لا يمكن أن تفسر بمثل البساطة التي تفسر بها الأمور والظواهر الطبيعية.

* * *

حول ثبات أصوات الفصحى

يرى بعض المحدثين[1] من أولي الغيرة على العربية والاعتزاز بها أن أصوات العربية الفصحى ثابتة لم ينلها التطور، وإننا ننطقها اليوم كما كان العرب ينطقونها منذ أربعة عشر قرناً على الأقل. و ينتهون من ذلك إلى أن ما استنبطه علماء الغرب من قانون التطور الحتمي الذي يصيب أصوات اللغة لا ينطبق إلا على ألسنهم وحدها.

ونحب أن نقول لهؤلاء إن الغيرة على عربيتنا ليست مسوغاً لنا أن نخرج عن جادة العلم الصحيح، فليست العربية شيئاً فذاً بين الألسن، إنها لسان من السن خلق الله جميعاً، ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها، وتخضع للقوانين نفسها التي تخضع لها الألسن جميعاً. أما أننا ننطق الفصحى كما كان ينطقها أجدادنا الأولون فليس برهاناً على شيء، لأن اليوناني اليوم قادر على أن ينطق أشعار هوميروس كما خرجت من فم هوميروس، والهندي اليوم يستطيع أن يقرأ النصوص السنسكريتية كما كان ينطقها الهندوس من عشرات القرون، ومع ذلك لم يقل أحد في الشرق أو الغرب إن أصوات الاغريقية والسنسكريتية ثابتة لا تخضع لقانون التطور. إن العلماء عندما استنتجوا قانون التطور لم ينظروا إلى الألسن القديمة و يوازنوها بصورتها اليوم محققة على صورتها القديمة، ولو فعلوا ذلك لانتهوا في كل الألسن إلى ما انتهى إليه أصحابنا من نفي التطور. ولكنهم نظروا إلى الألسن القديمة كما كانت على شفاه الناس في حياتهم العادية، ثم نظروا إليها اليوم كما هي على شفاه الناس في حياتهم العادية، ووازنوا بين الصورتين فتبين لهم أن التطور والتغير أمر حتمي. ولو طبقنا ذلك على الفصحى التي كانت

---

(١) منهم الاستاذ محمد المبارك. انظر كتابه: فقه اللغة وخصائص العربية. ص ٢٥١ وما بعدها.

لسان القوم العادي، ثم على العاميات التي هي اليوم لساننا العادي لما تغيرت النتيجة. قد يقول قائل: ولكن فصحى الفرنسيين اليوم لا تشبه اللاتينية التي كانت فصحاهم فيما مضى. بينما فصحانا اليوم هي عربية العرب القدماء نفسها، وهذا صحيح ولكن الجواب عنه أن فصحى الفرنسيين اليوم كانت في يوم من الأيام عامية اللاتينية، ثم اتخذها الفرنسيون لسان أدب وعلم وثقافة. ولو فعلنا مثلهم فاتخذنا من عاميتنا لغة علم وأدب لكان شأن العربية كشأن اللاتينية تماماً، ولكننا لا نفعل ذلك لاسباب دينية وقومية معروفة. والفرنسيون انفسهم، لو ظلوا متمسكين باللاتينية لسان أدب وعلم حتى اليوم لكان شأنهم كشأننا تماماً.

كل هذا مع التسليم جدلاً بأن نطقنا لأصوات الفصحى اليوم مطابق لنطق العرب القدماء لها. مع أن الواقع يناقض ذلك، فنحن ننطق الضاد اليوم منطقاً يختلف كل الاختلاف عما ذكره النحاة لهذا الصوت من صفات: ننطقها شديدة وقد أجمع النحاة على أنها رخوة، ونلفظها من طرف اللسان وقد ذكر النحاة أنها كانت من حافة اللسان اليمنى أو اليسرى أو من كلتا الحافتين.

ونحن ننطق الضمة والكسرة منفرجتين إذا وقعتا في آخر مقاطع الكلمة إن كان هذا المقطع مغلقاً، مثل: كتابهُم ــ كتابِهِم. أن نحوّل الضمة إلى إمالة ضمية حادة، والكسرة إلى إمالة كسرية حادة، والعرب لم يكونوا ينطقون في هاتين الحالتين إلا ضمة وكسرة صريحتين.

ومع ذلك فإننا لا نرفض دعوى هؤلاء برمتها، فنحن معهم في أن العربية محافظة، وأنها تميزت خلال تاريخها الطويل بشدة المراس وعدم الانقياد والاستسلام للتطور العنيف، وأن ما أصابها من التغير خلال عمرها الطويل لا يعد شيئاً مذكوراً إذا نسب إلى ما أصاب غيرها من الألسن. ولكن الثبات الذي يزعمونه شيء، والمحافظة التي نقول بها شيء آخر مختلف عنه.

* * *

الباب الرابع

النحو

المورفيمات

تأتي دراسة النحو في المناهج الحديثة بعد دراسة الأصوات مباشرة وما نعنيه بالنحو ههنا، هو ما كان يعنيه أوائل النحاة: أي مجموعة القواعد النحوية والصرفية، أو كما يقول أبو حيان: أحكام الكَلِم في حالة الافراد وحالة التركيب(١):

و يفضل المحدثون دراسة نحو كل لسان عن طريق ما يسمى بالمورفيم، فما المورفيم؟

تعال نقرأ معاً هذه العبارة:

[ضرب الرجل حماراً بعصاه]

وحاول معي أن نحللها معنوياً، فإذا فعلت فستجد فيها نوعين من المعاني:

١ ـــ معانيَّ هي من نوع الماهيات. وهي هنا ماهيات (الضرب والرجل والحمار والعصا).

٢ ـــ معانيَ هي لواحق للماهيات، أو هي تربط بعضها إلى بعض. وهي هنا كون الضرب قد حدث في الزمن الماضي، ثم كون الضرب صادراً عن الرجل، ثم كون الرجل معروفاً، ثم كون الحمار مجهولاً، ثم كون الحمار الذات التي وقع عليها فعل الضرب، ثم كون العصا أداة الضرب، ثم كونها تابعة للرجل... الخ...

إن هذه المعاني ضرورية في العمل اللغوي، ولولا هي ما حصل فهم على الاطلاق. تصور أني القيت إليك بالماهيات وحدها من غير أن أربط بعضها

---

(١) انظر مقدمة الارتشاف. مخطوط بالمكتبة الأحمدية رقم ٨٩٩ لغة عربية.

ببعض بهذه المعاني. فقلت: (رجل عصا ضرب حمار) فهل يمكنك أن تفهم منها ما فهمته من العبارة؟

تعال الآن تحلل عبارتنا لفظياً: ستجد أن فيها نوعين من الألفاظ:

١ ــ ألفاظاً تدل على الماهيات: رجل، حمار، ضرب، عصا.

٢ ــ ألفاظاً تدل على المعاني الرابطة بين الماهيات: الألف واللام اللتان دلتا على أن الرجل معروف. والتنوين في الحمار الذي دل على تنكيره، والباء التي دلت على واسطة الضرب، والهاء التي دلت على تبعية العصا للرجل... الخ.

إذن ففي كل عبارة لغوية عناصر أربعة:

١ ــ ماهيات.

٢ ــ ألفاظ تدل على هذه الماهيات يسمى كل منها سيمنتيم (Sémantème) [١].

٣ ــ معان تربط بين الماهيات تدعى الفصائل النحوية، أو المقولات النحوية، أو الأبواب النحوية[٢] (Categorie grammaticale).

٤ ــ ألفاظ تدل على المعاني الرابطة بين الماهيات تسمى بالمورفيمات[٣] (Morphème).

فأما الماهيات وألفاظها الدالة عليها فستدرس في باب آخر، هو باب الدلالة، أو باب المفردات، وأما المقولات النحوية ومورفيماتها فهي موضوع هذا الباب.

ونحب قبل كل شيء أن ننبه إلى أمرين: أولهما أننا لن نقوم بدراسة شاملة للنحو العربي عن طريق المورفيمات، لأن هذا أمر لا جدوى منه، ولا سيما أن النحو العربي قد درس دراسة ليس بعدها زيادة لمستزيد، فضلاً عن أن حجم

---

(١) سماها الاستاذان الدواخلي والقصاص في ترجمتهما لكتاب فندريس بدوال الماهية. انظر الكتاب المذكور ص١٠٥.

(٢) هكذا دعاها الدكتور تمام حسان في كتابه: مناهج البحث ص١٧٢.

(٣) سماها مترجماً كتاب فندريس بدوال النسبة. انظر الكتاب المذكور ص١٠٥.

كتابنا وموضوعه لا يسمحان بذلك. وثانيهما أن دراسة النحو عن طريق المورفيمات ليست شيئاً جديداً كل الجدة في الدراسات اللغوية بل هو أمر قد عرفه النحاة العرب من قديم، ويمكن اعتبار كتاب المغني لابن هشام الانصاري من خير الأمثلة وأجودها على هذا النوع من الدراسة.

إذن، كل الذي سنفعله هو استعراض سريع لأهم المورفيمات والمقولات النحوية العربية، محاولين في ذلك اعطاء فكرة عن هذا النمط من الدراسة، ومصححين بعض ما وقع فيه نحاتنا من أخطاء، أو قل وجهات نظر لا تتفق مع المناهج الحديثة في الدراسات اللغوية.

أنواع المورفيمات

يمكن أن نقسم المورفيمات إلى ثلاثة أقسام: مورفيمات تتألف من أصوات زائدة على أصوات السيمنتيمات. ومورفيمات تتألف من تحوير لأصوات السيمنتيمات، ومورفيمات تتألف من ترتيب الماهيات في الجملة.

وإليك الكلام على كل واحد من هذه الأقسام:

آ ــ المورفيمات الصوتية:

تتألف هذه المورفيمات ــ كما قلنا ــ من أصوات تضاف إلى العناصر الصوتية المعبرة عن الماهيات، وهي على أنواع:

١ ــ مورفيمات تتألف من صوت واحد فقط، مثل الضمة القصيرة في قولنا (جاء أحمدُ) التي تدل على المقولة النحوية التي نسميها الإسناد. والإسناد الذي جرى هنا هو اسناد المجيء إلى احمد.

هذا النوع من المورفيمات شائع جداً في العربية، وهي تعتمد عليه اعتماداً كبيراً في التعبير عن مقولاتها النحوية المختلفة. فمنه الضمة القصيرة المعبرة عن الإسناد كما في المثال المذكور، ومنه الضمة الطويلة المعبرة عن الإسناد إذا كان المسند إليه واحداً من الأسماء الخمسة، مثل (جاء أبوك) و(أبوك مسافر). ومنه الضمة الطويلة في (ضربوا) الدالة على وقوع الحدث من جماعة الغائبين، ومنه الكسرة الدالة على التبعية في قولك (كتاب زيدٍ)، ومنه النون الساكنة التي نسميها تنويناً، والتي تدل على التنكير، كما في قولك (جاء رجلٌ)، ومنه التاء في قولنا (جاءت) التي تدل على وقوع الحدث من المفردة المؤنثة الغائبة.

ويستطيع القارىء ــ وقد عرف ما نعنيه بالمورفيم المؤلف من صوت واحد ــ أن يرجع إلى معلوماته النحوية والصرفية ليستخرج منها كل ما يدخل في هذا الباب.

٢ ــ مورفيمات تتألف من مقطع واحد. وهذا النوع كثير أيضاً في العربية. وإليك نماذج منه:

(من) ويدل هذا المورفيم على مقولات نحوية كثيرة تجد تفصيلاً لها في كتاب المغني.

(عن) = = = = = = = = =

(في) = = = = = = = = =

(أو) = = = = = = = = =

(ب) = = = = = = = = =

(ك) = = = = = = = = =

(لم) = = = = = = = = =

(ما) = = = = = = = = =

(لا) = = = = = = = = =

(هم) الدال على التبعية كما في قولك (كتابهم).

(إن) الدالة على المطاوعة كما في قولك (انقسم).

٣ ــ مورفيمات تتألف من عدة مقاطع. وهذا النوع كثير أيضاً في العربية. فمنه الهمزة والسين والتاء الدالة على الصيرورة، كما في قولك (استحجر الطين)، أو على الطلب، كما في قولك (استغفر العبد ربه)، ومنه الهمزة والتاء الدالتان على المطاوعة كما في قولك (اجتمع القوم). ومنه كل الأفعال الناقصة والأحرف المشبهة بالفعل. فهذه الأفعال الناقصة (كان ــ صار ــ اصبح ــ أضحى ــ ظل ــ أمسى ــ بات... الخ) ليست في واقعها غير أدوات أو مورفيمات تدخل الجمل لتدل على معانٍ نحوية مختلفة. فقولنا (زيد مسافر)، ثم قولنا (كان زيد مسافراً) لا يختلفان إلاّ في الزمن الذي جرته (كان) إلى الماضي في العبارة الثانية أما الذي حمل النحاة القدماء على عدها أفعالاً فهو أنهم رأوها تتصرف كما

تتصرف الأفعال. لكن التصرف هنا لا يعنينا. الذي يعنينا فقط هو الوظيفة التي يقوم بها اللفظ في العبارة. وإذا كانت الأفعال الناقصة لا تعبر إلا عن مقولات نحوية فهي إذن مورفيمات كسائر المورفيمات الأخرى.

وأخيراً فقد يكون المورفيم مؤلفاً من عناصر صوتية متباعدة. فهناك مورفيمات «تنتج من كلمتين منعزلتين يجمع بينهما العقل، وتكون لهما رغم انفصالهما، وحدة لا تقبل التزيق، ففي الفرنسية عن النفي بعنصرين لا يكادان يتجاوران مطلقاً في الجملة: ومع ذلك فإن (je ne mange pas) «لا آكل» في الفرنسية لها من الوحدة مالـ «nitoimlim» في الإرلندية»[1].

وهذا النوع موجود في العربية، وأكثر ما يكون في زيادات الأفعال، فمنه الهمزة والتاء في (افتعل)، والهمزة والواو وتكرير العين في (افعوعل)، والهمزة والنون في (افعنلل)... الخ.

ب ــ المورفيمات التحريفية:

ونعني بها المورفيمات التي تتألف من تحوير أو تحريف لأصوات السيمنتيمات نفسها من غير زيادة شيء عليها. ولتوضيح ذلك يمكنك النظر إلى الكلمتين الآتيتين: (حِمار ــ حمير). فالكلمة الأولى تعني المفرد، والكلمة الثانية تعني الجمع. وللحصول على معنى الجمع ــ وهو من المقولات النحوية ــ لم نحتج إلى إضافة عناصر صوتية زائدة، بل اكتفينا بالتلاعب بأصوات المفرد نفسها: فنقلنا الكسرة القصيرة التي بعد الحاء في (حمار) إلى ما بعد الميم مع إطالتها، ثم نقلنا الفتحة الطويلة التي بعد الميم في (حمار) إلى ما بعد الحاء مع تقصيرها. فاصبحت الكلمة (حَمير) التي تعني جمع (حمار). بهذا التلاعب والتحوير في أصوات السيمنتيم (حمار) عبرنا عن مقولة الجمع النحوية، فكان تحويرنا هذا نوعاً من أنواع المورفيم.

إلا أن هذا القسم من المورفيمات لا ينحصر فيما ذكرنا فقط، بل له أنواع كثيرة. وإليك الكلام على كل نوع منها:

---

(١) فندريس: اللغة ص١٠٧.

١ ــ مورفيم يقوم على تغيير مكان الأصوات، مثل (حمار ــ حمير) و يكثر هذا النوع فيما يسمى بجمع التكسير في العربية، مثل (عريض ــ عراض).

٢ ــ مورفيم يقوم على إبدال صوت بصوت آخر، مثل (feet - foot) في الانكليزية، حيث ابدلت الضمة بكسرة للحصول على معنى الجمع، ومثل (أسد ــ أسود) في العربية حيث أبدلت الفتحتان بضمتين للحصول على معنى الجمع أيضاً.

وهذا كثير أيضاً في العربية. ولا سيما في جموع التكسير، مثل: (خروف ــ خراف) و(جمل ــ جمال)... الخ.

٣ ــ مورفيم يقوم على تغيير مكان النبر في الكلمة. وهذا النوع لا وجود له في العربية، لأن النبر في العربية ليست له وظيفة فونولوجية. أما في الانكليزية فالأمر مختلف، لأن بعض الكلمات الانكليزية يختلف معناها بمجرد اختلاف موضع النبر فيها. فأمثال الكلمات الانكليزية augment, torment لا فرق بينها حين تستعمل فعلاً أو اسماً إلا في اختلاف موضع النبر»[1].

٤ ــ مورفيم يقوم على إطالة صوت من أصوات السيمنتيم. مثل (كَذَب ــ كذَّب)، إذ لا فرق بين الفعلين إلا في أن ذال الأول قصيرة، وذال الثاني طويلة. ومن ذلك (رجع ــ راجع) و(عدل ــ عادل) و(رفع ــ رافع)... الخ. حيث لا فرق بين كل فعلين إلا في طول الفتحة التي تلي الحرف الأول.

٥ ــ مورفيم يقوم على تقصير صوت من أصوات السيمنتيم، مثل (حاذر ــ حذر) فأولهما فعل أمر، وثانيهما صفة، ولا فرق بينهما إلا في طول الفتحة التي بعد الحاء.

٦ ــ مورفيم يقوم على درجة الحدة في الصوت، أي على نغمته، وهذا النوع مفقود في العربية الفصحى، أو هذا ــ على الأقل ــ ما نعرفه عن طريق النحاة القدماء. أما النغم في العاميات فله وظيفة نحوية هامة، فبه وحده نعرف ما إذا

---

(١) ابراهيم انيس: الأصوات ص ٩٩.

كانت الجملة اخبارية أو استفهامية أو تعجبية في هذه اللهجات. كما أنه «يلعب دوراً في لغات الشرق الأقصى، حيث العناصر النحوية قليلة العدد. فهذه اللغات استغلت مرونة النغمات التي تحتملها أصواتها، واتساعها وتنوعها للغايات [النحوية] خير استغلال. وتوجد هذه الظاهرة نفسها في بعض اللغات الافريقية. ففي اللغة الفهلية يعبر التنغيم عن النفي: [ففي] مجموعة مثل: مِيْ وَرَتَ mi warata معناها «سأقتل» (أو «أقتل» في الحاضر الدال على العادة) إذا نطقت الفتحة النهائية بنفس النغمة التي لباقي الجملة، ويصير معناها «لن أقتل» إذا نطقت الفتحة النهائية منغمة أعلى. فارتفاع الصوت له إذن من القيمة مالأي [مورفيم آخر](١).

وقد رأينا في باب الأصوات أن الصينية تعبر بكلمة (فان) عن ستة معان لا علاقة بينها، هي (نوم ــ يحرق ــ شجاع ــ واجب ــ يقسم ــ مسحوق)، وليس من فرق هناك سوى النغمة الموسيقية في كل حالة.

فإذا كانت الصينية تستخدم التنغيم للتعبير عن مختلف الماهيات ــ كما رأينا ــ فما أجدرها أن تستعمل التنغيم للتعبير عن مختلف المقولات النحوية.

٧ ــ المورفيم الصفري: وهو أن لا يوجد في الكلمة أي مورفيم من الأنواع المذكورة سابقاً، فعدم وجود المورفيم هو في حد ذاته مورفيم يدل على مقولة نحوية. ولبيان ذلك نورد القائمة التصريفية الآتية:

أكلتُ
أكلنا
أكلتَ
أكلتِ
أكلتما
أكلتم
أكلتن

(١) فندريس: اللغة ص١٠٩-١١٠.

أكل ــ
أكلت
أكلا
أكلتا
أكلوا
أكلن

فالذي دل على أن (أكل) حدث ٌ وقع من مفرد مذكر غائب هو عدم وجود أي لاحقة في نهايته كاللواحق الموجودة في نهايات الصيغ الأخرى. أي إنه تحلى ــ إذا صح التعبير ــ بلاحقة الصفر التي دلت على وقوع الحدث من مذكر مفرد غائب.

على أن المورفيم الصفري ليس محصوراً في ميدان الأصوات فقط، بل يوجد في ميدان التنغيم أيضاً، وإليك ما يقوله فندريس في شأن المورفيم الصفري صوتياً ونغمياً:

«من النغمات المختلفة ذات القيمة [النحوية] نغمة لها أهمية في بعض اللغات، وهي نغمة الصفر، أي عدم وجود النغمة. ففي السنسكريتية مثلاً يكون الفعل منغماً أو غير منغم، تبعاً لبعض شروط الاستعمال في الجملة. ولكنه بالطبع في استعمالاته المختلفة يتميز تميزاً واضحاً بغياب النغمة كما يتميز بوجودها.

«وهذا يؤدي بنا إلى أن نضيف إلى [المورفيمات] المشار إليها فيما سبق نوعاً من هذه [المورفيمات] أكثر من غيرها دقة، ولكنها ليست أقل منها تعبيراً. ونعني تلك التي يصح أن نطلق عليها [المورفيمات] الصفرية. ففي الميدان [النحوي] تلعب درجة الصفر دوراً هاماً. والقيمة التي تملكها هي قيمة تقابل على وجه الخصوص، ولكن ذلك لا ينقص من خطرها. فكثيراً ما يكون للصمت في الموسيقا من التعبير ما للميلودية التي يعترض طريقها و يقطع تدرجها. وفي الحديث لحظات من الصمت البليغ. وفي اللغة يعتبر [المورفيم] الصفري مورفيماً كغيره من المورفيمات. فقد كان في الهندية الأوروبية بعض الأسماء التي لا يحمل مرفوعها أية لاصقة مميزة، أي إنها كانت تحمل في هذه الحالة لاصقة الصفر. فعدم وجود

اللاصقة يكفي، في مقابلة اللواصق المتنوعة التي تتمتع بها الحالات الأخرى، لتمييز المرفوعات التي نحن بصددها. بل إن هناك حالة من حالات الاعراب في الهندية الاوروبية تتميز دائماً بتلك الصورة، في الفترة القديمة على الأقل: ألا وهي المنادى. وتقابلنا هذه الخاصة أيضاً في صيغة فعلية قريبة من المنادى. وهي صيغة الشخص الثاني المفرد في حالة الأمر. فدرجة الصفر تلعب دوراً لا يقل عن دور غيرها في تبادل الحركات في اللغات الهندية الاوروبية والسامية» [(١)].

ج ـ المورفيمات الترتيبية:

وأخيراً نصل إلى نوع آخر من المورفيمات أقل تشخصاً مما سبقه، و يتكون فقط من المكان الذي يحتله كل واحد من السيمنتيمات.

وهذا النوع نادر في العربية، لأنها تعتمد في أداء معانيها النحوية على المورفيمات الصوتية، لا على الترتيب. ولهذا تتمتع كلماتها بحرية كبيرة من حيث مواقعها في الجملة، وعلى الضد من ذلك، نجد الألسن التي «فقدت اعراب الحالات على وجه عام، استعاضت في تأدية العلاقات التي كان يعبر عنها بالاعراب إما بكلمات مساعدة (حروف جر، أدوات.. الخ) وإما بوضع كل كلمة بالنسبة للكلمات الأخرى» [(٢)].

فإذا قلنا في العربية (ضرب زيد عمراً) أو (زيد ضرب عمراً) أو (عمراً ضرب زيد) لم يختلف المعنى، وبقي زيد هو الضارب وعمرو هو المضروب، وذلك لأن التعبير عن فاعلية زيد ومفعولية عمرو قامت بهما الضمة التي في زيد والفتحة التي في عمرو، لا موقع كل من الكلمتين في الجملة. أما لو قلنا في الفرنسية (Pierre frappe Paul) ثم عكسنا فقلنا Paul frappe Pierre لتغير المعنى تماماً، ولأصبح الفاعل مفعولاً والمفعول فاعلاً، وذلك لأن ما يحدد فاعلية كلمة في الفرنسية أو مفعوليتها إنما هو مكانها الذي تحتله من الكلمات الأخرى في الجملة.

---

(١) اللغة ص ١١٠.

(٢) المرجع نفسه ص ١١١.

من الألسن التي تشبه العربية في اعتمادها على الاعراب لتأدية المعاني النحوية لا على الترتيب اللسان اللاتيني. فإذا قلنا في اللاتينية (caedit Paulum Petrus)=(بطرسُ يضرب بولصَ)، أو Paulum caedit Petrus=(بولصَ يضرب بطرسُ)، لم يتبدل المعنى، لأن الذي حدد فاعلية بطرس هو علامة الرفع (us)، والذي حدد مفعولية بولص هو علامة النصب (um).

أما ما يشبه الفرنسية في اعتمادها على الترتيب مورفيماً لأداء المعاني النحوية فهي العاميات العربية. فهذه العاميات بعد أن فقدت الاعراب الذي كان يحدد وظيفة كل كلمة في الجملة دون النظر إلى موقعها، عوضت عنه بالترتيب الذي يحدد هذه الوظائف. فقولنا اليوم: (سمير ضرب خالد) يختلف في معناه عن قولنا: (خالد ضرب سمير)، لأن سميراً في الجملة الأولى فاعل، وفي الثانية مفعول، والذي أشار إلى فاعليته في الأولى تصدره، كما أن الذي دل على مفعوليته في الثانية تأخره.

سلوك المورفيمات مع السيمنتيمات

بعد أن عرفنا الأنواع الأساسية الثلاثة للمورفيمات يجدر بنا أن نبحث مسلك هذه المورفيمات بالنسبة للسيمنتيمات.

قلنا إن السيمنتيم هو العنصر الصوتي الدال على الماهية وحدها، وإن المورفيم هو العنصر الصوتي الدال على المعاني النحوية أو ما سميناه بالمقولات النحوية. هذان العنصران لا يريان في العربية منفصلين، بل هما متحدان اتحاداً قوياً في كل كلمة تقريباً. انظر كلمة (قَتَلَ) تر أنها مؤلفة من أصوات حبيسة ثلاثة (ق ت ل) تؤلف العنصر الصوتي الدال على ماهية القتل، ثم تجد فيها ثلاث فتحات (ـَـَـَ) تؤلف العنصر الصوتي الدال على أن القتل قد حدث في الزمان الماضي، وإنه قد صدر عن مفرد مذكر غائب. وهكذا ترى أن هذه الكلمة الصغيرة (قتل) تشتمل على ماهية واحدة هي القتل، وعلى مقولات نحوية عديدة هي الزمن الماضي والإفراد والتذكير والغيبة. والآن لنتساءل: هل يوجد في العربية سيمنتيم ـ أي عنصر صوتي دال على الماهية ـ مستقل لا يصحبه أي مورفيم ـ أي عنصر صوتي دال على مقوله نحوية ـ؟. وبعبارة أخرى: هل توجد الأصوات الثلاثة (ق ت ل) في العربية لتدل على القتل وحده دون أن تصحب بحركات تدل على معان نحوية؟. إن هذا غير ممكن، إذ لا وجود لهذه الأصوات وحدها إلا في مخيلة أصحاب علم الاشتقاق والمعاجم. أما في الواقع اللغوي فالسيمنتيم مصحوب دائماً بالمورفيم.

المجرد إذن في العربية، هذا الذي يعبر عن الماهية وحدها، ليس له وجود في واقع الاستعمال اللغوي، بل هو مصحوت دائماً بأصوات طليقة قصيرة أو طويلة تقوم بدور المورفيمات للتعبير عن المعاني النحوية المختلفة. يقول مييه[1]:

---

(١) نقلاً عن فندريس: اللغة ص١١٣.

«الأصل في العربية لا يتميز إلا بحبيساته، أما عن الطليقات فكل حبيس من حبيسات الأصل يمكن أن يتبع بالفتحة القصيرة أو الطويلة، أو بالكسرة القصيرة أو الطويلة، أو بالضمة القصيرة أو الطويلة، أو بالصفر (يعني السكون)، فعندنا سبع صور، وكل واحدة من هذه الصور السبع تستخدم للدلالة على الوظيفة» مثل قَتَلَ (فعل ماضي صادر عن مفرد مذكر عائب) قُتِلَ (فعل ماضي مسند الى مفعول مفرد مذكر غائب) قَتْل (مصدر = اسم للحدث) قاتِل (اسم فاعل مذكر مفرد) قتيل (اسم مفعول مذكر أو مؤنث مفرد) قتال (اسم حدث لقتل فيه مشاركة) قتول (مبالغة لاسم الفاعل)...الخ.

ومع ذلك فإن الأصل ـــ أي المجرد ـــ ولو لم يكن له وجود في واقع الاستعمال اللغوي، فإن له وجوداً وحقيقة حساسة بالنسبة للمتكلم، وذلك من جهة أنه الهيكل الذي ينتظم الحالات المختلفة لهذا التبادل بين الأصوات الطليقة (الحركات). وحقيقة الأصل ترجع إلى قبوله للتنوع. ومبدأ التبادل يجعل هذه العناصر تلعب دور التعارض، وهو لعب في غاية اللطف والدقة اعتادته عقول الساميين والهنديين الأوروبيين [1] ممن ألفت ألسنتهم هذه الطريقة في صياغة كلماتها.

إن تبادل الأصوات الطليقة مع الأصوات الحبيسة ليس المسلك الوحيد للمورفيم مع السيمنتيم في العربية وأخواتها الساميات والألسن الهندية الأوروبية، بل يحدث ـــ ويكثر ذلك في الهنديات الأوروبيات ـــ أن يضاف الى تبادل الأصوات زيادات مورفيمية تلحق الأصل في أوله فتسمي صدوراًpréfixes، أو تلحقه في آخره فتسمى إعجازاًsuffixes، أو تلحقه في وسطه فتسمى أحشاءً infixes.

فمن الصدور همزة التعدية في (أفعل)، مثل (أدخل)، والهمزة والنون في (انفعل)، مثل (انفتح) والهمزة والسين والتاء في (استفعل)، مثل (استخرج)، والميم في (مفعول) مثل: (مأكول)، ومن الاعجاز الألف والتاء في (شجرات)،

---

(١) فندريس: اللغة ص ١١٤.

والواو والنون في (زيدون)، والألف والنون في (ولدان): ومن الأحشاء التاء في (افتعل)، مثل (اجتمع) والواو في (افعوعل)، مثل: (اخضوضر)...الخ.

هذه اللواحق ـ صدوراً كانت أم إعجازاً أم أحشاء ـ ليس لها وجود مستقل، فهي مثل الأصوات الطليقة (الحركات) ترى دائماً مع الأصل لا تنفك عنه كما لا ينفك عنها، وهكذا تؤلف اللواحق مع الحركات وأصوات المجرد كلا واحداً لا يتجزأ.

هناك نوع آخر من اللواحق لا يرى في الكلمة دائماً في جميع حالات استعمالها، بل يرى في استعمال، و يرى غيره في استعمال آخر. هذا النوع يسمى في الفرنسية désinenes و يسميه الدكتور السعران بالخواتيم (جمع خاتمة). ومن ذلك ما يلحق الأفعال حين تصريفها للإشارة الى الأشخاص القائمين بالحدث مثل:

ضرب
ضربتْ
ضربا
ضربَتا
ضربوا
ضربن
ضربتَ
ضربتِ
ضربتما
ضربتم
ضربتن
ضربتُ
ضربنا

فكل ما ورد بعد الباء من الخواتيم، ولبيان الفرق بين الخاتمة والصدر أو العجز أو الحشو نقول إن الهمزة والتاء في (اجتمع) وأولهما صدر، وثانيهما حشو تريان

في هذا الفعل في جميع استعمالاته، أما تاء التأنيث الساكنة، وهي خاتمة، فلا ترى إلا اذا أسند الفعل الى الغائبة المفردة، أما اذا أسند الى غيرها فإنها تسقط وتأتي خاتمة أخرى.

لكن الخواتيم لا تأتي دائماً في نهاية الكلمة كما قد يفهم من اسمها [1] بل تأتي في بعض الأحيان في بداية الكلمة، وتسمى عند ذلك باللواحق (جمع لاحقة)[2]، كما تسمى في الفرنسية باسم augments.

وإليك مثالاً من العربية لمجيئها في أول الكلمة:

أضرب

نضرب

تضرب

يضرب

فكل ما سبق الضاد من همزة ونون وتاء و ياء هو من نوع اللواحق.

ومهما يكن من أمر هذه المورفيمات، وسواء أكانت من الصدور أم الإعجاز أم الإحشاء أم الخواتيم أم اللواحق، فإنها تعطينا صورة عن واحد من أنواع سلوك المورفيمات في الكلام، وهو سلوك تبدو فيه شديدة الارتباط بالسيمنتيمات لا تكاد تنفصل عنها ليكون لها وجود مستقل.

هذا هو سلوك أكثر المورفيمات في العربية والساميات والهنديات الأوروبيات عموماً، إلا أن طائفة أخرى من الألسن ترينا سلوكاً لمورفيماتها يختلف عن هذا السلوك اختلافاً تاماً، فالصينية مثلاً ليس فيها زيادات تضاف الى المجرد للدلالة على المعاني النحوية. بل إن زياداتها ـ إذا صح التعبير ـ كلمات مستقلة كل

---

(١) اقترح الدكتور السعران، كما قلنا، ان تترجم كلمة desinence بكلمة خاتمة، (انظر كتابه: علم اللغة ص٣٥ الحاشية) لأن اشتقاق الكلمة في الألسن الأجنبية هو من كلمة لاتينية تعني الانهاء. جاء في معجم لاروس: désinence: (du lat. desinere finire).

(٢) هذا أيضاً من اقتراح السعران، لكن معنى augment في الألسن الأجنبية لا يشير إلى معنى اللحاق، بل إلى معنى الزيادة والنماء. جاء في لاروس: augment: (du lat. augmentum, accroissement).

الاستقلال عن المجردات. الكلمات في الصينية نوعان: كلمات تدل على الماهيات يسمونها بالكلمات المليئة، وتقابل ما نسميه نحن بالسيمنتيم أو المجرد، وكلمات تدل على المقولات النحوية يسمونها بالكلمات الفارغة، وتقابل ما نسميه نحن بالمورفيمات أو الادوات النحوية.

هذا الاستقلال الذي يتمتع به المورفيم (الكلمة الفارغة) في الصينية له ما يماثله في جميع الألسن. فكل ما في العربية من حروف الجر والوصل والعطف، والأفعال الناقصة، والأحرف المشبهة بالفعل، يعد من المورفيمات المستقلة، أو ما يسمية الصينيون بالكلمات الفارغة. بل إن النحاة العرب قد أشاروا إلى مثل ما عناه الصينيون بالكلمات الفارغة والكلمات الملآى حين ميزوا بين الاسم والحرف بقولهم: إن الاسم (والفعل معه أيضاً) هو ما دل على معنى في نفسه، وإن الحرف هو ما دل على معنى في غيره.

استقلال المورفيم إذاً ليس مسلكاً تتفرد به الصينية، بل هو شيء تعرفه الألسن كلها. والفرق بين الصينية وغيرها أن الصينية جعلت من هذا الاستقلال مسلكاً عاماً لجميع مورفيماتها، أما غيرها، ولا سيما الساميات والهنديات الأوروبيات، فإنها على الرغم من وجود مورفيمات مستقلة فيها، تتألف كلماتها دائماً من سيمنتيم واحد معه مورفيم واحد أو أكثر، وليس بين هذا السيمنتيم ومورفيماته أي تخلخل أو انفصام.

هذا التخلخل بين المورفيمات والسيمنتيمات يبدو في بعض الألسن على شكل حرية ممنوحة للمورفيم ليكون حيث يشاء من عناصر الجملة. وتعطينا التركية مثلاً واضحاً عنه في كلمتها sevmishlerdir «أحبوا» التي يمكن أن ترتب عناصرها ترتيباً آخر sevmishderler دون أن يتغير المعنى. ويمكن توضيح ما تفعله التركية بمثال من العربية:

وفي العربية تستطيع أن تقول: (شجراتك)، واضعاً الألف والتاء، وهما مورفيم الجمع، بعد السيمنتيم (شجرة) مباشرة، ثم خاتماً الكلمة بالخاتمة (ك) مورفيم التبعية للمخاطب المفرد. ولكنك لا تستطيع أن تعكس الآية فتقول: (شجرتكات)، ولكن التركية تفعل شيئاً شبيهاً بذلك.

معنى هذا أن العربية تفرض لكل مورفيم مكانه الخاص الذي لا يجوز أن يتجاوزه الى غيره، على حين أن ألسناً أخرى تمنح مورفيماتها حرية التنقل بين عناصر الجملة كيف تشاء.

تختلف الألسن أيضاً في شأن تكرار المورفيم أو عدم تكراره. فبعضها يكرر المورفيم في كل كلمة، مثل السوبية (واحدة من ألسن البنتو) التي اذا أرادت معنى الافراد في الجملة ذكرت المورفيم الدال على الافراد مع كل كلمة، فتقول ما يمكن تمثيله بما يأتي: واحد رجل واحد يمشي. أي رجل يمشي. وعلى العكس من ذلك تماماً، نجد ألسناً أخرى إذا اتفقت فيها كلمات متعددة في أداء وظيفة واحدة لم يذكر إلا مورفيم واحد يلحق آخر هذه الكلمات. ولتوضيح ذلك نورد المثال الآتي:

إذا وصفنا في العربية معرفة بصفات متعددة أدخلنا مورفيم التعريف، لإتمام المطابقة بين الموصوف وصفته، على كل الصفات، فنقول: جاء الرجل الطيب الصالح الطويل العالم.. الخ. أما في المجرية فإنهم بدلاً من ذلك يقولون: جاء الرجل طيب صالح طويل العالم (١).

وهناك مسلك للمورفيمات في بعض الألسن أغرب من كل ما ذكر. فقد حدّث بعض الباحثين أن بعض ألسن الهنود الحمر في أميركا تضع كل مورفيمات الجملة في طرف، وكل سيمنتيماتها في طرف آخر. فإذا أرادت أن تقول: ذهبتم أمس الى المدرسة، تم أمس الى الـ || ذهب مدرسة.

فكل ما تقدم الخطين الرأسيين إنما يشتمل على مورفيمات، أما السيمينتيمات فلا تذكر إلا بعد.

و يقول فندريس (٢): لا ينبغي أن ندهش من بنية على هذا النحو من الغرابة. فلغة الكلام في الفرنسية فيها حالات من التركيب تقرب من تلك الحالات كل

---

(١) ليس هذا ما تفعله المجرية بالضبط، ولكنه مثل لتوضيح طريقتها في الاكتفاء، بمورفيم واحد للكلمات المشتركة في وظيفة واحدة.

(٢) اللغة: ص١١٣، وقارن كل ما جاء في هذا الفصل مع فندريس ص١٠٤- ١٢٢.

القرب. فنحن نسمع من الشعب: elle n'y a encor pas | voyagé, en Afrique «هي لم فيها بعد || تسافر قريبتك الى أفريقية» أو il l'a - ti jamais || attrapé le gendarme, son voleur «هو ألم إطلاقاً || يمسك الشرطي سارقه؟ فكل ما هو سابق على الخطين لا يشتمل أيضاً إلا على مورفيمات: إشارات الى الفاعل أو الى المفعول (مباشراً كان أو غير مباشر) أو الى النوع أو الى العدد أو الى الزمن أو الى صفة الجملة أهي استفهام أم نفي: فلدينا هنا، وقبل أن نعرف عمن وعماذا يدور الأمر، جميع العناصر النحوية للجملة، فلا يبقى إلا تعيين الأشخاص والحدث الذي ساهموا فيه وبالاختصار الوقائع والفاعلين، وهكذا توضع المعاني التجريدية في رأس الجملة، والمشخصات في ذيلها».

حكاية الإعراب

من المعروف أن للاسم في العربية ثلاث حالات: حالة الرفع وعلامته الضمة، وحالة النصب وعلامته الفتحة، وحالة الجر وعلامته الكسرة.

وقد اختلف الباحثون قديماً وحديثاً في أمر هذه الحركات: أهي مورفيمات تدل على مقولات نحوية، أم هي مجرد تحريك لأواخر الكلمات لوصل بعضها ببعض كراهية التقاء السواكن، وإن العرب لم تكن تقصد منها الى شيء من المعاني النحوية؟

وسنعرض عليك فيما يلي مجملاً لأقوال كل من الفريقين، بادئين بالفريق الذي نفى أن تكون هذه الحركات دوال على شيء:

---

(١) للتوسع في موضوع هذا الفصل انظر المراجع الآتية:
أحمد بن فارس: الصاحبي ص١٦١.
ابن جني: الخصائص جـ٢ ص٣٢.
ابراهيم السامرائي: دراسات في اللغة ص٩٦-١٠٢.
ابراهيم مصطفى: إحياء النحو.
مهدي المخزومي: في النحو العربي ص٦٥ وما بعدها.
ابراهيم انيس: من أسرار اللغة العربية، الفصل الخامس، قصة الاعراب.
يوهان فك: العربية ص٢-٦.
السيوطي: الاشباه والنظائر جـ١ ص٧٦-٧٩، ٢٦١.
سيبويه: الكتاب جـ٢ ص٣١٥.
إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص١٥.
Carl Brockelmann: Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sparchen. Berlin 1908 I. S. 5.
Vollers: Volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien, Strassburg 1960.
Nöldeke: Neue Beiträge zur semitschen Sprachwissenschaft, Strassburg 1910, 1-5.
Kahle: The Cairo Geniza, London 1947, P. 78-84.
Kahle: The arabic Readers of the Koran (journal of Near Eastern Studies 8, 1947, P. 65-71.
Wright: Lectures of the comparative grammar of the Semitic languages, Cambridg 1890.

١ ــ وزعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد، وهن يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به.

(سيبويه)

٢ ــ إنما أعربت العرب كلامها لأن الأسم في حال الوقف يلزمه السكون، فجعلوه في الوصل محركاً حتى لا يبطئوا في الأدراج. وعاقبوا بين الحركة والسكون، وجعلوا لكل واحد أليق الأحوال به، ولم يلتزموا حركة واحدة لأنهم أرادوا الاتساع، فلم يضيقوا على أنفسهم وعلى المتكلم بحظر الحركات إلا حركة واحدة.

(محمد بن المستنير المعروف بقطرب)

٣ ــ ليس في اللغات السامية أثر الإدغام كلمة في أخرى حتى تصير الاثنتان كلمة واحدة تدل على معنى مركب من معنى كلمتين مستقلتين كما هي الحال في غير اللغات السامية، وهذا هو سبب ظهور الإعراب في اللغة العربية. وهناك شيء من بقيا الإعراب في أغلب اللغات السامية.

(اسرائيل ولفنسون)

٤ ــ إن أصل لواحق الإعراب لا يعرف معرفة يقين، ولكن يمكن أن يرى أن الفتحة أصلها ha، وهي ضمير إشارة مستعمل في اللغات السامية، ولم يزل في الحبشية يلحق بالإعلام في حالة النصب إذا وقع عليها فعل ذو اتجاه مثل: أقبل وقصد، وأصل معناها في هذا الاستعمال الاتجاه إلى شيء أو شخص معين. وإذا صح هذا جاز أن نرى أن الضمة مشتقة من ho أي (هو)، أما علامة الجر فظاهر مشابهتها لياء النسب، وهي تفيد الكلمة معنى الوصيفة. وفي اللغات الهندية

مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ص٢٨٣.
علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة.
برجه ستراسر: التطور النحوي ص٧٥.

الغربية نرى لواحق الخفض مشتقة من لواحق دالة على الوصفيّة. ويساعد على هذا في العربية أن الصفة تجيء بعد الموصوف، فيقال: البيت الملكي. وباتحاد الموصوف بالصفة في المعنى واللفظ بهما مرة واحدة استغني عن إعراب التالي، وخفضت الياء فنشأ الخفض، وهو إعراب جديد.

(بروكلمان ورايت)

٥ ــ كان القرآن يقرأ في بادىء الأمر بلسان محمد، يعني بلهجة مكة الخالية من ظواهر الإعراب، وهو يدين بأسلوبه المعرب الذي وصل الينا، الى تنقيح خاضع للقواعد التي اعتمدت في العربية فيما بعد، ولا سيما من حيث الإعراب.

(فولرز)

٦ ــ كان القرآن يقرأ في بادىء الأمر بغير إعراب. ثم إن القراء الأولين في المدن الإسلامية الكبرى، رحلوا لمخالطة عرب البادية المخيمين في جوارهم، قصداً الى دراسة رواياتهم عن شعراء البدو، ووضع قواعد مستنبطة من لغة الشعر لقراءة النص القرآني على مثالها. وهذه الضرورات العملية هي التي أوجدت الباعث الى جمع شعر الجاهلية وكتابته في أوائل العصر الإسلامي. وعلى أساس هذه المادة التي تم جمعها، وضعت لغة نموذجية، كان الإعراب من مميزاتها، ومن ثم أدخل الإعراب في قراءة القرآن.

(كاله)

٧ ــ إن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة، وخاصة قواعد الإعراب، لم تكن مراعاة إلا في اللغة الفصيحة الأدبية، أما لغة التخاطب فلم تكن معربة.

(مرسيل كوهين)

٨ ــ ليس للحركات الإعرابية مدلول، وإن الحركات لم تكن تحدد المعاني في أذهان العرب الأقدمين، وهي لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في كثير من الأحيان لوصل الكلمات ببعضها.

إن النحاة قد ابتكروا بعض ظواهر الإعراب، وقاسوا بعض الأصول رغبة منهم في الوصول الى قواعد مطردة منسجمة.

ولعلهم تأثروا بما رأوه حولهم من لغات كاليونانية، ففيها يفرق بين حالات الأسماء التي تسمى cases. و يرمز لها في نهاية الأسماء برموز معينة.

إن الإعراب قصة. وما أروعها قصة! لقد استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية، ثم حيكت وتم نسجها حياكة محكمة في أواخر القرن الأول الهجري أو أوائل القرن الثاني، على يد قوم من صنّاع الكلام نشأوا وعاشوا معظم حياتهم في البيئة العراقية. ثم لم يكد ينتهي القرن الثاني الهجري حتى أصبح الإعراب حصناً منيعاً، امتنع حتى على الكتاب والخطباء والشعراء من فصحاء العربية وشق اقتحامه إلا على قوم سموا فيما بعد بالنحاة.

(ابراهيم انيس)

واليك الآن أقوال الفريق الثاني:

١ ــ إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني، وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة، ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني، جعلت حركات الإعراب تبين عن هذه المعاني وتدل عليها، ليتسع لهم في اللغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة.

(أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي)

٢ ــ ألا ترى أن من لا يعرب فيقول: ضربْ أخوكْ لأ بوكْ قد يصل باللام إلى المعرفة الفاعل من المفعول، ولا يتجشم خلاف الإعراب ليفاد منه المعنى؟

(أبو الفتح عثمان بن جني)

٣ ــ من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب ــ الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، و به يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدْر من مصدر، ولا نعت من تأكيد.

يقع ذلك (يعني الإفهام والفهم) من وجهين: أحدهما الإعراب، والآخر التصريف. هذا فيمن يعرف الوجهين، فأما من لا يعرفهما، فقد يمكن القائلَ إفهام السامع بوجوه يطول ذكرها من إشارة وغير ذلك، وإنما المعوّل على ما يقع في

كتاب الله، جل ثناؤه، من الخطاب، أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو غيرهما من الكلام المشترك في اللفظ.

فأما الإعراب فبه تميز المعاني و يوقف على أغراض المتكلمين. وذلك أنّ قائلاً لو قال «ما أحسنْ زيدْ» غير معرب، أو «ضربْ عمرْ زيدْ» غير معرب، لم يوقف على مراده، فإذا قال: «ما أحسن زيداً» أو «ما أحسنُ زيدٍ» أو «ما أحسَنَ زيدٌ» أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده. وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها: فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني.

(احمد بن فارس)

٤ ــ لقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب في جهد لا يعرف الكلال، وتضحية جديرة بالإعجاب، بعرض اللغة الفصحى وتصو يرها في جميع مظاهرها، من ناحية الأصوات، والصيغ، وتركيب الجمل، ومعاني المفردات على صورة محيطة شاملة، حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد، ولا تزال كتب القواعد الأساسية المذكورة تعد اللغة العربية لغة متصرفة بمعنى الكلمة، محافظةً على علامات الأحوال والتصريفات المختلفة، مثل الضمة في حالة رفع الاسم والفعل، والكسرة في حالة خفض الاسم، والفتحة في حال نصب الاسم والفعل الخ.

لقد احتفظت العربية الفصحى، في ظاهرة التصرف الإعرابي، بِسِمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية ــ باستثناء البابلية القديمة ــ قبل عصر نموها وازدهارها الأدبي.

(يوهان فك)

٥ ــ إن اللغة العربية لها منهج آخر مخالف لمناهج اللغات الغربية في الإعراب وفي التصريف. فإن العربية تدل بالحركات على المعاني المختلفة من غير أن تكون تلك الحركات أثراً لمقطع، أو بقية من أداة. و يكون ذلك في وسط الكلمة وأولها وآخرها.

فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل واسم المفعول في مثل: مكرِم ومكرَم،

ومستخرِج ومستخرَج. وبين فعل المعلوم وفعل المجهول، نحو: كَتَبَ وكُتِب، واستفْهم واستُفْهِمَ، وبين الفعل والمصدر، في مثل: عَلِمَ وعِلْم..

وهذا من الشيوع والكثرة في اللغة العربية بحيث لا نستطيع جمعه، وبحيث نراه أصلاً من أصولها، سارياً في كثير من تصرفاتها، ظاهراً في سبيل الأداء وتصوير المعاني. ومن العناء الضائع، والتكلف المبعد عن الحق أن نتلمس لكل حركة من هذه الحركات أصلاً، لانا نحاول أن نكلفها نظام غيرها من اللغات. وإنما هي صورة ألفها الباحثون في اللغات الأجنبية، فغلبت عليهم حين يفكرون في فقه العربية.

فأما الضمة فإنها عَلم الإسناد، ودليل أن الكلمة المرفوعة يراد أن يُسند اليها ويُتحدَّث عنها.

وأما الكسرة فإنها عَلَم الإضافة، وإشارة الى ارتباط الكلمة بما قبلها، سواء كان هذا الارتباط بأداة أو بغير أداة، كما في (كتاب محمد) و (كتاب لمحمد)

ولا تخرج الضمة ولا الكسرة عن الدلالة على ما أشرنا إليه، إلا أن يكون ذلك في بناء وفي نوع من الاتباع.

أما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالة على شيء، بل هي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب، التي يراد أن تنتهي بها الكلمة كلما أمكن ذلك، فهي بمثابة السكون في لغة العامة.

(ابراهيم مصطفى)

٦ ــ وللإعراب علامات تدل عليه، وهي الحركات. والحركات في العربية ثلاث: الضمة والكسرة والفتحة. وقد اعتدت العربية بالضمة والكسرة اعتداداً خاصاً، فجعلت الضمة عَلَماً للإسناد، والكسرة علماً للإضافة، أما الفتحة فَعَلم لما ليس بإسناد ولا إضافة.

(مهدي المخزومي)

٧ ــ إن رأي الأستاذ مصطفى في الفتحة (وإنهاليست دالة على شيء) غريب في بابه، ولا يستند الى سند علمي. فقد دلت المقارنات الى أن الفتحة وجدت في

حالة النصب في كثير من اللغاب السامية، ولم يكن هناك سبب للفتحة المستحبة.

(ابراهيم السامرائي)

٨ ــ العرب ورثوا لغتهم معربة. وليس الإعراب قصة.

(صبحي الصالح)

* * *

بعد أن عرضنا عليك أقوال الفريقين يحسن بنا أن نعرض عليك أيضاً حجج كل منهما.

وإليك ملخصاً لحجج الفريق الأول[١]:

١ ــ إن الخلافات الإعرابية بين لهجة مكة ولهجات البادية كثيرة، وكذا الخلافات بين لهجات البادية فيما بينها. وكل هذا يدل على أن الحركات خلاف فيها.

٢ ــ إن قراءة أبي عمرو امتازت دائماً بالإدغام الذي يقع بين الكلمتين، ادغام آخر حرف من الكلمة الأولى بأول حرف من الكلمة الثانية. وهذا لا يتهيأ إلا إذا كانت الكلمات ساكنة الأواخر.

٣ ــ اختلف القراء كثيراً في إعراب كثير من الآيات. فقد قرأ بعضهم: «إنما يخشى اللهُ من عباده العلماء[٢]» برفع (الله) ونصب (العلماء). ولو كانت حركات الإعراب دوال على معان نحوية لا نقلب معنى الآية بهذه القراءة ولأصبحت كفراً.

٤ ــ إن القدماء اختلفوا في إعجاز القرآن: فقال بعضهم: هو في لفظه، وقال آخرون: بل هو في معناه. والذي حمل الآخرين على ذلك، أنهم كانوا يرون كمال الفصاحة في لغة عرب البادية لا في القرآن. وهذا دليل على أن القرآن لم يكن يقرأ بالحركات الإعرابية كما كان الأمر في لغة البادية.

---

(١) سيلاحظ القارىء ــ ولا شك ــ أن حجج هذا الفريق في غاية الوهن والضعف.

((٢) سورة فاطر ٢٨.

٥ ــ رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث يفهم منها جواز قراءة القرآن بغير إعراب. فقد روي عنه أنه قال: «من قرأ القرآن بإعراب فله أجر شهيد»، وأنه قال: «من قرأ القرآن فلم يعربه وُكِّل به مَلَك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشرَ حسنات، فإن أعرب بعضه ولم يعرب بعضه وُكِّل به مَلَكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة، فإن أعربه كله وكِّل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة».

٦ ــ رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث يفهم منها أن اللحن وعدم التقيد بقواعد الإعراب كان أمراً معروفاً مألوفاً لذلك العهد. فمن ذلك قوله: «أنا من قريش، ونشأت في بني سعد، فأنّى لي اللحن!».

٧ ــ إن قواعد هذا شأنها في التشعب والدقة وصعوبة التطبق وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة بعضها ببعض، كل هذا غير ممكن في لغة التخاطب، وإنما هو من اختصاص اللغة الفصيحة المهذبة.

٨ ــ إن العاميات العربية خالية جميعها من ظاهرة الإعراب، ولو كانت العربية الفصحى معربة لبقي من هذا الإعراب شيء ولو يسير في العاميات.

٩ ــ يكفي للبرهنة على أن لا علاقة بين معاني الكلام وحركات الإعراب أن نقرأ خبراً في الصحف على رجل لم يتصل بالنحو أي نوع من الاتصال، فسنرى أنه يفهم معناه تمام الفهم مهما تعمدنا الخلط في إعراب كلماته، برفع المنصوب ونصب المرفوع أو جره.

وهذه حجج الفريق الثاني:

١ ــ ليس الإعراب في العربية بدعاً حتى يظن به الاختلاق والاختراع، بل هو شيء كان في السامية الأولى، وقد احتفظت به العربية، على حين فقدته أخواتها، ولم يبق منه فيهن إلا آثار قليلة تدلّ على قدمه، لقد أجمع المستشرقون تقريباً على أن الإعراب ظاهرة سامية عامة. فقد وجدوا في الأكدية ضمة للرفع، وفتحة للنصب، وكسرة للجر، لكن الأكدية لم تحتفظ بهذه الحركات جميعاً كما احتفظت العربية بها، بل انتهى بها الأمر الى ضمة لحالة الرفع، وكسرة لحالتي

النصب والجر، ثم لم يبق فيها غير إمالة كسرية لجميع الحالات. و يرى المستشرق ليتمان أن أواخر الكلمات في اللهجة النبطية قد يحدث فيها تغيير بحسب موضعها في الإعراب. كما أن للإعراب أثراً في العبرية يتبينه الباحثون في حالتي المفعول به، وفي ضمير التبعية. على أن هذا الأثر ضئيل جداً، فقد أوشكت تخلو من الإعراب لغة العهد القديم. غير أن علامة النصب في العبرية القديمة هي الفتحة الطويلة التي نشأ عنها حرف الهاء. والهاء المتطرفة في هذه اللغة تشبه الألف اللينة، ومن أجل ذلك تعامل معاملة أحرف العلة، وتظهر هذه في آخر الاسم المنصوب بنزع الخافض، كما تظهر في آخر الظرف المنصوب (ليلا) وتعنى (ليل) و (عتا) وتعني (حين). وكما تلحق هذه العلامة الظروف فإنها تلحق المصدر فينصب كما هي الحال في المفعول المطلق في العربية، ولكنها في هذه الحالة تكون متلوة بميم زائدة (للتمييم) الذي يقابل التنوين في العربية، مثال ذلك (يومام) وتعني (يوماً) و (حنام) وتعني (مجاناً). والمتتبع لشوارد النصوص في اللغة العبرية ربما وجد آثاراً تشير الى شيء يشبه الضمة والكسرة لعلهما بقايا لضمة وكسرة كانتا مستعملتين في العبرية القديمة.

٢ ـــ إن أشعار عرب البادية في الجاهلية والإسلام، ترينا علامات الإعراب مطردة كاملة السلطان، فأوزان هذه الأشعار وقوافيها لا تستقيم إلا إذا كانت معربة.

٣ ـــ هناك حقيقة تاريخية ثابته، وهي أن النحاة واللغويين الإسلاميين كانوا، حتى القرن الرابع الهجري على الأقل، يختلفون الى عرب البادية ليدرسوا لغتهم. وهذا لا يدل إلا على أن التصرف الإعرابي كان بالغاً أشده حتى ذلك العهد.

٤ ـــ إن مواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثراً للشك في وجود الإعراب. انظر مثلاً الى قوله تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء [(١)]»، وقوله: «إن

(١) سورة فاطر ٢٨.

الله بريٌ من المشركين ورسوله[١] »، وقوله: «وإذ ابتلى ابراهيمَ ربه[٢] »، وقوله: «وإذا حضر القسمةَ أولو القربى[٣] »، فمثل مواقع الكلمات في هذه الآيات لا يمكن أن يكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فيها حياً صحيحاً. يضاف الى ذلك شهادة القرآن نفسه، مثل قوله: «وهذا لسان عربي مبين[٤]». وصريح من هذا أنه لم يقم عند محمد صلى الله عليه وسلم ومعشره فرق هام بين لغة القرآن وبين لغة العرب، أي قبائل البدو.

٥ ــ لقد وصل القرآن الينا معرباً بطريق التواتر، ولا يكذب الخبر المتواتر إلا كل أحمق يجهل أبسط القواعد العلمية في التحقيق.

٦ ــ لقد وصل الحديث الشريف الينا معرباً أيضاً. ونحن نعلم مقدار حرص رواته على نقله بضبط وأمانة.

٧ ــ أما ما قيل عن اختلاف القراء في إعراب بعض الآيات فسببه أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وأهم هذه الأحرف جميعاً هو اختلاف اللهجات.

٨ ــ أما الحديث الذي وردت فيه كلمة (اللحن)، فليس فيه دليل على وجود اللحن لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن هذه الكلمة لم يكن لها في ذلك العهد معنى الخروج على القواعد، وكيف يكون ذلك ولم يكن النحاة قد وُجِدوا لا هم ولا قواعدهم؟ إن (اللحن) كما وردر في الحديث كان يقصد منه سوء النطق وعدم وضوحه.

٩ ــ إن ما ورد من الأحاديث التي فيها حض على إعراب القرآن ليس فيها دليل على شيء، لأن كلمة (الإعراب) التي وردت فيها لم تكن تعني تحريك أواخر الكلمات، وكيف تعني ذلك ولم يكن الإعراب ولا النحو قد خلق بعد؟ لقد عنى الرسول صلى الله عليه وسلم بكلمة (الإعراب) وضوح المنطق وظهور المخارج، وخلو التلاوة من عيوب اللسان التي تذهب بالكثير من حلاوة القرآن.

---

(١) سورة التوبة ٣.

(٢) سورة البقرة ١٢٤.

(٣) سورة النساء ٨.

(٤) سورة النحل ١٠٣.

١٠ ــ ومع ذلك فإن كل هذه الأحاديث موضوعة، وإذن يمكن اتخاذها شواهد على شيء.

١١ ــ أما ما قيل عن دقة القواعد الإعرابية وصعوبة تطبيقها في لغة الخطاب فليس بشيء، لأن دقة الإعراب ليست بمانعة أحداً من التخاطب بلغة معربة، فهذه اللاتينية في العصور القديمة، والألمانية في العصر الحاضر، يشتمل كل منهما على قواعد وإعراب ربما لا يقل في دقته وتنوعه عن إعراب العربية الفصحى. ومع ذلك لا تزال الألمانية لغة تخاطب بين الألمان، وظلت اللاتينية مدة طويلة لغة تخاطب بين الرومان (١).

١٢ ــ أما دعوى أن العاميات خالية من ظاهرة الإعراب، واتخاذ ذلك دليلاً على خلو الفصحى القديمة منه أيضاً فمردود، لأن اللهجات العربية الحديثة لم تتجرد كلها من آثار الإعراب، فما تبرح هذه الآثار ظاهرة في أقوال البداة في مواطن متفرقة من العالم العربي، كأنها تجميد لبقايا يستحيل عليها العدم التام، والاضمحلال المطلق، أو كأن طبيعة هذه اللغة العربية تأبى عليها أن تفقد ظاهرة الإعراب الى الأبد، ويروي أحد الرحالة الإنكليز، في القرن التاسع عشر الميلادي، أنه سمع الحركات الإعرابية تلتزم في وسط الجزيرة على ألسنة الناس في المدن.

١٣ ــ أما الادعاء بأن العامي يفهم الخبر الذي نقرؤه عليه مهما تعمدنا الخطأ في إعراب كلماته، واتخاذ ذلك حجة على أن علامات الإعراب ليست دوال على معان نحوية، فتلك مغالطة لا تحتمل، لأن الشخص المذكور عندما نفسد عليه إعراب الكلمات سيجد نفسه أمام خليط من الألفاظ والتعابير ليس عامياً كله فيفهمه فهم العامة، ولا فصيحاً كله فيفهم منه بعضه على قدر استعداده، وإنما سيفهم الفكرة فهماً سقيماً مشوهاً، فهو ــ على جهله التام بقواعد الإعراب ــ لا يستوعب جزئيات الفكرة، ولا يلمح الترابط بين أجزائها إلا اذا قرئت عليه قراءة

---

(١) حدثني صديق لي كان يدرس الهندسة في تشيكوسلوفاكيا أن حالات الاسم تبلغ في اللغة التشيكية في بعض الأحيان الثلاثين. ومع ذلك لا يشعر القوم هناك بشيء من الصعوبة في التحدث بلغتهم على ما تقتضيه قواعدها.

نحوية صحيحة، ولذلك يسلك هذا الشخص في السمعيين لا البصريين، فهو يفهم الخبر الذي يتلوه المذيع وهو يستمع اليه أكثر مما يفهمه إذا قرأه بنفسه وهو ينظر في الصحيفة، لأن المذيع يراعي أحكام الإعراب فيفصح و يبين، أما قارىء الصحيفة فيفقد الروابط الحقيقية بين ألفاظ يعرف بعضها عن طريق الألف والعادة، ويجهل بعضها الآخر لأنها لم تطرق سمعه، فهذا القدر المحدود من الفهم ـــ الذي يتفاوت بتفاوت الأشخاص والثقافات ـــ ليس مصدره فقدان الحركات الإعرابية، وإلا لكان يجب أن يكون فهماً تاماً من كل وجه، وهو ما ينكره الواقع و يأباه.

* * *

انتهت حجج الفريق الثاني على الفريق الأول، وهي ـــ كما ترى ـــ حجج وردود كافية وافية شافية. ومع ذلك، نحب أن نقول شيئاً في الموضوع:

١ ـــ إن دعوى التعقيد في القواعد العربية وصعوبة تطبيقها دعوى باطلة من جهتين: أولاهما أن بعض الألسن تبلغ من التعقيد ما يجعل العربية تبدو بإزائه لساناً في غاية البساطة والسهولة [١]، وثانيتهما أن الفعل اللغوي فعل يأتيه الإنسان بالسليقة والغريزة من غير أن يشعر بما يشتمل عليه من الذي يكشف عما في الأفعال الإنسانية من تعقيد عجيب، أما الإنسان نفسه فإنه يقوم بهذه الأفعال وكأنها أمور في غاية البساطة والسهولة. حدثني أحد أصدقائي ـــ وهو من المختصين في علوم الرياضيات ـــ أن في خطوة واحدة يخطوها الإنسان من التعقيد الهائل ما يعجز علم الميكانيك عن وضع معادلة لها، على الرغم من التقدم الكبير الذي أحرزه هذا العلم أخيراً. فإذا صح هذا ـــ وهو صحيح ـــ فهل يمكننا أن نتخذه حجة لنقول: إن الناس لا يمشون لصعوبة المشي وتعذر تطبيق ميكانيكيته؟.

٢ ـــ إن الأخبار قد كثرت عن حوادث سوء التفاهم التي كانت تحدث بسبب خطأ أحد المتخاطبين في قواعد الإعراب، فمن ذلك ما ورد في العقد

---

(١) انظر الحاشية السابقة.

الفريد[1] من أنه «دخل على الوليد بن عبد الملك[2] رجل من أشراف قريش، فقال له الوليد: من خَتَنَك؟ [بفتح النون] قال له: فلانٌ اليهودي، فقال: ما تقول؟ ويحك! قال: لعلك إنما تسأل عن خَتَني يا أمير المؤمنين؟ هو فلان ابن فلان[3]».

فهذا الخبر وأمثاله إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أن حركات الإعراب كانت هي المحددة للمعاني التي يقصد إليها المتكلم. ولو لم تكن كذلك لما حدث سوء تفاهم عند التخليط فيما بينها.

٣ ــ إن الأخبار كثرت أيضاً عن أن العرب كانت تدرك أن الاختلاف في حركات الإعراب يؤدي إلى اختلاف المعاني، وإن لم يكن هذا الإدراك من نوع الإدراك العلمي التحليلي.

قال ابن جني[4]: «وسألت الشجري[5] يوماً فقلت: يا أبا عبدالله، كيف تقول: (ضربت أخاك)؟ فقال: كذاك. فقلت: أفتقول: (ضربت أخوك)؟ فقال: لا أقول (أخوك) أبداً. قلت: فكيف تقول: (ضربني أخوك)؟ فقال: كذاك. فقلت: ألستَ زعمت إنكَ لا تقول (أخوك) أبداً؟ فقال: أيْشٍ ذا؟! اختلفت جهتا الكلام. فهل هذا في معناه إلا كقولنا نحن: صار المفعول فاعلاً، وإن لم يكن بهذا اللفظ البتة فإنه لا محالة». انتهى كلام ابن جني.

فهل بعد هذا شك في أن حركات الإعراب كانت مورفيمات تدل على مقولات نحوية؟!

---

(١) جـ٢ ص ٤٨٠ تحقيق أحمد أمين وزميليه، القاهرة ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م.

(٢) وقد عرف الوليد باللحن.

(٣) ختن: فعل ماض، ومعناه معروف. أما الختن (بفتحتين) فهو الصهر أو كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ. والجمع اختان (عن القاموس المحيط). وظاهر من الخبر أن القرشي فهم من قول الوليد: (من ختنك) الفعل، أي فعل الختان، على حين كان الوليد يقصد الصهر، ولكنه لفساد لسانه فتح حيث يجب أن يرفع فأفهم سامعه غير ما كان يقصد إليه.

(٤) الخصائص جـ١ ص ٣٥٠. وورد الخبر نفسه في صفحة ٧٦ من الجزء نفسه، ولكن في عبارة تختلف اختلافاً يسيراً.

(٥) هو عبدالله محمد بن العساف العقيلي التميمي، اعرابي وفد الموصل، أخذ عنه ابن جني، وكثيراً ما كان يتخذ منه مساعداً أو موضوعاً لتجارب لغوية كما ترى في الخبر أعلاه.

٤ ــ إن وجود الإقواء في القافية لأكبر دليل على ان العرب كانت تستعمل حركات الإعراب للدلالة على المعاني المختلفة، فكانوا لحرصهم على المعنى الذي يريدون يثبتون الحركة الدالة عليه وإن خالفت حركة الروي لسائر أبيات القصيدة، ولو لم يكن الأمر كذلك لما ضحوا بالموسيقا التي تنتج من وحدة الحركة في كل الأبيات.

ولا بأس ههنا أيضاً من إيراد هذا الخبر الذي يدل على أن العرب كانوا حتى نهاية القرن الرابع يحرصون على حركات الإعراب، و يلتزمونها للدلالة على ما تدل عليه ولو أدت الى الإقواء في الشعر وضياع موسيقاه:

قال ابن جني [١].

وأنشدنا أبو عبدالله الشجري يوماً لنفسه شعراً مرفوعاً [٢]، وهو قوله:

نظرت بسنجار كنظرة ذي هوىً ... رأى وطناً فانهل بالماء غالِبُهْ
لأونس [٣] من أبناء سعد ظعائناً ... يزن الذي من نحوهن مناسِبُهْ

يقول فيها يصف البعير:

فقامت اليه خَذْلَةُ الساق أعلقت ... به منه مسموماً دوينة حاجبِهِ [٤]

فقلت: يا أبا عبدالله، أتقول (دوينة حاجبِهْ) مع قولك (مناسبُهْ و (أشانِبُه)! فلم يفهم ما أردتُ، فقال: فكيف أصنعُ؟ أليس ههنا تضعُ الجَرير على القَرمة، على الجَرفةِ [٥]! وأومأ الى أنفه، فقلت صدقتَ، غير أنك قلت (أشانبُهُ)

---

(١) الخصائص جـ١ ص٢٤٠-٢٤٢.

(٢) أي مضموم حركة الروي.

(٣) أونس: أبصر.

(٤) خدلة السارق: ممتلئتها، وكأنه يريد بالمسموم الخطام تشده في أنفه. و(دوينة) تصغير (دون).

(٥) الجرير: سير من جلد يجعل على أنف البعير ليذله. و(القرمة) ــ بفتح القاف وكسرها ــ من سمات الابل، تكون فوق الأنف، وكذا الجرفة، إلا أنها دون الأنف. ولعل القارىء لاحظ أن الاعرابي أبا عبدالله الشجري ظن أن ابن جني يعترض عليه لجعل الخطام، أي الجرير، على الأنف تحت الحاجب، ولم ينتبه أن ابن جني يعترض على الاقواء الذي جاء في (دوينة حاجبه).

و (غـالـبُه)، فلم يفهم، وأعاد اعتذاره الأول. فلما طال هذا قلت له: أيحسن أن يقول الشاعر:

آذنــتــنــا بــبــيــنــهــا أســمــاءُ   رُبَّ ثــاوٍ يُــمَــلُّ مــنــه الــثَّــواءُ

ـــ ومطلت الصوت ومكنته ـــ ثم يقول مع ذلك:

مَلَكَ المنذرُ بن ماء السمائي

فأحسَّ حينئذ، وقال: أهذا من ذاك، إن هذا طويل، وذاك قصير.

المقُولات النحوية

يراد بمصطلح المقولات النحوية المعاني التي يعبر عنها بواسطة المورفيمات. فالنوع والعدد والشخص والزمن والحالة الفعلية والتبعية والغاية والآلة..الخ، كلها مقولات نحوية في الألسن تسعى المورفيمات الى التعبير عنها. ويستطيع كل منا أن يتصور ضخامة عددها، وتنوع مذاهبها بالرجوع الى معارفه اللغوية. وكما يختلف عدد المورفيمات تبعاً للألسن، كذلك يختلف بطبيعة الحال عدد المقولات، وكلما ضؤل نحو اللسان، قلت المقولات فيه. ولكن بعض الألسن فيها عدد كبير منها[1].

إن دراسة النحو العربي عن طريق المقولات النحوية ليس شيئاً جديداً، فقد عرفه القدماء ومارسوه في كثير من أبواب النحو، كالشرط والاستفهام وغيرهما، كما نجد في علم المعاني مقولات أخرى درست على هذه الطريقة، كمقولة النفي والتوكيد وغيرهما. غير أن بقية المقولات النحوية ــ وهي كثيرة ــ لم تحظ بهذا النوع من الدراسة، وذلك إما لأنها لم تكن في رأي اللغويين القدماء ذات علاقة (بمقتضى الحال) الذي كان محور الدراسة في علم المعاني. وإما لأن مورفيمات ــ أو أدوات ــ كل مقولة ذات آثار إعرابية مختلفة، أدى اختلافها في الأثر الإعرابي الى تفريقها على الأبواب النحوية المختلفة، وذلك هو شأن النفي وبيان السبب وغيرهما.

وقد كان للباحثين المحدثين محاولات لدراسة النحو العربي كله على هذا النهج

(١) فندريس: اللغة ص١٢٥.

الحديث في الدراسة، ولكنها ظلت محاولات محدودة، يمكن فقط أن تعد نماذج أو خطوات أولى في هذا الدرب الطويل(١).

وسنقدم للقارىء دراستين لمقولتين نحويتين اثنتين فقط: أولاهما من فقه اللغة الوصفي، وسننهج فيها المنهج الوصفي، وسنتناول فيها مقولة خاصة باللسان العربي هي مقولة التوكيد. والغاية من هذه الدراسة اطلاع القارىء على هذا النمط من الدراسة اللغوية الذي يفضل اليوم. أما الثانية فهي من فقه العام وستجري على المنهج المقارن، وسنتناول فيها مقولة من أكثر المقولات النحوية شيوعاً في الألسن، وهي مقولة الجنس. والغاية من هذه الدراسة إظهار ما بين المنطق العقلي والمنطق اللغوي من فروق جسيمة تجعل كل محاولة لتطبيق المنطق العقلي على الأمور اللغوية محاولة عقيمة مصيرها الإخفاق الذريع.

---

(١) من ذلك مثلاً رسالة جامعية للمؤلف تحت عنوان (فصيلة الزمن في العربية) الجامعة السورية ١٩٥٦. ومنه أيضاً محاولة أوسع وأشمل قام بها الدكتور مهدي المخزومي في كتابه (في النحو العربي — نقد وتوجيه). بيروت ١٩٦٤.

مقولة التوكيد في العربية

التوكيد: تثبيت الشيء في النفس، وتقوية أمره.

والغرض منه: إزالة ما علق في نفس المخاطب من شكوك، وإماطة ما خالجه من شبهات [1].

وقد أولعت العربية بهذه المقولة النحوية ولوعاً زائداً، حتى لا تكاد جملة من جملها تخلو من أداة من أدواتها، أو صورة من صورها.

وللعربية في التوكيد طرائق مختلفة، وأساليب متعددة: فقد تؤكد الاسم وحده، وقد تؤكد الفعل وحده، وقد تؤكد مضمون الجملة كلها. ولها في كل ذلك سبل متنوعة: فقد تستعمل الاداة، وقد تستعمل التكرار، وقد تستعمل القسم، وقد تستعمل غير ذلك.

وإليك تفصيل ما تقدم:

١ ــ التوكيد بالتكرار اللفظي:

و يكون بتكرار اللفظ الذي ظن المتكلم أن سامعه في غفلة عنه أو في شك من أمره.

فإن ظننت بسامعك الغفلة عمن سافر قلت: سافر زيد زيد وكذا إن لاحظت في سامعك الشك فيمن سافر.

أما إذا ظننت بسامعك الغفلة عما فعل زيد، أو الشك فيما فعله زيد، قلت له: سافر سافر زيد.

---

(١) مهدي المخزومي: في النحو العربي ص٢٣٤.

أما إذا ظننت بسامعك الغفلة عن كل ما قلته له، كررت الجملة كلها، فقلت له: سافر زيد سافر زيد.

ـ التوكيد بالتكرار المعنوي:

و يكون باحد طريقين: أولهما أن تكرر مفرداً من مفردات الجملة بلفظ آخر يؤدي معناه، ويحصل ذلك باستعمال الكلمات الآتية: النفس، والعين، وكلا، وكلتا، وجميع، وأجمع، وأكتع، وأبصع، تقول: جاء زيد نفسُه، ورأيت عمراً نفسَهُ، ومررت بخالد عينِهِ، وجاء الزيدان كلاهما، ورأيت البنتين كلتيهما، وسافر القوم كلهُّم، أو جميعُهم، أو أجمعُهم، أو أجمعون، أو أكتعون، أو أبصعون.

ومن هذا النوع أن تؤكد الضمير المستتر بضمير منفصل، فتقول: إحفظ أنت درسك، أو أن تؤكد الضمير المتصل بآخر منفصل، فتقول: حفظتَ أنت درسك.

وظاهر أن هذا النوع من التوكيد هو مثل التوكيد بالتكرار اللفظي، ففي كليهما وجدنا اللفظ الموكِّد (بكسر الكاف) يدل على ما دل عليه اللفظ المؤكَّد (بفتح الكاف)، فألفاظ النفس والعين رموز للذات المذكورة، شخصاً كانت أم شيئاً، أما ألفاظ كلا وكلتا وكل وجميع وأجمع وأكتع وأبصع، فهي ألفاظ تدل على شمول الذات كلها، ولا شك أن الشيء أو الشخص يساوي مجموعة، والأمر واضح فيما يتعلق بالضمائر. فكل من الضمير المنفصل المؤكّد، وما يؤكده من ضمير مستتر أو بارز متصل، يدل على ذات واحدة.

الفرق إذن بين نوعي التكرار أن التكرار اللفظي هو إعادة ذكر المفرد بلفظه، وأن التكرار المعنوي هو إعادة المفرد بلفظٍ آخر دالٍ عليه. وهناك فرق آخر: التكرار اللفظي يمكن تطبيقه في مجال الأفعال والحروف والظروف، فتقول: جاء جاء زيد، وجلس زيد في البيت في البيت، وأجلس بين رفاقك بين رفاقك.. الخ. ولا يمكن ذلك في التكرار المعنوي، لأن ألفاظ هذا النوع اسماء تدل على ذوات فقط، لا على أفعال، ولا على حروف.

الطريق الثاني من التوكيد بالتكرار المعنوي هو ما كان قائماً على تكرار مضمون الجملة الأولى بجملة أخرى ذات لفظ مختلف. ومن ذلك قوله تعالى:

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، و يأمرون بالمعروف، و ينهون عن المنكر». ففي قوله تعالى: (يأمرون بالمعروف و ينهون عن النكر) تكرار للمعنى المتحصل من قوله تعالى: (يدعون إلى الخير).

و يشترط في هذا النوع من التوكيد أن يفصل بين الجملة المؤكَّدة، والجملة المؤكّدة بالواو كما جاء في الآية أعلاه، وإلا كانت الجملة الثانية في موقع التفسير للجملة الأولى، أو موقع البدلية، أو البيان.

وعلى كل فإن هذا النوع من التوكيد لا يدخل في الدراسة النحوية، لعدم وجود علاقة له بنظم الجملة وتركيبها، ذلك النظم الذي هو الموضوع الوحيد للنحو. وإنما يدخل في علم الأساليب (الستلستيك). وقد فطن إلى ذلك علماؤنا القدماء فجعلوه في علم المعاني لا في علم النحو وأفاضوا فيه هناك إفاضة زائدة.

٣ ـ التوكيد بالفصل:

و يقوم على الفصل بين المبتدأ وخبره بضمير يدعى ضمير الفصل، نحو: زيد هو المسافر. والتوكيد ههنا ـ كما هو ظاهر ـ للمبتدأ فقط.

ويمكن ضم هذا النوع من التوكيد إلى النوع السابق، وهو التوكيد بالتكرار المعنوي، إذ واضح أن ضمير الفصل يعود على المبتدأ وهو هو نفسه.

٤ ـ التوكيد بالتقديم:

و يقوم على تقديم ما حقه التأخير لزيادة تثبيته في نفس السامع، وإثارة الانتباه إليه. و ينبني هذا النوع من التوكيد على قضية نفسانية توجد عند كل الشعوب، فلا شيء يثير الاهتمام والانتباه مثل مخالفة المألوف وما جرت عليه العادة.

ومن أمثلة ذلك أن تقدم المفعول على الفعل والفاعل، فتقول: زيداً ضربت، أو أن تقدم الظرف على متعلقه، فتقول: في الغرفة أجلس.

هذا ويحسن التنبيه إلى ما ورد في صدر هذه الفقرة من أن التقديم الذي يراد منه التوكيد هو تقديم ما حقه التأخير في نظام الجملة العربية، فأما إذا قدم ما

حقه أن تكون له الصدارة، لم يكن في ذلك شيء من توكيد، وذلك كتقديمك أدوات الشرط والاستفهام التي لها دائماً الصدارة في الكلام، مثل: من جاء؟ وأين أخوك؟ وأيكم مسافرٌ؟ وماذا قرأت؟ ومهما تقرأ تستفد، وأينما تجلس ترتح.. الخ، وكتقديمك الخبر الظرف على مبتدئه النكرة، نحو: في الحديقة أزهار جميلة، وكتقديمك المبتدأ، نحو: زيد عالم، والفعل، نحو: جاء زيد.

فكل ما تقدم في هذه الأمثلة إما أنه واجب التقديم كأدوات الشرط والاستفهام، وإما أن حقه التقديم كما تنص على ذلك قواعد نظم الجملة العربية، وإذن فليس في كل ذلك توكيد، لأنه جاء على مألوف العادة فلم يُثر لدى السامع انتباهاً.

٥ ــ التوكيد بالتعريف:

ويقوم على تعريف ما حقه أن يكون نكرة. ويجرى ذلك في الخبر، فتقول: زيد العالم. وأصل الكلام (زيد عالم) إلا أنك أردت التوكيد، وبيان أن زيداً هو العالم وحده دون غيره، فعرفت الخبر لتصل إلى ما تريد.

ويكثر في هذا الموطن حشر ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر لزيادة التوكيد من جهة، ولدفع التباس الأخبار بالوصف، فتقول: زيد هو العالم.

ويمكن رد هذا النوع من التوكيد إلى النوع الذي سبقه، أي التوكيد بالتقديم، وذلك إذا اعتبرنا (العالم) هو المبتدأ المؤخر، و(زيد) هو الخبر المتقدم. والمعنى واحد في كلا وجهي الإعراب الجائزين.

٦ ــ التوكيد بالمصدر:

وهو ما يسمى بالمصدر المؤكد لفعله (نوع من أنواع المفعول المطلق)، نحو: مزَّقت الكتاب تمزيقاً.

ويكثر في أمثال هذه الجملة أن يوصف المصدر المؤكد بوصف دال على الشدة، نحو: مزقت الكتاب تمزيقاً شديداً، أو قوياً، أو عنيفاً.. الخ.

ويمكن رد هذا النوع من التوكيد إلى نوع التوكيد بالتكرار اللفظي، على اعتبار أن لفظ المصدر المؤكد هو من لفظ الفعل المؤكد إلا أن صيغة الأول إسمية، وصيغة الثاني فعلية.

٧ ــ التوكيد بالتضعيف:

ويقوم على تشديد حرف من حروف الكلمة أو على تكراره. ومنه (كسّر) و(أحمرّ) و(احمارّ) و(اعشوشب) و(ادلهمّ) و(علاّم) و(سكّير)... الخ. وهذا ما يسمى في الصرف بالمبالغة. وليست المبالغة إلا نوعاً من التوكيد وتقوية المعنى.

ويمكن أن نرد هذا النوع إلى نوع التوكيد بتكرار اللفظ، ولكنه ليس تكراراً للفظ كله، بل هو تكرار لحرف واحد من حروفه.

٨ ــ التوكيد بالنفي:

ويقوم على أن تنزع من حكمك كل ما تخشى على السامع أن يشركه فيه، فمن ذلك العطف بالنفي في قولك: اقرأ الكتابَ لا الجريدةَ. فانت حين خفت أن يشرك السامع الجريدة في حكم القراءة نزعتها من هذا الحكم بوساطة النفي، وحصرت حكم القراءة في الكتاب وحده. فهذا إذن حصر. وليس الحصر في واقعه إلا نوعاً من أنواع التوكيد.

ويمكن أن نعد من هذا النوع كل الجمل الاعتراضية التي تأتي لتقوية الكلام، نحو: أنت ــ وليس غيرك ــ من يعرف الواجب.

هذا ويمكن رد هذا النوع من التوكيد إلى نوع التوكيد بالتكرار المعنوي، إذ هو تكرار للشيء نفسه عن طريق السلب لا الإيجاب.

٩ ــ التوكيد بالقسم:

وهذا لا يكون إلا بجملة تدعى جملة القسم. وتدعى الجملة التي تليها والتي هي موضوع التوكيد بجملة جواب القسم.

وجملة القسم على نوعين: فعلية، واسمية.

والفعلية على أشكال: فإما أن يكتفى بفعل القسم وحده مع فاعله مثل قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً   وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بُلغتَ عني وشاية   لمبلغك الواشي أغش وأكذب

وإما أن يلحق بالجملة المقسم به مجروراً بالباء، مثل: أقسم بالله لأحفظن العهد.

وقد يكتفى بالمقسم مجروراً بأحد الحروف الثلاثة: الباء، والواو، والتاء، مثل: بالله لأسافرن ـ والله لأسافرن ـ تالله لأسافرن. فأما الباء فيحذف معها فعل القسم جوازاً، وأما الواو والتاء فحذف فعل القسم معهما واجب، إذ لم يسمع عن العرب أنهم قالوا: أقسم والله، أو أقسم تالله.

وأما جملة القسم الاسمية فعلى ضربين: إما أن يذكر المبتدأ فيجب حينئذٍ حذف الخبر، وإما أن يذكر الخبر فيجب عندئذ حذف المبتدأ. فمن الضرب الأول قول طرفة:

لعمرك إن الموت ـ ما أخطأ الفتى ـ   لكالطولِ المرخى وثنياه في اليد

ومن الضرب الثاني قولك: في ذمتي لأكافئنك.

فتقدير الأول (عمرك قسمي)، وتقدير الثاني (عهد في ذمتي).

هذا، وجملة جواب القسم تلحقها بعض أدوات التوكيد في حالات خاصة مما سيأتي ذكره بعد قليل.

١٠ ـ التوكيد بالأداة:

وأدوات التوكيد في العربية كثيرة، منها ما يباشر الاسم، ومنها ما يباشر الفعل، ومنها ما لا يختص بأحدهما.

(إنَّ): حرف يستعمل للتوكيد، مختص بالجمل الاسمية، فلا يرى في الفعلية إطلاقاً، وإذا دخل على الجملة الاسمية انتصب المبتدأ، وبقي الخبر مرفوعاً. مثل: إن زيداً شاعر.

لا يباشر هذا الحرف إلا المبتدأ، فتقول: أن زيداً شاعرٌ، ولا يجوز أن تقول:

إن شاعرٌ زيداً، إلا إذا وقع الخبر ظرفاً، فعندئذ يجوز تقدمه على المبتدأ، فتقول: إن في الدار زيداً (١).

لهذا الحرف الصدارة في جملته. ووظيفته تثبيت الشيء حين يكون المخاطب طالباً ذلك. كما يخفف في بعض الأحيان فتقول: إنْ زيدٌ لشاعرٌ.

(أنَّ): وهم القدماء فعدوها حرف توكيد وهي ليست كذلك. إنما هي حرف وصل مثل (أنْ) الداخلة على المضارع والماضي، والتفسيرية الداخلة على الأمر. فكل هذه في الواقع حرف وصل واحد يشدد إن دخل على الجملة الاسمية، ويخفف إن دخل على الجملة الفعلية، تقول:

علمت أنَّك مسافر
أريد أن تذهب معي
سافر زيد بعد أن غربت الشمس
كتبت إلى أبي أن أرسل لي مالاً (٢)

ففي كل عبارة جملتان: أولاهما ابتدائية، والأخرى معمولة ربطت بالابتدائية بأداة الوصل (أنْ) أو (أنّ).

(ل): حرف للتوكيد. وله مواقع كثيرة: فيدخل على المبتدأ، نحو: لأنتم أشد قوة، و يباشر المضارع المؤكد بالنون في جملة جواب القسم، نحو قولك: والله لأكافئنك، وقد يأتي في جواب قسم مقدر، مثل:

لاستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمل إلا لصابر

وقد يأتي مع قد لتوكيد الماضي كقوله: تالله لقد آثرك الله علينا، وقد يقع في

---

(١) نقول هذا بمقتضى المنهج الوصفي الذي اصطنعناه في هذه الدراسة. لكن للنحاة رأياً آخر، فهم يعلقون الظرف بخبر محذوف، هو كون عام يقع في الرتبة بعد الاسم، والتقدير عندهم: إن في الدار زيداً كائن. وهو تكلف ظاهر كما ترى، ساقهم إليه حرصهم على طرد القاعدة القائلة: إن الخبر لا يتقدم المبتدأ في باب (إن).

(٢) انظر كتابنا: المنهاج في القواعد والاعراب (حرف أن)، وكتاب مهدي المخزومي: في النحو العربي ص٣١٧.

جواب (لو) و(لولا)، مثل: لو جئتني لاكرمتك، ولولا المطر لهلك الزرع. وإن دخلت على جملة اسمية مؤكدة بـ(إن) تأخرت عنها ولحقت الطرف الثاني من الجملة، فإن كانت (إن) في المبتدأ كانت اللام في الخبر، والعكس بالعكس، مثل: إن الله لغفور رحيم، وإن علينا للهدى، وإن لنا للآخرة والأولى.

ولهذه اللام في كتب النحو أسماء كثيرة: فهي لام الابتداء إن دخلت على المبتدأ، وهي المزحلقة إن كانت مع (إنَّ) المشددة، وهي الفارقة إن كانت مع (إنْ) المخففة، وهي الواقعة في جواب القسم، وهي الواقعة في جواب (لو) و(لولا) وهي الموطئة للقسم مع (إنْ) الشرطية.

(قد): حرف توكيد يكثر دخوله على الماضي، مثل:

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً فما اعتذارك من قول إذا قيلا

و يقل دخوله على المضارع لافادة التوكيد، مثل: قد يعلم الله السرائر.

(هل): حرف توكيد بمعنى (قد). يدخل على الماضي لتوكيده، نحو قوله تعالى: هل أتى على الإنسان حين من الدهر، ونحو قول زهير:

ألا أبلغ الآحلاف عني رسالة وذبيانَ هل أقسمتُم كلّ مُقَسمِ

(ن) التوكيد: وهي على ضربين: مشددة ومخففة، فإن أردت التوكيد الأقوى شددتها، وإن أردت غير ذلك خففتها.

هذه النون مختصة بالأفعال: فأما دخولها على الأمر فجائز، مثل: أكتبن درسك. وأما دخولها على الماضي فشاذ، مثل: دامنّ فضلك، وأما دخولها على المضارع فله ثلاثة أحكام: الوجوب والجواز والامتناع.

فأما الوجوب فيكون إذا وقع المضارع جواباً لقسم متصلاً بلامه مثبتاً مستقبلاً مثل: والله لأحافظن على العهد. وأما الامتناع فيكون إذا وقع المضارع جواباً لقسم واختل شرط من الشروط الثلاثة الباقية، وهي الاتصال باللام، والثبوت، والاستقبال، فتقول: والله لسوف اكافئك، ووالله لن تجد عندي ما يسؤك، ووالله لاسافر الآن. ففي كل هذه الأمثلة لا يجوز دخول نون التوكيد على المضارع. وأما

الجواز فيكون إذا سبق المضارع بأداة من أدوات الطلب، مثل لام الأمر، و(لا) الناهية، و(ألا) و(هلاّ)، وما شابهها، أو إذا سبق بـ(إنْ) الشرطية التي أدغمت بها (ما) الزائدة، نحو قوله: فامّا ترينَّ من البشر أحداً فقولي...

(ل) الجحود: هي حرف لتوكيد النفي الواقع على «كان» في حال مجيء الخبر فعلاً مضارعاً، مثل: ما كنت لأخونَ العهد. وهذا هو سبب تسميتها بلام الجحود، لأن الجحود هو النفي نفسه.

(إنما): حرف للتوكيد مؤلف من (إنَّ) و(ما) الزائدة.

يدخل هذا الحرف على الجمل الفعلية والاسمية على حد سواء، نحو: إنما المؤمنون إخوة، وإنما حرَّم عليكم الميتة.

(ما + إلا): حرفان يستعملان في نوع من التوكيد يسمى القصر. مثل ما زيد إلا شاعر. ويجوز أن يحل محل (ما) أي أداة من أدوات النفي الأخرى، مثل: إن هذا إلا ملك كريم، وليس الطيب إلا المسك، ولن أكتب إلا درسي، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

(ب): هو حرف يزاد في سياق النفي لتوكيده وتقويته. و يكثر دخوله على الخبر المنفي، كقوله: لست عليهم بمسيطر. و يقل فيما سوى ذلك، كدخوله على الحال المنفية، نحو قول الشاعر:

فما رجعت بخائبة ركاب   حكيم بن المسيب منتهاها

ويمكن أن نلحظ هنا أن (خائبة) شبيه بالخبر، لأن فعل (رجعت) فيه شيء من رائحة الفعل الناقص.

هذا وتزاد الباء بعد إذا الفجائية، نحو: خرجت فإذا بزيد، وبعد (كيف) نحو: كيف بك إذا كان كذا وكذا.

(من): حرف يزاد للتوكيد في سياقين: سياق النفي، وسياق الاستفهام. و يكون دخوله على المبتدأ أو الفاعل أو المفعول، مثل: ما جاء من أحد، وهل جاء من أحد؟ وما رأيت من أحدٍ، وهل رأيتَ من أحد؟ وما من أحد عندنا، وهل من أحد عندكم؟

(إنْ): حرف يزاد للتوكيد. وأكثر ما يأتي بعد (ما) النافية، سواء أوليتها جملة فعلية، كقوله:

ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه إذن فلا رفعت سوطي إليَّ يدي

أم وليتها جملة اسمية، كقوله:

فما إن طبنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا

وتقِل زيادتها بعد (ما) المصدرية، كقوله:

ورجّ الفتى للخير ما إن رأيته على السنّ خيراً لا يزال يزيد

(أمّا): حرف شرط وتفصيل وتوكيد، نحو: أما زيد فشاعر، ولم يشر إلى معنى التوكيد فيها من القدماء سوى اثنين هما ابن جني وابن هشام.

* * *

هذا ملخص سريع للمورفيمات الكثيرة التي تستخدمها العربية للتعبير عن مقولة واحدة، هي مَقولة التوكيد. ولم نشأ التفصيل لأن مكانه ليس هذا الكتاب. إنما أردنا من هذه الدراسة أن تكون مثالاً فقط لنوع من الدراسة النحوية يعده اللغويون المحدثون هو الأمثل.

ولا بد أنه قد وضح لك مما تقدم أننا لم نأت بشيء جديد لم يسبقنا النحاة القدماء إليه، بل كررنا ما قالوه، ولكن في شكل آخر. نحن نظرنا إلى المعنى فحشرنا كل مورفيمات التوكيد في باب واحد قصرناه على مقولة التوكيد، وهم نظروا إلى الأثر الإعرابي ففرقوا هذه المورفيمات على الأبواب المختلفة: فلام الجحود في نواصب المضارع، والتوكيد اللفظي والمعنوي في التوابع، ونون التوكيد في بناء المضارع... وهكذا[1].

(١) للتوسع في الأدوات راجع كتاب المغني لابن هشام، أما فيما يتعلق بالتوكيد بالقصر وبالتقديم فراجع كتب علوم البلاغة (علم المعاني). وقارن هذا الفصل بما جاء في كتاب مهدي المخزومي: في النحو العربي ص٢٣٤-٢٤٥.

مقولة الجنس

تعد مقولة الجنس من أكثر المقولات النحوية شيوعاً في الألسن السامية والهندية الأوروبية. وهي في هذه الألسن قديمة جداً بحيث يعسر على الباحثين تعيين الزمن الذي نشأت فيه. وفي أقدم ما وصل إلينا من نصوص نجد مقولة الجنس تفرض نفسها بدرجة من الصرامة تجعل العقل لا يكاد يستحضر اسماً حتى يبدو الاسم أمامه مزوداً بجنسه الدي يميزه بجلاء. بل كثيراً ما تكون علامة الجنس هي المميز الوحيد الذي يملكه هذا الاسم، بحيث اذا سقطت هذه العلامة فقد الاسم معناه تماماً، أو تحول إلى معنى آخر، أنظر الى الكلمات الآتية: (داهية ــ مصيبة ــ نازلة ــ نائبة...) تجدها كلها تحمل علامة التأنيث، وتجدها كلها بمعنى البلاء. حاول الآن أن تنزع علامة التأنيث من كل منها، وستجد أنها فقدت معناها وتحولت الى معنى آخر: فالداهي هو الرجل المتصف بالدهاء، والمصيب هو ضد المخطىء، والنازل ضد الصاعد، والنائب كل من ينوب عن غيره في أمر من الأمور. هذه الظاهرة ليست قاصرة على العربية الفصحى، بل هي موجودة من الألسن، فبالجنس وحده نميز في العامية بين (الفرد) بمعنى الواحد أو المسدس، وبين (الفردة) بمعنى الكيس الضخم الممتلىء بالبضاعة، وبالجنس وحده أيضاً نستطيع أن نميز في الفرنسية بين (le poids) بمعنى الوزن، وبين (poix la) بمعنى القار، وبين (le pére) بمعنى الأب، و(la paire) بمعنى الزوج والشفع، وبين (le livre) الكتاب، و(la livre) بمعنى الواحدة القياسية في الوزن أو الورقة النقدية، وبين (le poêle) بمعنى بساط الرحمة، و(la poêle) بمعنى الموقد أو المقلاة.

وهكذا ترى أن علامة الجنس لا تكتفي بأن تفرض نفسها بشكل صارم على جميع كلمات اللسان، بل تكون في بعض الأحيان الوسيلة الوحيدة لتحديد معنى

الكلمة وتمييزها عن غيرها من الكلمات التي تشترك معها في اللفظ. وليس هذا فحسب، فإن سيطرة مقولة الجنس على الألسن التي توجد فيها تبدو بشكل آخر عندما نسمع أحد الأجانب يخلط بين المذكر والمؤنث. هناك نشعر أن غلط الأجنبي في الجنس أشنع الأغلاط التي يمكن أن يرتكبها، ونحس من ذلك بنفور ما بعده نفور، بل إن التفاهم بيننا بينه قد يصل الى درجة الانقطاع اذا ما تكررت أخطاؤه في موضوع الجنس النحوي.

ومع كل هذا تبدو مقولة الجنس أبعد المقولات النحوية عن المنطق العقلي، فقد أفهم أن تكون (الأتان) مؤنثة، وأن يكون (الحمار) مذكراً، ولكني لا أستطيع أن أفهم لِمَ كانت (الشمس) مؤنثة، وكان (القمر) مذكراً؟ إذ لا شيء يميز أحد هذين الجرمين السماويين عن صاحبه. ويزداد عجبك من أمر هذه المقولة النحوية عندما ترى شيئاً واحداً ينسب الى جنسين مختلفين في لسانين اثنين: فنحن في العربية نعد كلاً من (الباب) و (القمر) مذكرين، في حين تنظر الفرنسية إليهما على أنهما مؤنثان: (la porte, la lune). و(الشمس) في العربية مؤنثة، ولكنها في الفرنسية مذكرة (le soleil). ولو أمسكت بمعجم فرنسي عربي، أو فرنسي ألماني عربي، ثم رحت تتتبع هذا التناقض في مقولة الجنس بين هذه الألسن لما انقضى عجبك.

وأغرب من كل هذا وذاك أن يطلق **لسان واحد على شيء واحد اسمين مختلفين في الجنس**، فهل نستطيع أن نفسر لم كان (الشباك) مذكراً و «النافذة» مؤنثة، مع أن الاثنين لا يعنيان إلا شيئاً واحداً؟

يضاف الى هذا أن الجنس **غير ثابت في اللغة**. وقد لاحظ اللغويون الغربيون أن تغيرات الجنس خلال العصور كانت عديدة في تاريخ الألسن الرومانية والجرمانية والكلتية. ونحن في العربية نستطيع أن نجد كلمات كثيرة خضعت لظاهرة تغيير الجنس، «فالحرب» تعد في العامية مذكرة بعد أن كانت في الفصحى مؤنثة، على الرغم من كثرة ورود هذه الكلمة في الصحف والنشرات الإخبارية

الإذاعية موصوفة دائماً بصفات مؤنثة. و «الحمام» (١) أصبحت مؤنثة في العامية رغم أن الكلمة لا تحمل أي علامة تأنيث.

حاول اللغويون أن يفسروا ظاهرة تغير الجنس بأن الكلمة التي تحمل علامة جنسية مخالفة لجنسها ينتهي الأمر بها الى أن تسلك في الجنس الذي تحمل علامته. بهذا فسروا لماذا تستعمل العامية الفرنسية كلمات: exercice «تمرين» و orage «عاصفة» ouvrage «عمل» الخ.. على أنها مؤنثات مع أن الفرنسية الصحيحة تعدها في المذكرات(٢). وبه فسروا أيضاً سبب استعمال الكلمتين profête «نبي» و papa «بابا» مؤنثتين في العصور الوسطى، على الرغم من دلالتهما الواضحة على أشخاص ذكور. لكن هذا التفسير لا يشمل جميع الحالات. نعم نستطيع أن نفسر به سبب تذبذب الكلمات العربية «سِلْم ــ سوق ــ طريق» بين الجنسين(٣)، ثم صيرورتها الى التذكير واستقرارها عليه في العامية، كما نستطيع أن نفسر به سبب انتقال كثير من الكلمات من التأنيث إلى التذكير في العامية، مثل: قوس، دلو، بئر، ضلع.. الخ، فكل هذه الكلمات تحمل علامة التذكير التي هي الصفر في العربية(٤)، ولعلنا نستطيع أن نفسر به لِمَ انتقلت كلمة «ماء» من التذكير في الفصحى الى التأنيث في العامية، فلعل النهاية التأنيثية (اء) هي التي جرتها الى ذلك ولكننا لا نستطيع أن نفسر لم انتقلت كلمة (حمام) من التذكير الى التأنيث في لهجة حلب على الرغم من عدم وجود أي مورفيم تأنيثي في الكلمة.

من مظاهر التناقض بين مقولة الجنس النحوي وبين منطق العقل والواقع، أننا **نطلق كلمات مؤنثة نحوياً على أشخاص ذكور**، وأننا نطلق كلمات مذكرة نحوياً على أشخاص إناث، فكلمات «رحالة ــ علامة ــ فهامة» لا نقصد منها

---

(١) عندما نطلق كلمة (العامية) بغير تخصيص نكون نعني بها عامية حلب.

(٢) علامة التأنيث في الفرنسية هي حرف (e) في نهاية الكلمة.

(٣) التذبذب بين الجنسين، أي جواز التذكير والتأنيث في كلمة ما، مرحلة متوسطة في انتقال الكلمة من جنس الى جنس آخر.

(٤) انظر معنى المورفيم الصفري في فصل المورفيمات.

إلا رجالاً، كما أن كلمات «ظئر ــ مرضع ــ حامل ــ حائض ــ طالق» لا نعني بها إلا نساء. قد تقول: ولكن التأنيث الذي لحق الطائفة الأولى من الكلمات كان القصد منه المبالغة لا التأنيث الحقيقي، وإن التذكير اللفظي الذي في كلمات الطائفة الثانية سببه عدم الحاجة الى تأنيث كلمات لا يمكن أن يفهم منها إلا نساء بالضرورة، إذ لا يمكن للرجل أن يحيض أو يحبل ويحمل. هذا صحيح، ولكنه لا ينقص مما قلناه شيئاً، فنحن لم ندع بأن اللغة تحول النساء إلى رجال، والرجال إلى نساء كما يفعل بعض الجراحين اليوم، وإنما قلنا إن اللغة تطلق على ذكور حقيقيين أسماءً هي مؤنثة في مقاييسها اللغوية، وإنها تطلق على إناث حقيقيات كلما هي مذكرة في عرفها النحوي. أما لماذا تفعل ذلك مخالفة للواقع فهذا ليس من شأننا. ثم إن الادعاء بأن تذكير (المرضع والحائض) كان لعدم الحاجة الى التفريق، غير مقبول، إذ هناك صفات كثيرة مما يشترك فيه الرجال والنساء، ومع ذلك لا تحاول اللغة أن تفرق بينها في التأنيث والتذكير، من ذلك ما نعرفه في العربية من أن كل ما جاء على (فعول) بمعنى فاعل، أو على (فعيل) بمعنى (مفعول) استوى فيه المذكر والمؤنث، مثل: «عجوز ــ غفور ــ قتول ــ ذمول ــ طموح ــ قتيل ــ جريح ــ...الخ»، وإذا قلت إن التاء المربوطة في «رحالة وعلامة وفهامة» للمبالغة لا للتأنيث، فماذا تقول في الألف الممدودة في كلمة **«حرباء»** التي تعامل معاملة المذكر؟

الجنس النحوي **عاجز في بعض** الأحيان عن التعبير عن الجنس **الطبيعي**، فإذا طلبت من النحو أن يؤنث لي كلمة «طيار» لأطلقها على المرأة التي تقود الطائرات لم يستطع ذلك، لأن كلمة طيارة التي هي المؤنث النحوي لكلمة «طيار» لا تعني المرأة التي تعمل في الطيران، بل تعني الآلة التي تطير، وكذا الشأن في ألسن أخرى غير العربية، فكلمة (médecin) المذكرة تعني الطبيب، لكنَ مؤنثها النحوي (médecine) لا يعني المرأة التي تزاول الطب، بل يعني فن الطب نفسه، أي الطبابة.

قد تقول: ولكن عجز النحو هنا عن أن يعبر بمؤنثاته عن مؤنثات حقيقية طبيعية سببه أن هذهَ المؤنثات موجودة في اللغة لمعانٍ أخرى.

وهذا حق. ولكن ماذا تقول في مذكرات ليست لها مؤنثات تطلق على معانٍ أخرى ومع ذلك لا نستطيع تأنيثها للدلالة على المؤنث الطبيعي؟ هل نستطيع في العربية أن نؤنث كلما «صقر ــ نسر ــ غراب...» فنقول «صقرة ــ نسرة ــ غرابة»؟ لا. وكذا الأمر في الفرنسية، فأنت لا تستطيع أن تؤنث كلمة (professeur) = استاذ فنقول: (professeuse) = استاذة.

في مثل هذه الحالة تلجأ اللغة الى حيلة بارعة للتعبير عن المؤنث الطبيعي، فتقول العربية: «انثى الصقر ــ انثى النسر ــ انثى الغراب» جاعلة من كلمة «انثى» مورفيما جديداً عن مقولة الجنس المؤنث، وتقول الفرنسية: (la femme professeur-la femme mèdecin) = «المرأة الاستاذ ــ المرأة الطبيب» جاعلة من كلمة (femme) مورفيما جديداً للتعبير عن المؤنث. وهذا هو عينه ما تفعله الإنكليزية، لكنها لا تستعمل كلمة «المرأة» أو «الانثى» كما تفعل العربية والفرنسية، بل تستعمل للتفريق بين الجنسين ضميري المذكر والمؤنث، فتقول للتعبير عن «الجدي» الذي هو الذكر من العنز: he-goat أي «هو عنز»، وللتعبير عن المعزة التي هي المؤنث من العنز she-goat أي «هي عنز». وهذا يذكرنا بما نفعله في العربية عندما يعجز التذكير النحوي عن التعبير عن المذكر الطبيعي في مثل: «إوزة ــ بطة ــ حدأة...الخ» فنقول: «ذكر البط ــ ذكر الأوز ــ ذكر الحدأ...الخ».

ليس المذكر والمؤنث الطرفين الوحيدين في مقولة الجنس، ففي بعض الألسن طرف ثالث يسمى المحايد، له معاملة خاصة تختلف عن معاملة كل من قسيميه الآخرين. وقد يظن القارىء أن المحايد في تلك الألسن مخصوص بما هو جامد، أو أنه وضع ليحشر فيه كل اسم لا يدل على مذكر حقيقي أو مؤنث حقيقي، وليس الأمر كذلك، إذ تجد في قسم المحايد أسماء تدل على جوامد، مثل: «معبد وبحر وجسم وقرن» في اللاتينية، كما تجد فيه أيضاً أسماء تدل على أحياء، مثل «طفل» في الإغريقية، ومن جهة ثانية، نجد الجوامد نفسها قد وزعت أسماؤها على الأقسام الثلاثة: المذكر والمؤنث والمحايد. على أن حصة المحايد من هذه الأسماء أقل من حصة كل من قسميه المذكر والمؤنث. ويظهر أن هذا يشير الى

كونه من فصيلة في سبيل الانقراض. وليس لها في هيكل النظام استقلال تام، و يلعب في مقابلة الجنسين الآخرين دوراً تكميلياً من حيث أنه يعبر عن بعض المعاني المستقلة في التقابل بين المذكر والمؤنث، فهو مثلاً يدل في غالب الأمر على أشياء تعتبر غير فاعلة ولا قابلة لأن تزود بقدرة شخصية. و يظهر أنه في بعض الأحيان يعبر عن معنى جمعي (١).

حاول بعض اللغويين البحث **عن أصل الجنس النحوي** في الهندية الأوروبية، لكن محاولتهم لم تصل الى نتيجة مرضية، ذلك بأن المسألة تتعدى نطاق النحو الهندي الأوروبي إذ إنها مسألة من مسائل علم اللغة العام، وتتطلب التحدث في مجموعات أخرى من اللغات. ومن علماء الأنثروبولوجيا من زعم، مثل فريزر، بأنه حل المسألة بتصوره أن الخلاف بين الجنسين يتصل بلغة النساء الخاصة، فعند هؤلاء العلماء أن الاسم كان على صيغتين، تتكلمها المرأة [صارت فيما بعد الصيغة المؤنثة]، وصيغة يتكلمها الرجل [صارت فيما بعد الصيغة المذكرة]. وهذا تبسيط ساذج للمسألة: فالأجناس لا تنحصر في المقابلة بين المذكر والمؤنث فحسب، إذ إن الهندية الأوروبية فيها جنس ثالث، هو المحايد (٢).

بعض الألسن لا يقسم أسماءه بين مذكر ومؤنث، بل يقسمها الى **جنس حي، وجنس غير حي**. من هذا النوع بعض ألسن أفريقية وأمريكية. وهنا أيضاً يجب أن لا نتوهم أن الأحياء الحقيقية وحدها هي التي تكون أسماؤها في الجنس الحي، فالواقع اللغوي يرينا أن هذه الألسن تدخل في الجنس الحي أسماء تدل على أحياء وأخرى تدل على جمادات، فلغة الألجونكين تضع بين الأشياء المدلول عليها بالجنس الحي: الاشجار والاحجار والشمس والقمر والنجوم والرعد والثلج والجليد والقمح والخبز والطباق والزحافة والولاعة ... الخ.

والظاهر أن التمييز بين ما هو حي وغير حي موجود في ألسن كثيرة، فالعلماء يذكرون أن في السلافية جنساً خاصاً بالأحياء، وأن في الأرمنية اتجاهاً الى مقابلة

(١) فندريس: اللغة ص ١٢٩. أقول: ومن الممكن أن نعد الكلمات العربية (نمل ــ بط ــ ذباب ... الخ) من المحايد المعبر عن المعنى الجمعي.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣١.

المادة الحية بالمادة غير الحية، وأن الإسبانية تميز بعد الفعل بين ما هو حي وما هو غير حي، وأن الفرنسية القديمة كانت تفعل الشيء نفسه بعد الإسم، فكانت هذه الفرنسية اذا أرادت إضافة اسم الى آخر نظرت في المضاف اليه: فإن كان مما يدل على حي، جعلت الإضافة بغير أداة، فقالت: le bourg le roi، وإن كان مما يدل على غير حي، جعلت الإضافة بأداة، فقالت: les maisons du bourg.

* * *

وبعد، فما معنى هذا؟ لماذا تنظر اللغة الى هذه الجمادات فتؤنث بعضها وتذكر بعضها الآخر، وليست هي مذكرة ولا مؤنثة في الواقع؟ لماذا تنظر الى بعض الأشياء على أنها حية، وإلى بعضها الآخر على أنها ليست بذات حياة؟

يجيب عن ذلك فندريس بقوله (١): «أغلب الظن أن هذا التصنيف يقوم على التصور الذي كان في ذهن أسلافنا الغابرين عن العالم، وقد ساعدت عليه بواعث غيبية ودينية. وقد احتفظ بهذا التقليد حتى بعد أن عجز من يستعملونه عن فهم علته (٢)».

(١) المرجع نفسه ص ١٣٣.

(٢) الأمثلة من الألسن الأجنبية التي وردت في هذا الفصل منقولة في أكثرها عن كتاب فندريس. قارن هذا الفصل بما جاء في كتابه: اللغة، ص ١٢٦-١٣٣.

التبدلات النحويّة

النظام النحوي في كل لسان حي، هو مثل النظام الصوتي لا يثبت على حال. ونظرة سريعة الى العربية في حالتها الفصحى وحالتها العامية تقفنا على التطور الكبير الذي أصاب نظامها النحوي خلال العصور. فما أكثر المورفيمات التي ماتت (كالسين وسوف ولماذا وماذا... وهلم جراً. وما أكثر المورفيمات التي خلقت (مثل الحاء الدالة على الاستقبال في المصرية والشين الدالة على النفي... الخ) وما أكثر المقولات التي اختفت (كمقولة التعجب) وما أكثر المقولات التي استحدثت (كمقولة الاستمرار في الحال وغيرها).

غير أن الطريقة التي يتم بها التبدل في النظام النحوي تختلف عن تلك التي يتم بها تبدل النظام الصوتي: التطور الصوتي عام شامل، إذا أصاب صوتاً من أصوات النظام لم يصبه في كلمة ويتركه في أخرى، بل هو يصيبه في كل كلمات اللسان، أما التطور النحوي فيندر أن يشمل جميع الحالات التي يؤثر فيها، فهو يدع الى جانت الصيغ الجديدة التي يستحدثها عدداً كبيراً من الصيغ القديمة التي تستمر في الاستعمال، وهكذا تترك كل حلقة من حلقات التطور الصرفي بقايا لها. يتضح ما نعنيه بالأمثلة الآتية: فكلمة (مشروع) كانت لا تجمع إلا على (مشروعات) قياساً لها على مصنوع ومصنوعات ومرفوع ومرفوعات ومنصوب ومنصوبات، لكن التطور النحوي أصابها فأجاز لها أن تجمع على (مشاريع) مثل (عصفور عصافير). هذا التبدل أصاب كلمة (مشروع) وحدها، ولم يصب كل كلمة على وزن (مفعول) على (مفعولات) لا على (مفاعيل)، كذلك أصاب التبدل كلمة (مدير) فصرنا اليوم نجمعها على (مدراء) قائسين إياها على (عليم) و (علماء)، ولكن هذا لا نفعله بكل الكلمات التي من نوعها، فلا نزال نجمع (معيد) على (معيدين) و (على معداء).

وكان النحاة يسمون أمثال هذه البوادر في التبدلات النحوية بالتوهم: يقول الأسترابادي: «ظنوا أن ميم «منديل، ومسكين، ومدرعة» فاء الكلمة، فقالوا: تمندل، وتمسكن، وتمدرع. وتوهموا في ميم «مسيل» الأصالة فجمعوه على «مسلان، وأمسلة» كقفزان، وأقفزة، وكل ذلك لى التوهم» أ هـ(١).

يسود التغيرات النحوية اتجاهان عامان: الأول مبعثه الحاجة الى التوحيد، ويميل الى إقصاء العناصر النحوية التي أصبحت شاذة، والآخر مبعثه الحاجة الى التعبير، ويميل الى خلق عناصر نحوية جديدة(٢).

إقصاء العناصر النحوية الشاذة يكون بردها الى القاعدة، أي إن الحاجة الى التوحيد تقنع بطريقة القياس. على العملية التي بها يخلق الذهن صيغة أو كلمة أو تركيباً تبعاً لأنموذج معروف (٣). فالطفل الذي يقول لأمه: (اجو مرات) بدلاً من (جاءت نساء) إنما يخلق جمعاً جديداً لكلمة (امرأة) لا تعرفه العربية. قد تكون هذه غلطة طفل لا تلبث أن تصحح، لكن كثيراً من التبدلات التي تصيب الصيغ لا تجري إلا على هذه الطريقة من الخطأ وإلا فبأي طريقة رددنا كلمة (مسكن) بالفتح الى القياس، وقد جاء السماع بكسر عينها؟

القياس لا يستطيع أن يمارس سلطته إلا على الكلمات القليل الاستعمال، أما تلك التي يكثر ورودها في الكلام، فلها من شيوعها وترددها قوة وحصانة ضد كل محاولة لردها الى القاعدة: لقد استطاع القياس كما رأينا أن يرد كلمة (مسكن) الى القاعدة، ولكنه لم يستطع شيئاً مع كلمة (مسجد) التي ورد السماع بكسر عينها خلافاً للقاعدة.

* * *

الحاجة الى التعبيرية كالحاجة الى التوحيد من الحاجات التي لا تسد. ولكن العقل بسعيه الى سدها يصلح من البلى الذي يلحق بالصيغ، و بالتالي يغير النحو.

---

(١) انظر شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الاسترابادي ج١ ص ٦٨.
(٢) فندريس: اللغة، ض ٢٠٤-٢٠٥.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٥.

ففي أثناء التطور الصوتي للسان من الألسن، تتآكل بعض العناصر النحوية حتى تصبح غير صالحة للاستعمال، بل قد تبتر في بعض الأحيان بتراً تاماً. وعندئذ يجب ترميمها، أو إحلال غيرها محلها. فإذا كان اللسان من الألسن المعربة كالعربية مثلاً، وكانت الإصابة فيها واقعة على نهايتها[1]، وجب التعويض عما فقد ولو بطرق أخرى.

وهكذا عوضت العاميات عن الكسرة التي هي علم الإضافة في الفصحى بكلمات تشير الى الإضافة حشرتها بين المضاف والمضاف اليه، فالمصرية تقول: الكتاب بتاع الولد، بينما تقول السورية: الكتاب تبع الولد، وفي بعض قرى حلب تسمع من يقول: الكتاب تاع الولد، أما الكويتية فلها طريقة أخرى إذ تقول: الكتاب مال الولد.

كل هذه الكلمات «بتاع — تبع — تاع — مال» صارت كلمات فارغة بالمعنى المعروف في الصينية... ذلك أن النحو يستعيض في الواقع عن خسائره بتحويل الكلمات المليئة الى كلمات فارغة. فالأدوات النحوية التي تستعملها اللغات ليست إلا بقايا من كلمات مستقلة قديمة، أفرغت من معانيها الحقيقية واستعملت مجرد موضحات، أي مجرد رموز[2]. فما نسميه بحروف الجر والعطف والوصل والنصب لم تكن في غابر الأزمان إلا كلمات لها معان حقيقية مثل ما لكلمات «باب، وشجرة، وأرض، وسماء». وإذا كنا اليوم نجهل ما كانت تدل عليه هذه الحروف قبل أن تصير أدوات نحوية أي مورفيمات، وذلك لبعد العهد بأصولها، وعدم وجود وثائق قديمة ترينا كيف كانت، وماذا كانت تعني، فإن عندنا اليوم كلمات مليئة تسير في اتجاه الحرفية. نعني بذلك ما نسميه بالأفعال الناقصة «كان — صار — أصبح — أمسى — بات — زال — انفك... الخ» فاستعمال هذه الأفعال تامة لا يزال موجوداً حتى اليوم، تقول: فلما كان الصبح استيقظت، وسار الرجل حتى صار الى منزله، تعني بالأولى «وجد وأشرق»، وتعني بالثانية «وصل وانتهى». لكن هذا الاستعمال الذي يحفظ لهذه الأفعال

---

(١) المرجع نفسه ص ٢١٣.

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٦.

معانيها الحقيقية نادر جداً، والأكثر هو أن تفرغ من معاني «الوجود والوصول والدخول في المساء والصباح، والبيات، والزوال، والانفكاك، والانفصال» وتعطي الصيرورة والتحول، ما عدا «كان» التي تعطي معنى الزمن الماضي، وما زال وما انفك اللتين تعطيان معنى الاستمرار.

تفريغ هذه الكلمات من معانيها وإعطاؤها معاني نحوية مرحلة أولى في طريق انتهائها إلى أن تصير مجرد رموز نحوية. ويظهر أن «كان» أسرع أخواتها الى هذا المصير الذي ينتظرها. ولعل ذلك راجع الى أنها تتضمن معنى زمنياً تبدو العربية في أمس الحاجة اليه لتنويع أزمنة الفعل فيها.

* * *

الباب الخامس

المفردات

علوم المفردات

مفردات اللغة هي موضوع الدراسة لكثير من العلوم اللغوية كالمعجم وعلم الدلالة، وعلم الصرف، وعلم أصول المفردات:

فأما **المعجم** فيهتم بالمفردات جمعاً وتحليلاً وشرحاً. فأما الجمع فأمره واضح، وواجب المعجم فيه ألا يغادر كلمة من غير أن يحصيها، وأما التحليل فهو بيان الفئة التي تنتسب اليها كل كلمة: أهي من الأفعال، أم من الأسماء، أم من الصفات، أم من المصادر؟.. الخ، وأما الشرح فهو تحديد معناها العام، وما يمكن أن تحمله من المعاني الفرعية في الاستعمالات المختلفة، مع ضرب الأمثلة وإيراد الشواهد.

هذا ولا بد في كل معجم من ترتيب تصنف المفردات بموجبه، وللمعاجم في هذا الشأن أسس مختلفة، فمنها ما يرتب مفرداته بحسب الموضوعات، مثل: المثلثات لقطرب، والنبات والشجر للأصمعي، واللبأ واللبن لأبي زيد الأنصاري، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت، والمطر والسحاب لابن دريد، والأفعال لابن القوطية، والمخصص لابن سيده، وكشاف اصطلاحات العلوم للتهانوني، وفقه اللغة للثعالبي، والألفاظ الكتابية للهمذاني... الخ، ومنها ما يرتب مفرداته بحسب الألفاظ، مثل: كتاب العين للخليل، والجمهرة لابن دريد، والصحاح للجوهري، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، والعباب للرضى الصغاني، وأساس البلاغة للزمخشري، ومقاييس اللغة لابن فارس، والقاموس المحيط للفيروزابادي، ولسان العرب لابن منظور المصري... الخ.

وأما **الصرف** فهو يهتم بصيغة الكلمة: أهي مجردة أم مزيدة؟ وهل هي ثلاثية أم رباعية أم خماسية، وما حروفها الأصلية؟ وما حروفها الزائدة؟ وما

وزنها؟ وهل هي جامدة أم هي مشتقة؟ الى آخر ما هنالك مما يؤلف جزءاً مهما من علم النحو يدعى بعلم الصرف.

وأما علم الدلالة فهو على نوعين: علم دلالة وصفي لا يهتم إلا بالمعنى الاجتماعي للكلمة في مرحلة معينة من تاريخ اللغة، وعلم دلالة تاريخي يدرس تغير المعنى من عصر الى عصر.

وأما علم أصول المفردات ــ و يدعى أيضاً بالايتيملوجيا ــ فهو كعلم الدلالة التاريخي إلا أنه أعم منه، إذ لا يقصر دراسته على جانب المعنى وحده، بل يتتبع الكلمات خلال العصور ملاحظاً ما يطرأ عليها من تبدلات تصيبها في ألفاظها ومعانيها وطرق استعمالها.

ولا بد من التنبيه على أن حدود هذه العلوم غير واضحة، وأن الموضوعات المشتركة بينها كثيرة جداً: فالاشتقاق الذي يدرس في الصرف على أنه وضع الكلمة في صيغ مختلفة، يدرس أيضاً في أصول المفردات باعتباره واحدة من الطرق المختلفة لتوليد الكلمات، ولهذا السبب اخترنا أن نجعل كل الأبحاث التي تتعلق بالمفردات في باب واحد من غير تمييز بين ما يتعلق منها بهذا العلم أو بذاك.

عَنَاصِر العَمل اللغوي

يشتمل كل عمل لغوي ــ أي كل اتصال لغوي بين اثنين ــ على أربعة عناصر، هي:

١ ــ الوجدان: وهو ما يجده المتكلم في نفسه من عواطف وأفكار وأحاسيس.

٢ ــ اللفظ: وهو المادة الصوتية المنبعثة من فم المتكلم في محاولة للتعبير عن وجدانه.

٣ ــ المعنى: وهو الصورة الذهنية المتحصلة في ذهن السامع من سماعه اللفظ.

٤ ــ المقصود: وهو الحقيقة الخارجية للصورة الذهنية.

فإذا قال رجل لآخر: (أحب منزلي) كان حب الرجل لمنزله وصورة هذا المنزل كما هي في نفس صاحبه هو ما عبرنا عنه بكلمة (الوجدان)، أما (اللفظ) فهو الأصوات المتحصلة من قول الرجل: (أحب منزلي)، وأما (المعنى) فهو الصورة الذهنية الحادثة في نفس السامع لحب مخاطبه للمنزل، ثم للمنزل نفسه، وأما المقصود فهو حقيقة كل من الحب والمنزل الخارجة عن ذات المتكلم وذات السامع على حد سواء.

ولقد دار جدل طويل حول طبيعة العلاقات التي تربط هذه العناصر بعضها ببعض، وحول مدى انطباق بعض هذه العناصر على بعضها الآخر، جدل اشترك فيه رجال كثيرون من اختصاصات مختلفة، منهم الفلاسفة، وعلماء النفس، وعلماء اللغة، والأدباء.

والمجال أضيق من أن يتسع لذكر كل ما قيل في هذا الشأن، لذا سنكتفي بعرض جانب منه محاولين التوسع فيما يتعلق منه بالعربية خاصة.

ويحسن التنبيه، قبل كل شيء، على أن التمييز بين المعنى المقصود والوجدان لم يكن معروفاً عند القدماء، بل كانت كلمة (المعنى) تطلق على هذا العنصر حيناً، وعلى غيره حيناً آخر، وفي أحيان أخرى كانوا يفهمون من هذه الكلمة العناصر الثلاثة مجتمعة.

١ ــ بين اللفظ والمقصود:

هل بين اللفظ والمقصود، أو بعبارة أخرى، هل بين الاسم والمسمى علاقة، أم لا؟ وإذا كان بينهما علاقة، فما طبيعة هذه العلاقة، وما مداها؟ أهي ذاتية موجبة بحيث إذا ذكر الاسم أثار، بالضرورة، صورة المسمى في أذهان جميع الناس على اختلاف ألسنتهم؟ أم هي اصطلاحية اعتباطية بحيث إذا ذكر الاسم لم يثر صورة المسمى إلا في أذهان المصطلحين وحدهم؟

قال بالأولى كثير من الفلاسفة القدماء، أولهم هرقليطس الذي ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية ضرورية، وأن الأسماء تستطيع بحروفها أن ترسم جواهر الأشياء المادية، وأن تنطق بماهيات الأشياء بأعيانها. وقد عبر أفلاطون عن هذه النظرية بقوله، على لسان قراطيلس: يوجد، بالطبيعة، اسم صحيح لكل كائن في الحياة. إذ الكلمة ليست تسمية يطلقها البعض على الشيء بعد التواطؤ... ولكن ثمة، بالطبيعة (لليونانيين والبرابرة) طريقة صحيحة للتدليل على الأشياء، هي ذاتها لجميع الناس»[١].

و يظهر أن هذه النظرية لقيت رواجاً كبيراً عند فلاسفة الاسلام والمسيحية في القرون الوسطى. فهؤلاء، وقد ذهبوا إلى توقيفية اللغة، وجدوا في نظرية هرقليطس ما يؤيد مذهبهم و يدعم شواهدهم المستمدة من النصوص الدينية: (وعلم آدم الأسماء كلها). ففندريس يقول عن القديس توماس الاكويني إنه «كان يزعم أن الأسماء يجب أن تتفق وطبيعة الأشياء»[٢]، كما يحدثنا السيوطي عن أهل

---

(١) Cratyl عن فلسفة اللغة.

(٢) اللغة، ص ٢٣٥.

أصول الفقه «أنهم نقلوا عن عباد بن سليمان الصيمري من المعتزلة أنه ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع»[1].

وقد تلمس هؤلاء براهينهم على صحة نظريتهم بوسائل شتى: فأما عباد هذا فقد قال: إنه لو لم تكن هناك علاقة ضرورية وطبيعية بين اللفظ والمدلول حملت الواضع على أن يضع هذا الاسم لهذا المسمى لكان «تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح»[2]، وأما غيره فقد حاول إقامة الحجة بالتجربة العملية، فالسيوطي يحدثنا أن بعضاً ممن كان يرى رأي عباد كان يقول «إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها، فسئل: ما مسمى (أذغاغ) — وهو بالفارسية (الحجر) — فقال: أجد فيه يبساً شديداً، وأراه الحجر»[3].

إلا أن أكثر الفلاسفة القدماء والمحدثين، ومعهم علماء اللغة أيضاً، يذهبون إلى عكس ما ذهب إليه هرقليطس تماماً، إذ يرى هؤلاء أن العلاقة بين اللفظ ومدلوله اعتباطية اصطلاحية، وأن اللفظ لا يستطيع أن يثير صورة مسماه إلا في أذهان من اصطلحوا وتواطئوا على الربط بين هذا الاسم وهذا المسمى فقط ودليلهم على ذلك «أنه لو كان بين اللفظ وما يدل عليه علاقة ذاتية موجبة لاهتدى كل انسان إلى كل لغة، ولما صح وضع اللفظ للضدين، كالقرء للحيض والطهر، والجون للأبيض والأسود»[4]، ولما كان للشيء الواحد أسماء متعددة، وللاسم الواحد معانٍ كثيرة.

وأول قائل بهذه النظرية هو الفيلسوف اليوناني ديمقريطس. وقد عبر عنها افلاطون بقوله، على لسان هرموجينس: إن الاسم الذي نطلقه على الشيء، هو الاسم الصحيح، فإذا استعضنا عنه، أتى الثاني صحيحاً كالأول. نغير أسماء عبيدنا، بدون أن يكون الاسم الجديد أقل حظاً في الدقة من السابق. ذلك لأن

---

(١) المزهر، جـ ١ ص ٣١.
(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها.
(٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها.
(٤) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

الطبيعة لا تأخذ على عاتقها أن تطلق أسماء خاصة. التسمية وليدة التكرار والعادة عند الذين زاولوا فعلها»[١].

وبين هؤلاء وأولئك نجد طائفة من علماء اللغة، ولا سيما القائلون منهم بنظرية المحاكاة في أصل اللغة، يذهبون مذهباً وسطاً: فلا يقولون بالعلاقة الذاتية الموجبة كما قال هرقليطس والصيمري، ولا يسلمون بالعلاقة التواطؤية الاعتباطية التي قال بها ديمقريطس، بل يذهبون إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة إلا أنها ليست ذاتية ولا موجبة[٢]. و يستمدون شواهدهم على ذلك من كلمات كثيرة في األسن مختلفة، وكلها تشير بوضوح إلى مناسبة طبيعية بين اللفظ وما يدل عليه. يقولون: إن الكلمات الفرنسية (vif = حي، نشيط، fin =دقيق، ناعم، net = واضح، aigu = حاد...) تناسب الاحساس بالخفة والنعومة الذي توقظه في السامع، وان الكلمات (sourd = أصم، lourd = ثقيل، gros = ضخم...) توقظ احساساً مخالفاً[٣]، وان الكلمات العربية (قطع، قص، قصف، قصم، قضم) تناسب بأصواتها معنى القطع والاحساس بالقسوة.. الخ.

وأول من أشار إلى هذه المناسبة بين الألفاظ ومدلولاتها من علماء العربية هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، ثم تلميذه سيبويه. يقول ابن جني: «إعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته، قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا: صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصر. وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة، نحو النقزان، والغليان، والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الافعال»[٤].

وقد تحمس ابن جني لهذه النظرية حماسة بالغة، فعقد في كتابه (الخصائص) ثلاثة أبواب تنطلق كل أفكارها من مبدأ واحد، وهو أن أصواتاً معينة تدل على

---

(١) Cratyle. ص ٥٠ عن فلسفة اللغة.

(٢) انظر المزهرج ١ ص ٣١.

(٣) Marouzeau: La Linguistique, P. 28.

(٤) الخصائص، ج ٢ ص ١٥٢.

معان معينة: وأن بين ترتيب الأصوات ومراحل ما تدل عليه، إن كان ما تدل عليه حدثاً، مناسبة طبيعية ظاهرة. وقد سمى الباب الأول (الاشتقاق الأكبر)، وسمى الثاني (تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني)، ودعا الثالث (امساس الالفاظ اشباه المعاني).

ويمكن تلخيص ما جاء في هذه الأبواب بما يلي:

١ ـ إن أصواتاً معينة تأتي لمعانٍ معينة في العربية مهما غيرت وبدلت في ترتيبها. «فمن ذلك تقليب (ج ب ر) فهي ـ أين وقعت ـ للقوة والشدة. منها (جبرت العظم، والفقير) إذا قويتها وشددت منهما، و(الجبر): الملك، لقوته وتقويته لغيره. ومنها (رجل مجرَّب) إذا جَرَسَتْه الأمور ونَجَّذَتْه[١]، فقويت مُنَّته[٢]، واشتدت شكيمته. ومنه (الجراب) لأنه يحفظ ما فيه، وإذا حفظ الشيء وروعي اشتد وقوي، وإذا أغفل وأهمل تساقط ورذي[٣]، ومنها (الابجر والبجرة)، وهو القوي السرة.. الخ[٤].

٢ ـ إذا تقاربت المعاني تقاربت الأصوات الدالة عليها. «من ذلك قول الله سبحانه: «ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّا»[٥] أي تزعجهم وتقلقهم. فهذا في معنى تهزهم هزّاً، والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين. وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز، لأنك قد تهز ما لا بال له، كالجذع، وساق الشجرة، وغير ذلك»[٦].

٣ ـ إن الأصوات بصفاتها الطبيعية تناسب ما تدل عليه من أحداث، «من ذلك قولهم: خَضِم، وقَضِمَ. فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثّاء وما كان

---

(١) نجذه الدهر ونجده: عرفه وعلمه.
(٢) المنة: الشدة.
(٣) رذي: أثقله المرض.
(٤) جـ ٢ ص ١٣٥.
(٥) سورة مريم. آية ٨٣.
(٦) جـ ٢ ص ١٤٦.

نحوهما من المأكول الرطب. والقضم للصلب اليابس، نحو: قضمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك... فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث» [١].

٤ ـــ إنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبَّر عنها بها ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أول الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود، والغرض المطلوب. وذلك قولهم: بحث. فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكلف على الأرض، والحاء لصحلها [٢] تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثاء للنفث، والبث للتراب» [٣].

وفي العصر الحاضر ذهب مذهب الخليل وسيبويه وابن جني طائفة من علماء العربية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الأستاذ محمد المبارك، والدكتور صبحي الصالح، والأب مرمرجي الدومينيكي، وجرجي زيدان، وخير الدين الاسدي [٤].

وكان من نتيجة الاستقراء الواسع نسبياً الذي قام به هؤلاء الباحثون أن كشفوا عن ظواهر في العربية غريبة لافتة للنظر، لا يستطيع الباحث أن يمر بها من غير أن يقف عندها ويتساءل، فمن ذلك أنهم وجدوا أن صوت الغين إذا جاء في أول الثلاثي العربي دل على الغموض والاستتار، مثل: غاب، غار، غاص، غام، غمض، غمر، غمس، غم، غفل، غرب، غرق، غدر، غبر، غص، غبش، غشي، غش.. الخ، وإن صوت النون إذا جاء في أول الثلاثي دل على الظهور، مثل: نبع، نبش، نبز، نفر، نز، نما، نشر، نهز... الخ، وإن صوت الراء إذا

---

(١) جـ ٢ ص ١٥٧-١٥٨.

(٢) الصحل: البحة في الصوت.

(٣) جـ ٢ ص ١٦٢-١٦٣.

(٤) انظر مؤلفاتهم بحسب الترتيب: فقه اللغة وخصائص العربية، دراسات في فقه اللغة، المعجمية العربية على ضوء الثنائية الألسنية، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، المحاضرات اللغوية: محاضرة (السماء).

جاء في أول الثلاثي دل على الحركة، مثل: ركب، رجع، راح، ركض، رفع، رجف، رسب، ردم، رفس، رحل، رقص، ربا... الخ، وإن صوت الفاء يدل على الفصل والفتح، مثل: فصل، فتح، فرق، فرد، فرج، فرمُ، فاح، فسق، فسر، فقس، فلق، فلح، فجر، فاه، فر، فصم، فضح... الخ.

بل إن بعضهم زاد على ذلك فقال: إن هذه الأصوات تدل على معانيها مهما يكن موضعها من الثلاثي، وعلى هذا مضوا يناقشون الثلاثيات العربية كما فعل ابن جني من قبلهم في فعل (بحث)، فقالوا في (غرف): إن الغين تدل على الغموض، وهي بذلك تناسب أو مرحلة من مراحل حدث (الغرف) عندما يغيِّب الغارف يده أو مغرفته في السائل، وإن الراء تدل على الحركة، وهي تناسب المرحلة الثانية من الحدث عندما يحرك الغارف مغرفته في السائل قبل أن يرفعها، وإن الفاء تدل على الظهور والانفتاح والفصل، وهذا يناسب آخر مراحل الحدث عندما يرفع الغارف مغرفته فيفصلها عن السائل ويظهرها بعد أن كانت مستترة (١).

وأسرف بعضهم في هذا إسرافاً زائداً أخرجهم من دائرة البحث العلمي المبني على الحقائق إلى دائرة الخرافة المبنية على الأوهام. من هؤلاء الاستاذ عبدالله العلايلي الذي يزعم أن كل حرف من حروف الأبجدية العربية يدل على معنى خاص، وأنه إذا عرفت معاني الحروف أمكن معرفة معنى الكلمة العربية ولو لم تكن معروفة من قبل. ثم يمضي فيجعل لهذه الحروف معاني فلسفية لا نظن أنها خطرت يوماً على قلب الانسان العربي القديم. فالهمزة، كما يزعم، تدل على الجوفية، وعلى ما هو وعاء للمعنى، وتدل على الصفة تصير طبعاً، والباء يدل على بلوغ المعنى في الشيء بلوغاً تاماً. ويدل على القوام الصلب بالتفعل (..؟؟)، والتاء يدل على الاضطراب في الطبيعة أو المُلابس للطبيعة في غير ما يكون شديداً، والثاء يدل على التعلق بالشيء تعلقاً له علامته الظاهرة سواء في الحس أو

---

(١) هذا التحليل لفعل (غرف) حدثنيه الاستاذ ناصر الدن من بلدة كفرتخاريم من أعمال حلب وهو أحد المهتمين بالدراسات اللغوية، ومن أكثر المتحمسين لنظرية التناسب بين اللفظ والمعنى.

المعنى، والجيم يدل على العِظَم مطلقاً... والواو يدل على الانفعال المؤثر في الظواهر، والياء يدل على الانفعال المؤثر في البواطن[١].

وعلى هذا راح الاستاذ العلايلي يحلل الكلمات العربية زاعماً أنه يردها إلى أشكالها الأولى التي كانت عليها. وإليك مثالاً واحداً لهذه التحليلات يطلعك على مقدار التكلف الذي وقع فيه هذا الباحث:

«عبى، تحلل إلى حروفها، ع: وتدل على الحيوان الزئيري. ب، وتدل على البيت.

«وكان المعنى الأولي: حيوان البيت القوي، الذي هو كناية عن الرجل، ثم اشتق منه بعد أطوار من الترقي اللغوي اسم للباس الرجل الخاص به، العباية، ثم غاب الأصل في معنى الفرع المشتق، وأميت معنى الأصل بالنسيان أو بعدم الاحتياج، حتى صار في معنى الفرع حقيقة وضعية»[٢].

ولكن إذا طرحنا كل هذه الأنواع من التكلف الذي وقع فيه العلايلي وغيره، فإنه يبقى لدينا كمية كبيرة من الشواهد لا يمكن تجاهلها، وهي تشير، بما لا يدع مجالاً للشك، إلى وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ والمعنى.

ومع ذلك يصر بعض اللغويين على نفي العلاقة بين اللفظ ومدلوله. يقول فندريس[٣]: من الحمق أن نحكم بوجود علاقة ضرورية بين الحرفين (f l = ف ل) مجتمعين وبين فكرة السيلان، إذ أن الكلمات (ruisseau = مجرى ــ وrivière = جدول ــ وtorrent = سيل) التي تعبر أيضاً عن فكرة السيلان بقدر ما تعبر عنها كلمة (fleuve = نهر) لا تحتوي على مثل هذين الصوتين، وإن كلمة (fleur = زهرة) التي لا تكاد تتكون إلا من هذين الحرفين أيضاً لا توقظ في الذهن إطلاقاً فكرة السيلان.

إلا أن هؤلاء النفاة لم يستطيعوا أن يتجاهلوا هذه الظاهرة تجاهلاً تاماً، ظاهرة

---

(١) الدكتور أسعد علي: تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي ص ٦٣-٦٤.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٠.

(٣) اللغة ص ٢٣٦.

أن بعض الأصوات أقدر من بعضها الآخر على التعبير عن معان معينة. فيعترف فندريس نفسه[1]: بأن من الحق أن كلمة (fleuve = نهر) معبرة، لأن الأصوات التي تكون صالحة تمام الصلاحية لاثارة الصورة التي تمثلها.

«فالواقع أن هناك بين الأصوات ومركبات الأصوات فروقاً في القدرة التعبيرية، وهذا هو سر الكلمات التي تعبر بأصواتها عن معناها (onomatopées)، فالكلمة الالمانية (Kladderadatsch = كلادراداتش) تمثل جيداً مجموعة من الآنية بعضها فوق بعض وقد سقطت شظايا، والكلمة الفرنسية (patapouf = باتابوف) تمثل كيساً محشواً بالملابس يسقط على درج السلم، وكلمة (pan = بن) تثير الصوت الجاف الذي يسمع من طلقة مسدس، و(poum = بوم) ذلك الصدى الممتد الذي ينبعث من طلقة مدفع. وكل الموسيقيين يعرفون أن النغمات المختلفة تناسب التعبير عن الاحاسيس المختلفة إن قليلاً وإن كثيراً، فهذا السلم اليق من غيره ببساطة الحقول، وذلك بالعذوبة الرقراقة اللذيذة، وذاك بجهد الرجولة الصارم. ونظرة المؤلف تجعله يختار في كل حالة النغمة اللائقة، لذلك كان من الحق أن الانتقال بالقطعة من نغمة إلى نغمة يشوه طابعها في بعض الأحيان. ولكن لا يستطيع إنسان أن يقرر أن المؤلف العبقري ليس في وسعه أن يعبر عن العاطفة التي يحسها بأية نغمة من النغمات. كذلك فإن الشاعر يستطيع أن يحمل أصوات الكلمات كل تعبيرية تروقه.. فالشاعر في وسعه أن يحدث تأثيرات غير منتظرة بكلمات يظنها البعيد عن هذا الفن غير جديرة بمثل هذا الاستعمال، وذلك بواسطة ألوان من الاعداد والمقابلة محكمة التنسيق».

نلاحظ من كلام فندريس أنه على الرغم من اعترافه بوجود مركبات صوتية أقدر من غيرها على التعبير عن معان مخصوصة يعود فيصر على أن المعنى الواحد يمكن التعبير عنه تعبيراً جيداً بعدة أنواع من المركبات الصوتية. فكأنه لا يريد أن يخرج على رأي دي سوسير «الذي يعد من أشهر المعارضين لاصحاب الصلة بين اللفظ والمدلول. والذي يرى أن هذه الصلة اعتباطية لا تخضع لمنطق أو نظام

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٣٦-٢٣٧.

مطرد، ومع اعترافه بتلك الصلة في الألفاظ التي تعد بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة، والتي تسمى onomatopées يقرر أنها من القلة في اللغات، ومن الاختلاف والتباين باختلاف اللغات الانسانية، بحيث لا يصح أن نتخذ منها أساساً لظاهرة لغوية مطردة أو شبيهة بالمطردة. هي إذن في رأيه مجرد ألفاظ قليلة تصادف إن أشبهت أصواتها دلالاتها[1]».

حاول بعض الباحثين تفسير ظاهرة الكلمات التي هي من نوع onomatopées، مع الاصرار على نفي العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله، بأن فرقوا بين الصلة الطبيعية الذاتية، والصلة المكتسبة. فقالوا إن الأصوات ليس لها في ذاتها قدرة على التعبير عن معان معينة، وإنما هي رموز صالحة لأن تطلق على أي معنى من المعاني، ولكن يحدث أنه إذا أطلقت أصوات لترمز إلى معنى معين، ثم أطلق ما يشبهها على معنى يشبه الأول ــ يحدث أن يقوم في ذهن ابناء اللغة ربط بين نوع ما من التركيبات الصوتية ونوع من المعاني المتشابهة. يقول الدكتور ابراهيم انيس في هذا المعنى[2]: إنه يجب التفرقة بين الصلة الطبيعية الذاتية والصلة المكتسبة. ففي كثير من ألفاظ كل لغة تلحظ تلك الصلة بينها وبين دلالاتها، ولكن هذه الصلة لم تنشأ مع تلك الألفاظ أو تولد بمولدها، وإنما اكتسبتها اكتساباً بمرور الأيام وكثرة التداول والاستعمال.

«وهي في بعض الألفاظ أوضح منها في البعض الآخر، ومرجع هذا إلى الظروف الخاصة التي تحيط بكل كلمة في تاريخها، وإلى الحالات النفسية المتباينة التي تعرض للمتكلمين والسامعين في أثناء استعمال الكلمات. فإذا تصادف أن عني أحد المتكلمين بأصوات لفظ من الألفاظ، واسترعى انتباهه أكثر من غيره، لا يلبث أن يعقد الصلة الوثيقة بينه وبين دلالته، و يتصور نوعاً من المناسبة بين تلك الأصوات وما تدل عليه، ويحاول نقل شعوره إلى غيره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. فإذا تصادف أن أحس فريق من الناس بنفس الاحساس، بدأت عملية ذهنية أخرى هي الربط بين هذه الأصوات وأشباهها في الكلمات الأخرى، لأن

---

(١) الدكتور ابراهيم أنيس: دلالة الألفاظ. ص ٦٦-٦٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٦٧-٦٨.

الذهن الانساني يميل إلى التجميع والتعميم. وتلتقي تلك العملية بعملية نفسية أخرى هي التي تسمى بتداعي المعاني، أي إن المعنى حين يخطر في الذهن يدعو ما يشبهه أو يقاربه. وهنا قد يخطر في الذهن فكرة الربط بين مجموعة من الألفاظ المتشابهة أو المتقاربة بمجموعة من المعاني المتشابهة أو المتقاربة، و يترتب على هذا أن يشيع بين ابناء اللغة نوع من الوهم يشعرون معه بوثوق الصلة بين الألفاظ والدلالات.

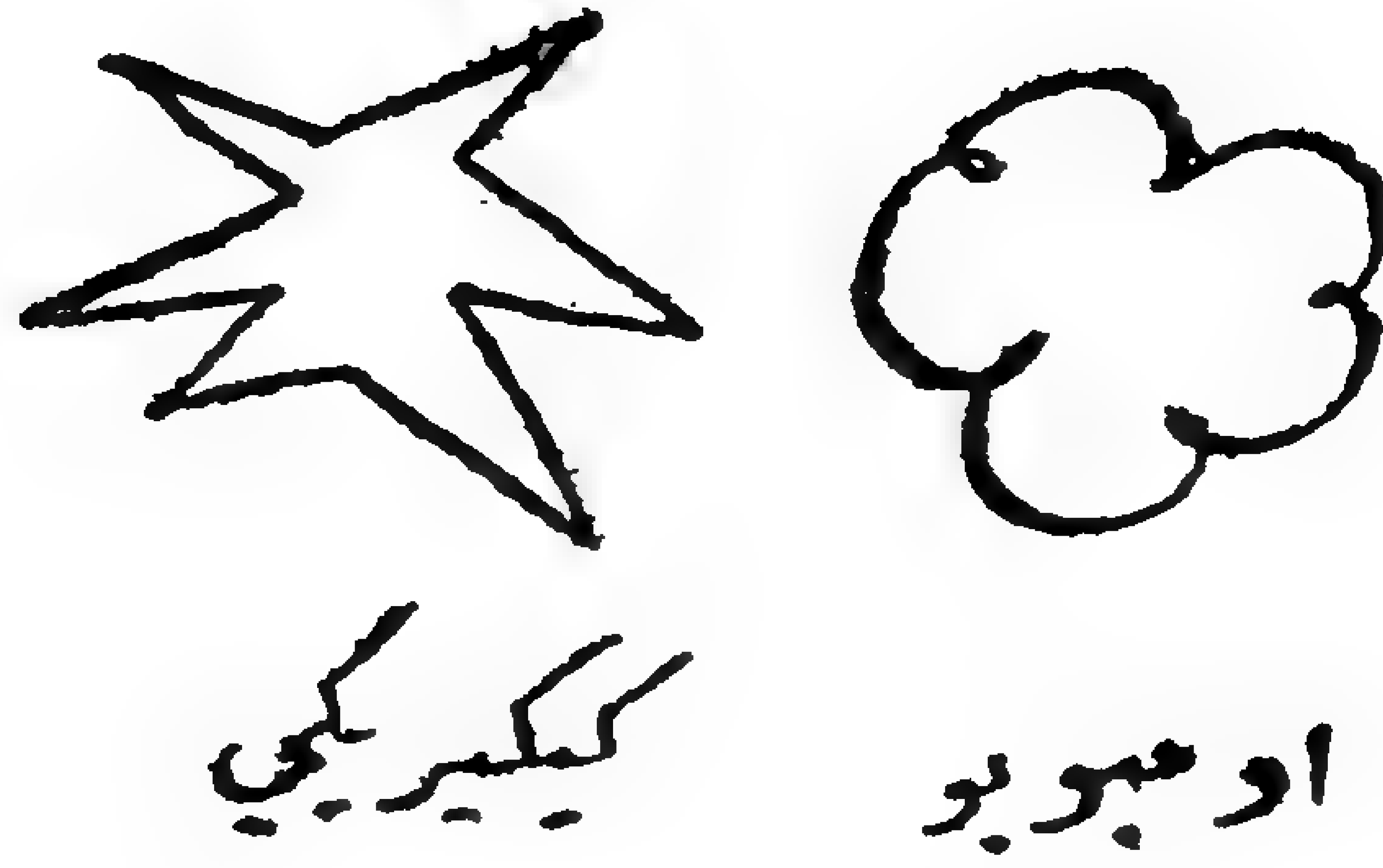
«فالألفاظ لا تعدو في حقيقتها أن تكون بمثابة الرموز على الدلالات، ولك لفظ يصلح أن يتخذ في التعبير عن أي معنى من المعاني، فما يسمى «بالشجرة» يمكن أن يسمى بأي لفظ آخر متى اصطلح الناس عليه، وتواضعوا على استعماله، فليس في لفظ «الشجرة» ما يوحي بفروعها وجذورها وأوراقها وخضرتها».

وإلى مثل هذا يشير الاستاذ فيرث في إحدى محاضراته. ولكنه لا ينتهي إلى ما انتهى إليه انيس من نفي الصلة الطبيعية بين اللفظ والمدلول، بل على العكس يقرر أنه ربما تكون هناك صلة طبيعية بين اللفظ والشكل على الأقل. لأن الربط بين أشكال معينة وأصوات معينة يبدو عاماً بين كل الناس على اختلاف قومياتهم وألسنتهم، يقول: وهناك نوع من التقسيم أحس به، ولا أصر عليه، ألمحه وراء الكلمات التي تبدأ بالحرفين sl، مثل:

slink, slim, sligt slide, slike, slice, slince, slicher;

.slender, sleet, slip, sleek slit

«و يستطيع المرء أن يسلي نفسه بجمع الكلمات التي تبدأ بالحرفين (el) أو (str) أو (spr) وهلم جراً، فربما وجد شيئاً شائعاً بينها لا يهمني هنا أن أنص عليه. وتبدأ تسعون كلمة في الهولندية بالحرفين (sl) كلها للشتم والاهانة، وقد استعير بعضها في اللغة الجاوية، فبدأ بالحرفين (se)، وهذا يستدعي إلى الذهن أن تقسيم الكلمات بحسب أثرها الذهني شائع في اللغات الجرمانية. وربما كان هناك صلة بين الصوت والشكل كما ترى في المثالين الآتيين:



هاتان الكلمتان (اومبوبو وكيكيريكي) لا تدلان على معنى معين في أية لغة على ما أعلم. ولكن الطلبة من جميع الأمم ينسبون الاسم الأول إلى الشكل الأول، والاسم الثاني إلى الشكل الثاني [1].

* * *

يمكننا الآن تلخيص الآراء في هذه المشكلة على الشكل الآتي:

١ ــ إن الأسماء تنطق بماهيات الأشياء عينها.

(الهرقليطيون)

٢ ــ بين اللفظ ومدلوله علاقة ذاتية موجبة حاملة للواضع على أن يضع. وإلا لكان وضع الاسم المعين للمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح.

(الصيمري وغيره)

٣ ــ إن الأسماء يجب أن تتفق وطبيعة الأشياء.

(القديس توماس الاكويني)

٤ ــ إن الصلة بين اللفظ ومدلوله حاصلة، ولكنها ليست موجبة.

(أكثر علماء العربية تقريباً)

---

(١) عن كتاب مناهج البحث في اللغة ص ٢١٧.

٥ ــ إن اللغات بوجه عام تؤثر التعبير عن الأشياء بوساطة ألفاظ أثرها في الآذان يشبه أثر تلك الأشياء في الأذهان. وإن الكلمات بدأت واضحة الصلة بين أصواتها ودلالاتها، ثم تطورت تلك الأصوات أو تلك الدلالات، وأصبحت الصلة غامضة علينا.

(همبلت)

٦ ــ إن الصلة وثيقة بين اللفظ والمدلول في الكلمات التي هي من نوع الـ onomatopées. ولكن علينا أن نحذر من المغالاة في هذا الشأن.

(جسبرسن)

٧ ــ ربما كان هناك صلة بين اللفظ والشكل، لأنه ثبت بالتجربة أن الناس على اختلاف السنتهم ينسبون أصواتاً معينة إلى أشكال معينة.

(فيرث)

٨ ــ من الحمق أن نحكم بوجود علاقة ضرورية بين الأصوات ومدلولاتها. أما الكلمات التي تعبر بأصواتها عن معانيها، أو تكون أصواتها أقدر من غيرها على التعبير عن معانيها فهي من القلة في اللغات. ومن الاختلاف والتباين باختلاف اللغات الانسانية بحيث لا يصح أن تتخذ منها أساساً لظاهرة لغوية مطردة أو شبيهة بالمطردة. إنها مجرد ألفاظ قليلة تصادف أن أشبهت أصواتها دلالاتها.

(دي سوسير، وفندريس، ومدفيغ وغيرهم)

٩ ــ إن الصلة بين اللفظ ودلالته واقعة، ولكنها مكتسبة لا طبيعية ذاتية. ترمز اللغة لمعنى ما بمجموعة من الأصوات بطريقة اعتباطية، ثم يحدث أن ترمز اللغة إلى معنى آخر شبيه بالأول بمجموعة من الأصوات شبيهة بالمجموعة الأولى، فيظن الناس أن هذه الأصوات ذات علاقة ذاتية طبيعية مع تلك المعاني.

(ابراهيم انيس)

وهكذا ترى أن المشكلة لا تزال بغير حل. إنها، ككل المشكلات الانسانية

الكبرى، لا تقبل الحل النهائي، إنها حيرت عقول المفكرين منذ قرون سحيقة، ولا تزال تحيرها حتى الآن، وستظل تحيرها إلى ما شاء الله (١).

٢ ــ بين اللفظ والوجدان:

المشكلة هنا ليست مشكلة علاقة ذاتية طبيعية أو اعتباطية، بل هي مشكلة مدى قدرة اللفظ على التعبير بدقة وأمانة عن الوجدان. ويمكن توضيح ذلك بالسؤال الآتي: هل بإمكان اللفظ أن يصور تصويراً دقيقاً أميناً وجدان المتكلم؟ إذا قلت لصديقي: (أحب ولدي حباً جما) فهل تكون هذه العبارة قد نقلت إلى صديقي صورة صحيحة غير مشوهة عن حبي لولدي بكل ابعاده وألوانه، أم لا؟ وبعبارة أعم، هل اللغة قادرة على تصوير الوجدان، أم هي مشوهة له قاصرة عن نقله كما هو إلى الآخرين؟

هنا أيضاً اختلف المفكرون. فدي بونالد يرى أن الفكر والكلمة جسم واحد. ولهذا لا يمكن أن يحصل فكر بدون أن تحدث لغة. ولا أن تحدث لغة لا تكون ذاتها فكراً(٢).

و يعبر الدكتور ابراهيم انيس عن هذا الرأي بشكل أوضح حيث يقول(٣): من المجازفة أن ننظر إلى الألفاظ الآن على أنها مجرد رموز، فقد ارتبطت بالفكر الانساني ارتباطاً وثيقاً، وأصبح من الصعب أن نتصور أي نوع من التفكير بغير هذه الألفاظ. فالانسان يفكر بوساطة هذه الألفاظ، والدلالة التي ليس لها لفظ لا وجود لها إلا في مخيلة بعض الفلاسفة. بل حتى ما يسمى بالتفكير الصامت أو التأمل لا يؤدي إلا بعملية نطقية يقوم بها المتأمل، وإن لم يسمعها أحد ممن حوله. فعضلات نطقه تقوم بنفس الحركات اللسانية التي يقوم بها في الكلام المسموع وقد برهنت التجارب الكثيرة على هذه الحقيقة العلمية، فالمرء قد يشعر بارهاق في عضلات نطقه بعد سماعه لخطيب يخطب أمامه لمدة طويلة، وذلك لأن عضلات

---

(١) قارن ما مر في هذا الفصل بالفصل الثالث من كتاب دلالة الألفاظ ص ٥٨ وما بعدها.

(٢) الحاج: فلسفة اللغة ص ٢٧.

(٣) دلالة الألفاظ ص ٦٨-٦٩.

نطق السامع تتحرك حركات خافتة تشبه ما تقوم به عضلات نطق الخطيب تمام الشبه.

«بل لقد لوحظ أن لاعب البيانو حين يستمع لعزف غيره مدة طويلة، قد يشعر بعدها بتعب في أنامله أو أصابعه، فكأنما قد مارس هو العزف بنفسه.

«وليس يعترض على هذا بأن يقال إن الذي يولد أصم يدرك الأشياء والحوادث دون أن يكون له أي نصيب من تلك الألفاظ اللغوية، وذلك لأن إدراك الأصم مولداً أدنى كثيراً من إدراك السامع، فإدراكه للأمور إدراك ناقص، ومع هذا لا يتم له هذا الإدراك الناقص إلا عن طريق رموز أخرى تحل محل الرموز الصوتية كالإشارة ونحوها. بل إن مشاهد السينما الصامتة لم يكن يستطيع إدراك ما يراه إلا بعد ترجمته في ذهنه إلى ألفاظ يعرف دلالتها. ولو عرض عليه من الأشياء أو الحوادث ما لا يستطيع ترجمته إلى الألفاظ، لمرت بذهنه مروراً عابراً غامضاً لا يترك أثراً، ولا يبعث على تفكير أو رغبة في مشاهدتها».

لكن آخرين يرون غير هذا، يرون أن اللغة قاصرة عن تصوير مواجيد النفس كما هي في النفس، وأن الألفاظ لا تترجم العالم الداخلي إلا ترجمة ناقصة مشوهة.

وأكثر القائلين بهذا الرأي هم من الأدباء، أولئك الذين مارسوا فن التعبير عن الوجدان فوجدوا اللغة في أكثر الأحايين أداة ناقصة لا تمكنهم من التعبير عن كل مكنوناتهم. و يستطيع القارىء أن يتذكر الآن كثيراً من الشكايات التي بدرت من الأدباء، والتي انصبت كلها على اللغة وقصورها وعجزها عن استيعاب كل ما في النفس من عواطف وأفكار. من ذلك قول ميخائيل نعيمة في الغربال [١]: الفكر كائن قبل اللغة، والعاطفة قبل الفكر. فهو الجوهر وهي القشور. ومن تعس البشرية أن تفقد مقدرة قراءة الأفكار والعواطف كما تنبت وتنمو في الأرواح، لا كما ينطق بها اللسان، وأن تراها في حاجة إلى إشارات وعلامات مختلفة تصطلح عليها رموزاً لأفكارها وعواطفها، لأن تلك الأشارات والعلامات، مهما دقت،

(١) ص ١٠٢.

ليست لتأتي إلا بأشباح ضئيلة مبهمة من عالم الفكر المطلق والعاطفة الحرة. ولم تعرف الانسانية بعد في كل تاريخها من تيسر له أن يسكب كل فكره، أو يجسم كل عاطفته، في كلام أو خطوط أو ألوان أو ألحان. لذلك فهي أبداً تقرأ بين السطور. وما تقرؤه بين السطور هو أفصح وأبلغ وأعمق وأوسع مما تقرؤه في السطور. وذاك لأنها تدرك بالفطرة أنه يستحيل على بشري كائناً من كان ــ شاعراً أم كاتباً، رساماً أم نحاتاً، مهندساً أم ملحناً ــ تأدية فكر أو عاطفة بكل ما فيهما من تجعد وتلون».

وليست هذه الشكوى قاصرة على كتاب العربية فقط، بل هي عامة عند كل الكتاب في كل الألسن، فهذا لامارتين على الرغم من تمكنه من قيادة البيان نراه لا يفتأ يردد الشكوى من قصور اللغة عن اداء ما في النفس من وجدان. يقول في كتابه (روفائيل)[1] : أبداً لا ينقطع تدفق نفسي ولا يبرد. فلو أن السماء كانت صحيفة، أرادني الله على أن أرقم فوقها حبي، لما وسعت هذه الصحيفة كل ما أردده في نفسي، وما أريد أن أقوله! لقد كنت أفرغ من نمنمة الصحائف الأربع، وكأني لم أقل شيئاً. والحق أني لم أقل شيئاً. إن الاحاطة باللانهاية، والتعبير عنها، محال باطل... لقد كنت أجاهد بلا أمل فقر هذه اللغة وجمودها وبرودها، لأني مضطر إلى استعمالها ما دمت لا أعرف لغة السماء. لقد كانت الجهود الخارقة التي بذلتها في اخضاعها، وتليينها، وبسطها، وليها، وتلوينها... كل هذه الجهود مكنت لهذا القلم الكسير أن يجد أحياناً الكلمة، أو الحيلة، أو العبارة، أو الصرخة التي يبحث عنها ليظهر الخفي، ويبرز العقلي، ويصور المستحيل. لذلك أتذكر أني كنت كلما فرغت من رسالة أنهض من كرسيي كأني خارج من معركة شعواء، خصومي فيها الكلمات، واليراعة، والطرس، فأفتح الشباك وأعرض وجهي لنسيم الشتاء البارد كي يجفف ما ارفض عليه من عرق».

ويقول فولتير: «تعجز اللغة ــ أي لغة ــ عن التعبير الكامل عن آرائنا ومشاعرنا، فالفروق بينها كثيرة لا تكاد تلمس، فتضطرنا اللغة مثلاً أن نعبر بلفظ

---

(١) ترجمة الزيات ص ٢١١ وما بعدها.

الحب أو البغض عن آلاف من ضروب الحب والبغض كلها مختلفة. وكذلك الحال في موضع آلامنا وملاذنا»[١].

على أن أكبر هجوم شنه مفكر على اللغة كان هجوم برغسون الفيلسوف الفرنسي المعروف، فقد اتهمها بالقصور، وشنع عليها تشنيعاً لم يأته أحد من قبله ولا من بعده، حتى نودي به فيلسوفاً للمدرسة الارهابية ضد اللغة.

يرى برغسون أن اللغة (مركّب)، وأن الوجدان (بسيط)، ولذا فمن غير الممكن (للمركب) أن يصور (البسيط) بأمانة ودقة. و يرى أيضاً أن الوجدان سيلان (متصل)، وأن اللغة ألفاظ (منفصلة) بينها فرج وفضاءات، وإذن فليس بمقدور (المنفصل) أن يعبر عن (المتصل). وأيضاً فإن الوجدان (كيف)، واللغة (كم)، وإذن فليس بالمستطاع التعبير عن الكيف بالكم. وأخيراً فإن الحالات الوجدانية لا تعود ثانية إلى الوجود، متى عبرت صارت ماضياً، فعالم الباطن لا يرتكس إلى الوراء. إن الحب الذي أُحُس به اليوم هو غير الحب الذي أحسست به البارحة، ومع ذلك لا تملك اللغة إلا كلمة واحدة هي كلمة (حب) تقدمها لي لأعبر عن حالتين مختلفتين كل الاختلاف. يقول في كتابه (رسالة في معطيات الوجدان البديهية): نعبر عن انفسنا اضطراراً بألفاظ، ونفكر في الأغلب تفكيراً فضائياً. وبعبارة أخرى: إن اللغة ترغمنا على أن نجعل بين أفكارنا الشقوق عينها، والفوارق الجلية الدقيقة ذاتها التي نقيمها بين الأشياء المادية»[٢]، و يقول في كتابه (الضحك): إن الكلمة غير مصقولة، تختزن من انطباعات البشر كل ما هو ثابت ومشترك، أي غير شخصي. وتسحق أو تغطي على الأقل، الانطباعات الدقيقة والعابرة من وجداننا الفكري.. إن الألفاظ ـــ عدا الاعلام ـــ تدل كلها على أنواع. والكلمة، وهي لا تسجل من الشيء المسمى إلا وظيفته الأكثر اشتراكاً، ووجهه المبتذل، تندس بينه وبيننا.. وليست الأشياء الخارجية وحدها هي التي تفلت منا بل حالاتنا النفسية الخاصة بنا في أخص ما فيها وأكثره شخصية، وما نحياه حياة إبداع. فنحن لا نلتقط من مشاعرنا إلا جانبها غير

---

(١) عن كتاب فقه اللغة لمحمد المبارك ص ٢٠٤.

(٢) عن كتاب فلسفة اللغة للحاج ص ٤١.

الشخصي، ذلك الذي استطاعت اللغة تسجيله لمرة واحدة نهائية لأنه واحد بالنسبة إلى جميع الناس في الأحوال نفسها»[1].

(١) عن كتاب فقه اللغة للمبارك ص ٢٠٤.

الاشتراك والترادف

لو كان منطق اللغة كمنطق العقل لوجب ألا يكون للفظ الواحد سوى معنى واحد، وألا يكون للمعنى الواحد سوى لفظ واحد أيضاً. ولكن اللغة، كما رأينا في كثير من جوانبها، لها منطق خاص يبدو في أكثر الأحيان على جانب كبير من الغرابة. و يظهر ذلك واضحاً في مجال الألفاظ ودلالاتها حيث تجعل للفظ الواحد أكثر من معنى، وللمعنى الواحد أكثر من لفظ. و يستطيع القارىء أن ينتزع من ذاكرته أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة العجيبة. خذ مثلاً كلمة (العين)، وتذكر معي أنها تدل على العين الباصرة، وعلى الجاسوس، وعلى الذات، وعلى منبع الماء، وعلى أشياء أخرى. خذ مثلاً كلمات (معلم — مدرس — استاذ — مربٍ — مؤدب) وتذكر معي أنها جميعاً تدل على شيء واحد. فإذا اشتركت المعاني المتعددة في لفظ واحد سمي ذلك اشتراكاً، وإذا تعددت الكلمات للمعنى الواحد سمي ذلك ترادفاً، وإليك الكلام على كلٍ:

١ — الاشتراك:

قلنا إن الاشتراك هو أن تتعدد المعاني للفظ الواحد. و يسمى اللفظ الذي تعددت معانيه بالمشترك. والسؤال الآن: لماذا يقع الاشتراك في اللغة؟

يجيب الاستاذ محمد المبارك عن ذلك بقوله (١): إن أكثر الأصول التي تشتق منها الألفاظ للدلالة على معانٍ جديدةٍ ذات معانٍ عامة، لذلك فقد تستعمل للدلالة على مسميات مختلفة تشترك في تلك الصفة أو ذلك المعنى العام. فكلمة (دليل) يقصد بها من يدل على الطريق أو من يطوف مع السائحين في عصرنا ليدلهم على الأماكن الجديرة بالزيارة، و يراد بها الكتاب الذي تطبعه دوائر

---

(١) فقه اللغة ص ١٩٨.

السياحة في كل بلد لدلالة الغريب على معالمه وآثاره، و يقصد بها كذلك الحجة المنطقية والبرهان، لأن جميع هذه المسميات ينطبق عليها كونها دالة لقاصدها وإن كانت هي في ذاتها مختلفة».

لكن هذا الجواب غير كاف، فكثير من المشترك ليس فيه عمومية في الدلالة، ومع ذلك يقصد به أمور متعددة، بل يقصد به أشياء شديدة الاختلاف ليس بينها رابط، مثل كلمة (الخال) التي يقصد بها أخو الأم، والشامة في الوجه، والأكمة الصغيرة، ومثل كلمة (الأرض) التي تعني الكرة الأرضية، كما تعني الزكام.

أكثر العلماء يعللون وجود المشترك في اللغة بالاستعارة والمجاز. فعند هؤلاء أن اللفظ الواحد لم يكن له غير معنى واحد على سبيل الحقيقة، ثم تضمن معاني أخرى على سبيل الاستعارة والمجاز، فكلمة (العين) لم يكن يقصد بها غير العين الباصرة، ثم استعملت لمنبع الماء تشبيهاً له بتلك على سبيل الإستعارة، ثم أطلقت على الذات وعلى الجاسوس من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

والواقع أن هناك أسباباً كثيرة لوجود المشترك في اللغة، منها العمومية التي ذكرها الاستاذ مبارك والتي تسمح للغة باطلاق الكلمة الواحدة على أشياء متعددة تشترك كلها في صفة واحدة، ومنها الاستعارة والمجاز اللذان قال بهما أكثر العلماء، ومنها أمور تعود إلى تطور الدلالة بتطور المدلول. فمن هذا مثلاً كلمة (ريشة) التي تطلق على كل من ريشة الطائر، وريشة الكتابة. فهذه الكلمة لم يكن لها غير معنى واحد هو ريشة الطائر، سواء أكانت على جسم الطائر أم كانت منتزعة منه لاستعمالها في الكتابة، ثم إن الناس استعاضوا عن ريشة الطائر في الكتابة بآلة معدنية اخترعوها لهذه الغاية، ولكن كلمة (ريشة) ظلت تطلق على آلة الكتابة أياً كان نوعها، وهكذا أصبح للكلمة معنيان: ريشة الطائر، والآلة المعدنية المستعملة في الكتابة.

هذا، والعلماء مختلفون في أمر المشترك توسيعاً وتضييقاً: فالدكتور ابراهيم انيس لا يسلم بالمشترك إلا إذا دلت النصوص على أن اللفظ الواحد يعبر عن معنيين متباينين كل التباين. «أما إذا اتضح أن أحد المعنيين هو الأصل، وأن الآخر مجاز له، فلا يصح أن يعد مثل هذا من المشترك اللفظي في حقيقة أمره».

ويقول: «لقد كان ابن درستويه محقاً حين أنكر معظم تلك الألفاظ التي عدت من المشترك اللفظي، واعتبرها من المجاز. فكلمة (الهلال) حين تعبر عن هلال السماء، وعن حديدة الصيد التي تشبه في شكلها الهلال، وعن قلامة الظفر التي تشبه في شكلها الهلال، وعن هلال النعل الذي يشبه في شكله الهلال[1]، لا يصح إذاً أن تعد من المشترك اللفظي، لأن المعنى واحد في كل هذا، وقد لعب المجاز دوره في كل هذه الاستعمالات، ذلك لأن المشترك اللفظي الحقيقي إنما يكون حين لا نلمح أي صلة بين المعنيين، كأن يقال لنا مثلاً إن الأرض هي الكرة الأرضية، وهي أيضاً الزكام، وكأن يقال لنا إن الخال هو أخو الأم، وهو الشامة في الوجه، وهو الأكمة الصغيرة. ومثل هذه الألفاظ التي يختلف فيها المعنى اختلافاً بيناً قليلة جداً، بل نادرة ولا تكاد تجاوز أصابع اليد عداً[2]».

أما فندريس فإنه يرى أن المجاز وإن كان هو السبب في خلق جزء كبير من المشترك اللفظي في اللغة، إلا أنه سريعاً ما ينسى، ويصبح المعنى الجديد الذي دخل اللفظ عن طريق المجاز لا يقل في حقيقته عن المعنى الأول الذي كان له. ونحن إذا أردنا أن نحدد معنى الكلمة أو معانيها فعلينا أن ننظر إلى استعمالاتها كما هي اليوم، لا إلى تاريخها. يقول[3]:

«في التسليم بأن للكلمات معنى أساسياً [حقيقياً] ومعاني ثانوية [مجازية] صادرة عن الأول إثارة لمسألة وجهة النظر التاريخية. ووجهة النظر التاريخية تلك لا قيمة لها هنا. ربما رأى الشخص الذي يشمل اللغة بأسرها في تطورها واتساعها بنظرة واحدة أن الريشة التي من حديد، جاءت من ريشة الاوزة، فهي عنده كلمة واحدة أخذت دلالتين مختلفتين على مرور الزمن. لذلك يجدر بقاموس يفخر بتتبعه لخط سير المعاني أن يضع تحت كلمة ريشة، معنى الريشة التي من «حديد» بعد معنى ريشة «الاوزة». ولكن الفرنسي الذي يتكلم لغته اليوم، لا يرى في هذين الاستعمالين في الواقع إلا كلمتين مختلفتين، ولا يوجد شخص واحد

(١) انظر المزهر جـ ١ ص ٢١٩.
(٢) دلالة الألفاظ ص ٢٠٩ ــ ٢١٠.
(٣) اللغة ص ٢٢٨-٢٢٩.

يحاول أن يشكو من الغموض عند سماعه جملتين من قبيل «يعيش من كد ريشته» و«اجتث له ريشة». وكل واحد يفهم دون تردد ان الكلام في الجملة الأولى عن أحد الكتاب، وفي الثانية عن أحد الطيور فالكلمتان مختلفتان كجميع المشتركات الأخرى...

«قد يعترض معترض فيقول: بأنه قد مرت لحظة كان يحس خلالها بأن كلمة ريشة استعارة، ولكن هذه اللحظة لم تطل، فأية كلمة في اللغة الجارية ليس لها إلا معنى واحد في الوقت الواحد. إذ لما كانت ريشة الاوزة تستعمل في الكتابة، كان الذي قال: «آخذ ريشتي لأكتب كلمة» قد استعمل كلمة ريشة بمعنى أداة للكتابة، ولم يقصد استعمال استعارة، وسامعه لم يقدر هذا التقدير. الاستعارة تشبيه مختزل، تقديرها يحتاج إلى مجهود يستطيع الانسان أن يسلم به لمؤلف يقرؤه عندما يتوفر له الوقت، ولكنه في المحادثة لا يملك الوقت الكافي لهذا العمل».

يمكننا الآن أن نتساءل: إذا كان للكلمة التي هي من نوع المشترك اللفظي أكثر من معنى واحد، فكيف يتهيأ لنا أن نفهم المقصود منها؟

يجيب لروا عن ذلك بأن الكلمة المشتركة ليس لها في الوقت الواحد غير معنى واحد هو الذي نفهمه منها، «وإننا حينما نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في وقت واحد نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما. إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يعنيه سياق النص» (١) «أما المعاني الأخرى جميعها فتمحى وتتبدد ولا توجد إطلاقاً. فنحن في الحقيقة نستعمل ثلاثة أفعال مختلفة عندما نقول «الخياط يقص الثوب» أو «الخبر الذي يقصه الغلام صحيح» أو «البدوي خير من يقص الأثر» (٢).

«الذي يعين قيمة الكلمة إذن إنما هو السياق. إذ إن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديداً مؤقتاً. والسياق هو الذي يفرض قيمة

---

(١) عن المرجع نفسه ص ٢٢٨.
(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٨.

واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها، والسياق أيضاً هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها، وهو الذي يخلق لها قيمة «حضورية» ولكن الكلمة بكل المعاني الكامنة توجد في الذهن مستقلة عن جميع الاستعمالات التي تستعمل فيها مستعدة للخروج والتشكل بحسب الظروف التي تدعوها[١]».

٢ ـ التضاد:

يرى بعضهم أن التضاد ليس إلا نوعاً من الاشتراك[٢]، إذ هو اشتراك المعنيين المتضادين في اللفظ الواحد، كاشتراك الأبيض والأسود في لفظ (الجون)، والحيض والطهر في لفظ (القرء)، والقوي والضعيف في لفظ (المقوى)، والكبير والصغير في لفظ (الجلل). والرغبة والخوف في لفظ (الرجاء)، وهلم جراً.

و يرى آخرون ممن لا يسلمون بالمشترك إلا إذا دل على معنيين لا رابط بينهما ـ يرى هؤلاء أن التضاد ليس نوعاً من الاشتراك، لأن المتضادين تجمع بينهما صلة من نوع ما، فالجامع بين الأسود والأبيض أنَّ كلاً منهما لون، والجامع بين الكبير والصغير أنَّ كلا منهما حجم... وهكذا. ولولا هذه الصلة لما كان المتضادان ضدين، إذ أن الضدين شيئان اشتركا في صفة واختلفا في مقدارها.

ويحدثنا ابن فارس في كتابه (الصاحبي)[٣] إن أناساً انكروا هذا المذهب، وهو أن تأتي العرب باسم واحد لشيء ضده. وحجة هؤلاء أن شرط اللغة الإفهام، وأن إطلاق الاسم على الشيء وضده يوقع في اللبس والإبهام، وهذا يتنافى مع شرط اللغة المذكور، أما ما ورد من الاضداد فيفسرونه على أنه من تداخل اللغات، مثل كلمة (وثب) التي ليس لها غير معنى (قفز) في العربية الشمالية، وغير معنى (جلس) في العربية الجنوبية. وعلى هذا يقولون: إن كلمة (جون) كانت لا تعني غير (الأبيض) في لغة قبيلة، ولا تعني غير (الأسود) في لغة قبيلة أخرى، فلما

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٣١-٢٣٢.
(٢) انظر المبارك: فقه اللغة ص ١٩٨، والسيوطي: المزهر جـ ١ ص ٢٢٨.
(٣) ص ٦٦.

جمع علماء اللغة لم يفرقوا بين لغات القبائل فتوهموا أن لكلمة (جون) معنيين متضادين [١].

على أن التضاد أمر مسلم به في جميع اللغات، سواء في ذلك العربية والفرنسية وغيرهما. وهذا ما يحملنا على أن نتساءل: كيف يتأتى للغة أن تطلق اللفظ الواحد على الشيئين المتضادين؟

يقول بعض العلماء: إنه لما كان يوجد دائماً بين كل ضدين صفة مشتركة فإن أحد الضدين إذا ذكر دعا ضده إلى المثول في الذهن معه. وهذا ما يسمى بتداعي الألفاظ الذي يقضي بالتلازم في الذهن بين كل من الليل والنهار، والكبير والصغير، والأرض والسماء، والأبيض والأسود... وهلم جراً. وعلى هذا فإنه من السهل أن ينزلق اسم أحد الضدين إلى الضد الآخر ليعبر عنه، فيصبح اللفظ بذلك من الأضداد.

غير أن هذا لا يفسر كل ما جاء من الأضداد في الألسن المختلفة، و يبدو أنه من الضروري ألا نهمل الناحية النفسية في الموضوع، فنحن كثيراً ما نعبر عن الشيء باسم ضده زيادة في تقوية التعبيرية، وإثارة لاهتمام السامع. ألا ترانا إذا أعجبنا بشخص قلنا عنه «ابن كلب ــ شيطان ــ ملعون ــ قرد أشمط... الخ»؟ وقد حدثنا التاريخ أن أحد خلفاء العرب في الأندلس سمى إحدى جواريه (قبيحة) لشدة حسنها وجمالها. ولعل من هذا القبيل ما ذكره علماء البلاغة مما سموه بالمدح في معرض الذم كما في قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　بهن فلول من قراع الكتائب

بهذا نستطيع أن نفسر كثيراً من الأضداد، ولا سيما تلك التي تعبر عن صفات لها في نفس المتكلم اهتمام خاص.

ويجب ألا ننسى أن تبدلات المعنى كثيراً ما تنتهي باللفظ إلى أن يعبر عن عكس ما كان يعبر عنه من قبل. ويحدث في بعض هذه الحالات أن يحتفظ اللفظ

---

(١) انظر المزهر، ج ١ ص ٢٣٧.

بالدلالتين القديمة والحديثة فيصير من الأضداد. ولنا على ذلك مثالان جيدان أحدهما من العربية والثاني من الفرنسية:

فكلمة (استُهتر) تدل على معنى (أحب) كما تدل عند بعضهم اليوم على معنى (استهان). وتعليل ذلك أن هذه الكلمة كانت لا تقال إلا إذا أحب إنسان شيئاً أو شخصاً حباً لا يبالي معه ما يقوله الناس فيه، فكانوا إذا قالوا «استهتر زيد بالسفر» عنوا أن زيداً مولع بالسفر ولوعاً شديداً يجعله لا يبالي ما يقوله الناس فيه في هذا الشأن، ثم انتقل معنى عدم المبالاة هذا من قول الناس إلى المحبوب ذاته، فصرنا إذا قلنا اليوم «استهتر سعيد بالسفر» نفهم من ذلك أنه لا يبالي السفر ولا يهتم له.

قد يقال: لكن معنى الاستهانة قد دخل لفظ (استهتر) عن طريق الوهم أو الخطأ، أو قد يقال: إن المعنيين لكلمة (استهتر) ليسا لها في وقت واحد، وإن أحدهما كان لها في زمن، وكان الثاني لها في زمن آخر، وهذا من قبيل التبدل في المعنى، وليس مما نحن فيه من الأضداد، لأن الأضداد لها معان متضادة في عصر واحد.

فمن القول الأول نجيب بأن الوهم هو أحد أهم الأسباب لكثير من التطورات اللغوية، وما أكثر الأخطاء التي فرضت نفسها وسلم بها حتى المتزمتون من اللغويين. وأما عن القول الثاني فأقول إن بعض الكتاب اليوم يستعمل كلمة (استهتر) للمعنيين معاً، واذكر أني قرأت مرة كتاباً استعمل فيه صاحبه كلمة (استهتر) للمعنيين كليهما في صفحة واحدة. ومن المؤسف أن الذاكرة لا تسعفني لذكر اسم هذا الكتاب.

وأما المثال الفرنسي فيذكره لنا (موريس شون في كتابه (حياة الكلمات وموتها) حيث يقول ما ملخصه[١]:

يؤكد علماء الأصوات اللغوية أن الكلمة الفرنسية (tuer = قتل) هي من الكلمة اللاتينية (tutari) التي معناها (حفظ وصان). لكن علماء الدلالة

---

(١) Vie et mort des mots, pp. 15-16.

يحتجون قائلين: كيف يمكن لكلمة تعني (حفظ) أن تأخذ معنى (أمات)؟ وظل الأمر محل أخذ ورد حتى جاء الجواب من أحد علماء اللغة: فقد حدث لهذا العالم أنه زار في عطلة له إحدى تلك المقاطعات الفرنسية القديمة حيث لا يزال يحتفظ الناس بقدر كبير من الكلمات القديمة والاستعمالات القديمة للكلمات، فسمع ربة المنزل تقول ذات مساء «je vais tuer le feu» = «سأقتل النار» فراقبها ليرى ما تفعل، فوجدها تغطي ما بقي من الجمرات في الموقد بالرماد، وهي تقول: «غداً صباحاً، سأكون لا أزال أملك جمرة حمراء تحت الرماد، وقليل من الحطب مع بعض نفخات كافية لتعيد ناري إلى اشتعالها الأول» وهنا فكر العالم اللغوي قائلاً في نفسه: أن (tuer) معناها حفظ كما جاء على لسان ربة المنزل هذه، لكن (حفظ النار) أدت إلى معنى (ستر الجمر)، وهذه انتهت إلى معنى (خنق الجمر)، وهذه إلى معنى (خنق وأمات). وهكذا تصبح كلمة (tuer) عند هذه الفرنسية من الأضداد إذ هي تعني قتل وحفظ.

٣ ــ الترادف:

هو دلالة الألفاظ المختلفة على المعنى الواحد، مثل: المسكن والمنزل والدار والبيت، ومثل: ذهب ومضى وانطلق وغدا.. الخ.

والترادف أمر معروف في كل الألسن، إلا أنه في العربية أكثر منه في غيرها، لذلك عده بعضهم من أبرز خصائصها. و يبدو ذلك معقولاً إذا تذكرنا أن من علماء العربية من وضع كتباً مخصوصة لأسماء شيء واحد، فقد ألف ابن خالو يه كتاباً في أسماء الأسد، وكتاباً آخر في أسماء الحية[١]. كما ألف العلامة مجد الدين الفيروز آبادي صاحب القاموس كتاباً سماه «الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف» (٢) وكتاباً آخر سماه «ترقيق الاسل لتصفيق العسل» ذكر فيه للعسل ثمانين اسماً، ومع ذلك لم يستوفها كلها، كما يقول السيوطي، بل

---

(١) المزهر جـ ١ ص ٢٤٢.

(٢) المرجع نفسه جـ ١ ص ٢٤١.

فاته منها اثنان، أولهما الصرخدي الذي ذكره القالي في أماليه، والثاني السعابيب الذي ذكره الزجاج في أماليه أيضاً (١).

وكما اختلف العلماء في أمر المشترك اللفظي، فكذلك اختلفوا في أمر المترادف، فقد أنكره بعضهم، واثبته آخرون. ويمكن الاطلاع على دعوى كل من الفريقين وحججه مما ورد في (الصاحبي) لابن فارس حيث يقول في هذا الصدد:

«و يسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة، نحو: السيف والمهند والحسام».

«والذي نقوله في هذا أن الاسم واحد، وهو (السيف)، وما بعده من الالقاب صفات. ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى.

«وقد خالف في ذلك قوم، فزعموا أنها وإن اختلفت ألفاظها، فإنها ترجع إلى معنى واحد. وذلك قولنا: سيف وعضب وحسام.

«وقال آخرون: ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناه غير معنى الآخر. قالوا: وكذلك الافعال، نحو: مضى وذهب وانطلق، وقعد وجلس، ورقد ونام وهجع. قالوا: ففي «قعد معنى ليس في «جلس» وكذلك القول فيما سواه.

«و بهذا نقول: وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢).

«واحتج أصحاب المقالة بأنه: لو كان لكل لفظة معنى غير معنى الأخرى لما أمكن أن يعبر عن شيء بغير عبارته. وذلك أنا نقول في «لا ريب فيه»: «لا شك فيه»، فلو كان «الريب» غير «الشك» لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأ. فلما عبر عن هذا بهذا عُلم أن المعنى واحد.

«قالوا: وإنما يأتي الشعر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد في مكان واحد تأكيداً ومبالغة، كقولهم:

وهند أتى من دونها النأيُ والبُعْدُ (٣).

---

(١) المرجع نفسه جـ ١ ص ٢٤٢.

(٢) البيت للحطيئة، وصدره: ألا حبذا هند وأرض بها هند.

(٣) والى ذلك ذهب العسكري أبو هلال. انظر كتابه (الفروق اللغوية).

«فقالوا: فالنأي هو البعد. قالوا: وكذلك قول الآخر: إن الحبس هو الأسْرُ.

«ونحن نقول: إن في (قعد) معنى ليس في (جلس). ألا ترى انا نقول: (قام ثم قعد) و(أخذ المُقيم والمُقعِدُ) و(قعدت المرأة عن الحيض)، ونقول لناس من الخوارج (قعَد) ثم نقول: (كان مضطجعاً فجلس) فيكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس، لأن «الجَلْسَ: المرتفع». فالجلوس ارتفاع عما هو دونه. وعلى هذا يجري الباب كله.

«وأما قولهم: إن المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يعبر عن الشيء بالشيء، فإنا نقول: إنما عبر عنه من طريق المشاكلة، ولسنا نقول إن اللفظتين مختلفتان، فيلزمنا ما قالوه، وإنما نقول إن في كل واحدة منهما معنى ليس في الأخرى»(١).

ويظهر أن إنكار الترادف، والقول بالتباين، كان مذهب أبي علي الفارسي أيضاً، فقد نقل السيوطي عن العلامة عز الدين بن جماعة أن الشيخ القاضي أبا بكر بن العربي قال: كنت بمجلس سيف الدولة بحلب، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه. فقال ابن خالويه: أحفظ للسيف خمسين اسماً، فتبسم أبو علي، وقال: ما احفظ له إلا اسماً واحداً وهو السيف. قال ابن خالويه: فأين المهند والصارم وكذا وكذا؟ فقال أبو علي: هذه صفات. وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة»(٢).

وعلى الرغم مما في قول أبي علي وابن فارس من جانب من الحق لا يمكن دحضه، فإن إنكار الترادف إنكاراً تاماً مذهب لا تؤيده النصوص والشواهد الكثيرة، فالترادف شيء ثابت في العربية كما هو ثابت في غيرها من الألسن، ومحاولة المنكرين إيجاد فروق بين المترادفات هي محاولة مخفقة يبدو عليها التكلف والتعسف، وذلك كتفريقهم بين الصمم والطرش والصلخ وبين الانسان والبشر، وبين الخندريس والعقار... الخ(٣).

---

(١) الصاحبي، ص ٦٥-٦٦.

(٢) المزهر. ج ١ ص ٢٤٠.

(٣) انظر المزهر جـ ١ ص ٢٣٩، ودلالة الألفاظ ص ٢١٢-٢١٣.

وأما ما عناه أبو علي بالصفات فإن بعضه وإن كان قد لحظ فيه معنى الصفة أول الأمر، إلا أنه، بكثرة الاستعمال، نقل من الوصفية إلى الاسمية، وأصبح لا يعني أكثر مما يعني الاسم الصريح للذات. وقد تنبه إلى ذلك بعض المتأخرين واقترح أن تسمى (بالمُتَكافئة) الألفاظ التي كانت صفات في أصل وضعها، ثم صارت مساوية لاسم الذات في دلالتها على الذات، مثل: الغفور، والرحيم، والقدير، التي يفهم منها ذات الله سبحانه وتعالى[١].

هذا، ويقترح الكيا في تعليقه في الأصول تقسيماً غريباً للترادف تكون الألفاظ فيه على نوعين: متواردة، ومترادفة. فالمتواردة كما تسمى الخمر عقاراً وصهباء وقهوة، والسبع أسداً وليثاً وضرغاماً، والمترادفة هي التي يقام لفظ مقام لفظٍ لمعان متقاربة يجمعها معنى واحد، كما يقال: أصلح الفاسد، ولمَّ الشعث، ورتق الفتق، وشعب الصدع[٢].

وظاهر كلام الكيا أنه يعني بالتوارد دلالة الألفاظ المختلفة على الذات الواحدة، وأنه يعني بالترادف دلالة العبارات المختلفة على المعاني المتقاربة.

وعلى كل حال، فإن للترادف في اللغة سببين: أحدهما أن يكون من واضعين، وهو الأكثر، وذلك بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين، وتضع الأخرى الاسم الآخر للمسمى الواحد، من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى، ثم يشتهر الوضعان ويخفى الواضعان، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر[٣]. ومن هذا القبيل ما يكون من الترادف بين ألفاظ عدة لمسمى واحد، يكون بعضها أصيلاً، والبعض الآخر دخيلاً، وهذا كثير في العربية، كالدلفين والبال، والدخس والحوت، فالأولان دخيلان من الرومية، والثانيان عربيان أصيلان، وأما السبب الثاني فهو أن يلحظ في المسمى الواحد صفات متعددة، فيشتق له أسماء تشير إلى صفاته، ثم تصبح هذه الصفات كأنها أسماء له، مثل: الدار والمسكن والمنزل والمأوى... الخ.

---

(١) انظر المزهر ج ١ ص ٢٤٠.

(٢) المرجع نفسه جـ ١ ص ٢٤١.

(٣) المرجع نفسه جـ ١ ص ٢٤١.

تبدلات المفردات

مما لاحظه علماء اللغة، حتى القدماء منهم، أن مفردات اللغة لا تثبت على حال واحدة، بل هي في تبدل وتغير مستمرين، إذ كثيراً ما تهمل بعض الألفاظ لتتوارى عن الاستعمال، وتقبع في بطون المعاجم على أنها من الغريب، كما أن بعضها الآخر يظهر بعد خفاء، و يلتمع نُجمه بعد خفوت. بل كثيراً ما يحدث أن ألفاظاً تموت نهائياً لعدم الحاجة إليها، وأن الفاظاً أخرى تخلق من العدم لأن الحاجة دعت إلى خلقها. ويمكن التثبت من ذلك بمقارنة سريعة لما نستعمله اليوم من ألفاظ العربية الفصحى بما في بطون المعاجم الضخمة القديمة من هذه الألفاظ. ويجب ألا ندهش إذا تبين لنا أن آلافاً من الكلمات قد ماتت فلم تعد مسموعة على الشفاه، ولا سيما تلك التي تتعلق بمسميات من البيئة البدو ية الصحراو ية مما ليس له وجود في حياتنا المعاصرة، مثل أوصاف الإبل والخيل، وأسماء النباتات والحيوانات الصحراو ية المختلفة، كما يجب ألا ندهش إذا رأينا أن هذه المعاجم تخلو من آلاف من الكلمات الجديدة التي استحدثناها للتعبير عن المخترعات والأفكار الحديثة، مثل الطيارة والباخرة والدبابة والطراد والاشتراكية والديموقراطية وغيرها.

متن اللغة إذن مثل بحيرة نهرية: ترفدها دائماً مياه جديدة، كما تفقد دائماً بعضاً من مياهها التي كانت فيها، وبعبارة أخرى: إن التطور يصيب متن اللغة مثلما يصيب أصواتها ونحوها. غير أن هناك فرقاً بين التطور الذي يصيب الصوتيات والنحو، وذلك الذي يصيب المفردات:

«فالنظام الصوتي يستقر منذ الطفولة، و يستمر طول الحياة، فالانسان يحتفظ حتى آخر حياته بمجموعة الحركات التي تعودت عليها أعضاؤه الصوتية منذ طفولته، اللهم إلا أن يحدث له عارض ناتج من التعليم، وذلك في حالة أن يتلقن

نطقاً أجنبياً يحل محل النطق القومي. والنظام النحوي ثابت أيضاً. نعم إن استقراره يتطلب وقتاً أطول، ولكنه بعد أن يستقر لا يعتريه تغير يذكر. ذلك بأن النحو لا يتغير في أثناء جيل واحد، بل هو، كالصوتيات، إنما يتغير في الانتقال من جيل إلى جيل. فالنظام الصوتي والنظام النحوي إذا ما اكتُسبا مرة بقيا طول العمر، و يدينان باستقرارهما إلى استقرار ذهنية المتكلم.

«أما المفردات فعلى العكس من ذلك لا تستقر على حال، لأنها تتبع الظروف. فكل متكلم يكون مفرداته من أول حياته إلى آخرها بمداومته على الاستعارة ممن يحيطون به. فالانسان يزيد من مفرداته، ولكنه ينقص منها أيضاً، و يغير الكلمات في حركة دائمة من الدخول والخروج[1]».

وهنا يعترضنا سؤالان لا بد من الاجابة عنهما:

أولهما: لماذا تبدل اللغة مفرداتها؟

وثانيهما: ما وسائل اللغة في خلق مفرداتها الجديدة؟

---

(١) فندريس: اللغة ص ٢٤٦.

أسبَاب تبدل المفردَات

ووسائل توليدها

إن الأسباب التي تحمل اللغة على تبديل مفرداتها معقدة جداً، وأحياناً تند عن كل بحث. ذلك لأن حالات الكلمات جد غريبة، تتوقف على عوارض يستحيل أن نتنبأ بها قبل وقوعها، كما يستحيل أن نتخيلها بعد وقوعها إذا لم يمدنا التاريخ بما يدل عليها. ومع ذلك فهناك اسباب عامة لتجديد المفردات تستطيع أن تفسر الجزء الأعظم من حالاتها. ويمكننا أن نرد هذه الأسباب إلى نوعين: أسباب فردية ترجع إلى سيكولوجية المتكلم نفسه، وأسباب اجتماعية ترجع إلى تقاليد المجتمع وأعرافه(١).

١ ـ الأسباب الفردية:

١ ـ يحدث لبعض الكلمات أن تصاب بعوارض صوتية تقصّر من طولها. وفي هذه الحالة يميل المتكلم إلى التخلص منها، والاستعاضة عنها بكلمات أكثر طولاً، لأن الكلمات القصيرة ينقصها التعبير غالباً. لهذا السبب لم يعد في الفرنسية ولا في أي لسان روماني آخر أثر للكلمة اللاتينية (os = فم)، ولهذا السبب أيضاً أهملت العاميات العربية بعض الكلمات الفصحى التي لم تعد لشدة قصرها وافية بالغرض، ولا كافية للتعبير عن المعنى الذي نيط بها التعبير عنه.

فمن ذلك (الباء) الجارة التي أهملها السوريون لشدة قصرها، ولا سيما إذا كان مجرورها ضميراً متصلاً، واستعاضوا عنها بكلمة (جوّاة)، فقالوا: (جوّاة البيت) بدلاً من (بالبيت)، و(جوّاتو) بدلاً من (به). أما المتكلم المصري

---

(١) انظر المرجع نفسه. ص ٢٧١-٢٧٢.

فالظاهر أن هذا القصر بالباء لا يزعجه كثيراً، لذلك احتفظ بها مع إطالة كسرتها في بعض الأحيان، أو تضعيف مجرورها إن كان هذا المجرور ياء المتكلم، فقال: (بيك) في (بك)، و(بيَّ) في (بي). وإنما فعل ذلك للتعويض عن القصر الشديد الذي تتميز به الباء.

ومن ذلك أيضاً كلمة (فو) التي استعاض عنها المصريون بكلمة (بقّ) ــ بالتشديد ــ، وكلمة (حم) التي استعاض عنها الحلبيون بكلمة (عمّ)، مع احتفاظهم بمؤنثها (حماة)، لأن هذه أطول من تلك بسبب وجود التاء المربوطة فيها.

ومع ذلك، ينبغي ألا نبالغ في أهمية هذا السبب الصوتي. إذ من النادر أن يستطيع وحده تفسير كل شيء في قضية هجر الكلمات القصيرة. فالكلمات التي هجرها الاستعمال لقصرها كانت تحتوي أحياناً على دواعٍ أخرى لهذا الهجر. ثم إن اللغة نفسها كثيراً ما تقاوم، فتعوض عن البلى الصوتي الذي يعترض بعض الكلمات بأمور متنوعة في محاولة للاحتفاظ بهذه الكلمات: فقد تضيف إلى الكلمات القصيرة عناصر صوتية تزيد من طولها، وهذا ما فعلته العاميات العربية حين شددت الكلمات (يدّ، أخّ، أبّ، دمّ)، وما فعلته اللبنانية حين أضافت نون الوقاية بين الباء الجارة وياء المتكلم (بني ــ بي)، وما فعلته الفرنسية من نطق الكاف المتطرفة في كلمة (Bourg = بور، اسم مدينة) فقالت: (بورك). وقد تلجأ اللغة في محاولة حمايتها للكلمات القصيرة وتعضيدها إلى إسنادها بكلمات أخرى بصورة دائمة: «فالصفتان الفرنسيتان (Sain = سليم) و(Sauf = معافى) لا توجد إحداهما بمعزل عن الأخرى، بل تتحدان معاً، وبهذا تأتّى لهاتين العاجزتين أن تقويا على المقاومة: فيقال (Sain et Sauf = سليم معافى) [1] وفي العربية لا ترى كلمة (شذر) إلا ومعها كلمة (مذر)، فيقال: (تفرق القوم شذر مذر). وكذلك يتعذر عليك أن تعثر على عبارة تشتمل على كلمة (حيص) وحدها. وستجدها دائماً متبعة بكلمة (بيص) في قولهم: (وقع القوم في حيص بيص).

(١) فندريس: اللغة. ص ٢٧٣.

٢ ـ وليس البلى المعنوي أقل خطورة من البلى الصوتي، فكثرة الاستعمال تبلي الكلمات في معناها. ولا سيما إذا كانت من الكلمات المعبرة، لأن قيمتها التعبيرية تتضاءل بسرعة في الاستعمال، فتصبح الكلمة معتمة بالية. وفي حالة التعبير عن انفعالات النفس مثلاً، نرى أقوى الكلمات تخطو نحو الخمول شيئاً فشيئاً حتى تنتهي بالإهمال، لأنها لم تعد معبرة. ويمكننا تحقيق هذه الحقيقة في حالة التعبير عن الكمية ولا سيما الكمية الكبيرة[١]. فكل الألسن تملك عدداً من الكلمات للدلالة على هذه الكمية، فتقول العربية (كثير ـ ووافر ـ وجم ـ وغزير ـ وطيس... الخ)، وتقول الفرنسية (beaucoup = كثير ـ وnombre un grand = عدد كبير ـ وune foule = جمهور ـ وdes quantités = كميات ـ وdes tas = أكوام ـ وdes flottes = أساطيل.. الخ).

٣ ـ كل الكلمات التي لها قوة تعبيرية أياً كانت، معرضة لضعف قيمتها، وهذا بدوره يبعث على التجديد. وكم في كل لسان من عبارات تدل على شيء كريه ثقيل؟ يقال في الفرنسية وحدها: (ennuyant = مسئم ـ embêtant = مزعج ـ fatigant = متعب ـ crispant = مشنّج ـ espuintant = خانق ـ etreintant = مضيِّق ـ assommant = قاتل ـ tuant = قاتل ـ rasant = حالق ـ arbant = قاسٍ ـ canulant = حاقن[٢]). و يقال في العربية (كريه ـ شنيع ـ سمج ـ ممجوج ـ بغيض... الخ).

٤ ـ إذا كانت الفكرة أو الشيء من الأفكار أو الأشياء التي تثير إلى جانب قيمتها الأساسية قيماً ثانوية تبعاً للأوساط والظروف، وجدنا عنها في اللغة عبارات متنوعة. وتدخل النقود في هذه الأشياء، فلها في كل لسان عبارات عديدة. فيقال في الفرنسية: (de la braise = جمر ـ de la galette = كعك ـ du beurre = زبد ـ de l'os = عظم.. الخ[٣]. و يقال في العربية: (نقود ـ فلوس ـ الأبيض والأصفر... الخ). و بالطبع يعبر عن فعل (نقد) بصور مختلفة

(١) نفسه. ص ٢٧٤.
(٢) نفسه. ص ٢٧٥-٢٧٦.
(٣) نفسه. ص ٢٧٣.

تبعاً للأوساط. فتقول العامية السورية: (نقد ــ نقف ــ كبس ــ أدَّى ــ ناول... الخ).

قد يحتج بأن الكلمات التي ذكرت هنا «كلها من العامية، ولكن هذا احتجاج مردود، لأن العامية تنتج من ظروف طبيعية للغة، والعامية ليس معناها لساناً اصطناعياً بأية حال. فمسالك العامية مسالك طبيعية لا غبار عليها. وإذا كانت الحاجة إلى التجديد أظهر في العامية منها في غيرها، فمرجع ذلك إلى استعمال هذه العامية لسان تخاطب، والتعبيرية في الخطاب ضرورة دائمة[1].

٥ ــ فكرة التكلم أيضاً تختلف بدورها باختلاف العواطف التي تثيرها. والأفعال التي معناها «تكلم» تبلى بسرعة. فها نحن نقول: (قال ــ تكلم ــ حدث ــ روى ــ دردش ــ كرى ــ لقش ــ حكى ــ هرتم ــ زعبر... الخ).

٦ ــ وأحياناً يرجع التجديد إلى الرغبة في المخالفة. فهناك أشياء تسلك أزواجاً و يصر الذهن على التفريق بين أفرادها إلى حد أنه إذا تشابه اسما فردين من هذه الأشياء نتيجة مصادفة ما، اختفى أحدهما، وحل غيره محله ليبقى التمييز بين المسميين واضحاً. هذه هي الحال مع التمييز بين الجنسين في بني الانسان وفي الحيوان. والزوج الأساسي الذي اتخذ مثالاً يحتذى في كل ما عداه، هو الأب والأم اللذان لهما في كل الحالات، وفي كل الأماكن اسمان مختلفان. ووفقاً لهذا المثال سمي عدد آخر من الأزواج بأسماء مختلفة[2]: الأسد واللبوة، والحمار والأتان، والجمل والناقة، والثور والبقرة، والظليم والنعامة.. الخ وجرياً على ذلك تميل العربية اليوم إلى استبدال الفاظ متنوعة بكلمة «جدة». فتقول الحلبية «نانة» وتقول غيرها «ست». وأغلب الظن أن الاحتفاظ بهذه المخالفة على هذا النحو من العناية يرجع إلى ميل عام في الذهن.

---

(١) انظر فندريس: اللغة. ص ٢٧٦ و ٣٠٩ و ٣٢٥.

(٢) نفسه ص ٢٧٨.

ب ــ الأسباب الاجتماعية:

لا تستطيع السيكولوجية، حتى في الأمثلة السابقة، أن تفسر لنا كل شيء. فالبلى الذي يصيب الكلمات يرجع دائماً، ولو بمقدار قليل الى البيئة الاجتماعية التي تستعملها. وإذن، يجدر بنا أن نناقش مسألة تجديد المفردات من الوجهة الاجتماعية.

١ ــ فالأسباب الاجتماعية واضحة جداً في تغير الكلمات مراعاة للياقة. إذ ليس من اللائق أن يتكلم في أحد المجتمعات عن أفعال معروفة بالفظاظة، أو بأنها مما يجرح الحياء، وتستبعد الألفاظ التي تعبر عنها من بين المفردات التي يستعملها الأشخاص المهذبون. فللتعبير عن هذه الأفعال عبارات متنوعة تبقى مستعملة حتى تصير بدورها خشنة وجارحة للأذن[(١)]. ولهذا السبب استعضنا عن «تقيأ» بكلمات كثيرة، مثل «طش» و «راجع» و «استفرغ»، وعن «نكح» بكلمة «زوّج»، وعن «بال» بكلمتي «شخ» و «فرَّ» وغيرهما، وعن «تغوط» بـ«طلع لبرا»..الخ.

وقد تنبه إلى ذلك علماؤنا القدماء، وبه فسروا كثرة الألفاظ العربية على الفعل الجنسي، وما يتصل به من الأعضاء الجنسية. فقد ذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه (مثالب الوزيرين)ما يلي[(٢)]:

«حدثني ابن فارس: جرى بين يديه[(٣)] أسماء الفرج وكثرتها، فقال بعض الحاضرين: ماذا أرادت العرب بتكثيرها مع قبحها؟ فقال: لما رأوا الشيء قبيحاً جعلوا يكنون عنه، وكانت الكناية عند فشوها تصير الى حد الاسم الأول، فينتقلون الى كناية أخرى، فإذا اتسعت أيضاً رأوا فيها من القبح مثل ما كنوا عنه من أجله، وعلى هذا فكثرت الكنايات، وليس غرضهم تكثيرها»

٢ ــ شأن الكلمات القاسية الجارحة للعواطف كشأن الكلمات القذرة

---

(١) نفسه ص ٢٨٠.

(٢) ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) أي بين يدي الوزير ابن العميد.

والجارحة للحياء. لهذا تسعى اللغة دائماً الى استبدال غيرها بها. وعلى هذا استغنينا عن كلمة (أعمى) بكلمات كثيرة، مثل (بصير) و (كفيف) و (ضرير). وعن كلمة (مات) بكلمات (ارتحم) و (توفي) و (أعطاك عمره)

٣ ــ تلعب الخرافة دوراً هاماً في تغيير المفردات، ففي المجتمعات التي يسودها الاعتقاد إن ذكر الشيء باسمه الصريح يؤدي إلى حضوره، يتحاشى الناس التلفظ بالكلمات الدالة على أشياء مخوفة مستعيضين عنها بالكنايات، فالنسوة في حلب يعبرن عن مرض السل بقولهن: (هداك المرض = ذلك المرض)، وعن الشياطين بقولهن (بسم الله الرحمن الرحيم).

٤ ــ تقضي الأعراف والمعتقدات الدينية في بعض الأحيان بتحريم بعض الشتائم لصلتها بالأخلاق أو بالدين. وفي هذه الحالة تلجأ اللغة إلى تشويه لفظ الشتيمة المحرمة لتتحاشى المنع العرفي أو الديني، فيكون من كل ذلك خلق ألفاظ جديدة بدلاً من الألفاظ القديمة. من ذلك مثلاً قول العامة عندنا: (يفضح حريشك) بدلاً من (يفضح حريمك)، وقولهم (يلعن سبطينك) بدلاً من (يلعن دينك).

٥ ــ كلما تحقق تقدم في الصناعة الإنسانية ترجم عن نفسه باستعمال آلات وإجراءات جديدة يقابلها خلق كلمات جديدة بقدرها.

فالتغييرات التي تطرأ على الآلات تنعكس في المفردات بطبيعة الحال، فالحذاء، وقد غدا له أشكال مختلفة، أخذ كلمات مختلف بقدر هذه الأشكال: فهو (حذاء، وقندرة، وبوط، وشبشب، وصرماية، ومشاية، وسكربينة، وكلاشة، وصندل، وشحاطة، وجزمة، وغير ذلك)، و (الرغيف) لا يقال إلا لقطعة الخبز المرقوقة المستديرة، أما إن كان متطاولة فهي (شبطية)، فإن كانت مستديرة مع سمك فهي (صمنة)، فإن تطاولت مع سمك فهي (صندويشة).

٦ ــ إذا تعددت وجوه الاستعمال لحيوان ما تعددت أسماؤه، وهذا سبب كثرة أسماء الجمل في العربية، فإذا أريد ذبحه فهو (الجزور)، وإذا أعد لحمل الأثقال فهو (الذلول)، وإذا استخدم للركوب فهو (القعود)..الخ.

٧ ــ إذا كان للشيء الواحد صلة بطبقات اجتماعية مختلفة، كانت له أسماء متعددة، فما يدفع للأجير يدعى (أجرة)، وما يؤدى للمحامي يسمى (أتعاباً)، وما يتقاضاه الموظف يسمى (راتباً أو مرتباً أو معاشاً) وما يقبضه الطبيب يسمى (كشفية). أما ما يدفع لمعلم الصبيان في الكتاب فهو (خميسية)، وأما الحلاق وصاحب المقهى والحمامي فيتقاضون ما يسمى (شكلة).

* * *

حان الوقت للإجابة عن السؤال الثاني، وهو:

ما الوسائل التي تتوسل بها اللغة لتلبية حاجتها الدائمة الى المفردات؟

وفي الإجابة عن ذلك يقال:

إن العمليات اللغوية التي بها تتجدد المفردات يمكن إرجاعها بسهولة إلى بضعة أنواع عامة، منها:

١ ــ التركيب:

وهو أن تركب كلمتان من كلمات اللغة، فيكون لهما في حالة التركيب معنى لم يكن لهما في حالة الإفراد، مثل بعلبك وحضرموت.

هذه الوسيلة في توليد المفردات ليست معتمدة بدرجة واحدة في جميع الألسن، فعلى حين نجد الهنديات الأوروبيات ــ لا سيما الألمانية ــ يؤثرونها على غيرها من الوسائل، نرى الساميات لا يلجأن اليها إلا في القليل النادر، وتبدو العربية بخاصة أزهد أخواتها فيها، والكلمات العربية التي ولدت بهذه الوسيلة قليلة جداً، بل لعلها لا تزيد عن اثنتين، أولاهما «شَقَحْطَب» على وزن «سفرجل»، وهي اسم للكبش الذي له قرنان كل منها يحكي «شقَّ حَطَب»، وثانيتهما: «حبْقرُ» اسماً للبَرَد وهي مصنوعة من كلمتي (حب) و (قر) بمنى البرْد.

٢ ــ النحت:

وهو أن تأتي الى كلمتين أو أكثر، فتنحت من كل واحدة حرفاً أو أكثر، ثم

تصنع من هذه الحروف كلمة جديدة، مثل «حوقل» من عبارة «لا حول ولا قوة إلا بالله».

وهذه الوسيلة نادرة الاستعمال في العربية، إلا أن الكلمات العربية التي صنعت بها أكثر نسبياً من الكلمات التي صنعت بطريقة التركيب.

هذا و يعدّ النحت اليوم من الوسائل المفضلة لصنع الكلمات الكثيرة التي تحتاج إليها الحضارة، ولا سيما في مجال الأدوية والشركات والمؤسسات والمخترعات والمستنبطات والكيماوية وغيرها. ومن الكلمات المشهورة التي صنعت عن هذا الطريق: الرادار والنايلون واليونسكو والسيمكس والنازي.. وغيرها[1]

٣ ــ النقل من العلمية إلى الاسمية:

وهو أن تسمي شيئاً جديداً باسم مخترعه أو مروجه أو بائعه أو الشركة التي اشتهرت بصنعه، مثل: «شينكو» التي يطلقها أهل حلب على الآنية الحديدية المطلية بالميناء. والاسم كان علماً للشركة اليابانية التي كانت أول من باع هذا النوع من الآنية. ومثل: «بوتاغاز» التي تطلق اليوم على آلة الطهي الغازية المعروفة. وكان الاسم أول الأمر علماً لأول شركة لتوزيع الغاز.

٤ ــ النسب:

وهو أن تسمي شيئاً جديداً بأن تنسبه الى مخترعه أو الى البلد الذي جاء منه: مثل: (الكوفية) المنسوبة الى (الكوفة)، وهي غطاء معروف للرأس، و (المامونية) المنسوبة الى (المأمون)، وهي طعام مصنوع من سميذ وسمن وسكر.

---

(١) يعد النحاة واللغويون العرب كلا من التركيب والنحت شيئاً واحداً يسمونه (النحت). إلا أننا فضلنا أن نخص مصطلح (التركيب) بالعملية اللغوية التي ليس فيها اسقاط لشيء من مادة المفردات التي تدخل في تركيب الكلمة الجديدة، ومصطلح (النحت) بالعملية التي يجري فيها هذا الاسقاط.

هذا و يعد النحاة العرب النحت نوعاً من الاشتقاق كما سترى في الفصل القادم

٥ ـ المحاكاة:

وهي أن تسمي صوتاً أو شيئاً بمحاكاته أو محاكاة ما يصدر عنه من أصوات بالأصوات اللغوية، مثل، (بم) حكاية صوت الانفجار، والبقبقة اسماً للغليان.

ومن اللغويين من يرى أن المحاكاة كانت الوسيلة الأولى لدى الإنسان في إنشاء اللغة بجميع مفرداتها [١].

والكلمات العربية المتولدة بهذه الطريقة كثيرة، منها: الخرير والحفيف والنقيق والأزيز والشهيق والنهيق والصهيل والمواء والعواء والخوار... وغيرها.

٦ ـ الاختراع:

وهو أن تلجأ اللغة الى صنع الكلمات من أساسها بتركيب مجاميع من الأصوات اللغوية بعضها مع بعض، مثل gaz «غاز» التي اخترعت في القرن الثامن عشر، و rococo «نوع من الزخرفة» ومن ذلك أسماء بعض المستحضرات والسلع والآلات، مثل كلمة Kodak «كوداك» التي خرجت كما هي من دماغ مخترعها، وكلمة «خنفشار» التي تذكر الأخبار أنها كانت من صنع ستة من الأشخاص وضع كل واحد منهم حرفاً من حروفها.

وأنكر بعضهم طريقة الاختراع ذاهبين إلى أنه لا شيء أصعب من صنع كلمة دون الاهتداء بوسائل الاشتقاق والتركيب المعتادة في اللسان الذي يتكلمه الصانع. وردوا الكلمات المخترعة إلى وسائل أخرى في توليد المفردات: فقالوا إن كلمة gaz فيها صدى كلمة geist «روح»، وعلى هذا نكون أمام حالة تشويه لكلمة موجودة بالفعل، لا أمام حالة اختراع من العدم. أما الكلمات التي من قبيل Kodak و rococo فلها قيمة تعبيرية لا تنكر، ذلك أنها كلمات أشبه بأسماء الأصوات. فكلمة «كوداك» تصور لنا صورة، هي صورة سمعية، حتى كأننا نسمع صوت المفتاح الذي يفتح الآلة لالتقاط الصورة ويغلقها. فهل أحس مخترع الكلمة هذه القيمة وأراد التعبير عنها؟ إن هذا لجائز، لكنه غير ضروري. غير أن

---

(١) من هؤلاء ابن جني. راجع الفصل الخاص بنشأة اللغة من الباب الثاني من الكتاب.

هناك دائماً اتفاقاً غير شعوري يقوم بين الأصوات والأشياء. فالانطباع الذي تحدثه كلمة غير معروفة يمكن أن يختلف من سامع الى آخر، ولكن هناك انطباعاً على كل حال، إن قليلا وإن كثيراً. وإنما يقاس الفرق بدرجة حساسية السامع، أو خياله، أو مجرد حالته العصبية. فالذي يطلق اسماً مصنوعاً من أوله الى آخره على شيء، أياً كان، قد يكون مستهدياً بتوافق نفسي بين الأصوات والشيء نفسه. هذا إلى أن كلمة (كوداك) متمشية مع قواعد اللغة التصويرية: فالحبيسات تحتوي على نفس الحركة الصوتية، والطليقات فيها نفس الجرس الذي قرره الأستاذ غرامون. وهذه الكلمة تعد على درجة من حسن الصياغة تجعلنا نتساءل عما إذا كان في الإمكان صياغتها على غير ما هي عليه.

ولعل القدرة على خلق الكلمات ليست إلاّ نوعاً من الخداع. وهذه النتيجة تؤدي بنا الى القاعدة اللغوية الكبرى التي تقول: إن الألسن تسير على تحوير العناصر الموجودة، لا على الخلق والاختراع (١).

٧ ــ الاشتقاق:

هو نزع لفظ من لفظ آخر بشرط مناسبتهما معنى وتركيباً، وتغايرهما في الصيغة كاشتقاق (عالم) من (علم) و(مكتوب) من (كتب).

والاشتقاق من أهم الوسائل لتوليد المفردات لدى جميع الألسن، وهو في العربية أهمها على الإطلاق. وله فيها قواعد مرسومة وطرائق مخصوصة سنأتي على ذكرها إن شاء الله في الفصل القادم.

٨ ــ الاقتباس:

و يسمى الاقتراض أو الاستعارة emprunt أحياناً. و يقوم على أخذ كلمة من لسان الى لسان آخر. وإذا كان هذا الأخذ من غير العربية اليها سمي تعريباً. وسنعقد للتعريب فصلاً خاصاً إن شاء الله.

---

(١) فندريس. اللغة ص ٢٩٢-٢٩٤.

وتختلف الألسن في أمر الاقتباس اختلافاً كبيراً: فمنها ما يقصر اقتباسه على الرطانات، ومنها ما يعتمد على اللهجات الخاصة أو الإقليمية، ومنها ما يجعل جل اعتماده على الألسن الأجنبية. وفي هذا الشأن كانت العربية خلال عصور عديدة المعين الذي لا ينضب لتجديد مفردات كل من الفارسية والتركية. وكانت اللاتينية في كل العصور مصدراً لتجديد المفردات في ألسن أوروبا الغربية، ولا سيما الفرنسية. كما كانت اللاتينية نبعاً فياضاً للإنكليزية، وللألمانية ولكن بصورة مصغرة، لأن الألمانية تكتفي بنفسها، بفضل ما فيها من لهجات عديدة غنية، وبفضل نظام التركيب الذي يسمح لها بزيادة مفرداتها زيادة واسعة[١].

والإغريقية كانت معيناً للألسن السلافية، وخصوصاً الروسية التي كان لها معين آخر دائم لتجديد مفرداتها يتمثل في اللهجات السلافية القديمة التي ظلت متصلة بعضها ببعض تحت تأثير الكنيسه[٢].

(١) نفسه ص ٢٩١.

(٢) نفسه. ص ٢٩٢.

الاشتقاق في العربيّة

يعد الاشتقاق في العربية أهم وسيلة لتوليد الألفاظ. ولهذا عني به لغويو العرب قديماً وحديثاً، وافردوه بالتأليف في كتب مستقلة، أو في فصول طوال من مؤلفاتهم، منهم قديماً: الأصمعي، وقطرب، وأبو الحسن الأخفش، وأبو نصر الباهلي، والمفضل بن سلمة، والمبرد، وابن دريد، والزجاج، وابن السراج، والرماني، والنحاس، وابن خالويه[١]، وابن جني[٢]. ومنهم حديثاً: الاستاذ محمد المبارك[٣]، والاستاذ سعيد الأفغاني[٤]، والشيخ عبدالقادر المغربي[٥].

وإليك ملخصاً لما قيل في هذا الموضوع:

١ ــ تعريف الاشتقاق:

هو أخذ لفظ من آخر مع تناسب بينهما في المعنى وتغيير في اللفظ، كأخذ «عالم» من «علم» و«مكتوب» من «كتب».

٢ ــ أنواع الاشتقاق:

حشر اللغويون العرب عدة أشياء تحت اسم الاشتقاق، ثم عادوا ففرعوه، فكان عندهم على أربعة أنواع:

آ ــ الاشتقاق الصغير أو الأصغر:

---

(١) السيوطي: المزهر. ج ١ ص ٣٥١.
(٢) انظر كتابه: الخصائص.
(٣) انظر كتابه: فقه اللغة وخصائص العربية. ص ٦٩-١١١.
(٤) انظر كتابه: في أصول النحو. ص ١٠٤-١٢١.
(٥) انظر كتابه: الاشتقاق والتعريب.

وهو ما في أيدي الناس، وما ينصرف إليه لفظ الاشتقاق عند إطلاقه، كاشتقاق (ضارب ومضروب) من (ضرب) و(كاتب ومكتوب وكتاب) من (كتب).. وهلم جراً.

و يشترط في هذا النوع من الاشتقاق أن يتفق المشتق والمشتق منه في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها. وفصائل الكلمات الناتجة منه عشر: الفعل الماضي، والفعل المضارع، وفعل الأمر، واسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة باسم الفاعل، ومبالغة اسم الفاعل، واسم التفضيل، واسما الزمان والمكان، واسم الآلة.

وقواعد هذا النوع وشروطه مشروحة شرحاً وافياً في كل كتب النحو والصرف.

ب ــ الاشتقاق الكبير:

و يسمى بالقلب أيضاً. وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المعنى، واتفاق في الأحرف الأصلية دون ترتيبها، مثل: (جذب وجبذ)(١) فإن الحروف في المشتق هي عينها في المشتق منه، والمعنى فيهما متناسب، وإنما الفرق بينهما أن الباء في الأول بعد الذال، على عكس الثاني. وهذا ما عنوه بالقلب في هذا المقام.

ولما لم يكن معروفاً على جهة اليقين أي اللفظين أسبق على صاحبه في هذا النوع من الاشتقاق، ليكون السابق هو المشتق منه، واللاحق هو المشتق، فقد اصطلحوا على أن الكلمة الأكثر شيوعاً وتداولاً تجعل الأصل المشتق منه، والأخرى الأقل شيوعاً تجعل مشتقاً: فمن ثمة كان الجذب هو الأصل، وجبذ هو الفرع المشتق، لأن (جذب) دائر على ألسنتهم أكثر من (جبذ)(٢).

وأمثلة هذا النوع في العربية كثيرة. منها:

---

(١) قال ابن فارس: ومن سنن العرب القلب... كقولهم (جذب وجبذ) و (بكل ولبك) وهو كثير وقد صنفه علماء اللغة. الصاحبي ص ١٧٢.

(٢) المغربي: الاشتقاق والتعريب ص ١٠.

(الشوب) أي الخلط. يقولون: شاب الرجل اللبن بالماء، إذا خلطه به.

فإذا قدمت الواو على الشين وقلت: (وشْب)، ثم جمعتها، صارت: (أوشاب)، وهم الأخلاط من الناس، وإذا قلت: (وبش)، ثم جمعتها، صارت: (أوباش)، وهم الأخلاط من الناس ايضاً. و(أوبشت الأرض): أنبتت واختلط نباتها، وإذا قلت: (بوش) ــ مقلوب ما تقدم ــ كان معناها القوم المختلطين من قبائل شتى. (والبوش) أيضاً طعام بمصر من حنطة وعدس يجمع ويغسل في زبيل ويجعل في جرة ويطيّن ويجعل في التنور، وقد سمي بذلك لما فيه من الاختلاط. وتركتهم (هوشاً بوشاً): مختلطين. و(بوّشوا تبويشاً): اختلطوا.

ومن ذلك:

(خرشب عمله): إذا لم يحكمه. فإذا قدمت الشين على الراء وقلت: (خشرب عمله)، كان معناه أيضاً أنه لم يحكم العمل.

ومنه أيضاً:

(طفا) فوق الماء: علا عليه. فإذا قدمت الألف على الفاء صارت: (طاف). فطاف مقلوب طفا، ومعناهما متناسب متقارب، وذلك لأن من طفا على وجه الماء قلما يثبت في موضع، وإنما هو طائف متنقل على سطحه. ومنه (الطوف): وهو قِرَبٌ تُنفخ ويشد بعضها إلى بعض، ثم تركب ويحمل عليها في البحر(١)

لعلم اللغة الحديث في هذا النوع من الاشتقاق رأي يخالف رأي اللغويين العرب القدماء. فهذا العلم لا يرى بين (جذب وجبذ) علاقة اشتقاقية، بل يرى ظاهرة صوتية يسميها بظاهرة الانتقال المكاني، حيث تتبادل الأصوات امكنتها في الكلمة الواحدة. وهي إحدى ثلاث ظواهر في التبدلات الصوتية: (التماثل، والتخالف، والانتقال)(٢) لكنه من الإنصاف للغويين العرب أيضاً أن نقول: إن علم اللغة الحديث إذا نجح في تفسير مجموعة مثل (جبذ ــ جذب) بظاهرة

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ١١-١٢.

(٢) راجع باب الأصوات.

الانتقال المكاني فإنه، يعجز عن تفسير مجموعات كثيرة من مثل (طاف ــ طفا) و(خرشب ــ خشرب ــ خربش) بهذه الظاهرة. فالمعروف أن الانتقال المكاني بين أصوات الكلمة لا يؤدي إلى تغيير أو تحوير لمعنى الكلمة كما يفعل الاشتقاق. وإذن، فإن العلاقة بين (طاف وطفا) هي علاقة اشتقاقية لأنهما ليسا بمعنى واحد، بل هما بمعنيين متناسبين متقاربين، خلافاً للحال مع مجموعة (جبذ ــ جذب).

بل لقد ذهب ابن جني إلى أبعد مما ذهب إليه غيره من اللغويين العرب، فقرر وجود معنى مشترك بين تقاليب الفعل الثلاثي الستة، وسمى ذلك بالاشتقاق الأكبر.

يقول[١]:

«هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا[٢]، غير أن أبا علي رحمه الله كان يستعين به، ويخلد إليه مع إعواز الاشتقاق الأصغر، لكنه مع هذا لم يسمه، وإنما كان يعتاده و يستروح إليه و يتعلل به، وإنما هذا التقليب لنا نحن، وستراه فتعلم انه قلب مستحسن، وذلك ان الاشتقاق عندي على ضربين: كبير وصغير. فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم: كأن تأخذ أصلاً من الأصول فتقرأه فتجمع بين معانية وإن اختلفت صيغه ومبانيه. وذلك كتركيب (س ل م) فإنك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه، نحو: سلم و يسلم وسالم وسلمان وسلمى والسلامة والسليم.

وأما الاشتقاق الأكبر فأن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه».

---

(١) انظر باب الاشتقاق الأكبر من كتابه: الخصائص.

(٢) نقل الأستاذ سعيد الأفغاني عن كتاب الفهرست لابن النديم ص ٩٥ (المطبعة الرحمانية بمصر) أن للرماني كتاب: (الاشتقاق الصغير) وكتاب: (الاشتقاق الكبير). والرماني من أتراب الفارسي وأقرانه. وكان الفارسي شيخاً لابن جنى. ومعنى ذلك أن ابن جني لم يكن السابق الى القول بالاشتقاق الكبير. انظر حاشية الصفحة ١١٠ من كتاب: في أصول النحو.

ثم مضى ابن جني يضرب الأمثلة على قاعدته. وهذا واحد منها:

(ق و ل) في جميع تراكيبها الستة تدل على الإسراع والحركة:

(ق و ل) وهو القول، وذلك ان اللسان والفم يخفان له. وهو بضد السكوت الذي هو داعية إلى السكون.

(ق ل و): القِلْو: حمار الوحش، وذلك لخفته واسراعه، ومنه: (قلوت البسر والسويق)، وذلك لأن الشيء إذا قلي جف وخف، وكان أسرع إلى الحركة والطف.

(و ق ل): الوقْل للوعل، وذلك لحركته، وتوقل في الجبل: إذا صعد فيه. وذلك لا يكون إلا مع الحركة والاعتمال.

(و ل ق): ولق يلق: أسرع.

(ل و ق): في الحديث: (لا آكل من الطعام إلا ما لوّق لي) أي ما خدم وأعملت اليد في تحريكه، ومنه اللوقة: الزبدة، وذلك لخفتها واسراع حركتها وإنها ليست لها مسكة الجبن.

(ل ق و): اللقوة للعُقاب، قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها.

لا شك أن القارىء قد لاحظ عظم التكلف الذي وقع فيه ابن جني وهو يرد كل هذه التقاليب إلى معنى واحد هو الإسراع والحركة. بل إن ابن جني نفسه كان قد لاحظ ذلك، لكنه اعتذر منه بأن التباعد في المعنى بين المشتق والمشتق منه قد يحصل حتى في الاشتقاق الأصغر، وإنه إذا حصل هذا التباعد عن المعنى المشترك في الاشتقاق الكبير لزم رد التباعد بلطف والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد. لكن ابن جني نسي أن هذا التكلف الذي يسميه (لطف الصنعة والتأويل) لا يحتاج إليه من اشتقاقيي الاشتقاق الأصغر إلا كل من يتوهم وجود علاقة اشتقاقية بين كل كلمتين اشتركتا في أصول واحدة، وهو ما حدث لابن جني نفسه عندما توهم وجود اشتقاق بين فعل (امسك) وكلمتي (المَسْك والمِسك) الأولى لعطر معروف، فقال: إنما سمي الجلد مسكاً لأنه يمسك ما تحته من لحم وعظام، كما سمي المِسك مسكاً لأنه يجذب الإنسان

إليه فكأنه يمسكه (!!) والمعروف ان كلاً من المَسك والمِسك من الدخيل الذي لا علاقة له بالعربية.

تحمس لنظرية ابن جني كثير من العلماء، وقاموا بعملية استقراء واسعة في محاولة لجمع أكبر عدد ممكن من الأدلة والبراهين على صحتها، ومع ذلك، لا يزال فيها جوانب ضعف كثيرة، فهي في أغلب الأحيان تطالبنا بالتسليم بأن العرب الأولين ادركوا بالبداهة وحدها ما لم يدركه غيرهم بالروية وإعمال الفكر: استمع معي إلى هذا الفيلسوف وهو يرد كلمة (الجراب) إلى معنى (القوة) قائلاً: وإنما سمي الجراب جراباً لأنه يحفظ ما فيه، والشيء إذا حفظ كان أقوى. والمطلوب منك الآن ان تصدق ابنَ جني في ان العرب لحظت هذه السلسلة من المعاني قبل أن تسمي الجراب جراباً.

وعلى كل حال، فإن ما جاء به ابن جني لا يزال في مجال النظريات التي تحتمل الكثير من الأخذ والرد، ولم يخرج بعد إلى مجال الحقائق العلمية التي لا يختلف فيها اثنان.

ج ـــ الاشتقاق الأكبر:

ويسمى الإبدال ايضاً[1]. وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المعنى ومخارج الحروف المختلفة، مثل: (نعق ونهق)، فالمعنى متقارب إذ هو في كل منهما الصوت المستكره. وليس بينهما تناسب في اللفظ، لأن في كل من الكلمتين حرفاً لا يوجد نظيره في الأخرى. غير أن الحرفين اللذين اختلفا فيهما (العين في الأولى والهاء في الثانية) متناسبان في المخرج، فإن مخرجهما جميعاً الحلق[2].

وفي هذا النوع من الاشتقاق ـــ كما في سابقه ـــ لا يمكن معرفة الأصل المشتق منه، والفرع الذي هو المشتق، كما ان العلماء لم يقرروا مبدأ يميزون به بين الاثنين كما فعلوا في الاشتقاق الكبير.

---

(١) انظر الصاحبي. ص ١٧٣.

(٢) انظر الاشتقاق والتعريب. ص ١٣.

هذا والمدققون من علماء اللغة لم يشترطوا في الاشتقاق الأكبر وجود التناسب في المخارج بين الأحرف المختلفة، بل توسعوا في تعريف هذا الاشتقاق ومفهومه، وجعلوه بحيث يتناول ابدال حرف من آخر مطلقاً، وافقه في المخرج أو لم يوافقه فيه بشرط حصول التناسب المعنوي بين اللفظين.

فمن أمثلته ولا تناسب في المخارج بين الحروف المختلفة:

(صرير) البكرة و(صريف) الباب والقلم ــ و(الخرق) و(الخرب) و(الخرت)(١) ــ و(الجمجمة) و(الهمهمة).

ومنه وقد أبدل الحرف الثاني في المضعف حرفاً آخر:

(كدّ وكدح) ــ (رصّ ورصف) ــ (زحَّ وزحل) ــ (رج ورجف) ــ (ضمَّ وضمد) ــ (ردّ وردع).

ومنه وقد ابدلت ألف الناقص حرفاً آخر:

«رسا ورسب» ــ «سما وسمق» ــ «زجا وزجر» ــ «هذى وهذر» ــ «محا ومحق» ــ «احتفى واحتفل» ــ «اسا واسف» ــ «حصا وحصب».

ومنه وقد حول المضاعف إلى أجوف:

«ضر وضار» ــ ثم «كعَّ عن لقياه وكاع» إذا نكص(٢).

د ــ الاشتقاق الكبار:

وجمهور العلماء يسمونه النحت(٣). وهو أن تعمد إلى كلمتين أو جملة فتنتزع من مجموع حروف كلماتها كلمة فذة تدل على ما كانت تدل عليه الجملة نفسها(٤). مثل: حوقل «أي قال: لا حول ولا قوة إلا بالله».

---

(١) الخرب كل ثقب مستدير، والخرت ثقب الأذن وغيرها.

(٢) انظر المرجع السابق. ص ١٢-١٣.

(٣) انظر الصاحبي. ص ٢٢٧.

(٤) الاشتقاق والتعريب. ص ١٣.

وقد أرجع العلماء النحت إلى أربعة أقسام: فعلي، ووصفي، واسمي، ونسبي.

«فالنحت الفعلي» أن تنحت من الجملة فعلاً يدل على النطق بها، أو على حدوث مضمونها. مثل بأبأ «قال: بأبي أنت» ـ جعفل «قال: جعلت فداك» ـ سبحل «قال: سبحان الله» ـ حوقل «قال: لا حول ولا قوة إلا بالله» ـ دمعز «قال: أدام الله عزك» ـ سمعل «قال: السلام عليكم» ـ فذلك «قال: فذلك العدد قد بلغ كذا» ـ لاشى «صيره لا شيء» ـ بعثر «بعث واثار».

«والنحت الوصفي» أن تنحت من الكلمتين كلمة واحدة تدل على صفة بمعناهما أو بأشد منه، مثل الضبطر «الرجل الشديد، من ضبط وضبر» الصلدم «الشديد الحافر، من الصلد والصدم» ـ الصهصلق «الشديد من الأصوات، من صهل وصلق».

«والنحت الاسمي» ان تنحت من كلمتين اسماً، مثل: الجلمود «الصخر القاسي، من جلد وجمد» ـ الشقطحب «الكبش العظيم القرنين، من شق الحطب» ـ الحبقر «البَرَد، من حب القر» ـ العقابيل «البثور التي تظهر على الشفة عقبى الحمى، من عقبى الحمى، أو عقبى العلة».

«والنحت النسبي» أن تنسب شيئاً أو شخصاً إلى مدينتين أو رجلين فتنحت من اسمي المنسوب إليهما اسماً منسوباً واحداً، مثل: طبرخزي «نسبة إلى طبرستان وخوارزم» ـ شفعنتي «نسبة إلى الشافعي وأبي حنيفة» ـ حنفلتي «نسبة إلى أبي حنيفة والمعتزلة»(١) وقد يحدث النحت النسبي عند النسبة إلى علم واحد يتألف من كلمتين، ومنه: عبشمي «نسبة إلى عبد شمس» ـ عبدري «نسبة إلى عبد الدار» ـ مرقسي «نسبة إلى امرىء القيس» تيملي «نسبة إلى تيم اللات»(٢).

---

(١) الاشتقاق والتعريب. ص ١٣-١٤.

(٢) في أصول النحو. ص ١٠٩.

حول قياسية الاشتقاق:

ذهب بعضهم إلى أن الاشتقاق قياسي، بمعنى أنه يجوز لنا أن نشتق ما لم يشتقه العرب من اسم فاعل أو اسم مفعول أو اسم مكان أو اسم زمان إذا كان هذا الاشتقاق جارياً على سننهم وطرائقهم، وإن ما يتحصل عن هذا الطريق من كلمات هو من كلام العرب ولو لم يكونوا قد تلفظوا به من أو عرفوه. قال أبو عثمان المازني: ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب. ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول، وإنما سمعت بعضها، فقست عليه غيره؟

وقال ابن جني ـــ بعد أن سرد أمثلة من اسم المكان والمصدر الواردين على اسم المفعول: هذا كله من كلام العرب، ولم يسمع منهم ولكنك سمعت ما هو مثله وقياسه [1].

وقال ابن درستويه في شرح الفصيح: إنما أهمل استعمال ودع ووذر لأن في أولهما واوا، وهو حرف مستثقل، فاستغني عنهما بما خلا منه، وهو (ترك). ثم قال: واستعمال ما اهملوا من هذا جائز صواب، وهو في الأصل، وهو في القياس الوجه، وهو في الشعر أحسن منه في الكلام [2].

غير أن ابن فارس يرى في هذا الشأن رأياً مخالفاً، فقد عقد في كتابه الصاحبي [3] باباً للقول على لغة العرب هل لها قياس، وهل يشتق بعض الكلام من بعض؟ فقال:

اجمع أهل اللغة ـــ إلا من شذ منهم ـــ أن للغة العرب قياساً، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان، وأن الجيم والنون تدلان أبداً على الستر، تقول العرب للدرع: جُنة. واجنة الليل. وهذا جنين، أي هو في بطن أمه أو مقبور. وأن الأنس من الظهور. يقولون آنست

---

(١) عن كتاب دراسات في العربية وتاريخها لمحمد خضر حسين. ص ٧٠-٧١.
(٢) المزهر ص ٢٥.
(٣) ص ٣٣.

الشيء: ابصرته. وعلى هذا سائر كلام العرب. علم ذلك من علم، وجهله من جهل. قلنا: وهذا ايضاً مبني على ما تقدم من قولنا في التوقيف، فإن الذي وقفنا على ان الاجتنان التبستر هو الذي وقفنا على ان الجن مشتق منه. وليس لنا ان نخترع، ولا ان نقول غير ما قالوه، ولا ان نقيس قياساً لم يقيسوه، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها، ونكتة الباب ان اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن» انتهى.

ومن المحدثين من حاول التفريق بين نوعين من الالفاظ التي لم يتصرف بها العرب: نوع كثر وروده في كلامهم من غير تصرف. فدل ذلك على قصدهم لابقائه على هيئته، وإذن فلا يجوز لنا نحن ان نتصرف فيه، ونوع قل وروده في كلامهم فلم يعرف قصدهم فيه، فيجوز لنا إذن ان نتصرف فيه:

يقول الاستاذ محمد الخضر حسين[١]:

إن الأفعال والمصادر التي لم يسمع لها فروع في الاشتقاق على ضربين:

(أحدها) ما يكثر استعماله في موارد كلام العرب من غير أن يتصرفوا فيه، مثل: ويل وويح ونعم ويذر وما يماثلها، وعدم تصريفهم لها مع كثرة ترددها في محاوراتهم ومخاطباتهم دليل على قصدهم لابقائها على هيئتها. فمن تصرف فيها، فقد اتى بها على وجه قصد العرب إلى تركه، والناطق بما يقصدون إلى اهماله ناسج على غير منوالهم، وناطق بغير لهجتهم. هذا مذهب جمهور أهل العربية.

(ثانيهما) ما لا يكثر في مخاطباتهم حتى يستفاد من وروده بهيئة واحدة انهم قصدوا إلى ترك تصريفه. وهذا هو الذي تعمل به على طبق القاعدة وإن لم يبلغنا أو يبلغ الواضعين للقواعد ان العرب تلفظوا فيه على وفق القاعدة. فيصح لنا ان نجري قاعدة الاشتقاق في هذا النوع وإن لم ندرِ أن العرب تصرفوا فيه على هذا الوجه من الاشتقاق.

---

(١) دراسات في العربية وتاريخها ص ٧٠.

٤ ـــ مصدر المشتقات:

اختلف النحاة واللغويون قديماً في أصل المشتقات: فذهب الكوفيون إلى أن الأصل الفعل، وذهب البصريون إلى أن الأصل هو اسم الحدث، أي المصدر. وساق كل فريق من الأدلة ما ظن انه كاف للتدليل على صحة ما ذهب إليه [1]. ولا نحب ههنا ان نعرض إلى هذه الأدلة بشيء، فكلها من النوع الفلسفي المنطقي الذي لا يتفق والمنطق اللغوي في شيء. بل نحب أن نقرر أمرين:

(أولهما) ان كل بحث في شأن من شؤون العربية لا يمكن ان يصل إلى نتائج يقينية ما لم يصطنع المنهج المقارن ويوسع من دائرته حتى تشتمل الألسن السامية كلها. ذلك ان الألسن التي تنتمي إلى اسرة لغوية واحدة يلقي بعضها الضوء على بعضها الآخر في مثل هذه الأمور الغامضة.

(ثانيهما) ان قضية أصل المشتقات تشبه في اعتياصها قضية نشأة اللغة الانسانية. ويفضل علم اللغة إرجاء الجواب عن هذه المسائل إلى وقت نملك فيه من الأدلة ما يمكن الاطمئنان إليه.

هذا، والثابت ان العرب لم تحجم احياناً عن الاشتقاق من غير الفعل أو اسم الحدث (المصدر):

ـــ فقد اشتقوا من الاعداد، وهي اسماء معانٍ جامدة، فقالوا وحد توحد: بقي وحده. وثنيته تثنية: جعلته اثنين، وثلثتهمٍ: جعلتهم ثلاثة، وربعتهم، وخمستهم.. إلى عشرتهم.

ـــ واشتقوا من اسماء الأزمنة، وهي ايضاً اسماء معان جامدة، فقالوا: اخرف القوم: دخلوا في الخريف، وشتوت بموضع كذا، وتشتيت: أقمت به في الشتاء، واربعوا: دخلوا في الربيع، وتربعوا الموضع: أقاموا فيه بالربيع، واصافوا:

---

(١) انظر تفصيل هذه الأدلة في كتاب ابن الأنباري: الانصاف في مسائل الخلاف: في المسألة الثامنة والعشرين. هذا وقد ذهب مذهب الكوفيين من المحدثين اسرائيل ولفنسون. انظر كتابه: تاريخ اللغات السامية ص ١٤.

دخلوا في الصيف، وصافوا بمكان كذا. وافجروا: دخلوا في الفجر، ومثلها: اصبحوا وأشرقوا: دخلوا في وقت الشروق، وأظهروا وأعصروا وآصلوا.

ــ واشتقوا من اسماء الذوات كأعضاء الانسان، فقالوا: أذنه ورآه وسره ورجله ومعده وصدره، أي: ضرب أذنه ورئته وسرته ورجله ومعدته وصدره. ومن غير اعضاء الانسان قالوا: ابرته العقرب: لسعته بإبرتها، وأبَّل الرجل: كثرت أبله، وأزرته: البسته إزاراً، واستأسد: صار كالأسد، واستنوق الجمل: صار كالناقة. وقالوا: أورق الشجر، وعقرب الصدغ، وفلفل الطعام... الخ.

ــ واشتقوا من اسماء الأصوات، فقالوا: صليل السيوف والكلمة من (صَلْ) التي يحكى بها صوت شيء يابس إذا تحرك. وعلى هذا لا يبعد ان يكون الازيز والطنين والأنين والحفيف والخرير وغيرها مشتقات من اسماء اصوات أميتت، هي: «از» و«طن» و«ان» و«حف» و«خر».

ــ واشتقوا من حروف المعاني افعالاً ومصادر، فقالوا: انعم الرجل: قال: نعم، وسوّف الحاجة: إذا ما طل وقال مرة بعد مرة: سوف أقضيها، وقالوا: سألتك حاجة فلوليت لي: قلت لي: لولا.

ــ واشتقوا من الأعجمي كما يشتقون من كلامهم، فقالوا: درهمت الخبازى: صارت كالدراهم، والدرهم اعجمي من الإغريقية.

ــ بل لقد اشتقوا من المشتق نفسه، فقالوا: تمسكن الرجل، فاشتقوا الفعل من الاسم «مسكين الذي هو مشتق من السكون، ومثل ذلك: تمكن الرجل، فهي من المكان، والمكان من الكون (١).

٥ ــ النظرية الثانية:

رأيتَ قبل قليل نوعاً من الاشتقاق يسمى «الأكبر»، وفيه يتفق طرفا الاشتقاق ــ المشتق والمشتق منه ــ في بعض الحروف، ويختلفان في بعضها الآخر. هذه الظاهرة، ظاهرة تناسب المعنى بين كلمتين اتفقتا في بعض الحروف،

(١) عن كتاب في أصول النحو. ص ١١٦-١٢١ بتصرف.

تنبه إليها عدد كبير من قدماء اللغويين منهم الخليل وسيبويه وأبو علي الفارسي وابن جني وغيرهم. إلا أن ملاحظاتهم الكثيرة التي أبدوها حول هذا الموضوع لم تتعد الاشارة إلى وجود التناسب المعنوي فقط.

أما بعض المحدثين من اللغويين فقد ابعدوا حتى وصلوا إلى حد القول بنظرية لغوية مفادهاو ان جميع كلم العربية ترجع إلى اصول ثنائية هي في أغلبها حكاية اصوات طبيعية.

أشهر القائلين بهذه النظرية: جرجي زيدان في كتابه (الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية) والأب انستاس الكرملي في كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها) والشيخ عبدالله العلايلي في كتابه (مقدمة لدراسة لغة العرب) والأب مرمرجي الدومينيكي في كتابه (المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية).

وإليك ملخصاً لما قالوه في هذا الشأن:

١ ــ يقرر الصرفيون القدماء ان كلم العربية ترجع في أغلبها إلى أصول ثلاثية منها اشتقت، وعنها صدرت: فـ (أضرب، وضرب، وضارَبَ، واضطرب، وتضرّب، وتضارب، واستضرب) ترجع كلها إلى أصل ثلاثي مؤلف من الحروف الثلاثية (ض. ر. ب)، و(فتَّح، وفاتَح، وانفتح، وتفتح، واستفتح) ترجع كلها إلى أصل ثلاثي مؤلف من الحروف الثلاثة (ف. ت. ح)، وقس على ذلك سائر كلم العربية. وإنما حمل الصرفيين القدماء على تقرير ما قرروه انهم لحظوا بين كلمات كل مجموعة شيئين مشتركين، أولهمات المعنى. وثانيهما الحروف. إذ ان كلمات المجموعة الأولى تشترك كلها في معنى عام واحد هو معنى الضرب، وفي حروف ثلاثة هي الضاد والراء والباء، وكذلك كلمات المجموعة الثانية، ففيها كلها معنى عام واحد مشترك هو معنى الفتح، وحروف ثلاثة لا تخلو واحدة منها، هي الفاء والتاء والحاء.

لكن الصرفيين القدماء وقفوا عند حد الحروف الثلاثة فلم يتجاوزوه. أما نحن ــ المحدثين ــ فلو أوغلنا في تطبيق منهج القدماء، وسرنا في تطبيقه مسافة

أبعد، لتبين لنا ان هذه الثلاثيات ليست هي الأصول النهائية، وإنها فروع ومشتقات من أصول أبعد يتألف كل واحد منها من حرفين اثنين فقط. إذ يظهر لنا ان كل مجموعة من هذه الثلاثيات إذا اشترك افرادها في حرفين اثنين فقط اشتركت كلها في معنى عام واحد مدلول عليه بالحرفين المشتركين. ومعنى ذلك ونتيجته ان الأصل الاشتقاقي في العربية ثنائي ليس ثلاثياً.

وإليك بعض الأمثلة:

ـ الثلاثيات التي تشترك في النون والفاء تتضمن كلها معنى الخروج والانتقال أو الاخراج:

نفث، نفج (نفجت الفروجة: خرجت من بيضتها)، نفح، نفخ، نفذ، نفر، نفز (نفز الظبي: وثب)، نفس، نفش، نفض، (نفض الكرم: تفتحت عناقيده)، نفق، نفى.

ـ والثلاثيات التي تشترك في النون والباء تتضمن كلها معنى الخروج أو الإخراج، ولكن إلى أعلى غالباً:

نبأ (النابىء: المكان المرتفع)، نب، نبت، نبث (نبث: نبش)، نبح، نبذ، نبر، نبز، نبس، نبش، نبض، نبع، نبغ، نبك (النابك: المرتفع)، نبه، نبا.

ـ والثلاثيات التي تشترك في الغين والميم تتضمن كلها معنى الإخفاء، غمر، غمس، غمص، غمض، غمط، غم.

ـ وكذا الثلاثيات التي تشترك في الغين والألف غاب، غار، غاص، غام.

ـ أما الثلاثيات التي تشترك في الفاء واللام فتتضمن كلها معنى الشق: فلج، فلح، فلع، فلق، فلّ.

ـ وكذا الثلاثيات التي تشترك في الفاء والراء، والراء واللام كما نعلم من مخرج واحد:

فرث، فرج، فرد، فر، فرز، فرش، فرص (فرصه: قطعه وخرقه وشقه،

والمفراص: الحديد يقطع به الحديد) فرض، فرط، فرع، فرغ، فرق، فرك، فرم، فره، فرى.

ـ والثلاثيات التي تشترك في القاف والطاء تدل كلها على معنى القطع والفصل:

قط، قطع، قطف، قطل «قطله: قطعه. وعنقه: ضربها. ونخلة قطيل: قطعت من أصلها. وكمكنسة: حديدة يقطع بها».

ـ وكذا الثلاثيات التي تشترك في القاف الصاد، وكلا الصاد والطاء من مخرج واحد:

قصر، قصف، قصم، قص.

ـ الثلاثيات التي تشترك في الميم والألف تفيد الحركة والاضطراب:

ماج، ماد، مار، ماس، مال.

ـ والثلاثيات المشتركة في الجيم والميم تدل على معنى الجمع والضم:

جمع، جمل، جم، جمر، «تجمر القوم: تجمعوا، وجاؤوا جمارى أي بأجمعهم. والجمير مجتمع القوم» [1].

٢ ـ الثلاثي إذن يرتد إلى أصل ثنائي. وأما الحرف الثالث فزائد من أجل تنويع المعنى العام المدلول عليه بالحرفين الأصليين.

٣ ـ هذا الحرف الثالث الزائد يقع في آخر الكلمة كما رأيت في الأمثلة السابقة، هذا هو الأغلب. إلا انه قد يكون في الوسط، أي بين الحرفين الأصليين، كشلق من شق، وفرق من فق، وقرط من قط، وقرص من قص، وقرض من قض، وشرق من شق، وقد يكون في أول الكلمة كما في المجموعة التالية: ترم، جرم، حرم، خرم، شرم، صرم، عرم، غرم.

٤ ـ الغالب في الحرف المزيد ان يكون واحداً من هذه «ل. م. م. ن. ر».

---

(١) نقلت هذه الأمثلة كلها من كتاب فقه اللغة لمحمد المبارك ص ٨٨-٩١.

٥ ـــ من أين جاء هذا الحرف الثالث المزيد؟ والجواب عن هذا أحد أمرين: فإن كان هذا المزيد واحداً من «ل. م. ن. ر» فزيادته اعتباطية، وربما توهم الواضع في هذه الزيادة شيئاً من المبالغة أو تنويع الفعل بما يطابق قصده، نحو فض ورفض، وهب ولهب، وشق وشلق، وإن كان غير ذلك فهو بقية من ثنائي آخر كان مركباً مع الثنائي الأول، ثم حدث من الأصلين الثنائيين ثلاثي واحد على طريقة النحت، نحو «قطف»، ويفيد القطع والجمع، والأصل فيه «قط لف»: الأولى قطع والثانية جمع، وبالاستعمال اهملت اللام ونقلت حركتها إلى ما قبلها فصارت «قطف».

٦ ـــ ان الأصل الثنائي هو في الغالب حكاية للصوت الطبيعي المقارن للحدث الذي يدل عليه هذا الثنائي: «فالقط» حكاية للصوت المقارن لحدث القطع، و «القص» حكاية للصوت المقارن لحدث القصم والقصر وغيرهما [١].

٧ ـــ هذا ملخص القول في أمر الثلاثي. أما ما يسمى بالمجرد الرباعي فأمر رده إلى الثنائي يبدو أيسر إذا كنا بصدد ما يدعى بالرباعي المضعف، مثل: وسوس، وسقسق، وزلزل، وحمحم، ومصمص، وصلصل، وجمجم، ورجرج، وهدهد، ودندن، وغيرها. إذ من الواضح ان كل واحد من هذه الرباعيات إنما هو ثنائي كرر قصد المبالغة والتوكيد. أما الرباعيات غير المضعفة، مثل: دحرج، فهي نحت من ثلاثيين: دحر، وجرى، ثم ان كل ثلاثي من هذين يمكن رده إلى ثنائي هو أصل له [٢].

٨ ـــ ان الأصل الثنائي كان الشكل المستعمل للكلمة العربية في مرحلة من مراحل تطورها التاريخي، ثم وفي مرحلة تالية، جاء الحرف الثالث منوعاً للمعنى العام المدلول عليه بالثنائي. فالكلم وضعت في أول أمرها على هجاء واحد متحرك فساكن محاكاة لأصوات الطبيعة، ثم فئمت، أي زيد فيها حرف أو أكثر، في

---

(١) لعل القارىء يتذكر أن هذا هو رأي ابن جني أيضاً الذي أوضحه في باب (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) من كتابه الخصائص.

(٢) القول بأن ما زاد على الثلاثة فهو منحوت قول سبق اليه ابن فارس. انظر معجمه (مقاييس اللغة)، وكتابه (الصاحبي) ص ٢٢٧.

الصدر، أو القلب، أو الطرف، فتصرف بها المتكلمون تصرفاً يختلف باختلاف البلاد والقبائل والاهوية [(١)].

غير أن الاستاذ مبارك لا يحب أن يذهب إلى هذا الحد من الخيال والتصور، بل يحاول أن يفسر ظاهرة الثنائية في العربية بالقوانين المعروفة في تبدل الأصوات، وإن كان يعترف بأن هذه القوانين لا تسعفه في تفسير كل المجموعات الثنائية. يقول: يمكن أن نقول ان الأصل في اللغة هو المجموعات الثلاثية [لا الثنائية]. فالمادة الأصلية في الكلمات العربية تتألف من حروف ثلاثة، ولكن قد يعتري أحد هذه الحروف تبدل صوتي بتوالي الأزمان، أو باختلاف القبائل والبيئات، ومن ذلك تتكون هذه المجموعات الثنائية و يكون هذا الاشتراك بين المجموعات الثلاثية في حرفين دون الثالث، ولكن هذا القول لا يمكن تعميمه، فإن في الأمثلة التي قدمناها وفي غيرها حالات ليس فيها أي تقارب بين الحروف الثوالث في الألفاظ، ولم يجر التبدل الصوتي في اللغات على هذا السنن، ولم يقع تبادل بين حروف متباعدة كالفاء والعين في قطع وقطف، والراء والضاد في غار وغاض. على أن هذا الرأي يمكن أن يقبل بالنسبة لبعض الألفاظ مثل (قد وقط) و(وسم ووشم ووضم) و(مت ومد ومط)، ولكن من العسير تعميمه على جميع الأمثلة، فلا يمكن أن نقيم من هذا التعليل نظرية عامة في أصول الألفاظ العربية [(٢)].

---

(١) الكرملي: نشوء اللغة العربية ص ١.

(٢) فقه اللغة، ص ٩٢.

التعريب

كان التعريب يعد في الماضي المصدر الثاني للمفردات التي تحتاج إليها العربية، أما اليوم، فيبدو انه غدا المصدر الأول لسد حاجة العربية إلى المفردات، هذه الحاجة التي تتفاقم يوماً بعد يوم.

والتعريب، كما يدل عليه اسمه، اقتباس كلمة من لسان اعجمي وادخالها في اللسان العربي. وقد جرى سيبويه على تسميته «اعراباً» (١) كما سمى الخفاجي وغيره الكلمات المعربة بالدخيل.

١ ــ شرط التعريب:

اختلف أهل اللغة قديماً في شرط التعريب: فذهب جمهورهم إلى أنه لا يشترط فيه سوى الاستعمال، فمتى استعملت العرب الكلمة الأعجمية صارت معربة، سواء أألحقوها بأوزان كلماتهم أم لم يلحقوها. وإلى هذا ذهب الشهاب الخفاجي حيث يقول: «واعلم ان التعريب نقل اللفظ من الأعجمية إلى العربية» (٢) وهو المفهوم ايضاً من عبارة سيبويه حيث يقول: «هذا باب ما أعرب من الأعجمية: اعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة، فربما ألحقوه ببناء كلامهم، وربما لم يلحقوه» (٣).

أما الجوهري وغيره فقد ذهبوا إلى أن التعريب هو ان تتكلم العرب بالكلمة الأعجمية على نهجها واسلوبها (٤).

(١) انظر كتاب سيبويه ج ٢ ص ٢٤٢.

(٢) شفاء الغليل. ص ٣.

(٣) الكتاب. ج ٢ ص ٣٤٢.

(٤) انظر مادة (عرب) في الصحاح.

وقد نتج عن هذا الاختلاف في الشرط اختلاف آخر في اعتبار الكلمات التي ينطق بها العرب: فهذه الكلمات عند سيبويه ومن ذهب مذهبه على رتبتين: عربية اصيلة، مثل (ضرب وكتب ورجل وفرس)، ومعربة دخيلة، مثل (دِرهم وَبهْرَج وفِرِنْد وآجُرّ)، وهي عند الجوهري والقائلين بمقالته على رتب ثلاث: عربية اصيلة، مثل (رجل وفرس)، ومعربة، وهو ما نطقت به العرب من الكلام الأعجمي على نهجها واسلوبها والحقته بأبنيتها، مثل (درْهم) الملحق ببناء (هِجْرع)، و(بَهْرج) الملحق ببناء (سَلْهب)، واعجمية وردت في كلام العرب وهو ما نطقت به العرب من غير ان تلحق بأبنيتها ، مثل (خراسان وإهليلج وآجر)، إذ ليس في أوزانهم فعالان ولا إفعيعل ولا فاعُلّ.

٢ ــ أقسام الدخيل:

قسموه إلى ثلاثة أقسام:

١ ــ معرب: وهو ما نطق به الجاهليون ومن يحتج بلغتهم من الكلام الأعجمي. وهو أصغر الأقسام جميعاً، بسبب عزلة العرب في الجاهلية وعدم احتكاكهم بالأمم المجاورة، اللهم إلا ما كان من اتصال القرشيين بالروم في الشام في رحلة الصيف، وما كان من اتصال أهل اليمن بالأحباش والفرس في مناسبات عسكرية وتجارية، ثم ما كان من اتصال عرب الخليج ومشارف العراق مع الفرس والهنود في علاقات أكثرها تجاري وأقلها عسكري.

وأكثر ما نقله العرب الجاهليون ينحصر في اسماء العقاقير أو الأدوات أو المصنوعات أو المعادن أو نحوها مما كان يحمل إلى بلاد العرب من بلاد الفرس أو الروم أو الهند أو غيرها ولم يكن للعرب معرفة به من قبل، أو في بعض الاصطلاحات الدينية أو الأدبية، وأكثر ذلك منقول عن العبرانية أو الحبشية لأن اليهود والأحباش من أهل الكتاب [١]

وأكثر ما نقله العرب في هذه الفترة كان من الفارسية، وأقله كان من الرومية، وأقل من ذلك كان من الحبشية:

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ اللغة العربية. ص ٦.

فمما اقتبسوه من *الفارسية*: الكوز والجرة والإبريق والطشت والخوان والطبق والقصعة والسكرجة والسمور والسنجاب والقاقم والفنك والدلق والخز والديباج والتاختج والسندس والياقوت والفيروزج والبلور والكعك والدرمك والجردق والسميد والسكباج والزيرباج والاسفيذاج والطياهج والفالوذج واللوزينج والجوزينج والبغربنج والجلاب والسكنجين والخلنجين والدارصيني والفلفل والكرو يا والزنجبيل والخولنجان والقرفة والنرجس والبنفسج والنسرين والخيري والسوسن والمرزنجوش والياسمين والجلنار والمسك والعنبر والكافور والصندل والقرنفل).

ومما اقتبسوه من الرومية: الفردوس والقسطاس والبطاقة والقرسطون والقبان والاسطرلاب والقسطل والقنطار والبطريق والترياق والقنطرة وغيرها).

وأما ما نقلوه عن الحبشية فينحصر، كما هو معروف عند جمهور أهل العربية، في ثلاثة الفاظ، هي (كفلين، والمشكاة، والهرج) إلا أن جرجي زيدان يرى أن «منبر» أيضاً معربة «ومبر» الحبشية بمعنى كرسي أو مجلس أو عرش. وإن «النفاق» هو من الحبشية باللفظ نفسه وبمعنى الهرتقة أو البدعة أو الضلال في الدين، ومثل ذلك «الحواري» بمعنى الرسول، و«البرهان» بمعنى النور أو الإيضاح مشتقة من «بره» الحبشية بمعنى اضاء واتضح.

كما يرى هذا الباحث أن كلمات (الحج والكاهن والعاشوراء وغيرها) منقولة عن الغبرانية، وأن (الصبح والبهاء والسفينة) منقولة عن السنسكريتية [١].

٢ ــ مولد: وهو ما عربه المولدون الذي لا يحتج بالفاظهم [٢]. والمولدون هم الأجيال الأولى التي ولدت في صدر الإسلام.

هذا، والمولد في العربية أكثر كثيراً من المعرب، وذلك بسبب اختلاط العرب

---

(١) المرجع نفسه. ص ٧-٨.

(٢) انظر المزهر: ج ١ ص ١٧٧ وما بعدها. هذا وللمولد معنى أعم مما ذكرنا فهم يعنون به كل ما أحدثه المولدون في اللغة مما لم يعرفه العرب، سواء في الاشتقاق والتعريب والمجاز. انظر كتاب «الاشتقاق والتعريب» ص ٦٢ وما بعدها.

بشتى الأمم بعد الإسلام، وأخذهم عنهم الكثير من العلوم والفنون والآداب والعادات وغيرها.

فمما اقتبسوه من اسماء العقاقير: (الافسنتين والبقدونس والزيزفون والسقمونيا والقنطاريون والمصطكي) من الرومية.

و(البابونج والبورق والبنج وخيارشنبر والراتنج والزرجون والزرنيخ والزاج والسرقين والاسفيداج والشاهترج والشيرج والمراسنج) من الفارسية.

ومن اسماء الأمراض ونحوها من الاستعمالات الطبية: (القولنج والترياق والكيموس والكيلوس وقيفال ولومان وملنخوليا) من الرومية و(سرسام ومارستان) من الفارسية.

ومن المصنوعات والأدوات: (الاسطرلاب والإنبيق والصابون) من الرومية، و(البركار والبوتقة والجنزار والدسكرة والاسطوانة) من الفارسية.

ومن الاصطلاحات الفلسفية ونحوها: (الهيولى والاسطقس والفلسفة والطلسم والمغنطيس والاقليم والقاموس والقانون) من الرومية.

و يضيق المقام عن استيفاء آلاف الكلمات التي نقلها المولدون إلى العربية وأغلبها من الفارسية وهي تتعلق في أكثرها بأنواع الأطعمة والأشربة والألبسة والأدوات والنباتات مما لم يكن للعرب عهد به من قبل.

٢ ــ محدث أو عامي: المحدثون هم من عاشوا بعد المولدين إلى أيامنا هذه. و يسمى الكلام الذي عربه هؤلاء «بالمحدث» تمييزاً له من المولد، ونسميه نحن اليوم «عامياً». غير أن تمييز المولد من المحدث يبدو في أكثر الأحيان على جانب من الصعوبة، أولاً لعدم الاتفاق على سنة معينة ينتهي عندها عصر المولدين و يبدأ بها عصر المحدثين، وثانياً لصعوبة معرفة الوقت الذي ظهرت فيه الكلمات المولدة أو المحدثة.

ومع ذلك فهناك الفاظ كثيرة لا شك في كونها من المحدث، وذلك لتثبتنا من الزمن الذي ظهرت فيه، وهو عصر الانحطاط المتفق على حداثته.

وأكثر الألفاظ المحدثة هي من الفارسية أو التركية أو الكردية. وكلها ادارية من اصطلاحات الحكومة. وإليك أمثلة منها:

(الاستادار) هو من يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه. ويمتثل اوامره فيه.

(الجوكاندار) لقب من يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة.

(الطبردار) الذي يحمل الطبر.

(السنجقدار) الذي يحمل السنجق وهو العلم.

(البندقدار) وهو من يحمل جراوة البندق خلف السلطان أو الأمير.

(الجمدار) الذي يتصدى لالباس السلطان أو الأمير ثيابه. وأصله «جامادار».

(البشمقدار) من يحمل نعل السلطان.

(المهمندار) الذي يهتم بالرسل والعربان الواردين على السلطان، و ينزلهم الضيافة.

(الزنان دار) وهو «الزمان دار»، من يتحدث مع السلطان وهو من الخدم أو الخصيان.

«الجاشنيكر» من يتصدى لذوق المأكول خوف التسمم.

«السرآخور» المتحدث عن علف الدواب.

«أمير آخور» صاحب الأسطبل[1].

٣ ــ حكم الدخيل:

قال أبو منصور الجواليقي في المعرَّب[2]: وهذه الحروف [يعني الكلمات

---

(١) عن كتاب: تاريخ اللغة العربية لجرجي زيدان. ص ٤٧.

(٢) ص ٥.

المعربة] بغير لسان العرب في الأصل... ثم لفظت به العرب بألسنتها فعربته فصار عربياً بتعريبها إياه».

وقد تبع الجواليقي الإمام ابن الجوزي وغيره، وصرحوا بأن الكلمات الأعجمية إذا عربت صارت عربية، وجرى عليها من الأحكام ما يجري على الكلمات العربية الأصلية: فتتوارد عليها علامات الإعراب إلا في بعض الأحوال، وتعرف بأل، وتضاف و يضاف إليها، وتثنى، وتجمع، وتذكر وتؤنث، بل قد يشتق منها كما يشتق من الأصول العربية، فقد اشتقوا من «فيلسوف» فلسفة، وتفلسف، ومن «سوفسطائي» سفسط، وسفسطة، ومن «طراز» تطرز تطريزاً، وهو مطرّز، والثوم مطرَّز، ومن «ديوان» دوَّن تديوناً، ومن «دهقان» دهقنوه دهقنةً، وتدهقن، ومن «خاقان» خقنوه على انفسهم، أي ملّكوه، ومن «اسقف» أسقفوه على ابناء طائفته إذا جعلوه اسقفاً عليهم. وأهدي إلى علي رضي الله عنه خبيص في النوروز فقال: نورزوا لنا كل يوم.

وقال الشاعر:

نــورز الــنــاس ونــورز ت، ولــكــن بــدمــوعــي
وذكــت نــارهــو والـنـار ما بين ضلوعي

وذلك أنهم في يوم النوروز كانوا يشعلون النيران، و يرشون المياه أمام بيوتهم ذكر ذلك المقريزي وغيره(١).

٤ ــ طرائقهم في التعريب:

١ ــ ربما تركوا الاسم المعرب على حاله في لغته إذا كانت حروفه من حروفهم، سواء أكان على بناء من ابنية كلامهم أم لم يكن، نحو: خراسان، وخرَّم.

٢ ــ وربما ألحقوا الاسم المعرب بأبنيتهم، نحو: درهم، ودينار.

٣ ــ وربما غيروا الحرف الذي ليس من حروفهم، نحو: فِرِنْد وآجر.

---

(١) عن كتاب الاشتقاق والتعريب. ص ٤٨-٤٩.

وقد أطرد ابدالهم في الألفاظ الفارسية على الشكل الأتي:

١ ــ ابدلوا من صوت الـ (g) الفارسي جيماً عربية لقربها منه، فقالوا: الجربز، مكان gurbuz. وربما ابدلوا القاف لأنها قريبة أيضاً، فقالوا: قربز، بل ربما ابدلوا الكاف ايضاً فقالوا: كُربَقٌ، مكان gurbah.

٢ ــ وابدلوا من الهاء الفارسية المتطرفة جيماً عربية، فقالوا: كوسج، مكان كوسه، وذلك ان هذه الهاء لا تثبت في كلام الفرس إذا وصلوا، بل تبدل وتحذف همزة مرة، و ياء مرة أخرى[1]، ولما كانت الجيم العربية أقرب الأصوات إلى الياء جعلوها مكانها، وربما ابدلوا من هذه الهاء المتطرفة قافاً، وقد قالوا: كوسق، مكان كوسه.

٣ ــ وأبدلوا من صوت الـ (P) الفارسي فاءً مرة وباء مرة اخرى لأنهما قريبتان منها، إذ من المعروف ان لا فرق بين الـ (P) والباء سوى ان الأول مهموس والثاني مجهور، كما ان كلا الـ (P) والفاء حرف شفوي، سوى أن الأول انفجاري، والثاني احتكاكي. ولهذا كله قالوا مكان (Pirind): فرنداً مرة وبرنداً مرة أخرى.

٤ ــ وابدلوا من صوت (O) ضمةً عربية صريحة، فقالوا: زور، وآشوب، مكان Zor و ashob.

هذا ومن عادة العرب أن يفخموا اصوات ما يعربونه من الكلمات، فيجعلون مكان السين صاداً، ومكان الكاف قافاً، ومكان التاء طاءً. هلم جرا: نحو: قسطنطين، وافلاطون، وصراط، وقرطبة، وغيرها.

٥ ــ هل كان التعريب عن مجرد الحاجة؟:

نعم، في أكثر الأحيان. لكن العرب كانوا يصطنعون التعريب في أحيان أخرى ولا حاجة تدعوهم إلى ذلك، لوجود مقابلات عربية تغني عما يعربون. وإنما كانوا يعربون مع ذلك ايثاراً للالطف من الألفاظ أو حباً في التظرف والتأنق.

---

(١) انظر كتاب سيبويه: ج ٢ ص ٣٤٢-٣٤٣.

فمما عربوه وله في العربية مقابل:

البَذَج ــ وعربيته الخروف.

البرَق ــ وعربيته الحَمَل.

الدلفين ــ وعربيته الدُخَس.

البال ــ وعربيته الحوت العظيم.

الانكليس ــ وعربيته جِرِّيث (نوع من السمك يسمى اليوم جري).

البَبْر ــ وعربيته الأسد.

الزندفيل ــ الكلثوم (وهو الفيل العظيم).

الباذنجان ــ وله في العربية عشرة اسماء، هي: المغد، والوغد، والكهكب، والكهكم، والأنَب، والحيصل، والحَدَق، واللُفَّاح، والشرجبان، والأنفحة. وقيل إن الثلاثة الأخيرة لثمر يشبه الباذنجان وليس إياه.

اللوبياء ــ وله في العربية أربعة اسماء: الدَجْر، واللياء، والحُنبل، والأحبل.

الاسفناخ ــ وعربيته الرحا.

التوت ــ وعربيته الفرصاد.

الخوخ ــ وعربيثه الفرسك.

الخيار ــ وعربيته القَثَد.

الزنزلخت ــ وعربيته القيقبان.

الأترج ــ وعربيته المَتْك.

البندق ــ وعربيته الجلوز على وزن سنور.

السرو ــ وعربيته العرعر.

الكزبرة ــ وعربيته التِقْدة.

النرجس ــ وعربيته القَهة، والقَهد، والعبهر.

الآبنوس ــ وعربيته السأسم.

البنج ــ وعربيته الشيكران.

السكباج ــ وعربيته الصعفصة: (لحم يطبخ بخل).

الرصاص ـــ وعربيته الصرفان، والآنك، والأُسرب.
الهاون ـــ وعربيته المنجاز، والمهراس.
السجنجل ـــ وعربيته المرآة، والوذيلة.
الصولجان ـــ وعربيته الطبطابة، والميجار.

٦ ـــ طريقة تحقيق المعرب:

لتمييز الأصل من الدخيل طرائق مختلفة إليك أهمها:

١ ـــ التحقيق التاريخي ـــ وهو انجع الطرق واصحها وأهمها ولكن التاريخ قد لا يسعفنا في أغلب الأحيان. وذلك في الكلمات التي دخلت العربية في أزمنة متقدمة.

٢ ـــ الطريقة الصوتية ـــ فإذا اجتمع في الكلمة اصوات لا تجمع بينها العربية في كلمتها دل ذلك على أنها دخيلة، وذلك كاجتماع الجيم والقاف في نحو: منجنيق، والنون والراء، في نحو: نرجس... الخ[1].

٣ ـــ الميزان الصرفي ـــ إذا كانت الكلمة على غير ابنية العرب دل ذلك على عجمتها، مثل: خراسان وآجرّ.

٤ ـــ الاشتقاق ـــ إذا لم يكن للكلمة أصل اشتقاقي عربي دل ذلك على عجمتها، مثل: تنور. «قال أبو منصور: وهذا يدل على أن اسم التنور في الأصل اعجمي فعرَّبتها العرب فصار عربياً على بناء فعّول والدليل على ذلك ان أصل بنائه (تنر). قال: ولا نعرفه في كلام العرب لأنه مهمل» انتهى تاج.

٥ ـــ دراسة الاجتماع والاقتصاد ـــ إذا تنازعت العربية والاعجميات كلمة واحدة نظر إلى مدلول الكلمة، فإن دلت على شيء يختص به العرب كانت عربية، وإن دلت على شيء يختص به الأعاجم كانت دخيلة: فالقهوة والجمل والغزال والزرافة والكندر (نوع من الصمغ) كلها عربية وإن وجدت في ألسن

---

(١) انظر الصفحات الأولى من كتابي: المعرب للجواليقي، وشفاء الغليل للخفاجي. وراجع باب الأصوات من هذا الكتاب.

أخرى، لأن هذه الكلمات تدل على محصولات أو حيوانات اختص بها العرب واشتهروا بها من دون سائر الأمم. والمسك والفلفل هنديان، لأنهما يدلان على نوعين من المحصولات التي لا توجد إلا في الهند. والكافور ملقي الأصل لأن منشأه من جزيرة ملقا... وهكذا [1].

٦ ــ المقارنة ــ إذا تنازعت العربية وغيرها كلمة ما، ولم تسعفنا الطريقة السابقة في تعيين اصلها، لجأنا إلى مقارنة العربية بأخواتها الساميات، فإن وجدت هذه الكلمة فيها دل ذلك على عربيتها، وإلا فهي دخيلة، مثل كلمة (بلاط) بمعنى قصر الملك، فهذه الكلمة تدعيها اللاتينية، وهي منها لسببين، لأن الرومان يرجعون بأصلها إلى تل كان في رومية باسم Palatium نزل عليه اوغسطس قيصر وأقام فيه فسمي قصره به، ولأن هذه الكلمة لا وجود لها في اخوات العربية من الساميات [2].

٧ ــ حول قياسية التعريب:

ليس في كلام أهل اللغة من القدماء ما يشير صراحة إلى سماعية التعريب، بمعنى انه لا يجوز لغير العرب من المتكلمين بالعربية ان يعربوا الكلمات الأعجمية، كذلك ليس في كلامهم ما ينص صراحة على قياسيته، بمعنى انه يجوز لغير العرب المحتج بلغتهم ان يعرب. لكن الاستاذ عبد القادر المغربي يورد في كتابه «الاشتقاق والتعريب» كلاماً متناقضاً حول هذا الموضوع. فبعد ان يقول في الصفحة (٤٤) انه لم يعثر على رأي للعلماء في التعريب، و يرجح قياسيته بدليل كثرة الكلمات الأعجمية التي نقلت إلى العربية في القرون الإسلامية الأولى واستعملها جمهور الأدباء في منثورهم ومنظومهم بلا نكير، يعود ليقول في الصفحة (٨٣) ما نصه. وهل للمولدين الذين جاؤوا بعد العرب ممن يتكلم بلغتهم ان يعرب؟ أي أن يدخل كلمة أعجمية في كلام العرب فتصبح عربية؟. قالوا: لا. وإنما التعريب خاص بالعرب، وهو حقهم وملك ألسنتهم، والكلمات التي

---

(١) انظر تاريخ اللغة العربية: ص ٨ وما بعدها.

(٢) انظر المرجع نفسه ص ١٠.

يعربونها يجوز لنا نحن المولدين استعمالها كسائر كلمات لغتهم... إلى أن يقول: هذا ملخص ما يقوله كتابنا الأقدمون في هذا البحث، بحث التعريب وفي تحديد موقفه من اللغة الفصحى».

ومع ذلك فالموضوع لا يزال في حاجة إلى مزيد بحث وتحقيق.

٨ ـ القرآن والدخيل:

اختلف القدماء في هذه المسألة اختلافاً كبيراً، فذهب الشافعي وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر الباقلاني وغيرهم إلى انه ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب. فقد روي عن أبي عبيدة انه قال: من زعم ان في القرآن لساناً سوى العربية فقد اعظم على الله القول. واحتج بقول تعالى: إنا جعلناه قرآناً عربياً [١].

وقال الشافعي في كتاب الرسالة[٢]: وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الامساك أولى به وأقرب من السلامة له ان شاء الله. فقال منهم قائل ان في القرآن عربياً وأعجمياً. والقرآن يدل على ان ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب. ووجد قائل هذا القول مَن قَبِل ذلك منه تقليداً له وتركاً للمسألة له عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه. وبالتقليد أغفل من أغفل منهم. والله يغفر لنا ولهم».

لكن ابن عباس وعكرمة ومجاهداً وغيرهم خالفوا في ذلك وقالوا باشتمال القرآن على كلمات اعجمية، مثل: سجيل، والمشكاة، واليم، والطور، واباريق، واستبرق، وغير ذلك.

فأما الجواليقي وأبو عبيد وغيرهما فقد حاولوا التوفيق بين المذهبين. قال الجواليقي في المعرب[٣]: «قال أبو عبيد: وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في أحرف كثيرة انه من غير لسان العرب مثل: سجيل والمشكاة...

---

(١) المعرب للجواليقي ص ٤.

(٢) ص ٤١ وما بعدها.

(٣) ص ٥، وانظر شفاء الغليل ص ٣.

فهؤلاء اعلم بالتأويل من أبي عبيدة ولكنهم ذهبوا إلى مذهب، وذهب هذا إلى غيره، وكلاهما مصيب ان شاء الله تعالى. وذلك ان هذه الحروف [الكلمات] بغير لسان العرب في الأصل، فقال اولئك على الأصل، ثم لفظت به العرب بألسنتها فعربته، فصار عربياً بتعريبها إياه. فهي عربية في هذه الحال، أعجمية الأصل، فهذا القول يصدق الفريقين جميعاً».

٩ ـ مواقف المعاصرين من التعريب:

ان أزمة العربية في المفرادت تزداد تفاقماً يوماً بعد يوم، وذلك بسبب ما تقذفنا به الحضارة الغربية كل يوم من عشرات الأسماء مما يتعلق بالعلوم والفنون والآداب والفلسفة والنظم الاجتماعية والسياسية والآلات والمخترعات والمستحضرات الصناعية والصيدلانية وغيرها وغيرها.

امام هذا الطوفان الهائل من الكلمات كان لا بد لأهل اللغة من اتخاذ موقف معين من مسألة التعريب. وقد اختلفوا في ذلك فكانوا على طوائف:

١ ـ المتطرفون: ويذهب هؤلاء إلى وجوب تعريب الألفاظ الأعجمية كيفما اتفق، ثم استعمالها من دون قيد ولا شرط إلا ذوق الكاتب. وقد عبر عن رأيهم واحتج لمذهبهم الاستاذ يعقوب صروف بما جاء في مجلة المقتطف(١).

س ـ لماذا تستعملون كلمة (مكروسكوب) ولا تستعملون كلمة (مجهر) التي وضعت حديثاً لهذه الآلة؟

ج ـ اننا نستعمل كلمة (مكرسكوب) للسبب الذي لأجله استعمل فلكيو العرب كلمة (اسطرلاب) واستعمل فلاسفة العرب كلمة (ايساغوجي) واستعمل اطباء العرب كلمة (كيموس) ومئات من الكلمات الطبية اليونانية، واستعمل نباتيو العرب مئات من اسماء النباتات اليونانية والفارسية. وكان في امكان هؤلاء جميعاً ترجمة هذه الكلمات الأعجمية، أو وضع كلمات عربية لها بالاشتقاق أو النحت، ولكنهم اقتبسوها كما هي، وحسناً فعلوا، تسهيلاً لنقل العلوم

---

(١) جزء ٤ مجلد ٦٤ في باب الأسئلة والأجوبة تحت عنوان (المكرسكوب والمجهر).

واشتراك العلماء، وجاراهم الجوهري والفيروزآبادي وابن سينا وغيرهم من جامعي متن اللغة ولم يروا معرة على العربية ان تدخلها كلمات اعجمية. ولا نقول انه يستحيل علينا ان نضع لبعض الكلمات العلمية الفاظاً عربية إما بالنحت أو بالاشتقاق كما وضعت كلمة (ماهية) وكما وضعنا كلمة (غواصة)، ولكننا لا نرى من الحكمة ان نحاول ذلك إذا سبقنا غيرنا إلى تعريب الكلمة الأعجمية، أو إذا رأينا الكلمة الأعجمية سهلة اللفظ والاستعمال، مثل كلمة (مكروب)، أو إذا كان للفظ العلمي دلالة معنوية اصطلح عليها علماء الفن ككل المصطلحات الكيماوية والجيولوجية والنباتية والجغرافية، أو إذا كانت خاصة بأصحاب فن كأسماء الأدوية الجديدة، وهي كثيرة تعد بالمئات كالكينا والانسولين والانتيبرين والفيناتستين والحامض الكاربوليك واليود والاستركينين وما أشبه».

٢ ـــ المتعصبون: ويذهب هؤلاء إلى عدم جواز التعريب، وإن علينا ان نسدّ حاجتنا إلى المفردات بطرق أخرى كالاشتقاق والنحت والإبدال وغيرها.

منهم الشيخ احمد الاسكندري الذي يقول بوجوب الاعتقاد بخطئنا حين نستعمل لفظاً أعجمياً لا مرادف من العربية له، ووجوب بحثنا عن مرادف عربي له يقوم مقامه[١].

ومنهم الاستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي ينعى على اصحاب المذهب الجديد في الأدب حشوهم كتاباتهم بالألفاظ الأعجمية المستكرهة. يقول: من الخير لأنصار المذهب الجديد ان يولدوا من جديد، وأن يتعلموا الأدب العربي من جديد، وليأخذوا منه بالحظ الموفور فيسلكوا فيه سبيل القدماء. ذلك خير لهم من ان ينتحلوا مذهبهم الجديد، ولغتهم الجديدة، فيدخلوا في اللغة والأدب ما ليس في حقهم أن يدخلوه، ذلك لأن اللغة موروثة، وهي ملك الملايين من الأعمار، ولطائفة طويلة من العصور، فيجب ان نتملكها كما ورثناها دون ان ندخل فيها شيئاً من عند أنفسنا» [٢].

---

(١) الاشتقاق والتعريب ص ١٤٩.

(٢) من مناقشة لطه حسين ينافس بها الرافعي. نقلاً عن الاشتقاق والتعريب. ص ١٢٩.

ومنهم الاستاذ عزالدين التنوخي الذي يرى ان في العربية من اساليب الاشتقاق والابدال ما يفي بحاجتنا المتجددة إلى المفردات. يقول: وعلى هذا الأسلوب المفيد (اسلوب الابدال) أرى أن نسمي كسارة الجوز Casse-noix (مرضخة)، وكسارة اللوز casse-noisette (مرضحة) بالحاء المهملة، والعكس جائز. وأرى ان سلفنا العربي الصالح عرف كيف يستعمل لغته فخصص (الغبن) بالثوب، و(الخبن) بالعروض، وهما في الأصل بمعنى متشابه. وما كان آباؤنا على عهد الترجمة العباسية بجامدين» [1].

٣ ــ المعتدلون: و يذهب هؤلاء إلى جواز الاستعانة بالتعريب لسد حاجة العربية إلى المفرادت بشرط ألا يفسد هذا المعرب أصلاً من أصول اللغة أو يخرج بها عن طريقها المألوفة. وهؤلاء كثر نذكر منهم طه حسين والشيخ محمد الخضري والشيخ عبدالقادر المغربي وأحمد أمين وماري زيادة وأحمد زكي باشا.

(١) من مقدمة التنوخي في تحقيقه لكتاب (الابدال) لأبي الطيب اللغوي الحلبي. ض ٤٢.

تبدلات الدّلالة

دلالة الكلمة ليست ثابتة في كل الأزمان، بل هي في تغير مستمر لا يتوقف، شأنها في ذلك شأن النظام الصوتي والنظام النحوي. ولكي يستوثق القارىء من ذلك يكفيه ان يتصفح أحد معاجم العربية ليرى الفروق الكبيرة بين ما كان يفهمه العربي الجاهلي من كلمات لسانه وبين ما نفهمه منها الآن. فالقاموس المحيط يقول لنا إن (المجون) هو الصلابة والغلظ، ولكننا نعلم اليوم ان هذه الكلمة لا تعني في اذهان من يستعملونها إلا (التهتك وعدم المبالاة بما تواضع الناس عليه). وهو المعنى الذي أخذته منذ عهد المولدين. وكلنا اليوم لا نفهم من كلمة (انهزم) العدو إلا معنى (فر)، ولكن القاموس يقول إنها لا تعني إلا (انكسر) فقط، لأن (هزم الرجل فلاناً) معناه ضربه فدخل ما بين وركيه وخرجت سرته. بل ان الزمخشري قد وجه كل همه في معجمه (اساس البلاغة) إلى إيراد المعاني الحقيقية للمفردات العربية ثم إيراد ما دخلها من المعاني المجازية. وبالطبع، فإن المعنى الحقيقي للكلمة هو المعنى السابق الذي كان لها في القديم، والمعنى المجازي هو المعنى الذي صارت إليه فيما بعد.

قد يقال. ولكن المجاز لا يعني تبديلاً في دلالة الكلمة، وإنما يعني إكسابها – فوق معناها الحقيقي – معنى آخر عن طريق التشبيه أو غيره من مسالك المجاز.

هذا القول يظل صحيحاً ما بقي المعنى الحقيقي حياً في الأذهان، وما ظل المجاز واضح العلاقة محسوسها، لكن الذي يحدث في أغلب الأحيان هو ان المعنى الحقيقي يتوارى من ساحة الشعور ويترك الميدان للمعنى المجازي وحده، فإذا بالكلمة وقد فرغت من معناها القديم الذي كان لها لتأخذ المعنى الجديد الذي قد يختلف اختلافاً يسيراً أو كبيراً عن سابقه. ولنا في كلمة (منوال) خير مثال على

هذه الظاهرة، فلو سألت تسعة وتسعين بالمئة من ابناء العربية اليوم عن معنى هذه الكلمة لقالوا لك: (المنوال) هو الطريقة أو الأسلوب أو ما في معناهما، ولما خطر ببال أحدهم ان يقول لك ان المنوال هو خشبة الحائك، لأنه في الواقع لا يعرف لها هذا المعنى الذي هو معناها الحقيقي، ولو قلته له لعدك جاهلاً، ولاستشهد لك على صحة رأيه بعبارة (نسج على منواله) التي تساوي في معناها (سار على طريقته)، بل لا تعدم من بين الكتاب من يكتب (سار علىّ منواله)، فكأن هذا الكاتب، وقد فهم كلمة المنوال على أنها الطريقة أو المنهاج، لم يجد كلمة (نسج) مما يأتلف مع المنوال، فأبدل بها كلمة (سار). وما قلناه عن كلمة (منوال) يقال مثله عن كلمة (نمط)، فأكاد أجزم بأن كل متكلمي العربية اليوم لا يفهمون منها إلا (الهيئة والشكل)، أما معناها الحقيقي، وهو (البساط)، فلا يكاد يعرفه إلا المتخصصون بالأمور اللغوية.

وهنا اعتراض آخر. فقد تقول: ولكن تبدل الدلالة لكلمتي المنوال والنمط كان عن خطأ سببه جهلنا بحقائق العربية ومعاني كلماتها، وأقول لك: ان هذا ليس خطأ، بل هو مسلك لغوي طبيعي، يجري في العربية كما يجري في غيرها من الألسن. إنه فقط مجرد نسيان للمعنى الحقيقي للكلمة، وإعطاؤها معنى جديداً لم يكن لها من قبل.

* * *

إن دراسة التطور الدلالي للمفردات جزء من مهمة علم الايتيمولوجيا. وهو فرع من أهم فروع فقه اللغة. وتنحصر مهمته في أخذ الفاظ القاموس كلمة كلمة وتزويد كل واحدة منها بما يشبه ان يكون بطاقة شخصية يذكر فيها من أين جاءت، ومتى، وكيف صيغت، والتقلبات التي مرت بها... من جهة المعنى، أو من جهة الاستعمال (١).

ولا يظنن القارىء من هذا الكلام أننا بسبيل ان نقدم له دراسة ايتمولوجية لالفاظ العربية. ان هذا مخيب للأمل ولا شك. ولكن لا بد منه لسببين: أولهما

---

(١) فندريس: اللغة ص ٢٢٦.

ان مثل هذا العمل ليس في مقدورنا ولا في مقدور العشرات من امثالنا. بل حتى المئات من المتبحرين لا يستطيعون شيئاً في هذا الشأن قبل ان يطبع و ينشر كل ما كتب بالعربية خلال القرون. وكلنا يعلم ان ما طبع من التراث العربي حتى اليوم لا يعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى ما لا يزال مطو ياً في بطون المخطوطات.

وثانيهما اننا في ميدان فقه اللغة العام ــ وهذا الفصل يجري في ميدانه ــ لا يهمنا كثيراً ان نعرف تاريخ بضع كلمات قد أخذت على انفراد. فايتيمولوجية الألفاظ منفردة لا فائدة منها في حد ذاتها، ذلك ان الحالة الخاصة مهما ثبتت علمياً ليست إلا ملهاة يتسلى بها إذا لم يستخرج منها مبدأ عام يستطاع تطبيقه على حالات أخرى(١).

إذن فهمنا هنا ان نبحث عن القوانين العامة التي بمقتضاها تتطور دلالة المفردات. وسبيلنا إلى ذلك ان نجمع أكبر عدد من العمليات المعنوية المتشابهة بقصد ان نستخرج منها القانون الذي يحكمها.

* * *

وإليك أهم ما وصل إليه فقه اللغة في هذا الشأن:

١ ــ الكلمات في الذهن ليست على شيء من الفوضى، بل يميل الذهن إلى أن يرتبها في نوعين من المجموعات: مجموعات يربط بين افراد كل منها معنى عام واحد، مثل مجموعة:
(كتب ــ كاتب ــ مكتوب ــ كتابة ــ مكتب ــ استكتكب ــ مكاتبة...)، ومجموعات يربط بين افراد كل منها صيغة صرفية معينة، مثل مجموعة: (كاتب ــ قاتل ــ عالم ــ ذاهب ــ راجع...) وعلى ذلك يكون لكل كلمة نسبان: نسب يربطها بأسرتها المعنوية، وآخر يربطها بأسرتها الصيغية.

والذي يمسك على الكلمة معناها إنما هو انتسابها إلى أسرة معنوية، فكلما حاول معناها ان ينحرف ردته بقية أفراد الأسرة. فإذا حدث لكلمة ان فقدت

---

(١) نفسه: ص ٢٤٩.

أفراد أسرتها لم يبق شيء يمنع المعنى من ان يضل الطريق. و يكثر ذلك في حالة الكلمات الدخيلة، فهذه الكلمات تدخل اللسان الجديد وحدها في العادة، غير مصحوبة بأفراد أسرتها، وحينئذ تصبح عرضة لتغير معناها في هذا اللسان. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك كلمة (آمين). فنحن نعرف الآن ان هذه الكلمة من السريانية، وإنها تعني هناك (الابد) أو (أبداً) أو (إلى الأ بد)، وهو المعنى الذي لا يزال لها في السريانية حتى اليوم، وإنما حفظ معناها ان لها في ذلك اللسان أسرة معنوية تتألف من (آمن) بمعنى (خلد) و(آمينوتا) بمعنى الأ بدية. أما عندما دخلت العربية وحدها فقد تهيأت لها الفرصة لتنحرف بمعناها في هذا اللسان إلى معنى (استجب) أو (كذلك فليكن)، وهذا المعنى الأخير ذكره لها القاموس المحيط، وهو نفس المعنى الذي انتهت اليه في الفرنسية، فقد جاء في معجم (لاروس): (Amen: mot qui signifie ainsi soit-il) وفي الكنائس السورية التي تجري طقوسها بالعربية اليوم تنتهي الأدعية دائماً بعبارة (إلى الأ بد آمين)، فكأنهم بعد أن ترجموها بمعناها الأصلي أبقوها إلى جانب الترجمة بقصد التبرك.

وما حدث لكلمة (آمين) حدث مثله لكلمة (أسكي). فهذه الكلمة لا تعني في لسانها التركي إلا القدم، لكنها حين دخلت عامية حلب لم تعد تعني إلا المهارة والجودة، فإذا قيل عندنا (صانع اسكي) أو (معلم أسكي) أو «قطن أسكي» فهمنا منها أن المعلم والصانع ماهران، وأن القطن جيد، ولم نفهم منها ان المعلم قديم وأن القطن عتيق ورديء.

رأينا في المثالين السابقين ان فقد الأسرة المعنوية كان سببه وجود الكلمة وحدها في لسان غريب عنها، ولكن هذا ليس شرطاً لازماً، فقد يحدث لكلمة ما ان تفقد افراد أسرتها وهي لا تزال في لسانها. وحينئذ لا تختلف النتيجة عن سابقتها. فحين فقدت «تقاعس» في عربيتنا الحديثة أختيها «أقعس» «واقعنسس» [1]، لم نعد نفهم منها الارتفاع والتسامي، بل معنى التهاون والكسل.

---

(١) الأقعس: الرجل الذي برز صدره، واقعنس: ارتفع، ومثلها تقاعس. قال الراجز: تقاعس العز بنا فاقعنْسسا.

قد يحدث للكلمة ان تنحل أواصر قرباها مع افراد أسرتها بسبب عوارض صوتية أصابتها، وحينئذ تصبح العلاقة بينها وبين شقيقتها غامضة أو مفقودة في ذهن المتكلم أو السامع. والنتيجة لكل ذلك لا تختلف عن نتيجة الكلمة التي فقدت افراد أسرتها. هذه هي حالة الكلمة «سِيٍّ» فبعد ان فقدت هذه الكلمة علاقتها مع اخواتها «السواء ــ ساوى ــ المساواة ــ التساوي...» بسبب الاعلال الذي أصابها[1]، كانت النتيجة انها فقدت معنى التساوي. وأخذت معنى عدم المبالاة. فما أكثر الأشخاص الذين لا يفهمون الآن من عبارة «سيان عندي» إلا معنى «لا أبالي». بل ان بعضهم لا ينتبه إلى التثنية في كلمة «سيان» فيفتح نونها وكأنها نوع من الظروف أو المفعولات المطلقة، أو كأنها اسم فعل مثل: وشكان وسرعان.

٢ ــ وعلى العكس من ذلك تماماً، فقد يتفق لكلمة ان تتشابه أصواتها مع أصوات أسرة معنوية لا علاقة لها بها، ولكن الذهن ــ وقد خدعه هذا التشابه ــ يضم الكلمة إلى هذه الأسرة، ويعطيها معناها. هذا ما حدث بالضبط لكلمة «خلاق» في قول حافظ إبراهيم:

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق

فقد اعطاها الشاعر معنى «الاخلاق» في حين نعلم ان معناها الأصلي هو «النصيب من الخير» كما في قوله تعالى: اولئك لا خلاق لهم في الآخرة.

ومن ذلك أيضاً قول العامة: «زقزقت عصافير بطنه» إذا جاع، متوهمين ان العصافير المذكورة في هذه العبارة هي هذا النوع المعروف من الطير، وإنما هي الامعاء، فلا معنى اذن لاسناد الزقزقة إليها. وقد كانوا يقولون قديماً «صاحت» مكان «زقزقت»[2].

ومثل هذا يقال في كلمة «مازن» التي يعتقد الكثير من الناس أنها من المزن

---

(١) الأصل في (سي) (سوي) بكسر فسكون. فلما اجتمعت الواو والياء والأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء.

(٢) الفاخر: ص ١٣٠.

والمزنة وما يتصل بهما من معاني السحاب الممطر في حين تقول لنا المعاجم إن معناها هو: «بيض النمل» أو «المشرق الوجه».

٣ ــ قلنا قبل قليل إن الكلمات تترتب في الذهن في مجموعات تجمع بين افراد كل منها صيغة صرفية معينة، مثل: «كاتب ــ قارىء ــ ضارب... الخ». والواقع ان هذه المجموعات لا ترتبط فيما بينها بهذا الرابط اللفظي وحده، ذلك ان صيغة (فاعل) تحمل في ذاتها معنى نحوياً هو معنى الفاعلية. وعلى هذا تؤلف الكلمات التي على وزن (فاعل) أسرة صيغية معنوية في الوقت نفسه، إلا أن المعنى هنا هو معنى نحوي فقط. في مثل هذه الحال، إذا انصبت كلمة في قالب (فاعل) اعطاها الذهن معنى الفاعلية ولو لم تكن من اسماء الفاعلين، فمن ثمَّ لا يفهم أغلب الناس من كلمة (نائل) إلا معنى (الآخذ) مع انها لا تعني في المعاجم إلا (العطاء) والشيء (المنول).

* * *

رأينا في الأمثلة السابقة أثر تجمع الكلمات في الذهن في تطور الدلالة، لكن هذا ليس الأثر الوحيد. ذلك ان الكلمات ليست مكنوزات ذهنية، بل هي بضاعة للتداول والاستعمال. وأثر السياق في تطور الدلالة للكلمات وهي في حالة الاستعمال أقوى من أثر الكلمات بعضها في بعض وهي في الذهن في حالة سكونية.

و يتجلى أثر الاستعمال في تطور الدلالة في صورتين: الاستعمال الثابت، والاستعمال المتكرر.

١ ــ الاستعمال الثابت يبدل دلالة الكلمة.

وما نعنيه بالاستعمال الثابت هو ورود الكلمة دائماً في عبارة مخصوصة. وقبل أن نذكر الأمثلة على ذلك نرى من الأجدى أن نبين كيف يتأتى لهذا النوع من الاستعمال ان يغير معنى الكلمة.

من المعروف ان معنى الكلمة لا يتحدد في الذهن بصورة دقيقة إلا بعد سماع هذه الكلمة في عبارات مختلفة، واستعمالات متنوعة. فكل استعمال يلقي شعاعاً

على جانب من جوانب المعنى. وعن طريق المقارنة يتيسر للذهن ان يهتدي إلى المعنى الحقيقي الدقيق للكلمة: فأنا وأنت لم نفهم بالضبط معنى كلمة (الباب) إلا بعد ان سمعناها في عبارات مختلفة مثل: (افتح الباب ــ اغلق الباب ــ صنع النجار باباً ــ ادخلوا البيوت من ابوابها ــ هذا باب خشبي.. الخ الخ) أما لو قدر لنا ألا نسمع كلمة الباب إلا في عبارة واحدة دائماً، ولتكن: (هذا الرجل باب الله)، لسهل علينا ان نخطىء فنفهمها على أنها مساو ية لكلمة (الولي).

وفي كل لسان كلمات محدودة الاستعمال لا تظهر مطلقاً إلا في صحبة بعض الكلمات الأخرى. وفرصة الخطأ في هذه الكلمات أوسع. لان الاستعمال لا يقدم لنا الوسيلة لتحديد قيمتها. وفي هذه الحالة كثيراً ما تبتعد الكلمة عن دلالتها الأصلية بسبب المعنى الزائف الذي يضاف اليها[(١)].

بسبب هذا الاستعمال الثابت إذن صرنا نفهم من كلمة «المنوال» معنى «الطريقة»، لا معنى «خشبة الحائك»، وذلك لأننا لم نجدها إلا في عبارة «نسج على منواله». وبسببه ايضاً صرنا نفهم من كلمة «النمط» معنى «الهيئة»، لا معنى «البساط» لأننا لم نسمعها إلا في عبارة «هؤلاء على نمط واحد». وبسببه كذلك غدا العرب حتى الاوائل منهم يفهمون من كلمة «العقيرة» معنى «صوت المغني أو الباكي»، لا معنى «الرِجْل المقطوعة»، لأنها ثبتت منذ زمن مبكر في عبارة «رفع عقيرته بالصياح أو الغناء».

٢ ــ الاستعمال المتكرر يبدل معنى الكلمة:

وعلى العكس مما سبق، نلاحظ ان الكلمة إذا زاد استعمالها زيادة كبيرة، واعتمدت اللغة عليها في عباراتها المختلفة تعرض معناها للتبدل، لأن الذهن يوجه في كل استعمال في اتجاه مخالف، وذلك يوحي اليه بخلق معان جديدة، ومن هنا ينتج ما يسمى بالتأقلم، أي قدرة بعض الكلمات على اتخاذ دلالات متنوعة تبعاً للاستعمالات المختلفة التي تستعمل فيها، وعلى البقاء في اللغة مع هذه الدلالات[(٢)]. وعندنا في العربية مثال جيد على التأقلم في كلمة «فصل». فهذه

---

(١) فندريس: اللغة ص ٢٥٣.

(٢) انظر المرجع نفسه. ص ٢٥٤.

الكلمة لم يكن يفهم منها إلا «القطع والعزل». ثم استعملها المؤلفون القدماء كاشارة إلى انتقالهم من موضوع إلى موضوع آخر في مؤلفاتهم، وكانت عندهم في تقاليد كتابتهم تساوي تماماً ما نفعله في تقاليد كتابتنا من بدء من أول السطر أو أول الصفحة. ثم استعملت بمعنى الجزء من اجزاء الكتاب. وفي عصرنا الحاضر اطلقناها على الجزء من المسرحية أو الرواية، وعلى الفترة الدراسية التي تستغرق ثلاثة أشهر أو أربعة، وفي مصر يطلقونها على قاعة الدرس. وعامتنا تقول: (هذا فصل من فصولك) أي (هذه خدعة من خدعك). و يقولون (سمع فلان من فلان فصلاً) أي (تعرض لتقريعه وتوبيخه)... الخ.

وما قيل في كلمة (فصل) يقال مثله في كلمات أخرى كثيرة، مثل كلمة (رأس) فهناك الرأس الذي هو جزء من الجسم، ورأس القوم أي كبيرهم، والرأس من الماشية أي الواحد منها، ورأس السنة أي مبدؤها، ورأس العين أي منبعها، ورأس الحكمة أي جماعها.. الخ الخ.

وفي حالة التأقلم ليس من الضروري ان يقضى المعنى الجديد على ما سبقه من المعاني، بل يمكن لكل المعاني ان تبقى حية في اللغة. وتصبح الكلمة التي تأقلمت مع كل العبارات من نوع المشترك اللفظي [1].

* * *

ترجع أكثر التبدلات التي تصيب الدلالة إلى ثلاثة انواع:

١ ــ التخصيص. ٢ ــ التعميم. ٣ ــ الانتقال

فأما التخصيص فهو الانتقال بالكلمة من معنى عام واسع إلى معنى أخص منه وأضيق. وذلك كالتخصيص الذي حدث للكلمات (الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والوضوء، وغيرها). إذ كانت (الصلاة) تعني كل (صلة) بين اثنين، ثم خصصت بالصلة بين العبد وربه في حركات معلومة مخصوصة. وكذا (الصوم) الذي كان يعني الانقطاع عن كل شيء، ثم خصص بالانقطاع عن الطعام والشراب والنكاح في أوقات مخصوصة. ومثل ذلك (الحج)، وكان يعني

---

(١) راجع فصل الاشتراك والترادف من هذا الباب.

القصد عامة وإلى كل مكان، ثم خصص بزيارة مناسك مخصوصة في أوقات مخصوصة. أما (الزكاة) فكانت تعني النماء عامة، ثم اصبحت لا تعني إلا ضريبة معلومة على المال إذا حال عليه الحول. وكان (الوضوء) يعني النظافة العامة، ثم اصبح لا يعني إلا غسل أعضاء مخصوصة.. الخ.

وأما التعميم فهو انتقال بالكلمة من معنى ضيق إلى معنى اوسع منه. وذلك كالتعميم الذي حدث لكلمة (نتج). إذ المعروف ان هذه الكلمة لم تكن تعني إلا إلقاح الرجل لناقته لتلد له فصيلاً، ثم استعملت ــ وفي صيغة (انتج) ــ لكل إحداث لشيء، سواء أكان المحدث من نوع الابل أم كان من غيره.

وأما الانتقال فهو تحول الكلمة من معنى إلى آخر يختلف عنه كل الاختلاف، فلا هو أضيق منه ولا أوسع، وذلك كانتقال كلمة (قلب) من معناها المعروف لها في الفصحى إلى معنى (البطن) في عامية حلب.

تجري عمليات التخصيص والتعميم والانتقال بصورتين: شعورية، وغير شعورية.

فأما الشعورية فتقع من العلماء والمشرعين والمخترعين وغيرهم عند حاجتهم إلى التعبير عن اشياء جديدة في القانون أو العلوم أو الفنون أو الصناعات المختلفة. وهذا النوع من العمليات لا يهتم له فقه اللغة كثيراً، إذ هو تابع لنزوات الافراد، وليس حالة عامة.

وأما غير الشعورية فتقع من الناس جميعاً لدواع نفسية لا سلطان لنزوات الافراد عليها. وهذه هي التي يهتم لها فقه اللغة محاولاً الكشف عن الاسباب التي تؤدي اليها:

١ ــ حالة التخصيص:

في كل لسان كلمات عامة ذات دلالة عامة مثل: عملية، وموسم، ودابة، وغيرها، ولكن الناس لا يستعملون هذه الكلمات بمعانيها العامة ــ إلا إذا استثنينا الفلاسفة منهم ــ بل يفهم منها كل امرىء ما يتعلق به وحده. فالموسم

عند مربي الماشية هو زمن ولادة الاناث منها، والموسم عند بائع المعاطف هو الشتاء، والموسم عند المزارع هو وقت الحصاد. وأما العملية فهي بالنسبة إلى الطبيب قطع عضو من الاعضاء، وهي بالنسبة إلى العسكري معركة من المعارك. وكذا الدابة ايضاً، فهي لا تعني عند الفلاح إلا البغل أو الكديش، ولا تعني عند الجزار إلا الواحدة من الغنم... وهكذا. فمن ثم ينشأ التخصيص غير الشعوري.

٢ ــ حالة التعميم:

وهي اندر من حالة التخصيص، إلا أنها واقعة في كل لسان. وتحدث عندما يخفى على المتكلم الفروق الدقيقة بين النوع والجنس. فيسهل عليه ان يطلق اسم الجنس الخاص على النوع الذي هو أعم منه. هذا هو الذي يحدث عندما يطلق الناس اليوم كلمة (الورد) على نوع الأزهار كلها، ما كان منها ورداً أو فلاً أو قرنفلاً أو غير ذلك.

٣ ــ حالة الانتقال:

وتجري عادة بين الاشياء التي هي من فصيلة معنوية واحدة، كأسماء الألوان، واعضاء الجسم، واسماء الحواس، وغير ذلك. وهذا يفسر اطلاق العامة عندنا كلمة (الذقن) على (اللحية) و(الجبين) على (الجبهة) و(القلب) على (البطن) و(الساق) على (الفخذ) و(الحس) على (الصوت) وغير ذلك.

حثي	طوخاري
|	|
الحثي	**الطوخاري**
عرف فقط عن طريق نصوص مسمارية ذات صفة طقسية أو تاريخية يمكن تحديد تاريخها بالألف الثاني قبل الميلاد، وقد اكتشفت في شرقي أنقرة في آسيا الصغرى.	هو اليوم ميت، وتمثله نصوص سابقة للقرن العاشر الميلادي، وهي في جزء منها أدبية، وقد اكتشفت في التركستان الصينية، وكانت تحتوي على لهجتين الأولى شرقية (آ، أو أغنية) والأخرى غربية (ب، أو كوتشية).

أرمني	ألباني
الأرمني	الألباني
عرف عن طريق نصوص أدبية منذ القرن الخامس الميلادي، وتمثله اليوم طائفتان من اللهجات.	لم يتأكد إلا منذ القرن الخامس عشر، وذلك في شكل مضطرب لكثرة الألفاظ الدخيلة عليه من الإغريقية واللاتينية والتركية والسلافية والإيطالية.

هندي إيراني



(لهجة من طائفة أخرى)

الصدغي

وقد عرف عن طريق نصوص من القرن الأول إلى القرن الثامن الميلادي اكتشفت حديثاً في التركستان.

الإيراني الوسيط

ويمثله لسان شروح الأفستا أو **الفهلوي** الذي عرف منذ القرن الثالث الميلادي ثم لهجات إيرانية يتكلم بها اليوم في فارس، وأفغانستان، والبامير، والقوقاز، إلخ.

الهندي الوسيط

ويمثله **البالي**. وهو لسان الأدب البوذي في الجنوب، ثم الألسن **البراكريتية** التي اشتقت منها الألسن الحديثة للهند، منها **الهندوستاني، والبنغالي، والمراتي، الخ.**

عن: Marouzeau ; La Linguistique

بلطيقي ــ سلافي

السلافي

يشتمل على مجموعة جنوبية (الصربي، والبلغاري الحديثان) والممثل الرئيسي له هو **السلافي القديم،** (إليه ترجم الإنجيل في القرن التاسع) وكان اللسان الديني للكنيسة الشرقية، ومجموعة **الروسي** الكبير الذي هو اللسان المشترك لروسيا الحديثة، ومجموعة غربية أقدم ما يمثلها **التشيكي والبولوني.**

البلطيقي

وقد عرف منذ القرن السادس عشر في عدة أشكال: **البروسي** القديم الذي مات اليوم، **والليتواني، والليتوني،** وهي ألسن لا تزال تحتفظ حتى في عصرنا الحاضر بخصائصها القديمة جداً.

جرماني

الجرماني الغربي

ويمثله منذ حوالي القرن العاشر **الانكلو ـ سكسوني** الذي اشتق منه الإنكليزي الحديث. **الألماني الأعلى القديم**، وهو السلف للألماني بالمعنى المفهوم من الكلمة أي اللسان الأدبي لألمانيا الحديثة.

النثرلاندي القديم أو الألماني الأسفل، الذي هو السلف للفلاماندي الحديث.

الشمالي

أو الجرماني الشمالي، وهو لسان النقوش القديمة المكتوبة بأقدم الأبجديات الجرمانية والاسكندنافية.

ويمثل هذا اللسان بعد القرن الحادي عشر **الإسلندي القديم. ولسان الادا**، **والنروجي القديم**، **والسويدي**، **والدانيمركي**، وهي الألسن التي اشتقت منها **الألسن الاسكندينافية الحديثة.**

الغوطي

والأثر الأساسي له هوَ ترجمة للكتاب المقدس في القرن الرابع. وقد مات منذ زمن بعيد.

إيطالي ــ كَلتي

الكلتي

وتمثله ثلاث مجموعات من اللهجات:

الغالية (١)

وقد ماتت دون أن تخلف تقريباً أي أثر.

البريتونية (٢)

وهي لسان أهل الجزيرة البريطانية الكبرى وقد بقيت في اللسان الغالوي(٣) ولسان البريتون الحديث(٤)

الغائيلية (٥)

والممثل الرئيسي لها هو **الارلندي**، الذي تأكد منذ القرن الثامن.

الإيطالي

ويمثله عدد من اللهجات (الاوسكية، الاومبرية، الخ) وأهم هذه اللهجات اللسان **اللاتيني** الذي ثبت لساناً أدبياً في القرن الثاني قبل الميلاد، وقد وجد مرتبطاً بالإغريقي بكثير من الروابط التاريخية، والثقافية، والأدبية، حتى غدت الدراسة المقارنة لهذين اللسانين على جانب عظيم من الأهمية. ومن **اللاتيني العامي** الذي كان يتكلم به في أرجاء الامبراطورية المختلفة نتجت **الألسن الرومانية:**

الإيطالي، الفرنسي، الإسباني، البرتغالي، الروماني، الخ (٦)

١ ــ Le gaulois
٢ ــ Le brittonique
٣ ــ Le gallois
٤ ــ Le breton
٥ ــ Le gaélique
٦ ــ وهو لسان رومانيا Le roumain

إغريقي

الإغريقي القديم

وهو اللسان الذي كتبت به أشعار هوميروس، ويمثله في العصر الكلاسي اربع مجموعات من اللهجات: الأيونية ــ الأتيكية، والأيولية، والأركادية ــ القبرصية، والإغريقية الغربية (ولاسيما، الدورية).

الإغريقي الوسيط

وهو اللسان المشترك للعالم البيزنطي حتى القرن السادس عشر، ومنه اشتقت اللهجات المختلفة **للإغريقي الحديث**.

فهرس الموضوعات